مناهج الجدل

في

القرآن الكريم

تأليف

الدكتور زاهر عواض الألمعي

الطبعة الأولى : ١٣٩٩ هـ
الطبعة الثانية : ١٤٠٠ هـ
الطبعة الثالثة : ١٤٠٤ هـ





مناهج الجدل

في القرآن الكريم

تأليف

الدكتور زاهر عواض الألمعي



مقدمة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه الغر الميامين وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد، فلعل أهم ماواجهني من صعوبات في وضع بحثي ــ لمرحلة الدكتوراه ــ هو اختياره حيث ترددت على خاطري موضوعات متفرقة وانداحت بي النظرات في رحاب القرآن، فلاحت لي قبسات مشرقة بآيات الهداية وأجل مبادئ الحق والأخلاق والقيم، واستعرضت عناوين بعض الموضوعات فخيل إليّ أنها موضوعات قد اشبعتْ بحثاً وتفصيلاً بما لايدع لي مجالاً لجمعها وترتيبها، ثم نظرت في حجج القرآن وبراهينه فإذا هي مجال واسع يسمح للعقل البشري بالتفكير والتأمل، وقد نزل القرآن بشريعة خالدة ودين عالمي سام بشمول نظرته وقوة أدلته وشرف غاياته، فلا بد إذاً من أن يقنع العقل البشري ويسلك معه مسالك التوجيه والإرشاد ويقيم على كل دعوى مايناسبها من أدلة قاطعة وبراهين ساطعة.

وتركز في ذهني ذلك الصراع الفكري والمعترك العقدي بين القرآن وخصومه إذ أنهم وقفوا منه مواقف متباينة فحاولوا معارضته بالنقض والإبطال، ووجهوا لدعاواهم مالا يقبله العقل القويم والمنطق السليم ولا يتفق مع الإيمان المستقر في الفطر الإنسانية، وكان القرآن يتصدى لكل شبهة أثارها المرتابون وكل معارضة أقامها المعاندون، فيكشف النقاب عن أسرار تلك الشبهات والمعارضات، وكان له في نقاش خصومه ومجادلاتهم طريقة فذّة وأسلوب رصين مقنع ومناهج متنوعة ولكنها ساطعة بأروع حجة وأحكم برهان.

ولقد اخترت (مناهج الجدل في القرآن الكريم) موضوعاً لرسالتي، وكان اختياري لها نابعاً من خلجات نفسي لما تلوح به ومضات المنطق القرآني من أنوار هداية

جديرة بأن تحقق للإنسانية طمأنينتها وسعادتها إذا هي فتحت له صدرها ونظرت إليه بعين البصيرة الواعية المتأملة لما يتضمنه من قيم و يدعو إليه من مبادىء و ينادي به من مُثل.

وهناك بواعث أخرى لاختياري (مناهج الجدل في القرآن الكريم) موضوعاً لرسالتي ألخصها فيما يلي:

١ ـ تفرق نصوص الجدل وعدم وجود مؤلف شامل يضم أشتات موضوعاتها وآياتها بحيث يسهل على الباحث الوصول إلى مناهج القرآن، وإقناع المترددين وإفحام المعاندين.

٢ ـ عندما جاء كتاب الله معجزة خالدة لنبي الإسلام صلىٰ الله عليه وسلم وقف الناس منه مواقف متباينة وهب الصراع الفكري في مختلف الاتجاهات بقصد الإساءة إلى الدين والنيل من قداسة هذا القرآن الكريم، فكان لزاماً علينا أن نعرف المنهج القرآني الذي سلكه في معالجته للاتجاهات البشر ية وسياسته للأمة مع قيام الحجة ووضوح المحجة لنتخذ منه منهجاً في رسم السلوك فيما يشجر بيننا و بين غيرنا في جميع الاتجاهات سواء في ذلك الأفراد والجماعات، لاسيما أن العقل البشري يتطلع دائماً إلى قوة الإقناع عن طر يق الحجة والبرهان والعلم.

٣ ـ التباس الأمر على كثير من الناس في مقاصد الجدل القرآني فإن الجدل الذي يكون بين الناس يكون تارة ممدوحاً ومأموراً به شرعاً كقوله تعالى: ﴿ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[1] ، وتارة يكون مذموماً بل منهياً عنه شرعاً كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾[2] وقوله: ﴿ وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾[3].

---

(١) سورة النحل : آية ١٢٥.
(٢) سورة النساء : آية ١٠٧.
(٣) سورة غافر : آية ٥.

فلا بد إذاً من تفصيل المقام وتقسيم الجدل بحسب المقاصد القرآنية، وضم الأشباه والنظائر من الآيات تحت كل نوع من أنواع الجدل على ما سيأتي بيانه في بحوث الرسالة إن شاء الله.

٤ ــ بيان المنهج القرآني في الاستدلال والمحاجة، فإنَّ خصوم القرآن قد ظهروا بأعنف مظاهر اللدد والعناد وكان القرآن يسلك معهم مسالك متباينة بحسب ما تقتضيه الحكمة الإلٰهية في موارد التنزيل.

فالمتتبّع لآيات القرآن الكريم يجد أن الجدل القرآني يتجه تارة إلى إرشاد المجادل والأخذ بيده إلى التفكير في ملكوت السموات والأرض والتأمل في خلق اللّه وبدائع صنعه كقوله تعالى: (أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ)[١].

وتارة يتجه إلى إلزام المعاند وإفحامه كما ترى في قوله تعالى رداً على المشركين زعمهم بأن الرسول يجب أن يكون ملكاً (وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ)[٢] ، وقد نصب القرآن لهم الأدلة على أن الرسول ينبغي أن يكون من جنس المرسل إليهم،قال تعالى: (قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا)[٣] .

وهذه ظاهرة تقتضيها ضرورة البلاغ لرسالات الله بأن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم يعرفون قدره ومكانته وصدقه وأمانته ووسيلة البلاغ التي هي اللغة والمعاملة كما صرح القرآن بهذا المنهج الإلهي في تبليغ رسالات الله في قوله تعالى: (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ)[٤] .

---

(١) سورة ق : آية ٦، ٧.
(٢) سورة الانعام : آية ٨، ٩.
(٣) سورة الإسراء : آية ٩٥.
(٤) سورة إبراهيم : آية ٤.

ويأتي القرآن بالجدل الذي يلزم الخصم ويفحمه من أقرب الطرق وأشدها إلزاماً، وقد يسلك مع الخصم مسلك المجاراة والإمهال والتدرج ليستدرجه إلى التسليم أو الإلزام بطريق المنطق الصحيح وبذلك تسكن النفس في الخصم وتلين عريكته ويستقبل الحجة والبرهان في جو من الهدوء والارتياح وهذا المنهج يتضح من تعليم الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول للكفار المجادلين (وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)[1] مع اعتقاد الرسول صلى الله عليه وسلم أنه على الحق والهدى وان الكفار على الضلال المبين وإنما كان التعميم والتنويع في الحكم لاستمالتهم لسماع الحق وقبوله، ومن ذلك مناظرة إبراهيم عليه السلام لقومه في الكواكب.

والمظهر العام للجدل القرآني معاملة الخصوم بما يتناسب مع أحوالهم العلمية والاعتقادية فكثيراً ما يكون جدل القرآن مع المشركين جدل هداية ودلالة وقد يشتمل على تخطئة بعض مزاعمهم بينما يكون جدله مع أهل الكتاب جدل تخطئه وإلزام لأنهم على علم. أما جدل القرآن مع المنافقين فتبدو عليه سمات الشدة والقسوة مصحوبة بالتهديد والوعيد.

٥ ــ أثار بعض المستشرقين شبهات سوفسطائية حول القرآن بأنه يحيد عن الجدل العقلي والنقاش الفكري كلجوئه إلى المباهلة في قوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم في شأن عيسى وتأليه النصارى له (فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ)[2] ، فلابد من إظهار هذه الشبهة وإبراز مطوياتها ودفين محتوياتها للأمة ليعلم عن حقيقة واقتناع فسادها وليتبين أن القرآن قد جادلهم وناظرهم قبل المباهلة فلما أصبحوا في حالة من العناد والمكابرة لا يجدي

---

(١) سورة سبأ : الآية ٢٤.

(٢) سورة آل عمران : الآية ٦١.

معهم فيها نقاش أو جدال لجأ إلى أسلوب آخر هو أسلوب التخويف من غضب الله تعالى وانتقامه من الضالين المكذبين، ونفهم من الآية نفسها دليلاً على تقدم الجدال والمحاجة معهم وهو قوله تعالى: (مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ)[1] وقد ناظرهم القرآن قبل ذلك بقوله تعالى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ)[2] ، فقد أقام الحجة على بطلان دعواهم بأمر يشتمل على شبهتهم وزيادة فإن آدم وجد من غير أم ولا أب ولم يقولوا بألوهيته.

وشبهتهم في عيسى أنه وجد من أم بلا أب قد نقضها القرآن الكريم بقوله (مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ)[3] ، فهل من يأكل الطعام ويفتقر إليه ويتركب جسمه ثم يتحلل يكون إلهاً؟ وهكذا يظهر لنا أن المباهلة كانت في آخر أيام الدعوة، إذ إن الآيات مدنية في سورة آل عمران فكأن القرآن قال لهم بعد الجدل والمحاجة لقد أصبحتم في حالة من العناد والمكابرة لايجدي معكم فيها نقاش أو جدال ولكن لعنة أبدية تنصب علي الكاذب من الفريقين وهذا هو الوضع العملي السليم الذي يجري على ما أَلِفَهُ الناس إلى اليوم[4].

من هنا نعلم أن أسلوب القرآن في الجدال والمحاجة أفضل الأساليب وأنجعها لأنه يستخدم الأسلوب المناسب لكل مقام وهذه هي المحاجّة المحكمة، وكلما كانت المحاجة أشد إحكاماً كانت آثارها أجدى وأنجع وأشد تأثيراً، وإذا نظرنا على ضوء هذا إلى نتائج المباهلة رأينا كيف أفزعتهم وألجمتهم، وجعلتهم ــ بالنكول عن المباهلة ــ يقرون بالهزيمة السافرة أمام منطق الحق والبرهان، وسيأتي مزيد من الإيضاح في موضع آخر من هذا البحث إن شاء الله.

---

(١) سورة آل عمران : آية ٦١.
(٢) سورة آل عمران : آية ٥٩.
(٣) سورة المائدة : آية ٧٥.
(٤) انظر دراسات في علوم القرآن للدكتور عبد الغني الراجحي.

القرآن معجزة خالدة:

عندما خلق الله هذا الكون الواسع الفسيح وسخره لهذا الإنسان لما أودع الله فيه من قوة التفكير وخصائص الارتقاء، ماكان الله ليذر الإنسانية في متاهات هذا الكون الواسع دون قبس من نور السماء بين فترة وأخرى يقودها إلى معالم الرشد والهداية، إلا أن ما ركب في طبيعة الإنسان من العناد واللّجاجة الفطرية يحول دون انصياعه لقرينه من بني الإنسان حتى يأتيه بما لا يستطيع أن يفعل مثله وعندئذٍ يعترف بأن هناك قدرة عليا خارقة فوق قدرته، فكان الله تعالى يؤيد رسله بالمعجزات وخوارق العادات لتقوم حجته على من أرسل إليهم رسله، والعقل البشري لايرى شيئاً يأخذ بزمامه ويقوده أقوى من المعجزات الكونية الحسية المادية التي يكون مبناها الدهشة والاستغراب حيث لايرق عقله إلى المستوى الأعلى من السموّ في المعرفة والتفكير فناسب هذا أن يبعث كل رسول إلى قومه خاصة وأن تكون معجزته من جنس ما اشتهر ونبغ فيه قومه خارقة لما ألفوه ليتحقق بعجزهم إيمانهم بأنها من قوى السماء. ويظهر ذلك واضحاً جلياً في معجزات موسى وعيسى عليهما السلام، كماظهر في قوم اشتهروا بالسحر وبلغ عندهم الغاية القصوى فكانت معجزته قاهرة مسيطرة على ما جاءوا به منه كما حكى الله تعالى ذلك في قوله: (قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ)(١) .

وبلغ الطب في قوم عيسى عليه السلام مبلغه فكانت معجزته إنه يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص كل ذلك بإذن الله كما قال تعالى في معرض الامتنان عليه بما آتاه من العلم والحكمة وما أيده به من معجزة (وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى

(١) سورة طة : آية ٦٥ إلى ٦٩.

فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي)[1] . وهذه المعجزات مادية تزول بزوال وقتها وتنقضي بانقضاء هدفها، فإذا كانت معجزات الأنبياء السابقين قبل الإسلام خوارق وعجائب وغرائب مادية تزول بزوال وقتها وتنقضي بانقضاء غرضها، فإن معجزة الإسلام لا تزال قائمة خالدة بخلود الزمن، وهي متمثلة في هذا القرآن العظيم الذي يحاجّ العقل البشري في أرقى ما وصل إليه من العلم، ويفتح له مجال التفكير والمناقشة، إن الله تعالى عندما أراد اكتمال الرسالة العالمية الختامية الخالدة — وهي رسالة الإسلام — جعل معجزتها عقلية تحاج العقل البشري وتتحداه إلى الأبد وهي معجزة القرآن بعلومه ومعارفه وأخباره الماضية والمستقبلة، إنها معجزة خالدة بكل ما يتحمله هذا اللفظ، وهذا المعنى هو الذي أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله :(ما من الأنبياء نبي إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة) رواه البخاري[2] وقد بعث صلى الله عليه وسلم في قوم بلغ البيان العربي فيهم أوج عزته وتفننت ضروب الفصاحة والبلاغة بأرقى أسلوب وأوضح بيان عرفته الدنيا، ولقد انصبت جداول الفصاحة والبلاغة والبيان في قريش في مكة المكرمة مهبط الوحي ومحط الرسالة فجاءت معجزة نبي الإسلام الكبرى وكانت كلاماً معجزاً وأفكاراً حية نابضة خالدة خلود الزمن، مبادئ عقدية، وحجج منطقية وبراهين عقلية وحسية، وجدال فكري، مع مناقشة المبطلين والرد عليهم وإقامة الحجج والبراهين على أن ما يدعو إليه صدق وحق، يجيئ ذلك كله في أسلوب أعجز الجن والإنس على أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، تلك خصوصية لرسول الإسلام صلى الله عليه وسلم إذ كان كتاب منهجه هو عين معجزته، وجميع الرسل كان كتاب منهج كل منهم غير معجزته، وسيظل القرآن الكريم خالداً خلود الزمن منهج رشد ومنار هداية، وإلى هذا يشير أمير الشعراء أحمد شوقي(١٨٦٨ — ١٩٣٢م) بقوله :

---

(١) سورة المائدة : آية ١١٠.

(٢) صحيح البخاري «فضائل القرآن» ج ٦ص ٢٢٤.

جاء النبيون بالآيات فانصرمت — وجئتهم بكتاب غير منصرم
آياته كلما طال المدى جدد — يزينهن جلال العتق والقدم (١)

ولقد جاء كتاب الله في عصر أطل على العلوم والمعارف ولم يضق ذرعاً بهذه العلوم والمعارف عندما وجدت، هذا إذا لم نحكم بأنه منبع تلك العلوم، فإن كل لفتة من لفتاته تكشف سراً من جوانب إعجازه على مر العصور، وإنه ليتيح للجنس البشري فرص الاكتشاف والتأمل في خلق الله والتدرج في جوانب هذا الكون الفسيح (قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ)(٢) ، والقرآن الكريم هو كتاب هداية ومنهج حياة وليس لنا أن نخضعه لكل نظرية جدت بها الاكتشافات وتضافرت بها العلوم ولا أن نتكلف البحث فيه عن العلوم التجريبية من طب وهندسة وكيمياء وغيرها من المخترعات الحديثة وإن كان لا يخلو من لفتات علمية لهذه العلوم والمعارف، ولكن النظريات والآراء قابلة للنقض والإبطال وكثيراً ما أخفقت بعض النظريات في فلسفة الكون والوجود، فلو ربطنا كل نظرية تجد بما يبدو لنا من لفتاته العلمية ثم أخفقت تلك النظرية وحلت محلها نظرية أخرى مناقضة لها لكان كتاب الله عرضة للنقض والإبطال والتقول على الله بلا علم، أما عندما تصبح هذه النظريات حقائق علمية ثابتة فإننا لعلى يقين بأن القرآن لايصادم الحقائق العلمية لأنه من عند الله والله عالم بما كان وما سيكون في هذا الكون من عجائب وعبر، فلا يمكن أن يتناقض كتاب الله مع الحقائق (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا)(٣) .

وإذا أردنا أن نبين علاقة الإعجاز بالجدل القرآني فإن الإعجاز فيه معنى التحدي والإلزام والإفحام، وهذه الأشياء تعتبر من المسالك الجدلية، أما وقد ثبت إعجاز القرآن الكريم فإن إحكام جداله وإتقان براهينه وحججه صورة من صور إعجازه ومن هنا كانت علاقة الإعجاز بالجدل القرآني.

---

(١) الشوقيات ج ١ ص ١٩٧، مطبعة الاستقامة بالقاهرة.

(٢) سورة يونس : آية ١٠١.

(٣) سورة النساء : آية ٨٢.

لقد جمعت في هذه الرسالة حصيلة علمية استنفذت مني جهد ثلاث سنوات كلها في البحث والتحصيل، ويمكن أن تكون هذه الحصيلة العلمية طريقاً ممهداً أمام الباحث عن جدل القرآن الكريم مستقبلاً تنير له السبيل وتكشف له جوانب متعددة عن أبعاد الجدل القرآني، أما الإحاطة التامة فأمر متعذر لأن موضوعات الجدل في القرآن الكريم واسعة جداً فهي كالبحر تسبح فيه ماشئت ولكن لا يمكن أن تستغرقه بسباحتك.

ولقد رجعت إلى مصادر التفسير وعلوم القرآن باحثاً في جميع ماله علاقة بجدل القرآن ونسبته إلى مصادره المنقول عنها، ورغم هذا التنقيب لم أجد إلا شذرات متفرقة هنا وهناك، وقد كنت أتصور أن الكتب المؤلفة في علوم القرآن احتوت على مجموعة كبيرة من جدل القرآن وأنه لقي من الخدمة والعناية ما يسهل للباحث طريق الوصول إلى هدفه و يفتح أمامه المجالات العلمية الواسعة، بيد أن الأمر كان بعكس ذلك، فقد اطلعت على معظم ما في المكتبات العربية وتصفحت فهارس أشهر المكتبات العالمية فلم أعثر على مؤلف خاص بمناهج الجدل في القرآن الكريم سوى المخطوطة التي أدرجتها ضمن مراجع هذا البحث وهي لعبد الرحمن بن نجم المعروف بابن الحنبلي بعنوان: (استخراج الجدال من القرآن الكريم).

وقد جاء في النشرة الدورية لدار الكتب المصرية القسم العربي مطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٩٢٨م السنة الأولى ١٩٢٨م في العدد الأول أن هذا الكتاب (أعني استخراج الجدال من القرآن الكريم) لابن رجب الحنبلي.

وقد رجعت إلى التنقيب عن آثار ابن رجب الحنبلي وحياته العلمية فلم أجد هذا الكتاب ضمن مؤلفاته، ولما سألت بعض الإخوة كيف وقع هذا الخطأ في نسبة هذا الكتاب إلى ابن رجب بينما هو لعبد الرحمن بن نجم المعروف بابن الحنبلي، أجاب بأنه من المحتمل أن تكون الشخصية واحدة هي شخصية ابن رجب الحنبلي لأن ابن رجب اسمه عبدالرحمن وربما كان الاختلاف في الألقاب أو حدث من بعض من ترجم له، فرأيت أن الأمر يحتاج إلى تحقيق واستجلاء أكثر وقد رجعت إلى كثير من كتب التراجم والأعلام، وقارنت بين الشخصيتين في أمور متعددة منها الأسماء والمؤلفات

وتاريخ الميلاد والوفاة لكل منها فوجدتها شخصيتين مستقلتين لكل منها آثاره العلمية وخصائصه الشخصية[(١)] .

ولم أكتف بما وجدته مدوناً في مصادر التفسير من الموضوعات المتفرقة بل جعلت لنفسي منهجاً موضوعياً في رسالتي حاولت فيه دراسة أبعاد الجدل القرآني وعلاقاته بما نواجه اليوم من تحديات ومشكلات تشبه المشكلات التي كانت في عصر التنزيل التي تحدث عنها القرآن الكريم.

ولعل من أسباب قلة التأليف في جدل القرآن وعدم التركيز عليه كغيره من العلوم القرآنية بشكل يريح الباحث يرجع في نظري إلي عدة عوامل :

١ ــ أن مادة الجدال لم تكن بالمادة التي يقصد إليها القرآن قصداً أولياً في هداياته وتوجيهاته فهو لا يستهل دعوته بالجدال والمناظرة ولكن يقيم الحجج والبراهين ويسوق المعلومات والمبادىء بأسلوب الوعظ والإرشاد والوعد والوعيد تربية للنفوس وتهذيباً للأخلاق وهداية للمجتمعات الإنسانية بالموعظة الحسنة لأنها تدخل إلى الإنسان من وجدانياته فتؤثر فيه وهذا أنسبها للدعوة العامة، وكثيراً ما أثار الجدال والنقاش الحاد باصطلاحاته المنطقية العناد واللجاجة بين المتناظرين فيضيع الحق. والقرآن لا يأتي بالجدل إلا عند معارضة خصومه له وتوارد الشبه فيلجم القرآن خصومتهم بالجدل المحكم والاستدلال الملزم بأسلوب رائع مفحم وهذا هو المنهج العام لأدلة القرآن وما ورد بخلاف هذا من الأدلة فهو لحكمة تقتضيها أسرار التنزيل القرآني، وقد اقتصر علماء السلف على ماتدعوا إليه الحاجة مع فهمهم للنصوص وأبعاد المخاطبات القرآنية.

٢ ــ أن سلف الأمة كانوا يفهمون منهج القرآن في مجادلاته طبعاً وبياناً ويلمحون إليها في أحاديثهم عرضاً لا غرضاً. وقد يمتنع البعض منهم عن الخوض في الجدل

---

(١) انظر هدية العارفين المجلد الأول ص ٥٢٧ ابن رجب الحنبلي : ٧٠٦ ــ ٧٩٥هـ، وانظر الأعلام : ١١٦:٤ ومرآة الزمان : ٧٠٠:٨ وشذرات الذهب ٥ : ١٦٤ وذيل الروضة ١٦٤ والقلائد الجوهرية ١٥٨ وذيل طبقات الحنابلة ٢/٢٩٧ لابن رجب، والبداية ١٤٦/١٣ لابن كثير، عبد الرحمن بن نجم المعروف بابن الحنبلي ٥٥٤ ــ ٦٣٤هـ.

من باب سد الذرائع، لئلا يقع الناس في محظور النزاع والجدال، ولكي لا يفتح لهم باب المراء والجدل إذ لو دخل هذا الباب كل داخل بغير حدود أو قيود لتاه في غياهب اللجاجة والخصومات واستعمل الجدل في غير موضعه وربما نحا به منحى الغرور والمراء، لهذا زهد كثير منهم في تقرير قواعد الجدال وسرد مواقفه وأهدافه لأن الجدل إذا استطار بين الخصمين كان فيه ضياع للحق إذا لم يُلتزم فيه جانب الحكمة وحسن المناظرة، بل كانوا ينهون عن علم الكلام والمنطق لظهور بعض الآراء الفلسفية المعقدة واتساع دائرة الخلاف نتيجة الاعتماد على كل الأشكال والأقيسة المنطقية وليست سليمة من كل وجه، فلعل هذا من عوامل عدم التركيز على هذا الموضوع بمثل ماركز على غيره من علوم القرآن، إضافة إلى تحرجهم وورعهم أمام النصوص التي تذم الجدل كقوله صلىٰ الله عليه وسلم (ما ضل قوم بعد هدي كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ثم قرأ (ماضربُوه لكَ إلاّ جدلاً بل هم قوم خصمون)[1] ، وإن كان الأمر ظاهراً بأن هذا يختص بالجدل المذموم الذي هو الجدل بالباطل.

٣ ــ أن المذاهب الكلامية والآراء الفلسفيه نشأ معظمها متأخراً عن عصر الصحابة والتابعين وانتحل هذه المذاهب والآراء كثير ممن لا يوثق بعلمهم فكانت ردود الفعل عند كثير من أهل السنة حازمة وجريئة إذ تصدوا لتلك المذاهب والآراء بالنقض والإبطال لما لمسوا فيها من فضول القول ومجانفة الصواب، على أن المناظرة لنصرة الحق والمجادلة بالتي هي أحسن وجدت في عهد النبي صلىٰ الله عليه وسلم منهجاً لتقرير الدعوة وتثبيت العقيدة، وسيأتي بيان هذا إن شاء الله تعالى عند تقسيم الجدال إلى جدال بالحق وجدال بالباطل، تلك بعض العوامل التي حدّتْ في نظري من التأليف في جدل القرآن بشكل متكامل، ولقد كان للسلف حق السبق والفضل في وضع الأسس وتبيان المعالم، وما نقوم به اليوم من جهد في هذا البحث فإنما هو تجميع لآرائهم واقتفاء لآثارهم، وقد تجسدّ

---

(١) رواه الترمذي وقال حسن صحيح. انظر سنن الترمذي جـ ٥ص ٥٥/٥٦، ورواه ابن ماجه في سننه جـ ١ ص١٩. والآية الكريمة من سورة الزخرف : ٥٨.

في بحث منهجي قويم فليس لنا إلا ضم الأشباه والنظائر، وتنظيم المناهج الاستدلالية في وحدة موضوعية متناسقة ومناقشة بعض القضايا المتعلقة بالموضوع في ضوء الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة.

نعم، لم يؤلف ـ كما أسلفت ـ في جدل القرآن كتاب مستقل تتناوله الأيدي يشتمل على الموضوعات التي جمعتها في هذه الرسالة، ولا أدعي الكمال في عملي هذا ولا أستنقص به من سبق من علماء الإسلام، فلهم السبق في كل فن من فنون العلوم والآداب، ولكني جمعت موضوعات جدل القرآن ماكان منها متفرقا في سوره وآياته في بحث منهجي ودراسة موضوعية، على أن ما جمعته في هذه الرسالة إنما هو غيض من فيض وقطرة من بحر فلا يزال كتاب الله مملوءاً بالموضوعات الجدلية ولعل ماصنعته هنا يكون بداية لي في دراسة أوسع لكتاب الله تعالى والاطلاع على المزيد من أسراره وتعاليمه وآدابه.

ومن خلال المنهج العام للجدل القرآني الذي أعرضه في هذه الرسالة نرى معالم الحق والعدل واضحة جلية، فهو يستخدم البراهين والحجج في معالجة الأمور الاعتقادية ويصور المواقف الحية المثالية في جانب الحق، وما أحوج الإنسانية في حل مشكلاتها الدولية ونزعاتها المختلفة التي تكدست فيما يسمى «بمجلس الأمن» ومرت عليها السنون دون وقفة صامدة في جانب الحق، ما أحوج هذه الإنسانية إلى قبس من نور السماء إلى ومضة من منطلق القرآن منطق العدل والحجة والبيان، آية واحدة في كتاب الله تعالى تحل مشكلة النزاعات الدولية إذا هي حكمتها فيما ينشأ من مشكلات، إذ هي دستور للعدل والحق في أسمى صورة عرفتها الإنسانية (وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ) (١).

هذا هو مبدأ العدل الذي يجب أن تحتكم إليه شعوب العالم إذا هي أرادت لنفسها خلاصاً من قيود الطغيان وكوابيس الوثنية الملحدة.

(١) سورة الحجرات : آية ٩.

وسنرى إن شاءالله في جدل القرآن الكريم نماذج حية لصمود الحق أمام الباطل في الصراع الطويل الذي استمر ثلاثة وعشرين عاماً خلال نزول القرآن.

فالقرآن يصارع الباطل بالحجة والبرهان حتى يدمغه بالحجة فإذا هو زاهق، فتنجلي النتائج بنصرة الحق على الباطل واستعلائه عليه قال تعالى: (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ)[1] ، والتعبير القرآني في مثل هذه الآية مؤذن بالحرب وضرورة وقوف الحق أمام الباطل، وقد تجسدت فيه معاني القوة والصلابة لقمع الباطل وإذلاله لأن المعركة كما يصورها القرآن ذات حمم تنصب انصباب القذائف على أهدافها، وفيها معنى التمكن والاستعلاء على الباطل وأهله كما تدل عليه لفظة (على) و (يدمغه) لأن الضربة تسقط على الدماغ إذا انقضت عليها من آفاق الحق فتنتهي المعركة في تلك الجولة بهزيمة الباطل وإزهاقه.

والقرآن الكريم يصور لنا هذا المعترك الفكري بين قوة الحق والباطل فهما قوتان لاتلتئمان، والجدل القرآني متجسد في قوة هائلة وطاقة مهيمنة تماماً على ساحة الجدال، وهو خضم يذوب في لججه وأغواره عنفوان الباطل وتتحطم على قداسته بواعث المكابرة والعناد.

إننا نواجه اليوم غزواً فكرياً مركزاً يتمثل في المادية الجدلية، وفي الحقيقة ليست المادية الجدلية الحديثة والمنطقية الوضعية إلا امتداداً لتلك الماديات القديمة التي لاكتها ألسنة ملاحدة اليونان مثل «أرسطو ديموس» الذي كان ينكر الإله وسنرى كيف جادله «سقراط» حتى أفحمه بمنطق الحجة العقلية على وجود الله تعالى، ومثل «ديموقريطس» الذي كان مذهبه مادياً صرفاً إذ لايقول بغير المحسوسات، وغيرهما من الماديين الملحدين، فالمذاهب المادية الحديثة التي تحارب الأديان السماوية هي امتداد لتلك الحركات الإلحادية القديمة، إنها فكرة الماديين المحدثين كما كانت فكرة الماديين القدماء، ولم يغير من جوهرها تحطيم الذرة أو تفتيتها اللهم إلا في كيفية التعبير عنها،

---

(١) سورة الأنبياء : آية ١٨.

صحيح أن أساليب الحركات المادية الحديثة التي أصبحت تغزو شعوب العالم حركات منظمة تدفعها الشيوعية الحمراء في خط منتظم، وتوجهها الحركات الإلحادية والصهيونية العالمية فتقتنص بها الشعوب التي فقدت الحصانة النفسية، ولم تخالط بشاشة الإيمان قلوبها، الأمر الذي جعلها أرضاً موبوءة تعيش فيها الجراثيم، وتنتعش فيها الحشرات المسمومة فتقضي على أغلى ما تملكه النفوس المؤمنة من عقيدة الإيمان والمثل العليا للأخلاق والقيم.

إن جهل المسلمين بكتاب الله وسنة رسوله صلىٰ الله عليه وسلم يجعلهم غير قادرين على كشف أسرار المذاهب المادية الحديثة، وما يروجه أعداء الإسلام من المستشرقين وغيرهم فإن بعضهم يتهمون الإسلام بأنه دين تلقيني عاطفي، بضاعته مسلمات وقضاياه خطابيات، وأنه يفر من الجدل و يكره النقاش، لكن ما قدمناه في هذه الرسالة من دراسة للجدل القرآني يكشف مدى كذب هؤلاء وافترائهم على الإسلام، وترينا هذه الدراسة كيف يكون الرد عليهم من واقع القرآن نفسه، فإذا كانت الأناجيل تقول للإنسان «أطفئ مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى ولا تستدل» فإن القرآن الكريم قد كرم العقل ورفع من شأنه وحذر من اهماله، وأوجب إعماله وأشاد في آيات كثيرة بالحكمة والتفكير والبرهان والحجة، وأمر الرسول الكريم صلىٰ الله عليه وسلم بمجادلة الكافرين، كما أمره بدعوتهم إلى الإيمان وجاء الأمر بهما في آية واحدة حيث قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[1] .

وبعد، فهذا البحث الذي قمت بإعداده لا أدعي أنني بلغت فيه الكمال ولكنها محاولة لإبراز المنهج القرآني في الجدل والمحاجة في أجلى مظاهر القوة والإعجاز، والإنسان مهما حاول أن يوفي كتاب الله حقه فلن يبلغ من غرضه ما يريد، ولكنها كما قلت محاولة للقيام بتقديم هذا المجهود المتواضع، فإن أحسنت فذلك الفضل من الله

---

(١) سورة النحل : ١٢٥.

وإن كان غير ذلك فالله يعلم أنني بذلت قصارى جهدي وتوخيت الحق والصواب، ولكن سبحان من بيده هداية الأفكار والقلوب، وأحمد الله تعالى أولاً وآخراً وأصلي وأسلم على سيدنا محمد أفضل خلق الله وخاتم أنبيائه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الدكتور

زاهر بن عواض الألمعي



الباب الأول

مدخل إلى علم الجدل



الجدل لغة واصطلاحاً

الجدل لغة:

هو اللّدد في الخصومة والقدرة عليها، وقد جادله مجادلة وجدالا ورجل جدِل ومجدَل ومجدال: شديد الجدل يقال جادلت الرجل فجدلته جدلا: أي غلبته ورجل جدِل إذا كان أقوى في الخصام، وجادله، أي خاصمه، مجادلة وجدالا، والاسم (الجدَل) وهو شدة الخصومة [1].

وأصل الاشتقاق من الجدْل وهو شدة الفتْل، ومنه قيل لزمام الناقة جديل، قال امرؤ القيس:

وكشحٍ لطيف كالجديل مخصّر ... وساق كأنبوب السقيِّ المذلل[2]

قال ابن سيدة: جدل الشيٌ يجدله جدلا: أحكم فتله، والجدْل معناه الصرع على الجدالة وهي الأرض سميت بذلك لشدتها.

قال الراجز:

قد أركب الآلة بعد الآلةِ ... وأترك العاجز بالجدالةِ

يقال: جدله جدلا، وجدله فانجدل وتجدل: صرعه على الجدالة [3].

---

(١) لسان العرب ج ١١ ص ١٠٥.

(٢) المعلقات ص ٨٤.

(٣) انظر لسان العرب لابن منظور جـ ١١ ص ١٠٣ وأساس البلاغة للزمخشري ص ١١١.

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم (أنا خاتم النبيين في أم الكتاب وإن آدم لمنجدل في طينته)(١) أي ملقىً على الجدالة وهي الأرض(٢).

وخلاصة المعنى اللغوي للجدل أنه: اللدد في الخصومة والقدرة عليها وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام، كما ذكره بن فارس في مقاييس اللغة حيث قال: «الجيم والدال واللام أصل واحد وهو من باب استحكام الشيء في استرسال يكون فيه.وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام»(٣).

الجدل اصطلاحاً:

المفاوضة علي سبيل المنازعة والمغالبة لإلزام الخصم، قال ابن سينا في (الشفاء) كتاب الجدل مانصه: «أما المجادلة فهي مخالفة تبغي إلزام الخصم بطريق مقبول محمود بين الجمهور»(٤) وقال صاحب المصباح المنير بعد أن ذكر المعنى اللغوي للجدل «ثم استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها»(٥).

وقال الجرجاني في التعريفات «الجدل عبارة عن مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها»(٦).

وقال أبو البقاء في كتاب الكليات :«الجدل هو عبارة عن دفع المرء خصمه عن فساد قوله بحجة أو شبهة وهو لا يكون إلا بمنازعة غيره»(٧) ومهما يكن من هذه المعاني في الجدال والجدل فإنه الخصومة والمنازعة في البيان والكلام لإلزام الخصم بإبطال مدعاه وإثبات دعوى المتكلم، ومنه حسن ومنه قبيح كما سيأتي إن شاء الله.

---

(١) رواه الإمام أحمد جـ ٤ ص١٢٧.

(٢) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير جـ ١ ص ٤٣٣.

(٣) مقاييس اللغة جـ ١ ص ٤٣٣.

(٤) الشفاء : كتاب الجدل : جـ ١ ص ٢٣.

(٥) المصباح المنير ص١٢٨.

(٦) التعريفات ص ٦٦ ومحيط المحيط ج ١ ص ٢٢٣.

(٧) كتاب الكليات لأبي البقاء : ص ١٤٥.

وإذا كان القرآن الكريم كتاب دعوة وهداية وكان المعجزة الخالدة الموجهة للأفكار والمبادئ والآراء والمعتقدات القائمة على الحجج والبراهين، فلا غرابة أن نرى وفرة هذه الأساليب الجدلية في كتاب الله ناطقةً بالحجج الصحيحة والبراهين الواضحة.

الجدل القرآني:

وبالنظر إلى ما سبق آنفاً يكون جدل القرآن هو براهينه وأدلته التي اشتمل عليها وساقها لهداية الكافرين، وإلزام المعاندين في جميع ماهدف إليه من المقاصد والأهداف التي يريد تحقيقها وترسيخها في أذهان الناس في جميع أصول الشريعة وفروعها.

وعليه فإن المنهج الذي نسير عليه في هذه الرسالة هو اعتبار كل محاورة فكرية تحدث عنها القرآن الكريم داخلة في جدل القرآن، لأنها وإن لم تكن بلفظ الجدل فهي بمعناه كما يدل عليه الوضع اللغوي، وهو الأسلوب الذي جرى عليه أسلوب القرآن الكريم(١) .

وقد ورد الجدل القرآني على ثلاثة أوجه، هي:

أ ــ مارد الله به على الخصوم من الحجج والبراهين، وماساقه من الأدلة لتثبيت العقائد وتقرير قواعد الملة مما جاء على ألسنة رسله وأنبيائه وما ألهمه الله عباده الصالحين من قولٍ بالحق ودفعٍ للباطل، وهذا جدل بالحق، بل هو أمر ضروري لتبليغ رسالة الله أهل الأرض، ودفع ما يعتورها من شبهات، وما يقف في طريقها مِن عقبات، وكشف مايحاك ضدها من مؤامرات، وما يدبر لها من كيد وضلال. وهذا النوع من الجدل القرآني وإن كان فيه معنى الإلزام والإفحام إلا أنه مشتمل على التوجيه والإرشاد إلى طريق الحق والصواب.

---

(١) انظر قول صاحب مقاييس اللغة المتقدم في ص ٢٠.

ب ـ ماورد في القرآن بطريق الحوار، والقصد منه الاسترشاد وحب الاستطلاع والنظر إلى العظة والاعتبار أو الترجي والدعاء، ومن هذا القبيل جدل إبراهيم عليه السلام ربه حيث قال: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾[1] وهكذا جدال الملائكة وجدال خولة بنت ثعلبة التي حكى الله قصتها في سورة المجادلة ونحو ذلك مما يرجع إلى هذا المعنى.

جـ ـ ما يأتي على ألسنة الكفار من الاعتراضات والشُّبه والدعاوى الباطلة التي حكاها القرآن الكريم وبين بطلانها وما تنطوي عليه من مفاسد، وهذا يدخل تحت عنوان الجدل بالباطل كما قال تعالى: ﴿ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾[2] .

تلك جوانب الجدل التي حكاها القرآن الكريم وسيأتي بيانها في فصول هذه الرسالة إن شاء الله.

الجدل عند المنطقين والفقهاء والأدباء :

هو «ماتركب من مقدمات مشهورة أو مسلم بها إما عند الجميع أو عند الخصم»،وقال في كتاب المحيط[3] «هو القياس المؤلف من مقدمات مشهورة أو مسلمة أي قياس مفيد لتصديق لا تعتبر فيه الحقيقة وعدمها بل عموم الاعتراف أو التسليم» ثم قال: «والغرض منه إلزام الخصم وإفحام من هو عاجز عن إدراك مقدمات البرهان»[4] . وهذا اصطلاح متأخر. وهو قول يقصد به إقامة الحجة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين بالدليل البرهاني أو الإقناعي الخطابي.

والفرق بين الجدل المنطقي والقياس الجدلي، أن الجدل المنطقي لا تعتبر فيه الحقيقة أو عدمها بل المعتبر عموم الاعتراف والتسليم من الخصم، فهو يستهدف إلزام الخصم

---

(١) البقرة : آية ٢٦٠.
(٢) سورة غافر : آية ٥.
(٣) كتاب محيط المحيط : ج ١ ص ٢٢٤.
(٤) انظر التعريفات للجرجاني ص ٦٦ مطبعة مصطفى البابي الحلبي عام ١٩٣٨م.

وإذعانه أو انقطاعه. أما الجدل عند العلماء والأدباء فإنه يرتكز على محور الحقيقة، ولا مانع من استدراج الخصم بضرب من الحيلة حتى يسلم أو يلزم بنتيجة المقدمات التي أوردت لدعم القضية المتنازع فيها، وهذا المعنى قريب مما قاله أبو الفرج قدامة بن جعفر في كتابه (نقد النثر) في الفرق بين الجدل والبحث العلمي حيث قال: «وحق الجدل أن تبني مقدماته مما يوافق الخصم عليه، وإن لم يكن في نهاية الظهور للعقل، وليس هذا سبيل البحث لأن حق الباحث أن يبني مقدماته مما هو أظهر الأشياء في نفسه وأبينها لعقله لأنه يطلب البرهان، و يقصد غاية التبيين والبيان وألا يلتفت إلى قرار مخالفيه فيه. فأما المجادل، فلما كان قصده إنما هو إلزام خصمه الحجة كان أوكد الأشياء في ذلك أن يلزمه إياه من قوله، وذلك مثل قول الله عز وجل لليهود لما أراد إلزامهم الحجة فيما حرموه على أنفسهم بغير أمر ربهم ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾[1] ،فجادلهم بكتابهم الذين يقرون به و بفرض مافيه ووجوبه عليهم وأعلمهم أنهم إذا حرموا على أنفسهم مالم يحرمه الله في كتابهم الذي هذه سبيله في وجوب التسليم له فقد ظلموا واعتدوا وهذا لازم لهم»[2] .

أما القياس الجدلي فهو المجرد من الدليل البرهاني، بينما الجدل عند العلماء والأدباء كلما استند إلى الدليل البرهاني كلما كان أحكم وأقوى. ثم اعلم أن الجدل يستعمل في المذاهب والأديان وفي الحقوق والخصومات وفي التنصل والاعتذارات و يدخل في النثر والشعر، ولو ذهبنا نبحث عن كل حوار فكري مما جاء في مجادلات أرباب الملل والنحل أو مايدور من خلافات مذهبية أو سياسية أو أدبية لطال بنا البحث ولخرجنا عن حد الاختصار، ولكننا نورد هنا مثلاً للجدل الذي جاء على ألسنة الشعراء لكون الجدل الشعري مما يبدو وكأنه بعيد عن مألوف الناس ومن أوضح الأمثلة على هذا الجدل الذي جاء في شعر صفي الدين الحلّي في رده على عبدالله بن المعتز حول الخلافة

---

(١) سورة آل عمران : آية ٩٣ و ٩٤.

(٢) نقد النثر : ص ١١٩.

الإسلامية وأيهم أحق بها العلويون أم العباسيون، قال عبد الله بن المعتز العباسي المتوفى سنة ٢٩٦هـ:

ونحن ورثنا ثياب النبي   فكم تجذبون بأهدابها
لكم رحم يابني بنته   ولكن بنو العم أولى بها[1]

فعارضه صفي الدين الحلّي بقصيدة طويلة وألزمه من واقع كلامه بمنطق الحجة والبيان ونذكر منها ماله علاقة بهذا الموضوع فيما يلي:

أأنت تفاخر آل النبي   وتجحدها فضل أحسابها
أعنكم نفى الرجس أم عنهم   بطهر النفوس وألبابها
وقلتَ: ورثنا ثياب النبي   فكم تجذبون بأهدابها
وعندك لا يورث الأنبياء   فكيف حظيتم بأثوابها؟
وقولك أنتم بنو بنته   (ولكن بنو العم أولى بها)
بنو البنت أيضاً بنو عمه   وذلك أدنى لأنسابها

فقول عبد الله بن المعتز« ونحن ورثنا ثياب النبي» هذه دعوى ولكنها وجدت ما يعارضها و ينقضها وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة)[2] وقوله صلى الله عليه وسلم (العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم النافع فمن أخذه أخذ بحظ وافر)[3]

---

(١) ديوان ابن المعتز : ص ٢٩.

(٢) البخاري ومسلم وغيرهما، انظر صحيح البخاري (كتاب الفرائض).

(٣) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، انظر سنن ابن ماجه ج ١ ص ٨١.

فدعوى ابن المعتز أنهم ورثوا من النبي صلىٰ الله عليه وسلم أشياء مادية فصاروا أقرب الناس إليه، تعني أنهم أحق بالخلافة من العلويين إلا أن هذه الدعوى انتقضت بما تقدم وبما يلي أيضاً :

لقد حكم عبدالله بن المعتز بأن العلويين أبناء بنت الرسول صلىٰ الله عليه وسلم في حين أن العباسيين أبناء عم الرسول صلىٰ الله عليه وسلم ومن المعلوم أن أبناء العم يقدمون في الميراث والولاية على أبناء البنت.

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد (١)

هذه هي دعوى ابن المعتز، ولكنه نسي أو تناسى أن أبناء بنت رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم هم أبناء عمه أيضاً فهم يدلون إلى رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم بقرابتين ومن يدلي بقرابتين أولى مِمَّن يدلي بقرابة لاسيما إذا كانوا في درجة واحدة، فقد استدل صفي الدين الحلّي على خصمه بالترجيح وقياس الأولى كما ترى وهو ضرب من الإلزام والإفحام.

هذا مثال من الشعر الجدلي أو من الجدل الشعري لبيان أن الجدل في معناه العام يرجع إلى النزعة البيانية الموجودة عند بني الإنسان إذ كل إنسان يريد أن يبدي وجهة نظره ويدافع عن نفسه بمنطق البيان ويفصح عما يختلج في نفسه من بواعث الفكر والبيان.

ألفاظ مرادفة للجدل :

وقد شاعت بين الناس ألفاظ إن لم تكن واحدة في المفهوم فهي قريب بعضها من بعض كالمناظرة والمحاورة والمناقشة والمباحثة لأنها ترجع في نهاية أمرها إلى طريقة البيان والتبيين التي أودعها الله في بني الإنسان جِبِلّة وطبعاً، وقد توجد بينها فروق

(١) من شواهد النحو المشهورة، وينسب للفرزدق انظر ديوانه ص ٢١٧ طبعة الصاوى ١٣٥٤ هـ، وفي شرح بن عقيل أنه لا يعرف قائله.

تبينتها قواعد الجدل وأدب البحث والمناظرة، إذ يرى البعض أن الجدل يراد منه إلزام الخصم ومغالبته.

أما المناظرة: فهي تردد الكلام بين شخصين يقصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول صاحبه مع رغبة كل منهما في ظهور الحق

والمحاورة : هي المراجعة في الكلام ومنه التحاور أي التجاوب، وهي ضرب من الأدب الرفيع وأسلوب من أساليبه، وقد ورد لفظ الجدل والمحاورة في موضع واحد من سورة المجادلة في قوله تعالى: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا).[1] وقريب من ذلك المناقشة

---

(١) سورة المجادلة : آية ١.

نشأة علم الجدل واسباب انتشاره

الجدل ظاهرة إنسانية بل عالمية لوجودها في غير الأجناس البشرية كالملائكة وإبليس وقد خلق الله تعالى الإنسان ناطقاً مفكراً تتوارد عليه أفكار ومعلومات يجد نفسه مدفوعاً بالجبلَّة والطبع إلى حب الإفضاء بها والإفصاح عنها، وقد تشتد وتبرز أشد البروز في كثير من المواقف كظروف الحجاج والنقاش، وتبادل الأفكار واحتكاك بعضها ببعض موافقة أو مخالفة أو برهنة أو معارضة أو تعلماً وتعليماً وما شاكل ذلك مما هو مرتكز في الفطرة الإنسانية، وما تستدعيه طبيعة النوع البشري من التعارف والمدنية، فالجدال لا يمكن أن يخلو منه بشر عنده بيان، لأنه يعبر عما يختلج في نفسه من بيان بصرف النظر عن طبيعة هذا البيان وبواعثه.

إن النفس البشرية مجبولة على حب الدفاع عنها وتقرير مطالبها وإيضاح أبعاد مقاصدها حتى في مواقف القيامة، فإنها لا تتخلى عن هذه النزعة البيانية الإنسانية كما في قوله تعالى: (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا) (١).

وكما ورد في حديث عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم أنه قال (يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فجدال ومعاذير فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذٌ بيمينه وآخذٌ بشماله) (٢).

إن هذه النزعات البيانية تتفاعل مع بعضها مع تفاوت العقول واختلاف الآراء والأفكار والنحل والأذواق والمشارب مما يكون ذا أثر فعّال فيما يجري بين الناس من مجادلات ومناظرات، فالجدل يعود بمعناه العام إلى نزعة البيان والإفصاح المودوعة

---

(١) سورة النحل : آية ١١١.

(٢) رواه الترمزي : انظر سنن الترمزي جـ ٤ ص٣٩.

فطرياً في الإنسان. وهو عبارة عما يجيش في النفس من تأثرات وأحاسيس لإظهار مبدأ أو نصرة حق، أو تصحيح خطأ، أو توجيه مفهوم، أو غير ذلك مما جبلت عليه النفوس البشرية، وبأي دافع كان هذا الحوار الإنساني فالجدل ضرورة حتمية بمعناه العام، فلا يقال إنه واجب ولا مكروه، لأنه طبيعة وجبلة في الفطرة الإنسانيه (وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا)[1].

بقي أن نقسم الجدل إلى موضوعات، منها ما يحل، وهو كل جدل يراد منه الاسترشاد أو مناصرة الحق أو الوصول إليه، ومنها ما يحرم، وهو كل جدل ظاهر الباطل أو أفضى إليه.

وكلما نزع الإنسان إلى استعمال البيان والجدال في فض الخلافات سواء على المستوى الفردي أو الجماعي أو الدولي، كان أقرب إلى السمو والإنسانية مما لو نزع في فضها إلى القوة والسلاح.

وهذا حيث يجدي البيان وقوة الحجة والبرهان. أما إذا استحكم الباطل والعناد وهاجت جحافل البغي والعدوان، كان المنطق الحازم والحل العملي قطع دابر ذلك الباطل وإزهاقه.

وإن يعرّ المواقف يوم لَبْسٍ   فإن السيف أصدقها خطابا[2]

على أن النزعة الجدلية لم تقتصر على طبيعة الإنسان اختلافاً وبياناً وجدالاً فحسب. بل كان وجود الإنسان نفسه مثاراً لتساؤل الملائكة فهم عندما أخبر الله تعالى بقوله: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً)[3] رغبوا في البيان وأدلوا بوجهة النظر على سبيل الاسترشاد وقياس الأولى، فقالوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) ، ثم أمرهم بالسجود لآدم (فسجدوا إلا إبليسَ أبى واستكبر).

---

(١) سورة الكهف : آية ٥٤.
(٢) الألمعيات ص ٣٨.
(٣) سورة البقرة : آية ٣٠.

وهنا بدأت خصومة شديدة وجدال وأقيسة إبليسية عندما قال الله تعالى له: (قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ)[1] .

وكما حدثنا القرآن الكريم عن الجدل في شأن آدم فإنه يحدثنا عن الجدل بين بني آدم أنفسهم، فمن يوم أن أهبط آدم إلى الأرض وأرسل الله الرسل وأنزل الهدايات والكتب والناس في جدال مستمر، وصراع على السلطة والاستئثار بها، وقد كشف القرآن الكريم لنا في قصصه نماذج، وعرض لنا أنماطاً كثيرة من الجدال بين الرسل وأقوامهم بصفة خاصة وما دار حول ذلك من الصراع بين الحق والباطل بصفة عامة.

وإذا تأملت في القرآن الكريم فإنك لا تكاد تجد فيه لفتة إلى ماقبل الرسالة المحمدية إلا وجدت فيها جدالاً ونقاشاً مثلاً قصة ابني آدم اللذين قتل أحدهما الآخر، وفي قصص نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم ولوط وموسى وعيسى وأصحاب القريةإذ جاءها المرسلون كما في سورة (يس)، وفي قصة الرجلين اللذين جعل الله لأحدهما جنتين من أعناب، وقصة قارون مع قومه وفرعون مع موسى، تجد الصراع بين الحق والباطل قائماً والجدل الإنساني موجوداً بوجود الإنسان، وكان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يقفون مواقف مشرفة في تبليغ رسالات الله مهما لاقوا من قومهم من أذى، فهؤلاء قوم نوح يكثرون من النقاش وتوجيه التهم والمفتريات فما يزيده ذلك إلا قوة وإيماناً ودفاعاً عن الحق وتفنيداً لشبهاتهم وقد بلغ بهم العجز مداه وضجوا وسئموا وقالوا(يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ)[2] .

وهذا إبراهيم عليه السلام خاض معركة فكرية، وناضل خصومه بالحجة

---

(١) سورة ص، آيات : ٧٥ ــ ٨٥.

(٢) سورة هود آية : ٣٢.

والبرهان في حوار بياني وجهاد عملي (وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾)(١) ، كما أن موسى عليه السلام أخذ أهبته لتبليغ فرعون الرسالة وخاض معركتها بأسلحة البيان والإيضاح والجدال، فيقول لربه تعالى (رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى)(٢) .

ثم يأتي دور المعجزة الختامية العالمية ممثلة في القرآن الكريم الذي أنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وقد بعث بالرسالة الختامية العامة بعد أن بعث الله في كل أمة ما يناسبها من الرسالة والرسول بصفة خاصة، وبعث صلى الله عليه وسلم في قوم بلغ البيان العربي فيهم ذروته ومارسوا ضروباً من البلاغة في القول واللدد في الخصومة فكان المنطق القرآني ملجماً لخصومتهم مفحماً لبيانهم، فقام الصراع الفكري وانتفضت هذه الحركات تدفعها الوثنية وتغذيها الحركة اليهودية والنصرانية بغية القضاء على تلك الرسالة المحمدية(٣) ، فكان لابد من مقارعتها بالحجة والبرهان وإفحامها بمنطق البلاغة والبيان، وقد أظهر الإسلام دعوته الخالصة وأعلن كلمته الفاصلة بين عقيدة التوحيد ومعتقدات الوثنية الضالة، فهو لا يقبل الحل الوسط في الأمور الاعتقادية، فقد رغبت قريش بأن يتفاوض معها رسول الله صلى الله عليه وسلم في التنازل عن شيء من دعوته وأرادت أن تعمل حلاً وسطاً في نظرها بأن يعبد محمد صلى الله عليه وسلم آلهتهم عاماً ويعبدوا إلهه عاماً آخر، فكان الجواب صريحاً وحازماً بالفصل بين العقيدتين: عقيدة التوحيد وعقيدة الوثنية حيث قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم رداً على المشركين (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ

---

(١) سورة الأنعام : آية ٨٣.

(٢) سورة طه : آية ٢٥ ـ ٣٢.

(٣) وقصة مسجد الضرار مشهورة وكذا دور أبي عامر الراهب الذي تنصر وألب قريشاً لقتال الرسول (ص) ثم فر إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي (ص)، وقد بنى المنافقون مسجد الضرار ليكون معقلا للمتآمرين من المنافقين والوافدين من نصارى الروم فأنزل الله (والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل.. الآيات) التوبة: ١٠٧ ـ ١١٠.

﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾)[١] .

هذا وإن القرآن الكريم قد أتى بأنواع الحجج والبراهين، وجاء بالأدلة السمعية والعقلية، قال السيوطي رحمه الله في كتابه الإتقان ما نصه « قد اشتمل القرآن العظيم على جميع أنواع البراهين والأدلة، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحذير يبني من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله قد نطق به لكن أورده على عادة العرب دون دقائق طرق المتكلمين»[٢] .

وإذا أردنا أن نعرف تاريخ الجدل ونشأته فإن القرآن الكريم أصدق سجل يروي لنا نماذج من جدل الأمم الغابرة منذ أن وجد الإنسان على هذه البسيطة بل قبل وجوده كما تقدم عن جدل الملائكة حول وجود آدم خليفة في الأرض، وبهذا نقول: إنه لا يمكن أن نحدد وقتاً لنشأة الجدل بمعناه الفطري العام لأنه وجد بوجود الإنسانية كامناً في نزعاتها البيانية.

واضع القواعد المنطقية الجدلية :

أما إذا أردنا أن نعرف العوامل والبيئات التي استقام فيها الجدل كعلم يدرس وفن يكتسب بالصنعة فإن المصادر العلمية ترجع هذا العمل إلى فلاسفة اليونان مثل «أفلاطون» و«أرسطو» وتجعل من أسباب ذلك ظهور الحركة السوفسطائية التي غيرت على شعب «أثينا» معتقداته وعملت جاهدة في تلبيس الحقائق بلباس الباطل وصوغ الباطل في قالب الحق، فتصدى لهذه الحركة السوفسطائية أفلاطون، ومن بعده «أرسطو» الذي نظم قواعد المنطق وقرر مسالك الجدل فضيق على الحركة السوفسطائية منافذ الباطل وجادلهم على أسس منطقية خففت خطورتها وحدت من نشاطها.

وليس معنى هذا أن «أرسطو» اخترع تلك القواعد المنطقية والمسالك الجدلية فإنها

---

(١) سورة الكافرون :آية ١ ــ ٦.

(٢) كتاب الإتقان للسيوطي ج ٤ ص ٥٢ مطبعة المشهد الحسيني سنة ١٩٦٧م.

كجهد سيبويه (ت ١٨٩هـ) في النحو العربي والخليل بن أحمد (ت ١٧٠هـ) في الأوزان الشعرية فإن اللغة العربية معروفة بأساليبها ووجوه بلاغتها وضروب بيانها قبل تدوينها وقبل تقعيد قواعدها، ومهما يكن فإن الجدل المنطقي بدأ تنظيمه كعلم يدرس ويكتسب في عهد أرسطو، قال الشهرستاني في كتابه الملل والنحل: «وإنما سموه المعلم الأول ــ يعني أرسطو ــ لأنه واضع التعاليم المنطقية ومخرجها من القول إلى الفعل، وحكمه حكم واضع النحو وواضع العروض فإن نسبة المنطق إلى المعاني التي في الذهن كنسبة النحو إلى الكلام والعروض إلى الشعر، وهو واضع لا بمعنى أنه لم تكن المعاني مقومة بالمنطق قبله فقومها، بل بمعنى أنه جرد آلته عن المادة فقومها إلى أذهان المتعلمين حتى كانت كالميزان عندهم يرجعون إليه عند اشتباه الصواب بالخطأ والحق بالباطل، إلا أنه أجمل القول فيه إجمال الممهدين وفصله المتأخرون تفصيل الشارحين وله حق السبق وفضيلة التمهيد»[١] .

نشأة علم الجدل في البيئات الإسلامية:

أما نشاة علم الجدل في البيئات الإسلامية فقد ظل في عصر الصحابة والتابعين مقصوراً على ما تدعو إليه الحاجة من تبيان الحق ودفع الشبه وترجيح الأدلة في الاجتهادات الفقهية ولم يقع في العقائد إلا نادراً، لأنهم كانوا يعرفون الأدلة نصاً ومعنى، وكانت فطرهم سليمة وبعد أن ترجمت الثقافات والعلوم اليونانية والفارسية إلى اللغة العربية وظهرت مدارس علم الكلام وعقدت الندوات، وألقيت المحاضرات في مختلف العلوم والفنون، وانتشرت المذاهب الفلسفية، وهب الصراع الفكري بين دعاة الحق ودعاة الباطل؛ تكونت من تلك المجادلات الكلامية والآراء الفلسفية ثروة فكرية هائلة وإن كان معظمها قد ند عن مناهج الصواب، وجرّ على الأمة الإسلامية في عقائدها كثيراً من الاضطراب والتفكك، أما هذه النزعات الفلسفية فلم يقف علماء الشريعة الإسلامية تجاهها مشلولي الحركة فقد تصدوا لتلك الآراء بالقلم

(١) الملل والنحل : ج ٢ ص ١١٩، مطبعة مصطفى البابي الحلبي عام ١٩٦٨ م.

واللسان، وجادلوا بالحجة والبرهان، ورأى بعضهم ضرورة الاطلاع والتعمق في علوم أولئك الفلاسفة ليتسنى الرد عليهم عن خبرة واطلاع، كما فعل الإمام أبو حامد الغزالي فقد ألف كتابه«تهافت الفلاسفة» نقضاً وإبطالاً لما روجه الفلاسفة من الدعاوى التي لا تتفق مع شريعة الإسلام، كما تصدى شيخ الإسلام ابن تيمية للعلوم المنطقية اليونانية والمذاهب الكلامية وخاض معركتها خوض الليث الهصور، وبيَّن ما تنطوي عليه هذه الثقافات والعلوم من فوائد ومضار، وزيَّف ما لا طائل تحته من بحوث أهل الكلام، ويقال إن أول من دون الجدل هو (أبو علي الطبري)[1] . وقيل أول من كتب فيه البزدوي والعميدي ثم كثر التأليف من بعدهما[2] ، وقيل إن طريقة البزدوي خاصة بالأدلة الشرعية من النص والإجماع والاستدلال، وإن طريقة ركن الدين العميدي عامة في كل دليل يستدل به في أي علم كان. والعميدي هو أول من كتب فيه ونسبت الطريقة إليه وقد وضع كتابه المسمى بالإرشاد مختصراً وتبعه مَنْ بعده من المتأخرين كالنسفي وغيره، وأول من صنف فيه من الفقهاء القفال الشاشي سنة ٣٣٦هـ [3] .

أما أسباب انتشار الجدل فيمكن تلخيصها فيما يلي :

١ ــ انتشار الفتح الإسلامي ودخول كثير من الأمم ذات النحل والعقائد المختلفة والأساطير والقصص في حوزة الدولة الإسلامية الجديدة وسريان كثير من رواسب تلك الأمم إلى المسلمين بحكم الجوار والمخالطة.

٢ ــ دخول كثير من هذه الأمم في الدين الإسلامي وبعضهم ما بين رجلين: رجل لم يفهم الدين وأحكامه كما ينبغي فخلط أقوالاً قديمة بأخرى إسلامية جديدة. فكان له من الرأي مخرج خاص لا هو بالقديم المحض ولا هو بالجديد الصافي، وهو مع ذلك حسن النية صادق الإسلام، ورجل دخل في الإسلام على غدر ونفاق فبيت له الشر وربض في مجال الفتنة وأضمر له الكيد وذهب يخلط ويلفق كما شاء له الهوى، وهذا لا يعني عدم وجود من دخل في الإسلام من تلك الأمم وهو صادق الإسلام سليم الفهم فقد وجد منهم خلق كثير اعتز بهم الإسلام وانتصر.

---

(١) المصباح المنير : ص ١٢٨.

(٢) انظر تاريخ الجدل لأبي زهرة ص ٥.

(٣) انظر ابن خلدون في المقدمة، والبزدوي ٣٢٩ ومتز ١ ــ ٣٧٥.

٣ ــ ورود بعض النصوص من القرآن والسنة المطهرة التي توهم بظاهرها خلاف ما هو معلوم ومتفق عليه بين السلف الصالح فتحتاج إلى تأويل وتفسير، بينما وجد من ذوي الأهواء من يتمسك بالظواهر أو ينحرف في التأويل ويجادل فيه ليحرك ساكن الخلاف ويذكي نار الفرقة.

٤ ــ ميل العقول إلى نوع من الترف العقلي بالبحث فيما يعرض من مبهم أو مشكل واختيار المسائل التي تثيرها دواعي السياسة والاجتماع ولا يكون هذا النوع من التفكير إلا حين تفعغ الدولة من الحروب والفتح تفرغ النفوس وتميل إلى الدعة والاطمئنان.

٥ ــ انتشار مجالس القصص في المدن الإسلامية فقد فتح السبيل للناس في تناول المشكلات الطارئة وامتحان المسائل والكلام فيما يعنيهم من حوادث وافتهم، والرغبة في معرفة حكمة الدين فأقبل الناس على هذه المجالس واستمعوا إلى القُصّاص وجادلوهم فيما يقولون وقويت عندهم ملكة البحث والمناظرة.

٦ ــ مهاجمة اليهود والنصارى والدهريين وغيرهم للدين الإسلامي وقذفهم إياه بما يروجون من شبه ومفتريات يبغون بها الحط من الدين والغض منه والنكاية به، فجالوا في ميدان الكيد جولات واسعة وناظروا المسلمين في مواقف عدة وانبرى كثير من العلماء لإدحاض أقوالهم وتفنيد مزاعمهم.

٧ ــ طرق باب البحث في بعض الموضوعات العويصة كالغيبيات التي كانت ولا تزال مزالق للباحثين وميداناً يتفاضل فيه المتجادلون، على أن العقل البشري مهما أوتي من الذكاء والفطنة فلن يستطيع أن يصل إلى كنهها من طريق التقليد فالتسليم بها من طريق السمع أولى وأحمد عاقبة

ولا يغرب عن الذهن أن مجالس المناظرة كان يكتنفها في أكثر الأحيان اللدد واللجاج وتحزب كل فريق لرأيه وبذل الجهد في تأييده وتدعيمه مما دعا إلى توسع دائرة الخلاف وتشعب طرق النقاش.

كل هذه الأسباب التي سقناها هيأت العقول ونشطتها للجدل والمناظرة فيما عرض من مسائل دينية وسياسية فثارت بحكم الضرورة ريح الخلاف لاختلاف الأنظار وتباين المقاصد.

هذه لمحة سريعة عن نشأة الجدل وتطوره، وإنما لجأنا إلى إيجازها بغية الاختصار لأن الموضوع الأساسي هو جدل القرآن الكريم.

جدال الملائكة وجدال إبليس والفرق بينهما

جدال الملائكة :

هذا المبحث له علاقة بالذي قبله وهو نشأة الجدل وتطوره وإنما أفردته بالبحث لاختصاصه بنوع من الأقيسة، والمجادلة تلتقي في منشأ إثارتها وتختلف في مقاصدها، وبواعثها وأساليب جدلها وسنتحدث في هذا المبحث عن جدل الملائكة وبواعثه وغاياته، فأقول أوجد الله الملائكة في عالمها السابق لخلق آدم وعاشت في محيط لا يبلغه إدراكنا، وكانت خاضعة لما فيه من نواميس تأتمر بأمر الله وتهتدي بهداه دون أن تبتلي بحرية إرادة واختيار وإنما تسيرها الإرادة العليا على وجه التسخير والانقياد ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[1] .

وقد تحدث القرآن الكريم عن الملائكة بأنهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾[2] ، ولكن يبدو أن الملائكة عندما أخبرهم الله بأنه سيجعل في الأرض خليفة بدؤا يفكرون في العلل والأسباب على غير ما هو معهود في طبيعتهم من الإذعان والتسليم دون تفكير أو مراجعة، وهذا لايعني أن الملائكة اعترضوا على أمر الله أو أنهم رأوا الإدلاء بما لديهم قبل أن يعلموا أنه طاعة لله أو معصية، فلما قال تعالى للملائكة﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ كان سؤال الملائكة ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾[3] ، وكان الجواب من الله تعالى لهم بقوله ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، وبهذا الجواب الإلهي لم يلبث أن عاد الملائكة إلى مألوف وضعهم من الطاعة والامتثال ولم ينازعوا في أبعاد الحكمة والتعليل فانقادوا لأمر الله وسلموا لما تقتضيه الحكمة الإلهية من الخلق والتكوين والإيجاد والتدبير، وقد يتساءل بعض الناس: من المراد بالخليفة الذي قال الله تعالى فيه (إني جاعل في الأرض خليفة)؟ فنقول: اختلف المفسرون هل المراد به جنس بني آدم نفسه.

---

(١) سورة التحريم آية ٦.

(٢) سورة الأنبياء آية ٢٧.

(٣) سورة البقرة آية ٣٠.

فقال ابن كثير في تفسيره مانصه (إني جاعل في الأرض خليفة) أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل، واستدل على ذلك بقوله تعالى (وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ)[1] وقوله (وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ)[2] وقوله (وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ)[3] وعلى هذا يكون رأي ابن كثير أن المراد بالخليفة جنس بني آدم وقد دخل فيه آدم دخولاً أولياً.

وذكر القرطبي في تفسيره عن ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل أن المراد به آدم عليه السلام[4].

وقد تعقبه ابن كثير في تفسيره بعد أن ذكر هذا القول فقال ما نصه «وفي ذلك نظر بل الخلاف في ذلك كثير حكاه الرازي في تفسيره وغيره، والظاهر أنه لم يرد آدم عيناً إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة (أتجعل فيها من يفسدُ فيها و يسفك الدماء)فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك» انتهى كلام ابن كثير رحمه الله.

وسواء أكان المراد بالخليفة آدم أو ذريته فقد وقع كل ذلك والعلاقة بينهما واضحة إلا أن الذي يبدو ــ والله أعلم ــ أن الجدال كان في شأن آدم نفسه ثم دخلت ذريته تبعاً له فيما كلف به من خلافة في الأرض، ومما يرجح هذا في نظري أن حوار الملائكة لم يذهب سدى ولم ينته دون اقتناع بفضل هذا الخليفة الذي سيجعله الله في الأرض فإن الله تعالى أراد أن يختبر الملائكة اختباراً عملياً و يظهر في هذا الاختبار فضل آدم عليهم، وقد حكى الله في كتابه قصة هذا الامتحان بقوله تعالى (وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ)[5] ، فهذا يدل على أن المراد بالخليفة آدم عليه السلام لأنه هو الذي ظهر شرفه بالعلم والفضل وهو الذي

---

(١) سورة الأنعام ١٦٥.

(٢) سورة النمل ٦٢.

(٣) سورة الزخرف ٦٠ وانظر تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٦٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ج١ ص ٢٦٣ مطبعة دار الكتاب العربي عام ١٩٦٧ م.

(٥) سورة البقرة آية ٣١ ــ ٣٣.

من أجله كان ذلك الحوار الفكري والأخذ والرد حتى أسجد الله له ملائكته فهو أول خليفة في الأرض ثم تناسلت منه ذريته فكانوا (خلفاء الأرض).

وقد يتوهم البعض أن سؤال الملائكة (أتجعل فيها من يفسد فيها.. الآية) من قبيل الاعتراض على حكمة الله وعلى وجه الحسد لبني آدم، وهذا لايليق بمؤمن أن يظن في ملائكة الرحمن هذا الظن، وإنما المراد بسؤالهم استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، كما ذكره ابن كثير وغيره [1]، فكأنهم قالوا يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك فهلا وقع الاقتصار علينا؟.

سؤالهم هذا من قبيل الاستدلال بالترجيح والأولوية أي من سبح وقدس لك هو أولى بالخلافة ممن يفسد فيها ويسفك الدماء.

وكان جواب الله تعالى لهم بقوله (إني أعلم ما لا تعلمون) أي إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التى ذكرتموها مالا تعلمون، فإني سأجعل فيهم الأنبياء وأرسل، فيهم الرسل وسيكون منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد والأولياء.. الخ، وكان جواب الله تعالى أيضاً لهم من قبيل الاستدلال بالترجيح من جهة أخرى.

ولهذا لم يرد الله عليهم قولهم، إذ قد علم سبحانه أن الذي ظنوه في بني آدم ووصفوهم به كائن فعدل تعالى إلى أمر مجمل فقال (إني أعلم مالا تعلمون) من ترتيب خلقي وتدبير صنعتي المحوطة بالحكمة في الدالة على القدرة، فإني خلقت الملائكة من نور لا ظلمة فيه فكان منهم الخير المحض بإرادتي، وخلقت الشياطين من نار السموم وهو المارج فكان منهم الشر المحض بارادتي، وخلقت آدم وذريته من عنصر آخر وهو الطين فكان منهم الخير والشر بإرادتي ووضعت فيهم عقلا يرشد إلى المصالح ونفساً ميالة إلى الهوى وأمددت العقل والنفس بجندين يسوقانها إلى ما سبق من التقدير الناشيء عن علم التدبير، وكان حكمي في هذين الفريقين أن من غلب عقله

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٦٩.

على هواه فهو من الناجين ومن غلب هواه على عقله فهو من الهالكين، وهذا ما اشتمل عليه قوله تعالى (إني أعلم مالا تعلمون).

ومما اشتمل عليه (إنِّي أعلمُ مالا تعلمُوْن) أن اختلاف الصنائع أول دليل على قدرة الصانع.

ومما اشتمل عليه (إنِّي أعلمُ مالاَ تعلمُوْن) أني ركبت فيهم من الشهوة مالو ركبته فيكم لفعلتم فعلهم أو لم تطيقوا صبرهم على أنهم قد أحبوني محبة بذلوا فيها أبدانهم للتمزيق ودماءهم للإراقة وأرواحهم للذهاب، ومنهم الصابرون على أنواع المكاره والصائمون في الهواجر والعابدون على ضعف القوى والناهون نفوسهم مع قوة الهوى. يرون المرّ حلوا في رضاي وتسليما لقضائي وقدري، يسابق كل ولي منهم بالعبادة أجله، يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة فظهرت حكمة الله عز وجل في خلقهم ورجحت حجة الله سبحانه على الملائكة في قدحهم[1] .

أما بواعث جدال الملائكة فيمكن تلخصيها فيما يلي:

١ حب الاسترشاد والبيان والاستطلاع عما جهلوا حكمته

٢ ـ التعجب من أمر الله وحسن تدبيره الشامل لشئون خلقه وعلمه المحيط بكل ما يكتنف الأشياء في متاهات الغيب، فإننا إذا حكّمنا العقل المجرد فإن من يسبح الله و يقدسه أولى بالخلافة ممن يحصل منه الفساد وسفك الدماء ولكننا إذا تأملنا في قدرة الله وحسن تدبيره وقلنا لذلك العقل: فهمت شيئاً وغابت عنك أشياء، أصبح متطلعاً لما فاته من علم وما خفي عنه من أسرار، فسؤال الملائكة كان ليظهر لها سر من أسرار حكمة الله في وجود ذلك الخليفة والعلم عند الله.

وغاية سؤال الملائكة هو التسليم الكامل لأمر الله والانقياد له والرضا بما قسم من

(١) استخراج الجدال من القرآن للإمام عبد الرحمن بن نجم المعروف بابن الحنبلي. ص ٤ بتصرف.

فضل وما صرف من أمر وقد أمرهم الله بالسجود لآدم تكريماً له وإظهاراً لفضله عليهم حيث امتحنهم الله بهذا لما أثنوا على أنفسهم وذموا الخليفة كما فعل الله تعالى بموسى عليه السلام لما أخبر عن نفسه أنه أعلم أهل الأرض فامتحنه الله بالخضر عليه السلام وعجزه معه في تلك الوقائع الثلاث[1] .

وقد استسلم الملائكة لأمر الله قولاً وفعلاً، استسلمت بقولها (سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ)[2] ، واستسلمت عندما أمرها بالسجود لآدم بقوله (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ)[3] .

وسجود الملائكة لآدم ليس معناه عبادتهم لآدم، لأن السجود إذا كان لغير الله كان معناه الخضوع والانحناء على الأصل اللغوي كقوله تعالى(وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا)[4] ، وليس معنى السجود هنا العبادة بالاصطلاح الشرعي، وبهذا تفسر آيات السجود لآدم أو لغيره من النوع الإنساني.

١ ــ سجود باختيار وإرادة وهذا يختص بالنوع الإنساني الذي يحصل به الثواب.
٢ ــ سجود تسخير كقوله تعالى (وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ)[5] .

وورد السجود عامة في المخلوقات كقوله تعالى (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)[6]، وهذا يشمل النوعين من سجود التسخير والاختيار، وقد ذكر نحو هذا الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن[7] .

وبالجملة، فإن النزعة الموجودة عند الملائكة ــ إذا صح هذا التعبير ــ لا تخرج

---

(١) أنظر سورة الكهف من آية ٦٠ إلى ٨٢.
(٢) سورة البقرة آية ٣٢.
(٣) سورة البقرة آية ٣٤.
(٤) سورة يوسف آية ١٠٠.
(٥) الرحمن : ٦.
(٦) النحل : ٤٩.
(٧) مادة سجد ص ٢٢٣ ــ ٢٢٤.

عن طاعة الله ولايكون لها نتائج سيئة، وما حدث من السؤال فهو للاسترشاد وطلب المعرفة والكشف عن الحقائق التي لم تكن تعلمها من قبل، وهذا هو الذي ندين الله به ونعتقده في ملائكة الرحمن.

جدال إبليس :

إذا أردنا نحكم على جدال إبليس لعنه الله بشيء من الكلام، فإن أصدق ما يقال فيه إنه اعتراض على حكمة الله في خلقه واستبداد بالرأي ومكابرة للحقائق واستطراد في العناد والتعنّت، والقرآن الكريم يحكي لنا ما ظهر من عدو الله إبليس من مخالفة للأمر وانسياق للهوى واعتزاز بالرأي واستكبار بالمادة التي خلق منها ــ وهي النار ــ على المادة التي خلق منها آدم وهي الطين، ولهذا يكون إبليس أول من أظهر الخلاف وركب العناد، بل إن كل شبهة وقعت من شبه الباطل ترجع إلى طريقته وتقتبس من ناره.

قال الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل) ما نصه «واعلم أن أول شبهة وقعت في الخليقة شبهة إبليس لعنه الله ومظهرها استبداده بالرأي في مقابلة النص واختبار الهوى في معارضة الأمر واستكباره بالمادة التي خلق منها وهي النار على مادة آدم عليه السلام وهي الطين، وانشعبت من هذه الشبهة سبع شبهات وسارت في الخليقة وسرت في أذهان الناس حتى صارت مذاهب بدعة وضلالة، وتلك الشبهات مسطورة في شرح الأناجيل الأربعة: انجيل لوقا، ومارقوس، و يوحنّا، ومتّى، وهي مذكورة في التوراة متفرقة على شكل مناظرات بينه وبين الملائكة بعد الأمر بالسجود والامتناع عنه»[1] ، واعلم أن المخالفة وقعت من عدو الله في عدم امتثاله لأمر الله بالسجود لآدم، قال تعالى (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ)[2] .

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ١٦.

(٢) البقرة ٣٤.

وفي هذه الآية الكريمة بيان السبب في عدم سجوده، وهو الاستكبار بمادته التي خلق منها على المادة التي خلق منها آدم عليه السلام، وقد أظهر إبليس اعتراضه استناداً إلى هذه الشبهة كما حكاها الله تعالى بقوله (قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ۝٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ)[1] وشبهته هي أن أصله وعنصره النار، وأصل آدم وعنصره التراب.

وقد رتب على هذا أنه خير من آدم، ثم رتب على هاتين المقدمتين أنه لا يحسن منه الخضوع لمن هو أدنى منه في الخلق، وذلك أن النار جوهر لطيف شفاف له قوة الإشراق وسلطان الإحراق، والطين جسم مظلم كثيف ليس باللطيف ولا بالخفيف، والسجود امتثال يتضمن تعظيم السجود له، والأولى به الأعلى منهما.

والرد على شبهته هذه بوجوه منها :

١ — أنه عارض النص بالقياس وهو فساد في الاعتبار وعدم استبصار، والعمل بالنص مقدم على القياس لأن سهام القياس تصيب مرة وتخطىء أخرى، وكلام المعصوم المنزه عن الغلط والزلل لا يخطىء.

٢ — أن الماء والتراب والهواء والنار أصول الأجسام ومواد المركبات فلا يقوم جسم إلا باجتماعها وإذا كانت متكافئة في التأثير فاختصاص أحدها بالأفضلية لادليل عليه، وهو ترجيح بلا مرجح.

٣ — أن الطين اشتمل على أصلين من الأصول الأربعة، وهما الماء والتراب فكيف يكون أصل واحد خيراً من أصلين متكافئين؟ ثم على تقدير التسليم بالتفاضل جدلاً، فالماء أفضل، لأن سلطانه يقهر سلطان النار إذا التقيا.

٤ — على تقدير صحة قياسه، فالترجيح للسجود من وجهين :

الوجه الأول :أن مصلحة امتثال الأمر راجحة على الامتناع لأن امتثال الأمر آمن من العقاب المترتب على المخالفة.

---

(١) سورة (ص) آية ٧٥، ٧٦

الوجه الثاني : أن الامتناع من السجود بهذا التعليل المذكور من جهته يلزم منه تخطئة الأمر ونسبته إلى وضع الشيء في غير موضعه وذلك في غاية الجناية على الإله الحكيم [١] .

٥ ـ ما دام يعترف أنه مخلوق الله تعالى فليس له الخيرة من أمره بل يجب عليه الاستسلام والانقياد لأمر الله

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله في كتابه (بدائع الفوائد) في الرد على هذه الشبهة ما نصه: «ثم لو سلّم بطريق الفرض الباطل أن النار خير من الطين، لم يلزمه من ذلك أن يكون المخلوق منها خيراً من المخلوق من الطين، فإن القادر على كل شيء يخلق من المادة المفضولة من هو خير ممن خلقه من المادة الفاضلة والاعتبار بكمال النهاية لا ينقص المادة فاللعين لم يتجاوز نظره محل المادة ولم يعبر منها إلى كمال الصورة ونهاية الخلقة، فأين الماء المهين الذي هو نطفة ومضغة واستقذار النفوس له إلى كمال الصورة الإنسانية التامة المحاسن خلقاً أو خلقاً».

«وقد خلق الله تعالى الملائكة من نور وآدم من تراب ومن ذرية آدم من هو خير من الملائكة، وإن كان النور أفضل من التراب، فهذا وأمثاله مما يدلك على ضعف مناظرة اللعين، وفساد نظره وإدراكه، وإن الحكمة كانت توجب عليه خضوعه لآدم فعارض حكمة الله وأمره برأيه الباطل ونظره الفاسد، فقياسه باطل نصاً وعقلاً، وكل من عارض نصوص الأنبياء بقياسه ورأيه فهو من خلفائه وأتباعه» [٢] .

هذا وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في تفضيل التراب على النار خمسة عشر وجهاً، لا أجد حاجة إلى ذكرها، ومن أراد المزيد من المعرفة فلينظر تفصيل هذه الوجوه في الكتاب المذكور.

إن ما تقدم من الشبه والاعتراضات التي أدلى بها إبليس لعنه الله في مقام

---

(١) استخراج الجدال من القرآن ص ٥ مخطوطة برواق الاتراك بالأزهر برقم ٣٤٠ بتصرف.

(٢) بدائع الفوائد ج ٤ ص ١٣٩ و ١٤٠ و ١٤٢ .

المكابرة والعناد كافية في معرفة البواعث التي حدت به إلى انتهاج هذا المسلك ويمكن أن نذكر منها ما يلي:

١ ـ باعث الحسد لآدم على الشرف العظيم الذي خصه الله تعالى به
٢ ـ الكبر والاستعلاء على أمر الله فاستحق من الله الطرد والإبعاد
٣ ـ الغرور بأصل مادته بأنه خلق من نار ولها قوة الإشراق وسلطان الإحراق، فكانت نظرته مادية محضة وهي فاسدة، تلك بعض البواعث التي حدت بأبليس إلى سلوك طريق الباطل والاستعلاء بغير الحق.

ويمكن أن نلخص بعضاً من النتائج السيئة التي انعكست آثارها في السلوك البشري نتيجة التأثر بتلك الشبه والأقيسة الفاسدة التي سلكها إبليس ونذكر منها ما يلي :

١ ـ استحقاقه للطرد والإبعاد من رحمة الله التي وسعت كل شيء حيث كان جداله اعتراضاً على حكمة الله ومثاراً لكل شبهة ضالة وأساساً لكل قياس فاسد.
٢ ـ ظهور ما كان يغمره من حسد وبغض لبني آدم وقد حذرنا الله تعالى منه وأمرنا بتجنب طرقه وأعماله
٣ ـ انعكاس الآثار السيئة على المجتمعات الإنسانية حيث كان لها من غواية الشيطان وشبهاته نصيب كبير في حياتها العملية وسلوكها الاجتماعي، وتتفاوت في أبعاد غواياتها بقدر ماتكون خاضعة لسلطانه وشبهاته.
٤ ـ استحكام العداء بينه وبين بني آدم حتى أنه انتهج منهجاً جهنمياً في إغوائه لبني آدم، فكان منهجه في الإغواء أنه يأتي من قبل الأعمال الطيبة الصالحة فيحاول إفسادها بالتشكيك أو الرياء، وقد حكى الله تعالى عنه ذلك بقوله ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[1] .

---

(١) سورة الأعراف آية ١٦ و ١٧.

فكان منهج الإغواء من الجهات الأربع، أما جهة العلو والسفل فلا سبيل له بها إلى من كانت رابطته تعلو الربوبية وذل العبودية لله تعالى(إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)[1] .

وقد حكى الله تعالى استثناء إبليس لمن أخلص لله في العبادة وانقاد بالطاعة حيث قال تعالى حكاية عن إبليس (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ)[2] .

وبهذا نعلم أن من ضعفت فيه القيم الروحية وتزعزع الإيمان من قلبه فإن الشيطان له بالمرصاد، وأنه يأتيه من كل مكان نعوذ بالله من نزعاته وغواياته.

ومن مجموع ما تقدم من جدال الملائكة وجدال إبليس يظهر لنا الفرق بين الجدالين، فالملائكة في جدالهم لم يظهروا خلافاً ولا عصياناً بل طلبوا بسؤالهم البيان والإيضاح،أما إبليس فقد جادل وأفتى وعلل واعترض على حكمة الله وأمره فباء باللعنة وخزي الدنيا وعذاب الآخرة.

---

(١) سورة الحجر آية ٤٢.

(٢) سورة ص آية ٨٣، وانظر سورة الحجر آية ٤٠.

الجدال الممدوح والجدال المذموم وأنواعهما

كان السبب الداعي لعقد هذا المبحث ضمن بحوث الرسالة أن الجدل سلاح ذو حدين وقد اشتبه الأمر على قوم قصرت علومهم وندّت أفهامهم فذهبوا ينكرون الجدال والمناظرة و يرون ذلك من الأمور الدخلية على الإسلام والمسلمين، فجنى هؤلاء على الإسلام من حيث لا يشعرون إذ لم يحرروا أقوالهم و يفرقوا بين ما يبيحه الشرع وما يمنعه، وما تقتضيه ضرورة البلاغ لرسالة الله تعالى والدفاع عنها من الحجة والبرهان، وبين ما يكون فضولاً من القول ورجماً بالغيب وخوضاً في لجج الباطل، بينما يقابل هؤلاء قوم أفرطوا في الجدال والمناظرة في الدين وأطلقوا العنان للعقول دون قيود أو حدود واعتبروا العقل هو الركيزة الأولى التي تبنى عليها الأحكام و يتفرع عنها الحكم على كل قول أياً كان مصدره، وهؤلاء قد حكموا للعقل بالعصمة من الخطأ وقدموا أدلته على أدلة الشرع، وإنما جاء الشرع بالأدلة السمعية والعقلية ولم يجعل بينهما تناقضاً.

والشرع في الحقيقة هو عصمة العقل من الخطأ كما أشار إلى ذلك صاحب «تفصيل النشأتين» [1]، لأن العقول مهما بلغت من الإدراك فطاقتها محدودة وهي عاجزة عن اقتحام متاهات الغيب التي لا يعلمها إلا الله، وهناك حقائق ثابتة كوجود الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ولكن العقل عاجز عن إدراك كنهها، فليس لنا أن نجعل العقل مهيمناً على نصوص الشريعة ينسخ منها ما يريد و يغير ما لا يدرك حقيقته وكنهه، ولكننا نستخدم العقل في التميز بين الحق والباطل ونعمله في جميع شئون الحياة، نتأمل به في خلق الله وبدائع صنعه، ونسلك به الطريق المستقيم،

---

(١) أنظر قول الراغب الأصفهاني: «تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين» ص ٤١ ــ ٤٤ المطبوع ضمن سلسلة الثقافة الإسلامية، التي كان يشرف على اصدارها الاستاذ عبد الله السمان ــ المجموعة الثالثة ــ ١٣٨٠هـ ــ ١٩٦١م.

مستنيرين بنور الوحي وهدي النبوة، علماً بأن العقل السليم لا يخالف النصوص الصحيحة التي جاء بها الشرع.

وقد ألف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى كتابه «درء تعارض العقل والنقل» المسمى «موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول» وتحدث عن هذا بما لا مزيد عليه، وقصارى القول إن إنكار الجدال وذمه مطلقاً فيه تعسف ومكابرة للحق والواقع، وقبوله والدعوة إليه مطلقاً فيه أيضاً تعسف ومكابرة، وقد وردت نصوص من الكتاب والسنة تأمر بالجدل وأخرى تنهى عنه فعلمنا يقيناً أن الجدل الذي تأمر به هذه النصوص غير الجدل الذي تنهى عنه، لأن نصوص القرآن الكريم ونصوص السنة الصحيحة لا تتعارض في حقيقة الأمر. وإذاً فما هو الجدل الذي تأمر به هذه النصوص وتدعو إليه؟ وما هو الجدل الذي تنهى عنه وتذمه؟

للإجابة على هذا السؤال يمكننا أن نقول إن الجدل ينقسم إلى قسمين :

جدال ممدوح، وجدال مذموم، وسنوضح كلا النوعين فيما يلي :

الجدال الممدوح :

لكل أمر دافع وطريقة ونتيجة، ولا بد من سلامة الثلاثة ليكون الأمر صحيحاً، فالجدل الممدوح : ماكان بنية خالصة وجرى بطريقة سليمة وأدى إلى خير، أو يقال : هو كل جدال أيد الحق أو أفضى إليه بنية خالصة وطريق صحيح، وإذا ذهبنا نستقصي نصوص الشريعة وأقوال العلماء في جواز الجدل لنصرة الحق والدعوة إليه ومقارعة الباطل بالحجة والبرهان، فإننا نخرج عن حد الاختصار المعقول المفيد، ولكن ذلك لا يمنعنا من ذكر بعض النصوص من الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة، وذلك توضيحاً للمقصود وجريا على المعهود، فنقول وبالله تعالى التوفيق :

١ ــ قال الله تعالى ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[1] . ففي هذه الآية الكريمة دعوة صريحة إلى الجدال، وبيان طرقه وآدابه،

---

(١) النحل ١٢٥.

ويرى كثير من أهل الكلام أن الطرق الثلاث المذكورة في هذه الآية الكريمة موافقة للأصول المنطقية وهي البرهان والخطابة والجدل، ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية لا يرتضي هذا الرأي ويعلل ذلك بأن الخطابة عند المناطقة ما كانت مقدماتها مشهورة سواء أكانت علماً مجرداً أم علماً يقينياً ويرى أن الوعظ في القرآن هو الأمر والنهي، والترغيب والترهيب، كقوله تعالى (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا)[1] . فقوله (ما يوعظون به) أي يؤمرون به، وقال تعالى (يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)[2] ، أي ينهاكم ويرى ابن تيمية رحمه الله أن الدعوة تكون بالحكمة والموعظة الحسنة، وأما الجدل فلا يدعى به، وإنما يكون من باب دفع الصائل، ولهذا يقول: إن للإنسان ثلاثة أحوال: إما أن يعرف الحق ويعمل به وإما أن يعرفه ولا يعمل به وإما أن يجحده، فأفضلها أن يعرف الحق ويعمل به، والثاني أن يعرفه لكن نفسه تخالفه فلا توافقه على العمل به، والثالث من لايعرفه بل يعارضه، فصاحب الحال الأول هو الذي يدعى بالحكمة، فإن الحكمة هي العلم بالحق والعمل به، والأكمل من الناس من يعرف الحق ويعمل به فيدعى بالحكمة، والثاني من يعرف الحق لكن تخالفه نفسه فهذا يوعظ بالموعظة الحسنة والنفس لها أهواء تدعوهم إلى خلاف الحق وإن عرفته، وعامة الناس يحتاجون إلى الموعظة الحسنة وإلى الحكمة فلابد من الدعوة بهذا وهذا.

وأما الجدال فلا يدعى به بل هو من باب دفع الصائل، فإذا عارض الحق معارض جودل بالتي هي أحسن، ولهذا قال (وجادلهم) فجعله فعلاً مأموراً مع قوله «أدْعُ» فأمره بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وأمره أن يجادل بالتي هي أحسن.

وقال في الجدال (بالتي هي أحسن) ولم يقل (بالحَسَن) كما قال في الموعظة، لأن الجدال فيه مدافعة ومغاضبة فيحتاج أن يكون بالتي هي أحسن حتى يصلح ما فيه من الممانعة والمدافعة، والموعظة لا تدافع كما يدافع المجادل، فما دام الرجل مستعداً للحكمة أو الموعظة الحسنة أو هما معاً لم يحتج إلى مجادلة فإذا مانع جودل بالتي هي أحسن.

---

(١) النساء : ٦٦.

(٢) النــور : ١٧.

ويرى ابن تيمية أن الجدل يفيد في بيان خطأ الخصم ولكن لا بد من أن تكون المجادلة بعلم كما أن الحكمة بعلم، لهذا يقول «والمجادلة بعلم كما أن الحكمة بعلم، وقد ذم الله من يجادل بغير علم فقال تعالى (هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ)[1] ، والله لا يأمر المؤمنين أن يجادلوا بمقدمة يسلمها الخصم إن لم تكن علماً، فلو قدر أنه قال باطلاً فالله تعالى لم يأمر أن يحتج عليه بالباطل، لكن هذا قد يفعل لبيان فساد قوله وبيان تناقضه لا لبيان الدعوة إلى القول والحق، وهدف القرآن بيان الحق ودعوة العباد إليه، وليس المقصود ذكر ما تناقضوا فيه من أقوالهم ليبين خطأ أحدهما لا بعينه[2] فالمقدمات الجدلية التي ليست علماً هذه فائدتها وهذا يصلح لبيان خطأ الناس مجملاً»[3] .

٢ ــ وقال تعالى (فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ)[4] .

ووجه الدلالة من هذا القول الكريم أن الله تعالى لم يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول هذا شكاً في صدق مايدعو إليه ولكن قطعاً لحجتهم وحسماً لدعواهم وإلزاماً وإفحاماً لهم، فقد التزم صلى الله عليه وسلم بالرجوع إلى السبيل الأهدى والأمر الأصوب، وثقته بأنه على الهدي والصواب، وهذا ضرب من جدل الإفحام الهادىء.

٣ ــ وقال تعالى (وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ)[5] .

---

(١) آل عمران : ٦٦.

(٢) قال المعلق على هامش الكتاب (خطأ أحدهما لا بعينه كذا بالأصل ص ٤٦٩).

(٣) انظر الرد على المنطقيين ص ٤٦٧ ــ ٤٦٨.

(٤) القصص : ٤٨ ــ ٥٠.

(٥) سورة العنكبوت : ٤٦.

ووجه الدلالة أن الله تعالى أمر بمجادلة أهل الكتاب بالرفق واللين والإنصاف، وترك التعسف والبذاءة والإستطالة إلا لمن بدأ منهم بشيء من ذلك فإنه يعارض بما يفحمه و يلجم خصومته.

٤ ــ مجادلة الصحابة للرسول صلىٰ الله عليه وسلم، ولم يكن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يمانع من الجدل إذا كان لطلب الحق والاسترشاد وتقرير القضايا المتعلقة بأمور الدين والدنيا.

وأذكر على سبيل المثال لجدال الصحابة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مثالين، أولهما: جدال سعد بن معاذ وسعد بن عبادة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الأحزاب، قال ابن إسحاق كما نقله عنه ابن كثير في السيرة النبوية «...فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مرابطاً وأقام المشركون يحاصرونه بضعاً وعشرين ليلة قريباً من شهر، ولم يكن بينهم حرب إلا الرّميّا بالنبل فلما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما حدثني عاصم بن عمر بن قتادة ومن لا أتهم عن الزهري، إلى عينية بن حصن والحارث بن عوف المريّ وهما قائدا غطفان وأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه فجرى بينه وبينهم الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح إلا المراوضة، فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل ذلك بعث إلى السعدين فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه، فقالا يارسول الله أمراً تحبه فنصنعه أم شيئاً أمرك الله به لابد لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ فقال: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر من شوكتهم إلى أمر مّا، فقال له سعد بن معاذ : يارسول الله قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة واحدة إلا قِرىً أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة، والله لانعطيهم إلا السيف حتى يحكم

الله بينـنـا وبينهـم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت وذاك فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال : ليجهدوا علينا» [١]

ثانيها : جدال عـمر بـن الخطاب في صلح الحديبية، قال ابن كثير رحمه الله في السيرة النبوية ما نصه (قال بن اسحاق قال الزهري: ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو أخا بني عامر بن لؤى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا إئت محمداً وصالحه ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا فوالله لا تتحدث العرب أنه دخلها عنوة أبداً، فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم مقبلاً قال: قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل، فلما انتهى سهيل إلى رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم تكلم فأطال الكلام وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر فأتى أبا بكر فقال : يا أبابكر أليس برسول الله؟ قال بلى، قال: أولسنا بالمسلمين ؟ قال بلى، قال أوليسوا بالمشركين؟ قال بلى قال فعلام نعطي الدَّنيَّة في ديننا؟ قال أبو بكر : ياعمر الزم غرزه فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله. ثم أتى رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ألست برسول الله؟ قال بلى قال أو لسنا بالمسلمين قال بلى، قال أوليسوا بالمشركين؟ قال : بلى، قال فعلام نعطي الدنيَّة في ديننا؟ قال أنا عبدالله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني»[٢] .

ولم يسخط رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم على عمر ولا أنكر عليه حق الجدال فيما لم يقتنع به في بادىء الأمر بل لعله صلى الله عليه وسلم قدر صلابة موقف عمر مجادلاً عما يعتقد أنه حق، ثم كان عمر هو الذي راجع نفسه لما تبينت له حكمة ذلك الصلح الذي عده القرآن (فتحاً مبيناً). ومثل عمر من يبادر فيعترف بالخطأ بمثل الشجاعة التي واتته حين جادل عن رأيه في صلابة لايخشى لومة لائم، على أنا لا نقصد من هذا أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يُدْلون بآرائهم قبل رأي رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أو يجادلون فيما تبين لهم فيه أنه حكم الله، وقد تقدم قول سعد

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص ٢٠١ ــ ٢٠٢.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير جـ ٣ ص٣١٩ ــ ٣٢٠.

بن معاذ وسعد بن عبادة لرسول الله صلى الله عليه وسلم (يارسول الله أمراً تحبه فنصنعه أم شيئاً أمرك الله به لابد لنا من العمل به أم شيئاً تصنعه لنا؟)، فلو قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بل أمر الله بهذا، لقالوا سمعنا وأطعنا.

ثم إن الصحابة حتى لو كانوا يرون في جدالهم شيئاً من الوجاهة فقد كانوا يعظمون رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا عمر بعد تلك المجادلة يقول عن نفسه «مازلت أصوم وأصلى وأتصدق وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمته يومئذ حتى رجوت الله أن يكون خيراً» والذي نريد الاستشهاد به لموضوعنا هو أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم ينكر عليهم هذه المجادلة ما دام المقصد منها حسناً ولا يختفي وراءها باطل بالكفر أو العناد، وأنت على علم من مجادلة خولة بنت ثعلبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في زوجها كما حكى الله قصتها في كتابه العزيز بقوله تعالى ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (١).

٥ ــ مجادلة عمر بن الخطاب لليهود، قال ابن عبد البر ما نصه «وجادل عمر بن الخطاب اليهود في جبريل وميكائيل فقال جماعة من المفسرين: كان لعمر أرض بأعلى المدينة فكان يأتيها وكان طريقه على موضع مدارسة اليهود وكان كلما مر دخل عليهم فسمع منهم، وأنه دخل عليهم ذات يوم فقالوا ياعمر ما من أصحاب محمد أحد أحب إلينا منك إنهم يمرون بنا فيؤذوننا وتمر بنا فلا تؤذينا وإنا لنطمع فيك، فقال لهم عمر أيّ يمين فيكم أعظم ؟ قالوا الرحمن، قال فبالرحمن الذي أنزل التوراة على موسى بطور سيناء أتجدون محمداً عندكم نبياً، فسكتوا، قال تكلموا ماشأنكم والله ما سألتكم وأنا شاك في شيء من ديني فنظر بعضهم إلى بعض فقام رجل منهم فقال: أخبروا الرجل أو لأخبرنّه، قالوا نعم إنا نجده مكتوباً عندنا ولكن صاحبه من الملائكة الذي يأتيه بالوحي هو جبريل وجبريل عدونا وهو صاحب كل عذاب وقتال وخسف ولو أنه كان وليه ميكائيل لآمنا به فإن ميكائيل صاحب كل رحمة وكل

---

(١) سورة المجادلة : ١.

غيث، قال لهم فأنشدكم بالرحمن الذي أنزل التوراة على موسى بطور سناء أين ميكائيل وأين جبريل من الله، قالوا جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، قال عمر فأشهد أن الذي هو عدو للذي عن يمينه هو عدو للذي عن يساره، والذي هو عدو للذي عن يساره هو عدو للذي عن يمينه، وأنه من كان عدواً لهما فإنه عدو لله، ثم رجع عمر ليخبر النبي صلى الله عليه وسلم فوجد جبريل قد سبقه بالوحي فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٩٧ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾[1] فقال عمر والذي بعثك بالحق لقد جئت وما أريد إلا أن أخبرك[2] ، فهذا مما صدق الله فيه قول عمر واحتجاجه، وهو باب من الاحتجاج لطيف مسلوك عند أهل النظر»[3] .

وهذه المجادلة قيل أنها جرت بين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبين اليهود في أمر النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم، وقيل أنها جرت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين اليهود في أمر نبوته وقد ذكر ابن جرير الطبري القولين في تفسيره[4] .

٦ ــ ومما أثر عن السلف محاجة المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة، ومحاجة عبد الله بن عباس للخوارج بأمر علي بن أبي طالب وما أنكر أحد من الصحابة قط الجدال في طلب الحق[5] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «درء تعارض العقل والنقل» ما نصه: «فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقه ولا وفى بموجب العلم والايمان ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس ولا أفاد كلامه العلم واليقين»[6] .

---

(١) البقرة ٩٧ ــ ٩٨.

(٢) انظر تفسير ابن جرير الطبرى جـ ٢ ص٣٨٤ ــ ٣٨٥، وانظر الدر المنثور للسيوطي ص ٩٠ ــ ٩١.

(٣) جامع بيان العلم فضله لابن عبدالبر جـ ٢ ص١٢٣ ــ ١٢٤.

(٤) انظر تفسير ابن جرير الطبرى جـ ٢ ص٣٧٧ وص٣٨١ من.

(٥) الفقيه والمتفقه، للبغدادي الخطيب جـ ١ ص ٢٣٥.

(٦) درء تعارض العقل والنقل جـ ١ ص٣٥٧.

وقال صاحب شرح الكوكب المنير ما نصه: «قال أبو محمد الجوزي في الإيضاح: اعلم وفقنا الله وإياك أن معرفة هذا العلم لا يستغني عنه ناظر ولا يتمشى من دونه كلام مناظر لأن به يتبين صحة الدليل من فساده تحريراً وتقريراً، وتصح الأسئلة الواردة من المردودة إجمالاً وتفصيلاً، ولولاه لاشتبه التحقيق في المناظرة بالمكابرة، ولو خليّ كل مدع مُدّعَى ما يرومه على الوجه الذي يختار، ولو مكن كل مانع من ممانعة ما يسمعه متى شاء، لأدى إلى الخلط وعدم الضبط وإنما المراسم الجدلية تفصل بين الحق والباطل، وتبين المستقيم من السقيم فمن لم يحط بها علماً كان في مناظراته كحاطب ليل»[1].

واعلم أن الذين منعوا الجدال والمناظرة دون تفريق بين ما يجب وما يحرم أو ما يستحب وما يكره تمسكوا بأدلة منها ما يلي:

١ ـ قوله تعالى (لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)[2].

٢ ـ قوله تعالى (وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ)[3]

٣ ـ قوله تعالى (فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ)[4]

٤ ـ قول الرسول صلى الله عليه وسلم (ما ضل قوم بعد هدي كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ثم قرأ (مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ))[5].

٥ ـ قوله صلى الله عليه وسلم (من ترك المراء وهو مبطل بنى الله له بيتاً في ربض الجنة ومن ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتاً في أعلى الجنة)[6].

---

(١) انظر شرح الكوكب المنير ص ٣٦٩.

(٢) الشورى: ١٥ ـ ١٦.

(٣) الشورى: ٣٥.

(٤) آل عمران: ٢٠.

(٥) رواه الترمذي وابن ماجة، وقال الترمذي حسن صحيح. والآية ٥٨ من سورة الزخرف.

(٦) رواه ابن ماجة وحسنه الترمذي.

٦ ـ قوله صلى الله عليه وسلم (أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخصم) رواه البخاري[١] .

٧ ـ ماروي عن مالك بن أنس أنه قال (ليس الجدال في الدين بشيء، وقال أفكلما كان رجل أجدل من رجل أردنا أن يرد ماجاء به جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم)[٢] .

هذا هو أقصى ما تمسكوا به من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وأنت ترى بأنها ظاهرة في دلالتها على الجدال بالباطل وهو النوع المذموم، قال ابن عبد البر في كتابه «جامع بيان العلم وفضله»«باب ما يكره فيه المناظرة والجدال والمراء» ما نصه: «قال أبو عمر: الآثار كلها في هذا الباب المروية عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم إنما وردت في النهي عن الجدال والمراء في القرآن» وروي عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم أنه قال: (المراء في القرآن كفر) ولا يصح عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم فيه غير هذا بوجه من الوجوه.

والمعنى أن يتمارى اثنان في آية يجحدها أحدهما و يدفعها أو يصير فيها إلى الشك، فذلك هو المراء الذي هو كفر، وأما التنازع في أحكام القرآن ومعانيه فقد تنازع أصحاب رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم في كثير من ذلك وهذا يبين لك أن المراء الذي هو كفر هو الجحود والشك كما قال عز وجل (وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ)[٣] ، ونهى السلف رحمهم الله عن الجدال في الله جل ثناؤه في صفاته وأسمائه.

أما الفقه، فأجمعوا على الجدال فيه والتناظر لأنه علم يحتاج فيه إلى رد الفروع على الأصول للحاجة إلى ذلك وليس الاعتقادات كذلك، لأن الله عز وجل لا يوصف عند الجماعة أهل السنة إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أو أجمعت الأمة عليه وليس كمثله شيء فيدرك بقياس أو بإنعام نظر، وقد نهينا

---

(١) صحيح البخاري كتاب المظالم وباب قول الله تعالى(وهو ألد الخصام).

(٢) انظر الفقيه والمتفقه جـ ١ ص٢٣١ وانظر كتاب الاعتصام للشاطبي جـ ٢ ص٢٥٧.

(٣) سورة الحج : ٥٥.

عن التفكير في الله وأمرنا بالتفكر في خلقه الدال عليه»[1] ، والإمام الغزالي يرى أن الجدل يترجح فيه جانب الغرور والكبرياء والترفع بإظهار العلم والفضل، ولهذا يعتبره آفة إذ يقول في كتابه الإحياء تحت عنوان «الآفة الرابعة المراء والجدل».

«أما المجادلة فعبارة عن قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقصه بالقدح في كلامه ونسبته إلى القصور والجهل فيه وآية ذلك أن يكون تنبهه للحق من جهة أخرى مكروهاً عند المجادل، يحب أن يكون هو المظهر له خطأه ليبين به فضل نفسه ونقص صاحبه، ولا نجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل مالا يأثم به لو سكت عنه، وأما الباعث على هذا فهو الترفع بإظهار العلم والفضل والتهجم على الغير بإظهار نقصه، وهما شهوتان باطنيتان للنفس قويتان لها. أما إظهار الفضل، فهو من قبيل تزكية النفس وهي من مقتضى ما في العبد من طغيان دعوى العلو والكبرياء، وهي من صفات الربوبية».

«وأما تنقيص الآخر فهي من مقتضى طبع السَّبُعيَّة فإنه يقتضي أن يمزق غيره ويقصمه ويصدمه ويؤذيه، وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان، وإنما قوتها المراء والجدال فالمواظب على المراء والجدال مقوّ لهذه الصفات المهلكة وهذا مجاوز حد الكراهة بل هو معصية مهما حصل فيه إيذاء الغير ولا تَنفك المماراة عن الإيذاء وتهييج الغضب وحمل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل، ويقدح في قائله بكل ما يتصوله فيثور الشجار بين المتمارين، كما يثور الهراش بين الكلبين يقصد كل واحد منهما أن يعض صاحبه بما هو أعم نكاية وأقوى في إفحامه وإلجامه».

«وأما علاجه، فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله، والسَّبُعِيَّة الباعثة له على تنقيص غيره كما سيأتي في كتاب ذم الكبر والعجب وكتاب ذم الغضب، فإن علاج كل علة بإماطة سببها، وسبب المراء والجدال ما ذكرناه ثم المواظبة عليه تجعله عادة وطبعاً حتى يتمكن من النفس ويعسر الصبر عنه»[2] .

---

(١) جامع بيان العلم وفضله جـ ٢ ص١١٣.

(٢) كتاب الإحياء للغزالي جـ ٣ ص١١٦ ــ ١١٨ ملخصاً.

وللجمع بين الأدلة نقول: إنه لا تعارض بحمد الله بين أدلة المانعين للجدل والمثبتين له، لأن أدلة المانعين ترجع إلى ذم الجدال بالباطل «وهو كل جدال ناصر الباطل أو أفضى إليه» وأدلة المثبتين تدل على وجوب أو استحسان الجدال لنصرة الحق وإقامة الحجة والبرهان لتبليغ رسالة الله والدفاع عنها، وهذه وظيفة الرسل والدعاة والمصلحين، وبهذا يندفع الإشكال و يتضح الأمر وتحمل أدلة المانعين للجدال الذامّين له على الجدال لنصرة الباطل وهوى النفس، وتحمل أدلة المادحين له على الجدال لنصرة الحق وتبليغ دعوة الله سبحانه، وبهذا يتضح أنه لا تعارض في الواقع بين أدلة الطرفين المتنازعين، وهو المطلوب.

قال الإمام الفخر الرازي في تفسيره عند قوله تعالى (وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ)[1] قال ما نصه: «واعلم أن هذه الآية تدل على فوائد، منها: وجوب النظر والاستدلال، وذلك لأنه تعالى بيّن أن الهداية والفلاح مرتبطان بما إذا سمع الإنسان أشياء كثيرة فإنه يختار منها ما هو الأحسن والأصوب، ومن المعلوم أن تميز الأحسن الأصوب عما سواه لا يحصل بالسماع، لأن السماع صار قدراً مشتركاً بين الكل لأن قوله تعالى (الذين يستمعون القول) يدل على أن السماع قدر مشترك فيه فثبت أن تميز الأحسن عما سواه لا يتأتى بالسماع وإنما يتأتى بحجة العقل، وهذا يدل على أن الموجب لاستحقاق المدح والثناء متابعة حجة العقل و بناء الأمر على النظر والاستدلال[2] .

وقال الرازي أيضاً عند قوله تعالى (مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ)[3] ما نصه «الجدال نوعان: جدال في تقرير الحق وجدال في تقرير الباطل، أما الجدال في تقرير الحق فهو حرفة الأنبياء عليهم السلام، قال

---

(١) سورة الزمر: ١٧ ــ ١٨.
(٢) الفخر الرازي جـ ٢٦ ص٢٦١.
(٣) سورة غافر: ٤.

تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم (وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ)[1] وقال حكاية عن الكفار إنهم قالوا لنوح عليه السلام (يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا)[2] .

وأما الجدال في تقرير الباطل فهو مذموم وهو المراد بهذه الآية، حيث قال تعالى (مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ)[3] وقال (مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ)[4] وقال (وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ)[5] ثم قال واعلم أن لفظ الجدال في الشيء مشعر بالجدال بالباطل، ولفظ الجدال عن الشيء مشعر بالجدال لأجل تقريره والذب عنه)«ثم قال : »«والجدال في آيات الله هو أن يقال مرة إنه سحر ومرة إنه شعر ومرة إنه قول الكهنة ومرة إنه أساطير الأولين، ومرة إنما يعلمه بشر وأشباه هذا مما كانوا يقولونه من الشبهات الباطلة، فذكر تعالى أنه لا يفعل هذا إلا الذين كفروا وأعرضوا عن الحق»[6] .

وقال الرازي في قوله تعالى (ما ضربوه لك إلا جدلاً)...القائلون بذم الجدل تمسكوا بهذه الآية إلا انّا قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى (ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا) إن الآيات الكثيرة دالة على أن الجدل موجب للمدح والثناء وطريق التوفيق أن تصرف تلك الآيات إلى الجدل الذي يفيد تقرير الحق، وأن تصرف هذه الآية إلى الجدل الذي يوجب تقرير الباطل»[7] .

وقال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى عند تفسير قوله تعالى (هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ)[8] مانصه:

---

(١) سورة النحل : آية : ١٢٥.
(٢) سورة هود آية ٣٢.
(٣) سورة غافر آية ٤.
(٤) سورة الزخرف آية : ٥٨.
(٥) سورة غافر آية : ٥.
(٦) انظر الفخر الرازي ج ٢٧ ص ٢٩.
(٧) انظر الفخر الرازي ج ٢٧ ص ٢٢٢.
(٨) سورة آل عمران آية ٦٦.

«وفي الآية دليل على المنع من الجدال لمن لا علم له والحظر على من لاتحقيق عنده فقال عز وجل (ها أنتم هولاء حاجتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم) وقد ورد الأمر بالجدال لمن علم وأيقن فقال تعالى (وجادلهم بالتي هي أحسن) وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتاه رجل أنكر ولده فقال يارسول الله إن امرأتي ولدت غلاماً أسود، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «هل لك من إبل؟ قال نعم قال مالونها؟ قال حمر قال هل فيها من أورق؟ قال نعم قال فمن أين ذلك قال لعل عرقاً نزعه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا الغلام لعل عرقا نزعه» وهذه حقيقة الجدال ونهاية في تبيين الاستدلال من رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] .

وقال ابن حزم في كتابه (أصول الأحكام)«وبالجملة فلا أضعف ممن يروم إبطال الجدال بالجدال ويريد هدم جميع الاحتجاج بالاحتجاج، ويتكلف فساد المناظرة بالمناظرة، لأنه مُقِرٌّ على نفسه أنه يأتي بالباطل، لأن حجته هي بعض الحجج التي يريد إبطال جملتها، وهذه طريق لايركبها إلا جاهل ضعيف أو معاند سخيف، والجدال الذي ندعو إليه هو طلب الحق ونصره، وإزهاق الباطل وتبيينه»[2] .

ومن خلال هذا العرض لأقوال بعض العلماء في موضوع الجدال يتبين لنا بياناً لا لُبس فيه أن الجدل تارة يكون بالحق وتارة يكون بالباطل وأن الجمع بين تلك النصوص الواردة من الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة يكون بحملها على ما يناسبها من حالات الجدال بالحق أو حالات الجدال بالباطل وهذا هو المنهج الصحيح الذي يؤيده العقل والنقل.

الجدال المذموم :

وتعريفه : «كل جدال ظاهر الباطل أو أفضى إليه» والأدلة كثيرة من الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة في ذم الجدال بالباطل، ومن هذه الأدلة ما تقدم من

(١) تفسير القرطبي جـ ٤ ص١٠٨ ــ ١٠٩.
(٢) الأحكام لابن حزم جـ ١ ص٢٧.

النصوص التي أوردناها سابقاً للذين ذهبوا إلى التمسك بذم الجدل مطلقاً، و يضاف إليها قول الله عز وجل (وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ)(١) وأنت ترى في هذا تنصيصاً على ذم الجدال بالباطل، وأن الباطل قد يظهر وتكون له صولة فما موقف الحق وأنصاره من هذا التحدي؟ أو ليس الله تعالى يقول (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق)(٢) وبأي شيء يكون قذف الباطل؟ هل يكون بالسكوت أم يكون بقوة السنان و بالحجة والبرهان؟، لاشك في أن هذا هو الأصح، لأن السيف مرة لنا ومرة علينا، وليس البرهان كذلك بل هو لنا أبداً ما دمنا مع الحق، ورب قوة باليد قد دفعت بالباطل حقاً كثيراً فأزهقته كما في مقتل عثمان رضي الله عنه و يوم الحرة و يوم مقتل الحسين وابن الزبير رضي الله عنهم، وقد قتل أنبياء كثيرون وما غلبت حجتهم قط(٣) ومن الأدلة على ذم الجدال بالباطل قوله تعالى (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ)(٤) يتبين لنا من الآيات السابقة أن الجدال المذموم قسمان:

١ ــ جدال بغير علم (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم..الآية).
٢ ــ جدال لنصرة الباطل بالشغب والتمويه بعد ظهور الحق (وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ)(٥)

ومما تقدم نستخلص النتائج التالية :

١ ــ أن الجدل تارة يكون بالحق وتارة يكون بالباطل، والحكم يدور بدوران علته فحيث وجد الجدال بالباطل كان محرماً، وحيث وجد الحق كان مباحاً أو واجباً، وذلك على حسب المقامات التي تقتضيها بواعث الجدل.
٢ ــ إنه لا تعارض بين النصوص الواردة في النهي عن الجدل والنصوص الواردة في

---

(١) الكهف : ٥٦.
(٢) الأنبياء : ١٨.
(٣) كتاب الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم بتصرف جـ ١ ص٢٥.
(٤) سورة الحج آية : ٣.
(٥) سورة غافر : ٥.

الأمر بـه لأننا نعلم يقيناً أن الجدل الذي أمر الله به غير الجدل الذي نهى عنه، فتُحمل نصوص النهي على الجدال بالباطل ونصوص الأمر به على الجدال بالحق فتدفع الإشكال الذي قد يعرض لبسطاء الناس.

٣ ـ أن الجدال بالحق لإقامة الحجة على أهل الإلحاد والبدع من الجهاد في سبيل الله كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم)[١] وإنما يكون الجهاد باللسان بتبيان الحق بالحجة والبرهان لا بالشغب والهذيان والسب والشتم.

٤ ـ أن الجدال بالحق من النصيحة في الدين ألا ترى إلى قوم نوح عليه السلام قالوا له (يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا)[٢] فكان جوابه لهم بقوله (وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ)[٣] .

وقال الإمام ابن القيم في كتابه زاد المعاد في قصة وفد نصارى نجران وما اشتملت عليه من فوائد مانصه «ومنها جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم، بل استحباب ذلك، بل وجوبه إذا ظهرت مصلحته من إسلام من يرجى إسلامه منهم، وإقامة الحجة عليهم ولا يهرب من مجادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحجة فليوَدّ ذلك إلى أهله، وليخل بين المطي وحاديها والقوس وباريها!!!»[٤]

وقال الإمام الشوكاني[٥] عند قول الله تعالى (مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟)[٦] ، أي ما يخاصم في دفع آيات الله وتكذيبها إلا الذين كفروا، والمراد الجدال بالباطل والقصد إلى دحض الحق كما في قوله تعالى (وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ)[٧] فأما الجدال لاستيضاح الحق، ورفع اللبس والبحث عن

---

(١) انظر الحديث في سنن النسائي : كتاب الجهاد جـ ٦ ص٧ وأبي داود : جهاد جـ ٣ ص١٠

(٢) هود : ٣٢.

(٣) هود : ٣٤.

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد جـ ٣ ص٤٢.

(٥) فتح القدير جـ ٤ ص٤٨١.

(٦) غافر : ٤.

(٧) غافر : ٥.

الراجح والمرجوح وعن المحكم والمتشابه ودفع ما يتعلق به المبطلون فهو من أعظم ما يتقرب به المتقربون و بذلك أخذ الله الميثاق على الذين أوتوا الكتاب فقال (وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ)[1] وقال (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد مابيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله و يلعنهم اللاعنون[2]) وقال (وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ)[3]

٥ ـ أن الجدال بالباطل هدم لكيان المجتمع الإنساني فكم جر من الو يلات والحزازات بين الأفراد والجماعات والأمم، وكم من صراع فكري جدلي تحول إلى صراع دموي نتيجة الخوض في الباطل وعدم الإصغاء إلى برهان الحق ومنطق البيان.

٦ ـ أن البشر ية كلما احتكمت في فض نزاعاتها إلى منطق الحجة والبرهان والتزمت آداب الجدال، كلما كانت أقرب إلى السمو والإنسانية مما لو لجأت إلى منطق القوة والسلاح.

هذه نبذة عن الجدل الممدوح والجدل المذموم دونتها في هذا الفصل بإيجاز والعلم عند الله تعالى.

---

(١) سورة آل عمران ١٨٧.

(٢) البقرة : ١٥٩.

(٣) العنكبوت : ٤٦.



الباب الثاني

الاستدلال القرآني وعلاقته بالجدل



ظاهرة الجدل واثر الاقناع القراني

تنطق شواهد الكون بعظمة خالق هذا الوجود وتشهد الفطر الإنسانية السليمة بصحة ما دعت إليه الرسل عليهم الصلاة والسلام من مبادىء وأخلاق وقيم.

ومثل هذه الحقائق التي تظهر ظهور الشمس في رابعة النهار وتحس بها المشاعر، لا تحتاج إلى إقامة دليل عليها، لأن المطالبة بإقامة الدليل على الأمور البدهية كالحسيات والمشاهدات تعتبر مكابرة ومعاندة، ولكن من سنة الله في خلقه أن جعل مقاييس العقول متفاوتة ونزعات النفوس متباينة فينتج عن تلك النزعات حوار فكري تختلف بواعثه وأغراضه باختلاف المقامات والموارد وقد ذكر الله هذه الظاهرة الإنسانية فقال تعالى: (وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا)[1] ، وأمام هذه النزعات النفسية لا بد من أن تقوم حجة الله في أرضه، وتعلو كلمته فأنزل الله هذا القرآن هدى للناس ورحمة فكان بلسماً شافياً لتلك النزعات يضفي على النفوس المؤمنة إيماناً في القلوب ونوراً في البصائر، وهداية في السلوك.

ويعالج أمراض النفوس التي ارتكست في غياهب الظلم والشبهات بالموعظة الحسنة والدعوة الخيرة (أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)[2] (مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)[3] ، (إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا)[4] .

---

(١) سورة الكهف : آية ٥٤.
(٢) سورة آل عمران : آية ٨٣.
(٣) سورة النساء : آية ١٤٧.
(٤) سورة الإسراء : آية ٩.

إن دعوة القرآن الرفيقة اللينة لتأخذ بالألباب وتدخل إلى الوجدان فتؤثر في النفوس أيما تأثير حتى أن تلك النفوس المرتكسة في غيها تتفاعل فيها الأحاسيس والمشاعر عند سماع القرآن وتوقن في قرارات أنفسها بأن هذا يعلو على أساليب البشر، وهذا ما وقع لكثير من المشركين عند سماع القرآن، فقد سمع جُبير بن مطعم رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآيات (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ)[1] قال كاد قلبي يطير ، وذلك أول ما وقر الإسلام في قلبي[2] .

وقد سلك القرآن الكريم وهو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه في مخاطباته أساليب شتى، وتفنن في ضروب الهداية وطرق الإقناع لاختلاف مشارب الناس وتباين مقاصدهم وتفاوت مداركهم.

وإذا أمعنت النظر في كتاب الله وجدته يخاطب العقل والقلب معاً و يؤثر فيهما تأثيراً متلازماً لكون المخاطب إنساناً وهذا ما يلمسه الإنسان عندما يتلو كتاب الله بتدبر وتمعن (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ)[3] .

وكما سلك القرآن في أدلته طرق الإقناع والتوجيه والإرشاد فإنه أتى بطرق الإلزام والإفحام فكان يسوق أدلته مستدلاً مقرراً، أو ملزماً مفحماً فاكتملت به الهداية وقامت به الحجة واتضحت المحجة (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)[4] .

---

(١) سورة الطور : آية ٣٥/٣٦/٣٧.

(٢) الاتقان للسيوطي : ج ٢ ص ٢٠٧.

(٣) سورة الزمر : آية ٢٣.

(٤) سورة النساء آية ٨٢.

الدلالة والاستدلال والفرق بينها :

أما الدلالة فهي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأول هو الدال، والشيء الثاني هو المدلول[1] . وأما الاستدلال: فهو إيراد الدليل لدعم القضية، سواء أكان بطلب من المخالف أم استطراد من المستدل.

والفرق بينها: أن الدلالة ما يمكن الاستدلال به، والاستدلال فعل المستدل[2] . ثم أعلم أن الدليل، وهو فاعل الدلالة، يأخذ طابع الإلزام إذا سلم تركيبه من التناقض والاختلاف واستعمل في مورده.

وجميع أدلة القرآن أدلة إلزامية لثبوت الإعجاز لها من جهة، ولسلامتها من التناقض والاختلاف من جهة أخرى، ومعنى هذا أن جميع أدلة القرآن قطعية في ثبوتها لأنها وردت بطريق يستحيل فيها الكذب، وأما كونها قطعية في دلالتها فإن ذلك من موضوعات علم الأصول، ويمكن تقسيم أدلة القرآن من حيث دلالتها، إلى أدلة عقائد وأدلة أحكام

فأدلة العقائد يرد بها على الخصوم و يُقرر بها القواعد الاعتقادية كالتوحيد، والغالب أن تكون هذه الأدلة قطعية في دلالتها لأنها تقيم الحجج والبراهين على قضايا معينة.

أما أدلة الأحكام فإنها تختلف دلالتها حسب نوع الدليل من حيث كونه نصاً أو ظاهراً أو مؤولا... الخ. فتكون قطعية إذا كانت نصاً في الموضوع أو ظنية إذا احتمل الدليل عدة أوجه أو كان بطريق الاستنباط... الخ.

والدلالة الظنية في أدلة القرآن أمر نسبي لا يرجع فيه الظن إلى مادة الدليل لأن

---

(١) التعريفات للجرجاني ص٩٣.

(٢) الفروق لأبي هلال العسكري ص ٦١.

مادة الدليل في القرآن صحيحة، ولكن الظن يرجع إلى استخدام المستدل بهذه المادة وعدم قدرته على القطع بأنها تدل على كذا أو كذا من الأحكام.

وجملة القول أن جميع أدلة القرآن قطعية في ثبوتها وهذا شيء لايقبل النقاش والجدل لأنه معلوم من الدين بالضرورة، وقد تكفل بهذه الموضوعات علماء الأصول، وعلى هذا فليس هو من موضوع بحثنا لعدم اتصاله بالجدل القرآنيمن كل وجه.

علاقة الجدل بالاستدلال القرآني :

القرآن الكريم نزل بلغة العرب، والجدل في اللغة ــ كما سبق لنا ــ فيه معنى المغالبة والإلزام. والاستدلال القرآني يراد منه إظهار الحق ودفع الباطل، وهذا يأتي عن طريق الحوار الفكري والإلزام بطريقة الحجة والبرهان، وسُمِّيَ الاستدلال القرآني بالجدل لما فيه من معنى مغالبة الخصم بالحجة والبرهان.

والجدل القرآني يستهدف تقرير الحق وإزهاق الباطل وإنما يتضح ذلك تماماً إذا قسمنا الأدلة القرآنية إلى قسمين كما تقدم وكما أشار إلى ذلك الإمام الشاطبي في موافقاته فقال: «إن الأدلة الشرعية ضربان:

أحدهما: أن يكون على طريقة البرهان العقلي فيستدل به على المطلوب الذي جعل دليلاً عليه وكأنه تعليم للأمة كيف يستدلون على المخالفين وهو في أول الأمر موضوع لذلك.

وتدخل هنا جميع البراهين العقلية وما جرى مجراها كقوله تعالى ﴿ لَوْكَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (١) وقوله: ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ (٢)

---

(١) الأنبياء : ٢٢.
(٢) النحل : ١٠٣.

وهذا الضرب يستدل به على الموافق والمخالف، لأنه معلوم عند من له عقل فلا يقتصر به على الموافق في النحلة.

وثانيها، مبني على الموافقة في النحلة وذلك مثل الأدلة الدالة على الأحكام التكليفية كدلالة الأوامر والنواهي على الطلب من المكلف ودلالة (كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى) و (كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ) و (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ)[1] ، فإن هذه النصوص وأمثالها لم توضع وضع البراهين ولا أتى بها في محل الاستدلال بل جيء بها قضايا مسلمة متلقاة بالقبول، وإنما برهانها في الحقيقة المعجزة الدالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم الآتي بها ، وإذا ثبت برهان بالضرب الأول أخذ الدليل إنشائياً كأنه هو واضعه، وإذا استدل بالضرب الثاني أخذه معنى مسلماً لفهم مقتضاه إلزاماً والتزاماً، فإذا اطلق لفظ الدليل على الضربين فهو نوع من اشتراك اللفظ، لأن الدليل بالمعنى الأول خلافه بالمعنى الثاني، فهو بالمعنى الأول جار على الاصطلاح المشهور عند العلماء، وبالمعنى الثاني نتيجة انتجتها المعجزة فصارت قولاً مقبولاً»[2] .

والضرب الأول من الضربين اللذين ذكرهما الشاطبي آنفاً، هو الذي سنتحدث عنه من أدلة القرآن ، لأنه مشتمل على الجدال بالأخذ والرد والنقض والإبطال والمعارضة فيحاجّ العقل البشري بأروع حجة وأحكم برهان.

طرق الاستدلال القرآني :

لقد جادل القرآن الكريم الخصوم، فأفحم المعاندين، وألزم المنكرين وأرشد المترددين الشاكين، وأقنعهم بالدليل القطعي بصحة ما يدعو إليه، وقد نهج القرآن في رده على الخصوم مناهج متعددة، وجادلهم بالمنع والنقض والمعارضة.

---

(١) سورة البقرة : آيات ١٧٨، ١٨٣، ١٨٧.

(٢) الموافقات للشاطبي ج ٣ ص ٣٢، ٣٣.

وقد ذكر العلماء أنواعاً من الجدل القرآني كالإمام السيوطي في كتابه «الإتقان»[1] والإمام عبد الرحمن بن نجم المعروف بابن الحنبلي في كتابه «استخراج الجدال من القرآن الكريم»؛[2] والشيخ محمد علي سلامة في كتابه « منهج الفرقان في علوم القرآن»[3] وغيرهم من العلماء الذين تحدثوا عن جدل القرآن.

وسأورد هنا نماذج من طرق الاستدلال القرآني في الرد على الخصوم، أما موضوعات الجدل في القرآن فهي ما سأبينه في الباب الثالث إن شاء الله تعالى.

ومن مسالك الاستدلال القرآني في الرد على الخصوم ما يلي:

السبر والتقسيم :

وهو باب من أبواب الجدل يتخذه المجادل سبيلاً لإبطال دعوى من يجادله، و يكون ذلك بحصر الأوصاف للموضوع الذي يجادل فيه ثم يبين أنه ليس في أحد هذه الأوصاف خاصيةٌ تسوّغ قبول الدعوى فيه فتبطل دعوى الخصم عن طريق هذا الحصر المنطقي للموضوع.

قال ابن الأنباري في شرح البرهان: «السبر يرجع إلى اختبار أوصاف المحل»[4] .

وقد ذكر السيوطي رحمة الله في (الإتقان) أن من أمثلة هذا قوله تعالى (ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ)[5].

---

(١) الاتقان في علوم القرآن ج ٤ من ص ٥٥ إلى ص ٥٧.
(٢) مخطوط برواق الاترك بالأزهر برقم ٣٤٠ وفي دار الكتب المصرية مصور برقم ٦٦٩.
(٣) منهج الفرقان في علم القرآن تأليف الشيخ محمد علي سلامه ــ مطبعة شبرا سنة ١٩٣٧م.
(٤) ذكره الشوكاني في إرشاد الفحول ص ٢١٤.
(٥) سورة الأنعام : آية ١٤٣، ١٤٤.

وقد بين السيوطي رحمه الله وجه الاستدلال من هذه الآية الكريمة فقال: «إن الكفار لما حرموا ذكور الأنعام تارة وإناثها أخرى، رد الله تعالى عليهم ذلك بطريق السبر والتقسيم، فقال: إن الخلق لله، خلق من كل زوج مما ذكر ذكراً وأنثى، فمّم جاء تحريم ما ذكرتم؟ أي ما علته؟ لا يخلو إما أن يكون من جهة الذكورة أو الأنوثة أو اشتمال الرحم الشامل لها أو لا يدري له علة وهو التعبدي بأن أخذ ذلك عن الله تعالى والأخذ عن الله تعالى إما بوحي أو إرسال رسول أو سماع كلامه ومشاهدة تلقي ذلك عنه، وهو معنى قوله (أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا).

«فهذه وجوه التحريم لاتخرج عن واحد منها. والأول يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حراماً، والثاني يلزم عليه أن يكون جميع الإناث حراماً، والثالث يلزم عليه تحريم الصنفين معاً، فبطل ما فعلوه من تحريم بعض في حالة، وبعض في حالة أخرى، لأن العلة على ماذكر تقتضي إطلاق التحريم، والأخذ عن الله بلا واسطة باطل ولم يدّعُوه، وبواسطة رسول كذلك لأنه لم يأت إليهم رسول قبل النبي صلى الله عليه وسلم، وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدعى وهو أن ما قالوه افتراء على الله وضلال» (١) .

وخلاصة الاستدلال على بطلان ما ادعوا من تحريم السائبة والوصيلة وبعض الضأن والماعز والبقر، أن الله تعالى ينبههم إلى أن التحريم يكون لوصف ذاتي في هذه المحرمات أو لوحي من الله أو أمر من رسول، وبما أنه لم يكن ثمة وصف ذاتي يقتضي التحريم فهل كان التحريم بنص من رسول، أو وحي من الله أو من أين جاء هذا العلم؟ والجواب: لاشيء من ذلك سوى الافتراء عَلَى الله والقول عليه بلا علم (وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٢)).

---

(١) الإتقان : ج ٤ ص ٥٥.

(٢) سورة النحل : آية ١١٦.

الاستفهام التقريري :

وهو الاستفهام عن المقدمات البينة البرهانية التي لايمكن لأحد أن يجحدها وهي تدل على المطلوب لتقرير المخاطب بالحق ولاعترافه بإنكار الباطل.

وهذا النوع من أحسن جدل القرآن بالبرهان فإن الجدل إنما يشترط فيه أن يسلم الخصم بالمقدمات أو أن تكون بينة معروفة فإذا كانت بينة معروفة كانت برهانية»[1] .

واعلم أن القرآن لايستدل في مجادلاته بمقدمة لمجرد تسليم الخصم بها، كما هي الطريقة الجدلية المعروفة عند أهل المنطق بل يستدل بالقضايا والمقدمات التي يسلمها الناس لتكون ادعى للانقياد للحق ومجانبة الباطل، ولا شك أن في الاستفهام استثارة وبياناً لما في النفوس ليكون الإلزام أبلغ وأقوى

ومن أمثلة الاستفهام التقريري ما يلي:

١ ــ قوله تعالى (أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ)[2]

٢ ــ قوله تعالى (أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ)[3] .

٣ ــ قوله تعالى (أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ) إلى قوله سبحان الله (عَمَّا يُشْرِكُونَ)[4] .

الأقيسة الإضمارية :

وهي التي تحذف فيها إحدى المقدمات مع وجود ما ينبىء عن المحذوف، والناظر والمستقري لأدلة القرآن يرى أن أكثرها قد حذفت منه إحدى المقدمات.

---

(١) منهج الفرقان «محمد علي سلامه».

(٢) سورة يس : آية ٨١.

(٣) سورة البلد : الآيات ٨، ٩، ١٠.

(٤) سورة الطور : من آية ٣٥ إلى آية ٤٣.

وذكر صاحب شرح العقيدة الطحاوية ما نصه: «إن الطريقة الفصيحة في البيان أن تحذف إحدى المقدمات وهي طريقة القرآن»[1] .

وقال الغزالي رحمه الله « إن القرآن مبناه الحذف والإيجاز أي «في شكل الأقيسة» واقرأ قوله تعالى يرد على النصارى الذين يزعمون أن عيسى بن الله، لأنه خلق من غير أب ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾[2] .

ولا شك فى أن المثل الذي ساقه الغزالي حذف إحدى المقدمات واضح فيه، كما هو واضح من المقايسة بين خلق آدم وعيسى عليهما السلام، وأنه إذا كان الخلق من غير أب مسوغاً لاتخاذ عيسى إلهاً، فأولى أن يكون الخلق من غير أب ولا أم مسوغاً لاتخاذ آدم إلهاً ولا أحد يقول ذلك.

«وأننا لنجد أنه قد حذفت مقدمة أخرى، وكأن سياق الدليل في غير كلام الله تعالى يكون: إن آدم خلق من غير أب ولا أم، وعيسى خلق من غير أب، فلو كان عيسى إلهاً بسبب ذلك لكان آدم أولى، لكن آدم ليس ابناً ولا إلهاً باعترافكم، فعيسى أيضاً ليس ابناً ولا إلهاً.

وإن الحذف قد صيّر في الكلام طلاوة وأكْسَبهُ رونقاً وجعل الجملة مثلاً مأثوراً يعطي الكلام حجة في الرد على النصارى ويذكر الجميع بأن آدم والناس جميعاً ينتهون إليه وإنما خلق من تراب، فلا عزة إلا لله تعالى»[3] .

قياس الخَلْف :

«وهو إثبات المطلوب بإبطال نقيضه» وذلك لأن النقيضين لايجتمعان ولايخلو المحل من أحدهما كالمقابلة بين العدم والوجود.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٣.

(٢) سورة آل عمران : الآيات ٥٩، ٦٠.

(٣) المعجزة الكبرى القرآن ـ لمحمد أبو زهرة ص ٣٩٨ بتصرف.

ودليل الخلف، أن يبطل النقيض فيثبت الحق، وإن القرآن الكريم يتجه في استدلاله إلى إبطال ما عليه المشركون فيبطل عبادة الأوثان و يثبت التوحيد.

ومن ذلك الاستدلال على التوحيد قوله تعالى ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[1] .

وتقرير الدليل كما يسوقه علماء الكلام من غير أن نتسامى إلى مقام البيان القرآني: لو كان في السموات والأرض إله غير الله لتنازعت الإرادتان بين سلب وإيجاب وإن هذا التنازع يؤدي إلى فسادهما لتناقض الإرادتين ولكنهما صالحان غير فاسدين فبطل ما يؤدي إلى الفساد فكانت الوحدانية فسبحان الله رب العرش عما يصفون.

و يسمي علماء الكلام هذا الدليل دليل التمانع ، أي امتنعت الوثنية لامتناع الفساد فكانت الوحدانية.

ومن قياس الخلف في إثبات أن القرآن من عند الله سبحانه وتعالى قوله ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾[2] وإذا ثبت أنه ليس فيه اختلاف ولا تضارب في مقرراته ولا عباراته فإنه يثبت النقيض وهو أنه من عند الله تعالى»[3]

قياس التمثيل :

وهو إلحاق أحد الشيئين بالآخر، وذلك بأن يقيس المستدل الأمر الذي يدعيه على أمر معروف عند من يخاطبه أو على أمر بدهي لا تنكره العقول و بين الجهة الجامعة بينهما.

وقد سلك القرآن الكريم في استدلاله هذا المسلك على أدق وجه وأحكمه مقرباً ما بين الحقائق القرآنية والبداهة العقلية، وكثير من استدلالات البعث تقوم على تقريب

---

(١) سورة الأنبياء : آية ٢٢.

(٢) سورة النساء : آية ٨٢.

(٣) المعجزة الكبرى لمحمد أبو زهرة ص ٤٠١.

البعث وقدرة الله عليه بما يرون من إنشاء الله لذلك الكون البديع، وخلق الإنسان وبيان أطواره من أصلاب الأباء إلى أرحام الأمهات إلى أن يكون خلقاً سوياً (فتبارك الله أحسن الخالقين).

واقرأ قوله تعالى (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)(١) وقوله تعالى (أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ)(٢)

تجد في هذه الآيات الكريمة عقد المشابهة بين ابتداء الخلق وإعادته في أبلغ تعبير وأسلم تقرير وأن في هذه الأمثلة وغيرها مما اشتمل عليه القرآن الكريم قياس ما في الغيب على المشاهد، وقياس مابينه الله تعالى وأوجب الإيمان به على ماهو واقع مرئي مشاهد وفيه الدلالة الكاملة على قدرة الله تعالى وأنه المالك لماهو واقع والقادر على ما لم يقع الآن و يقع مستقبلاً كما وعد، والله لايخلف الميعاد.

الاستدلال بالقصص القرآني :

قد يساق الدليل في قصة و يأخذ صورته من واقع الحياة في حوادثها، فتصغي إليه الآذان، وتميل إليه النفوس، وترتاح إليه الأفئدة، وتتأثر بما فيه من عظات وعبر.

وقد اتخذ القرآن الكريم من القصص سبيلاً للإقناع والتأثير، وفي ضمن القصة أدلة على بطلان الشرك وعبادة الأوثان، وقد يكون موضوع القصة رسولاً يعرفون قدره ومكانته كإبراهيم وموسى عليهما السلام، فإن معظم العرب كانوا يعظمون إبراهيم عليه السلام لأنهم ينتسبون إليه وكانوا يزعمون أنهم على ملته، واليهود تعظمه أيضاً وتعظم موسى عليهما السلام، ومجيء الدليل على لسان رسول يقر بفضله المخالفون كإبراهيم عند العرب وموسى عند بني إسرائل يعطي الدليل قوة فوق قوته الذاتية إذ تكون الحجة قد أقيمت عليهم من جهتين: من جهة قوة الدليل الذاتية، ومن جهة أن الذي قاله رسول

---

(١) سورة يس : الآيات ٧٨ ــ ٨١.
(٢) سورة ق : آية ١٥.

أمين يعرفونه، فيكون هذا قوة إضافية، وفوق ذلك فيه إلزام وإفحام إذ أنهم يدّعون أنهم أتباعه.

فقصة إبراهيم مع قومه في إبطال عبادة الكواكب ومجادلته للنمرود في إثبات الوحدانية لله، وقصة موسى مع فرعون وما دار بينهما من صراع انتهى بانتصار الحق على الباطل، كل ذلك يجيء دليلاً على صدق أنبياء الله ورسله فيما جاؤا به من دعوة للإيمان وهداية للبشرية.

مطالبة الخصم بتصحيح دعواه وإثبات كذبه في مدّعاه :

وذلك كدعوى اليهود بأن النار لن تمسهم إلا بقدر الأيام التي عبدوا فيها العجل كما ذكرها بعض المفسرين، قال تعالى (وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)[1] .

ومن المعلوم أن هذه الدعوى كانت في أمر غيبي لا يثبت إلا بالوحي فكأن القرآن قال لهم: دعواكم هذه مبنية على أحد افتراضين: إما أن يكون عندكم عهد من الله وبرهان على ما تقولون فيلزمكم الإدلاء به، والله لا يخلف عهده، وإما أن يكون قولكم هذا تقوّلاً على الله بلا علم فتكون دعواكم خالية من الدليل.

والدعاوى مالم يقيموا عليها بينات، أصحابها أدعياء[2]

وبما أنه لم يثبت عندكم من الله عهد فقد انتفى هذا الافتراض، وثبت الافتراض الثاني وهو أن دعواكم خالية من الدليل فبطلت لخلوها من العلم والبرهان، وهذا النوع كثير في القرآن الكريم، وهو نوع بديع من أنواع الجدل لأن فيه قطعاً للخصم وإفحاماً له.

---

(١) سورة البقرة : آية ٨٠.

(٢) هذا البيت من همزية البوصيري الشاعر المعروف، وله ديوان شعر، وقد طبع بمطبعة البابي الحلبي.

القول بالموجب :

وهو رد دعوى الخصم من فحوى كلامه، كما ذكره السيوطي عن ابن أبي الأصبع[١] وجعله بعض العلماء قسمين[٢] .

أحدهما : أن تقع صفة في كلام الغير كناية عن شيء أثبت له حكم فيثبتها لغير ذلك الشيء، ومثلوا لذلك بقوله تعالى (يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ[٣]) فـ(الأعز) في كلام المنافقين وقعت كناية عن فريقهم، و(الأذل) كناية عن فريق المؤمنين، أثبت المنافقون لفريقهم إخراج المؤمنين من المدنية فأثبت الله في الرد عليهم صفة العزة لغير فريقهم ، إذ أثبتها تبارك وتعالى له ولرسوله وللمؤمنين ، فكأنه قيل صحيح ما تقولون (ليخرجن الأعز منها الأذل) ولكن الأعز هو الله ورسوله والمؤمنون، وأنتم الأذل وستخرجون منها.

وثانيهما : حمل لفظ وقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقة، قال السيوطي رحمه الله في كتابه الإتقان[٤] «ولم أر من أورد له مثالاً من القرآن وقد ظفرت بآية منه وهي قوله تعالى (وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ)[٥] .

التسليم :

وهو أن يفرض المحال إما منفياً أو مشروطاً بحرف الامتناع لكون المذكور ممتنع الوقوع لامتناع وقوع شرطه، ثم يسلم وقوع ذلك تسليماً جدلياً و يدل على عدم فائدة

---

(١) الاتقان : ج ٤ ص ٥٥.

(٢) انظر الإتقان : ج ٤ ص ٥٦.

(٣) سورة المنافقين : آية ٨.

(٤) الإتقان ج ٤ ص ٥٦

(٥) سورة التوبة : آية ٦١.

ذلك على تقدير وقوعه كقوله تعالى (مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ) [1].

والمعنى ليس مع الله من إله، ولو سلم أن معه سبحانه إلهاً للزم من ذلك التسليم ذهاب كل إله من الاثنين بما خلق، وعلو أحدهما على الآخر، فلا يتم في العالم أمر ولا ينفذ فيه حكم ولا تنتظم أحواله، والواقع خلاف ذلك ففرض إلهين فأكثر محال لما يلزم منه من المحال [2]، وهذا النوع من الاستدلال قريب من قياس الخلف الآنف الذكر، إلا أنه ينفرد عنه بالتسليم الجدلي الوارد في الخيال لا في الواقع.

الإسجال :

وهو أن تثبت على لسان خصمك ألفاظاً في سياق آخر تسجل به عليه ما كان عنده محل شبهة وإنكار، وذلك مثل قوله تعالى (وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ) [3]

الانتقال في الاستدلال :

وهو أن ينتقل المستدل من دليل إلى دليل، أو من مثال إلى مثال لعدم فهم الخصم وجه الدلالة من الدليل أو المثال الأول، أو عند فهمه وجه الدلالة ولكنه يقصد المغالطة فيأتي بدليل أو مثال آخر لايجد الخصم معه مفراً دون الانقطاع أو التسليم.

ومن أمثلة هذا ما حكاه الله تعالى عن مناظرة إبراهيم عليه السلام للنمرود حيث قال تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ

---

(١) سورة المؤمنون : آية ٩١.

(٢) انظر بدائع القرآن لابن أبي الأصبع البصري ص ٢٩٥ مطبعة الرسالة عام ١٩٥٧م. انظر منهج الفرقان لمحمد علي سلامة، والاتقان ج ٤ ص ٥٦.

(٣) سورة الأعراف : آية ٤٤ ــ ٤٥.

وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِ، وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)[1]

وسنوضح هذا عند الحديث عن مناظرة إبراهيم عليه السلام للنمرود ولقومه في الباب الثالث إن شاء الله تعالى.

المناقضة :

وهي تعليق الأمر على مستحيل للدلالة على استحالة وقوعه[2]، مثل قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ)[3].

مجاراة الخصم لتتبين عثرته :

وذلك بأن تسلم للخصم بعض مقدماته مع الإشارة إلى أنها لا تنتج ما يريده هو بل هي مساعدة على إنتاج ما تريده أنت وذلك مثل قوله تعالى (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)[4].

فكأن الرسل عليهم الصلاة والسلام قالوا في الرد على المنكرين لنبوتهم ما أدَّعيتم من كوننا بشراً حق لا ننكره، ولكن دعواكم هذه لا تنتج عدم الرسالة، ولا تنافي أن يمن الله علينا بها. بل البشرية شرط في الرسالة إلى عامة البشر، فإن سنة الله جرت

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٥٨.

(٢) الإتقان : ج ٤ ص ٥٧ بتصرف.

(٣) سورة الأعراف : آية ٤٠.

(٤) سورة إبراهيم : الآيات ١٠، ١١.

بأن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم يعرفون قدره ومكانته وصدقه وأمانته، وقد بينّ الله تعالى هذه الظاهرة بقوله (وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا)[1] .

والاستدلال بمجاراة الخصم قريب من الاستدلال بالقول بالموجب «بفتح الجيم» الذي تقدم ذكره إلا أن الفرق بينهما يرجع إلى الوصف الذاتي الوارد في كلام الخصم في القول بالموجب، فإنه قد عومل بنقيض قصده الوارد على لسانه، أما مجاراة الخصم ففيه تسليم لبعض المقدمات مع بيان أن هذه المقدمات غير مانعة من نقيض قصده فهي مراد لا يمنع من الإيراد، وفي مجاراة الخصم اجتذاب له، وإذا سلمت بعض مقدماته فعليه أن يسلم بالنتائج الصحيحة وإلا وقع في الإلزام.

الاستدلال على الخصم بإظهار التشهي والتحكم :

فيقال له لا حجة لك فيما تدعي سوى التشهي والتحكم بالباطل فإن جاءك ما يوافق هواك قبلته وإن جاءك ما يخالف هواك رددته.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى (أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾)[2] وقوله تعالى (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ)[3] والاحتجاج على الخصم بمثل هذا مفحم وملزم له إذ لا يستطيع الإجابة عنه .

فإن الأخذ ببعض الكتاب يوجب الأخذ بجميعه، والتزام بعض الشرائع يوجب التزام جميعها، ولا يجوز أن تكون الشرائع تابعة للشهوات إذ لو كان الشرع تابعاً للهوى

---

(١) سورة الإسراء : آية ٩٤، ٩٥.

(٢) سورة البقرة : آية ٨٧.

(٣) سورة البقرة : آية ٨٥.

والشهوة لكان في الطباع ما يغني عنه ولكانت شهوة كل أحد وهواه شرعاً له (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن)[1] .

إبطال دعوى الخصم بإثبات نقيضها :

كقوله تعالى في شأن اليهود (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا . . الآية)[2] .

فقد ادعوا سلباً كلياً فكذبهم الله بما يعترفون به وهو الإيجاب الجزئي المناقض للسلب الكلي، فإن اليهود يعترفون بالتوراة التي بين أيديهم و يفتخرون بها على العرب بأنهم أصحاب كتاب ومع ذلك يقولون (مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ) وهذا تناقض في الحقيقة والواقع كما هو في قرارات أنفسهم وهو مسلك من مسالك الإفحام والإلزام.

الاستدلال بوجود الأثر على وجود المؤثر :

وذلك مثل ما صنع إبراهيم عليه السلام في مناظرته لأصحاب الهياكل وكيف استدل على وجود الله بآثار إيجاده تعالى لخلقه.

وقد حكى الله تعالى ذلك بقوله (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾)[3] .

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم بتصرف ج ٤ ص ١٤٤. والآية من سورة المؤمنون: ٧١.

(٢) سورة الأنعام : آية ٩١.

(٣) سورة الأنعام : من الآية ٧٥ الى الآية ٧٩.

فقد استدل إبراهيم عليه السلام بأفول الكواكب والقمر والشمس على أنها ليست بآلهة لحدوثها فتكون محتاجة إلى محدث لا يكون حادثاً إذ كل حادث لابد له من محدث ينتهي إليه وإلاّ لزم الدور والتسلسل في المؤثرين إلى مالا نهاية وهذا يمتنع قطعاً.

وقد ساق إبراهيم عليه السلام أدلته مساق الموافق لأصحاب الهياكل في المبدأ والمخالف في النهاية ليكون الإلزام أبلغ والإفحام أقوى.

ولم يكن إبراهيم عليه السلام في قوله (هذا ربي) مشركاً لأن سوق الكلام على جهة الإلزام غير سوقه على جهة الالتزام، وهذا من قبيل السياسة الجدلية إذا صح هذا التعبير.

بيان أن دعوى الخصم خالية من الحجة وأن البرهان قام على النقيض من ذلك

كقوله تعالى في شأن إبراهيم عليه السلام (وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾)، ثم بين ذلك بقوله (ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾)[1].

فكأنّ إبراهيم عليه السلام قال لهم : إن المحاجة لا تقوم إلا على الحجة والبرهان، ولم تثبتوا على مدعاكم شيئاً من ذلك، أما أنا فقد قام البرهان على هدايتي إلى طريق الحق والصواب، فلم لا تقبلون الحق المؤيد بالحجة والبرهان؟ (وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ)[2].

---

(١) سورة الأنعام : من الآية ٨٠ إلى الآية ٨٢.
(٢) سورة الأنعام : الآية ٨٣.

ومثل هذا ما حكاه الله تعالى من قول إبراهيم لأبيه (يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ۝٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ۝٤٣)[1] .

إلزام الخصم بما يعترف به مما هو مشاهد محسوس[2] :

كقوله تعالى : (ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ)[3] .

إفحام الخصم ببيان أن دعواه تلزمه القول بما لم يقل به أحد وبما لم يعترف به هو :

كقوله تعالى : (وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٠٠ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝١٠١)[4] .

فإنه لم يقل أحد بأن له تعالى صاحبة ومن ينسب إليه الولد يعتقد عدم وجود الصاحبة لله تعالى، إذْ كيف يكون له ولد وليس له صاحبة، فقد نفى التولد عنه تعالى لامتناع التولد عن شيء واحد وإن التولد إنما يكون بين اثنين وهو سبحانه لا صاحبة له تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

الاستدلال بالتحدي على صدق الدعوى :

فقد تكون الدعوى صحيحة ظاهرة تلمسها الحواس وتستيقنها النفوس ومع ذلك تجد عند بعض الخصوم لدداً في الخصومة، ومكابرة للحق وللواقع، فينهج سبيل المعارضة لكل ما خالف معتقده وهواه دون تدبر للحقائق، أو نظرة عادلة لما يحف به من أمور.

---

(١) سورة مريم : الآية ٤٢/٤٣.

(٢) منهج الفرقان لمحمد سلامه.

(٣) سورة الحج : الآية ٧٣.

(٤) سورة الأنعام : الآية ١٠٠/١٠١.

ومن هذا المسلك معارضة المشركين للرسول صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم، وتشكيكهم في نسبته إلى الله تعالى، ولقد كان موقف القرآن في رده على هؤلاء المشركين مرتكزاً على حقيقتين :

الأولى : نقض جميع المعارضات التي أوردها المشركون وكشف ما تنطوي عليه من شبه وملابسات.

الثانية : الاستدلال بالتحدي على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يبلغ من رسالة الله تعالى.

ولقد أكثر المشركون الخوض في القرآن وحاولوا معارضته بالنقض والإبطال، فتارة يقولون إن الرسول صلى الله عليه وسلم تعلمه من غلام أعجمي وتارة يقولون إن الرسول صلى الله عليه وسلم جمع أخبار الأمم الماضية واكتتبها(فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)[١] .

وقد أشار الله تعالى إلى هذا الافتراء بقوله: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ)[٢] .

وقال تعالى (وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ)[٣].

وقد اعتمد المشركون في تشكيكهم في القرآن على أمرين :

(١)أن الرسول صلى الله عليه وسلم تعلم القرآن من معلم أعجمي.

(٢) أن هذا القرآن من وضع البشر وليس من عند الله.

---

(١) انظر سورة الفرقان : آية ٥.

(٢) انظر سورة النحل : آية ١٠٣.

(٣) انظر سورة العنكبوت : آية ٤٨.

وينتج عن هذين الأمرين أن محمداً صلى الله عليه وسلم كاذب فيما يدعيه من أمر الرسالة والوحي.

وقد نقض القرآن هذه الدعوى بأمور ثلاثة :

الأمر الأول :

أن هذا القرآن جاء باللغة العربية الفصحى التي لا يشكون في أصالتها وبلاغتها التي تأخذ بالألباب، ولا يعقل أن يتكلم هذا الغلام الأعجمي بمثل هذا الأسلوب الذي يعجز عن مثله أساطين الفصاحة والبيان، فانتقض الأمر الأول الذي بنوا عليه دعواهم.

الأمر الثاني :

أن دعواهم بأن القرآن من وضع البشر تقتضي أن يكونوا قادرين على الإتيان بمثله لاسيما أنهم أرباب البلاغة وملوك البيان، ولكن القرآن تحداهم في مقامات متعددة ولم ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (١) ، وتحداهم في سورة هود بعشر سور (﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾)(٢) .

وتحداهم في سورة يونس وسورة البقرة أن يأتوا بسورة من مثله (﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾)(٣) .

ثم أعلن تحديه العام للثقلين الجن والإنس على أن يأتيا بمثل هذا القرآن، ذكر ذلك في سورة الإسراء بقوله (﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾)(٤) تحداهم القرآن فعجزوا عن

---

(١) سورة الطور :آية ٣٤.
(٢) سورة هود : آية ١٣.
(٣) سورة البقرة : آية ٢٣.
(٤) سورة الإسراء : آية ٨٨.

معارضته فثبت الإعجاز، وظهرت قدرة المعجز، واتضح صدق صاحب الإعجاز، فبطلت دعواهم بأن القرآن من وضع البشر لأن التحدي قد جعل دليلاً على أن هذا القرآن من عند الله تعالى والدليل متى عورض بمثله بطل عمله فيسقط الاحتجاج به.

ولكن القرآن الكريم لا يزال معجزة خالدة تتحدى الأجيال قرناً بعد قرن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

الأمر الثالث :

أن الرسول صلىٰ الله عليه وسلم رجل أمي وقد لبث في قومه زهاء أربعين سنة قبل الرسالة لا يتحدث بشيء من القرآن ولا يدعي النبوة، ثم ظهر في مجتمع أمي تسوده الفوضى والعصبية الهوجاء، ولم يكن له صلة بالعلوم والقوانين والأنظمة العالمية الأخرى ومع هذا أتى بأخبار الماضين وما فيها من العلوم الغيبية التي ليست في مقدور البشر، وأتى بهذا التشريع المحكم والنظام العام الذي يتحدى كل نظام وضعي إلى الأبد، ثم آمن به جماعة من جزيرة العرب كانوا رعاة إبل وغنم، فانطلقوا منها في الآفاق فإذا هم ساسة شعوب وقادة أمم.

إن هذا وحده إعجاز وبرهان على أن هذا القرآن من عند الله تعالى وقد أشار الله تعالى إلى هذه الحقيقة بقوله تعالى(تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ)[1].

وبقوله تعالى :(وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)[2] كما تقدم.

وبين تعالى بعضاً من معارضاتهم وتعنتهم بقوله (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لايرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا مايوحى إليّ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم)، وقد

---

(١) سورة هود : آية ٤٩.

(٢) سورة العنكبوت : ٤٨.

كان الجواب عليهم بقوله (قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)[1] .

وبهذا يتبين أن معارضتهم للقرآن باطلة وأنها منقوضة من جهتين:

١ ــ من جهة نقض أدلتها وإدحاض شبهاتها.

٢ ــ من جهة قيام التحدي وانهزامهم أمام عظمة هذا القرآن الكريم (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)[2]

ومن هذه الآية نعلم أن القرآن معجز لسائر الأمم، وكون القرآن نزل بلغة العرب لا يمنع من أن تقوم الحجة على جميع البشر، فإن الرسالة عامة، وإذا عجز عن المعارضة أهل الصناعة البلاغية وأصحاب اللغة العربية فغيرهم عن الإتيان بمثله أعجز، فهو معجز للعرب بطريق الالتزام ولغيرهم بطريق الإلزام، فسبحان الذي أنزل هذا القرآن العظيم الذي (لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)[3] ، (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)[4] .

---

(١) سورة يونس : من الآية ١٥ إلى الآية ١٦.

(٢) سورة الإسراء : ٨٨

(٣) سورة فصلت : الآية ٤٢.

(٤) سورة النساء : الآية ٨٢.



الباب الثالث

العلاقة بين الاستدلال القرآني

و

الاستدلال اليوناني



الفرق بين إعجاز القرآن ومنطق اليونان

القرآن الكريم كتاب الله، أنزله على رسوله الأمين، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وينقذ العالم من متاهات الشكوك إلى حقائق الأمن واليقين، وقد نزل هذا القرآن حجة خالدة على مر الدهور والأعوام، فلابد أن يقوم على أساس قوي من الإحكام والإعجاز وقد شاءت إرادة الله أن ينزل هذا القرآن بلسان عربي مبين، وأن يكون الإعجاز كامناً في بيانه وتعاليمه وغيبياته، فجاء القرآن على هذا النسق المحكم، وإنه لمن الواضح أن القرآن مملوء بالحجج والبراهين والأقيسة والاستدلالات وإنها لم تستند لمنطق اليونان وإنما هي الحجج والبراهين العقلية الصحيحة التي لا تختلف نتائجها بين أمة وأخرى ولغة وأخرى.

ولسنا نريد هنا أن نوازن بين أسلوب القرآن وأسلوب اليونان فإنه لا محل للموازنة بين أسلوب القرآن وطرائقه وأي أسلوب آخر من أساليب البشر، ولكننا نريد أن نبين أن حجج القرآن وبراهينه قامت على أسس متينة من الجودة والإحكام، سواء أكان ذلك في نظمها وتراكيبها، أم في صحة مقدماتها ونتائجها، أم في بعد مراميها في معالجة أدواء القلوب وإصلاح المجتمعات الإنسانية.

وإذا صح لنا أن نقول إن في القرآن شيئاً من المنطق[1] فإنما هو منطق العقل والضمير، منطق الحجة والبرهان.. منطق البلاغة والبيان.. وليس منطق أرسطو القائم على القياس ذي المقدمتين والنتيجة كما توهم بعض المتفلسفين، فإن القرآن مما يعجز عن مجاراته الطوق البشري ولا تحتمله قوة النبوغ الإنساني.

---

(١) المنطق : مشتق من النطق وهو الكلام أو اللغة، قال الله تعالى حكاية عن سليمان «يأيها الناس علمنا منطق الطير» آية ١٦ من سورة النمل، أي لغته، ثم استعملت الكلمة كمرادفة من مرادفات البلاغة، فيقال: رجل منطيق اي بليغ، ثم استعيرت الكلمة لعلم من علوم الفلسفة هو عمل لمنطق (Logic) الذي كان أرسطوا أول من ألف في موضوعه، وقد تطور هذا العلم على يد ستيوارت وبراجاتي.

والصورة التي تشكلت بها حجج القرآن وبراهينه وجدله هي صورة الفصاحة والبلاغة والإعجاز البياني، وهي صورة لا تتأتى بحال من الأحوال إذا اتبع في حججه وبراهينه وجدله منطق اليونان وطرق الجدال عندهم من ترتيب المقدمات والنتائج والأشكال والقياسات على هيئة خاصة وأسوار خاصة ونظم خاصة، فإنه يفقد بذلك ميزة الإعجاز والتحدي، لأن هذه النظم والقوانين أشبه بالصنعة التي تتعلم مرسومة لا محيد عنها يستوى فيها الجميع عند ممارستها، وقد لا يرقى إلى تعلمها وفهمها إلا القليلون، وقد يجر الاسترسال فيها إلى سرعة هدمها ونقضها بأقل تشكيك في سلامة بنائها فتستحيل إلى جدل عقيم ومناقشات بيزنطية ضررها أكبر من نفعها»[١] .

فطريقة القرآن في الاستدلال والإقناع أولى وأبلغ لهذا قال أبو عبد الله الرازي في آخر عمره في كتابه «أقسام اللذات» كما نقله عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الرد على المنطقيين، قال: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن الكريم».

إقرأ في الإثبات : (ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ)[٢] و « إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ[٣] »، واقرأ في النفي (لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ)[٤] (وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا)[٥] ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي[٦] .

هل اختص فلاسفة اليونان باختراع علم المنطق؟

يجب أن نميز بين المنطق من حيث هو أسلوب في الكلام، وميزان يوزن به، من جهة، وبين علم المنطق من جهة ثانية، وبين المنطق اليوناني من جهة ثالثة..

---

(١) انظر كتاب الرد على المنطقيين لابن تيمية، ودراسات في علوم القرآن لعبد الغني الراجحي.
(٢) سورة طه : آية ٥.
(٣) سورة فاطر : آية ١٠.
(٤) سورة الشورى : آية ١١.
(٥) سورة طه : آية ١١٠.
(٦) انظر كتاب الرد على المنطقيين : ص ٣٢١.

فالأول : أشبه بالبلاغة، لاينسب إلى فرد معين، ولا إلى أمة، وإنما يتصف به الأفراد والأمم بقدر، ولا يوضع في وقت من الأوقات، لأنه صفة من صفات الكلام، فيقال هذا كلام منطقي، وهذا كلام غير منطقي.

والثاني : وهو علم المنطق، حاول البشر تبيين قواعده، وكتبوا فيه وألفوا، منذ القدم قبل اليونان، ولكن تلك المحاولات ضاعت فيما ضاع ، وضياعها لا يجعل اليونان واضعي علم المنطق..مثل الفلك، فإن أقدم الكتب فيه من تأليف اليونان، ومع ذلك فمن المعروف أن الكلدان والبابليين الذين كانوا قبل اليونان، برعوا فيه براعة عظيمة، ووصلوا منه إلى مستوى رفيع لم يبلغه اليونان من بعدهم..وقد أقر كثير من العلماء باعتماد اليونان في تآليفهم على من سبقهم.

والثالث : وهو المنطق اليوناني.. فقد حاول اليونان تبيين قواعده فلم يصلوا إلا إلى أرباضه فكان منطقهم محاولة بدائية عجزوا عن إحكامها والوصول إلى إتمامها.

ومن هنا نعلم أن حملة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله على المنطق والمنطقيين إنما يقصد بها منطق اليونان، لاعتقاده بأنه ليس سليماً من كل وجه وإذا نظرنا إلى هذه القضية ــ وهي اختصاص اليونان بعلم المنطق ــ وجدنا في أخبار الأمم الماضية قبل اليونان قصصاً وأخباراً تروي لنا ما دار بينهم من مجادلات ومحاورات، سواء أكان بين الأمم. وأنبيائهم، أم بين الأفراد انفسهم، وقد حكى القرآن الكريم لنا كثيراً من ذلك وهو أصدق سجل لا يتطرق إليه الشك والضياع، وذلك يدل على أن الصراع الفكري قديم قدم الإنسان كما أشرنا إلى ذلك في أول هذه الرسالة، فاليونان لم يختصوا باختراع هذا العلم مهما ادعوا لأنفسهم، أو ادعى لهم غيرهم أنهم وحدهم أرباب هذا العلم ومخترعوه.

ومن البديهيات أن الحياة الإنسانية قامت قبل اليونان وبعدهم، وكل أمة تجري فيها المجادلات والخصومات، ويحتدم فيها الصراع بين الحق والباطل، فهل يعقل أن هذه الأمم عاشت على الرموز والإشارات أو أنها عاشت كما تعيش البهائم لا تعرف الحق من الباطل ولا تدافع عن نفسها بمنطق الحجة والبيان؟ إنَّ هذا مالم يقل به عاقل لأنه مناف لكمال الخلق الإنساني ومناقض لدعوة الرسل وما يأتي من خبر السماء.

وقد ثبت بالدليل النقلي القاطع المستمد من قصص القرآن، والموافق للبرهان العقلي الجازم بأن الحجج والبراهين العقلية كانت قائمة قبل منطق اليونان.. فإذاً لا يبق لليونان في منطقهم سوى التدوين والتنسيق.

ونحن إذ نقرر هذا لاننكر الحقائق، ولا نتحيز لرأي معين قبل أن نعرف ما يترجح لدينا من الأقوال والآراء، ولقد سبق أن قلنا إن أرسطو وضع التعاليم المنطقية بمعنى أنه استقرى الحجج والبراهين العقلية التي سبق أن ناقشها قبله هيراكليت وامبيدوكل وديموكريت وابيكور وغيرهم ممن يحظون بالاحترام الكبير عند الماركسيين[1] اكثر منهم لأرسطو، وقد نظمها أرسطو في قواعد جدلية وأشكال منطقية وأن له في عمله هذا فضل التصنيف والتنظيم لهذه العلوم كفن يدرس وعلم يكتسب بالصنعة، ولكنه في عمله هذا قد وجد اللبنات معدة ومواد البناء متوافرة، فأنشأ ذلك البناء من تلك اللبنات والمواد، وبعبارة أوضح استفاد علم المنطق ممن كان قبله، كما أخذه عنه من بعده فكان له فضل التجميع والتنسيق لهذا العلم المنطقي، على أنه لم يكن سليماً من كل وجه، فأرسطو رجل من اليونان يصيب ويخطىء، فله الأنصار والموافقون له في آرائه، وله المخالفون في ذلك من اليونان وغيرهم .. وهو بعمله هذا قد بذل جهداً لا ينكر، ولكنه ليس حجة على البشر في قوله ولا يلزم أحداً بمنطقه إن أراد أن يحتكم إلى غيره طالما أن الحجج النقلية والعقلية توصله إلى الحق، وتدفع عنه الباطل دون اللجوء إلى منطق أرسطو، فإن منطق أرسطو لا يحسم الخلاف بين الناس، إذ الخلاف بعد قيام المنطق حقيقة ثابتة بين العلماء كما كانت من قبله.

ثم إن المنطق يزن الاستدلال ولا ينشيء الدليل فهو يقيس مادة الدليل ولكنه لا يوجد هذه المادة، ومثله في ذلك مثل كل العلوم الآلية فعلم العروض لا يزيد مادة الشعر ولا يعطي الشاعر مادة من المعاني والمباني.. وعلم النحو يزن الكلمات ولا يعطي المتكلم عبارات، وعلوم النقد البياني تزن مراتب الكلام البليغ وأسرار البلاغة

(١) انظر كتاب «الماركسية في الفلسفة» لحسني ناثان ص ١١٤.

ولا تمد المتكلم بأساليب البلاغة والصور البيانية الرائعة، وهكذا كل العلوم التي تحد الميزان وتزن الأفكار والأقوال»[1] .

ويمكن أن نبني قولنا في المنطق على الأمور الآتية :

(١) إن المنطق الذي هو بمعنى « الحجج والبراهين العقلية» غير مختص باليونان، بل هو قدر مشترك بين جميع أمم الأرض منها من سبق اليونان أو من أتى بعدهم، لأن الله تعالى أنزل كتبه وأنزل معها الميزان بالحق، قال تعالى(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)[2] .

وقال تعالى (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ)[3] .

ورسالات السماء موازين عادلة امتدت عبر تاريخ الجنس البشري لم تتقيد يوماً ما بمنطق اليونان، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه « الرد على المنطقيين» :«ولا يجوز لعاقل أن يظن أن الميزان الذي أنزله الله هو منطق اليونان لوجوه :

أحدها : أن الله أنزل الموازين مع كتبه قبل أن يخلق اليونان من عهد نوح وإبراهيم وموسى وغيرهم، وهذا المنطق اليوناني وضعه أرسطو قبل المسيح بثلاثمائة سنة فكيف كانت الأمم المتقدمة تزن بهذا.

الثاني : أن أمتنا أهل الإسلام ما زالوا يزنون بالموازين العقلية، ولم يسمع سلفنا بذكر هذا المنطق اليوناني وإنما ظهر في الإسلام لما عربت الكتب الرومية في دولة المأمون أو قريباً منه.

---

(١) ابن تيمية : للشيخ محمد أبو زهرة ص ٢٤٨.
(٢) سورة الحديد : آية ٢٥.
(٣) سورة البقرة : آية ٢١٣.

الثالث : أنه ما زال نظار المسلمين بعد أن عرب وعرفوه يعيبونه و يذمونه ولا يلتفتون إليه ولا إلى أهله في موازينهم العقلية والشرعية)[1] .

(٢) من الأمور التي بنينا عليها قولنا في المنطق أن طرق اليقين غير محصورة في الأشكال المنطقية اليونانية، بل ربما لا تؤدي الأشكال وحدها إلى اليقين، فإن اليقين في مادة الدليل لا في شكله .. وهذا ما حدا بشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إلى أن يقول في المنطق : إنه لا يحتاج إليه الذكي ولا يستفيد منه الغبي»)، فكأنه يرى أن سرعة البديهة وصفاء الذهن يمكن أن تعرف مقتضى الأدلة العقلية وأن تزن الكلام دون التفات إلى منطق اليونان.

(٣) أن في الكتاب والسنة الكثير من الحجج والبراهين وطرق الجدال والمناظرة وتصحيحها وبيان العلل المؤثرة واشاراتها إلى إبطال الدور والتسلسل بأوجز لفظ وأبينه.

ومن المعلوم أن الرسول عليه الصلاة والسلام رجل أمي بعث في أمة أمية لم يكن للمنطق اليوناني عندهم وزن، ولا يعرفون طرقه وأشكاله، ومع ذلك فقد أتى القرآن بأروع الأدلة وأحكم البراهين التي تحاج العقل البشري، وتتحداه إلى يوم القيامة.

فهل كان رسول الإسلام صلىٰ الله عليه وسلم يجهل تقرير الحجج ومناهج الاستدلال الصحيحة ولا يعرف طرق الإلزام والإفحام؟ وهل وقف أحد من أصحاب رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم عاجزاً أمام خصومه عندما كان يطلب إليه الإيضاح والبيان؟!

إن مواقف الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ظاهرة مشهورة في المجادلة والمحاجة لإظهار الحق فقد تجادلوا في سقيفة بني ساعدة في أمر الخلافة ثم هداهم الله لما اختلفوا فيه من الحق، وتجادل أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما في أمر المرتدين، وجادل

---

(١) الرد على المنطقيين لابن تيمية (٣٧٣ ــ ٣٧٤).

عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه اليهود في جبريل وميكائيل وجادل ابن عباس الخوارج، بأمر علي، كما جادلهم عمر بن عبدالعزيز.. فهل رجع هؤلاء الصحابة الفضلاء، والسلف الصالح في طرق جدالهم ومناظراتهم إلى منطق اليونان؟.. ومتى وصل منطق اليونان إلى الأمة الإسلامية؟.. ألم يكن في عهد المأمون من خلفاء الدولة العباسية؟..ثم استمع لما يقوله شيخ الإسلام ابن تيمية بصدد استقلال العلوم الشرعية في طرق استدلالاتها عن منطق اليونان.

قال رحمه الله: « وأما العلوم الموروثة عن الأنبياء صرفاً فهي أجل وأعظم من أن يظن أن لأهلها التفاتاً إلى المنطق، إذ ليس في القرون الثلاثة من هذه الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس من كان يلتفت إلى المنطق أو يعرج عليه، مع أنهم في تحقيق العلوم وكمالها بالغاية التي لا يدرك أحد شأوها، كانوا أعمق الناس علماً، وأقلهم تكلفاً، وأبرهم قلوباً، ولا يوجد لغيرهم كلام فيما تكلموا فيه إلا وجدت بين الكلامين من الفرق أعظم مما بين القدم والفرق.

بل الذي وجدناه بالاستقراء أن الخائضين في العلوم من أهل هذه الصناعة أكثر الناس شكاً واضطراباً، وأقلهم علماً وتحقيقاً، وأبعدهم عن تحقيق علم موزون، وإن كان فيهم من قد يحقق شيئاً من العلم فذلك لصحة المادة والأدلة التي ينظر فيها وصحة ذهنه وإدراكه، لا لأجل المنطق، بل إدخال المنطق في العلوم الصحيحة يطوّل العبارة، ويبعد الإشارة، ويجعل القريب من العلم بعيداً، واليسير منه عسيراً، ولهذا تجد من أدخله في الخلاف والكلام وأصول الفقه وغير ذلك لم يفد إلا كثرة الكلام والتشقيق مع قلة العلم والتحقيق»[(١)].

هذا كلام شيخ الإسلام، وهو يقول عن دراية وخبرة واسعة فهو لا يحكم إلا عن علم، ولا يرد إلا عن دراية، لأنه أوتي سعة في العلم، وعمقاً في التفكير، ونوراً في البصيرة.

---

(١) ابن تيمية : للشيخ محمد أبو زهرة من ص ٢٤٨ إلى ص ٢٤٩.

ولم يكن شيخ الإسلام يصارع وحده في الميدان ، بل وقف كثير من العلماء لنقد المنطق اليوناني واعتبروه دخيلاً على العلوم الإسلامية ووقف آخرون موقف المرتاب من هذه العلوم اليونانية لما فيها من التعقيدات مما لا طائل تحته ويمكن الاستغناء عنها بالطرق الواضحة المألوفة التي جاءت على ألسنة حملة الشرع وقادة الفكر الإنساني.

وبهذه الأمور التي تقدمت يتضح لنا أن كتاب الله وسنة رسوله صلىٰ الله عليه وسلم فيها الكفاية ليعرف المسلم عقيدته كلها، وأن ذلك المورد الصافي ليس فيه ما يعكر صفاء العقول وأن السلف الصالح رضى الله عنهم كان علمهم بالقرآن ، وهديهم بمحمد صلىٰ الله عليه وسلم، وكانوا مع ذلك أقوى الناس إيماناً، وأشدهم يقيناً، وأكثرهم اطمئناناً، دون أن يجهلوا الطرق البيانية والأساليب الجدلية الواردة في القرآن، قال صاحب شرح العقيدة الطحاوية:

وإذا تأمل الفاضل غاية ما يذكره المتكلمون والفلاسفة من الطرق العقلية وجد الصواب منها يعود إلى بعض ما ذكر في القرآن من الطرق العقلية بأفصح عبارة، وأوجزها وفي طرق القرآن من تمام البيان والتحقيق ما لا يوجد عندهم مثله قال تعالى (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا)[1][2] .

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: ماجهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطاطاليس..

وقال السيوطي رحمه الله في تعليقه على قول الشافعي: (لم ينزل القرآن ولا أتت السنة إلا على مصطلح العرب ومذاهبهم في المحاورة والتخاطب والاحتجاج

---

(١) سورة الفرقان : آية ٣٣.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٢.

والاستدلال، لا على مصطلح اليونان، ولكل قوم لغة واصطلاح، وقد قال تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾... الآية)[1] فمن عدل عن لسان الشرع إلى لسان غيره وخرّج الوارد من نصوص الشرع عليه جهل وضل ولم يصب القصد»[2].

(١) سورة إبراهيم : آية ٤.
(٢) انظر صون المنطق والكلام للسيوطي ص ١٦.

أسباب انفراد القرآن بمناهجه في الجدل
عن مناهج اليونان

يمكن أن تتلخص أسباب انفراد القرآن بمناهجه في الجدل عن مناهج اليونان فيما يلي:

(١) أن العرب عند نزول القرآن كانوا في مظهر ثقافتهم العامة لايعرفون الطرق المنطقية التي اتبّعها فلاسفة اليونان، وكانت اللغة العربية في عنفوان شبابها وسمو بلاغتها،وهي تجمع معاني الكمال من جمال الصورة ودقة التعبير وعمق المعنى، وقد تميزت بأسلوب خاص سليم التراكيب واضح المعنى.

وعلى هذا لم يكن المنطق اليوناني بمناهجه الجدلية معروف لدى العرب في قواعد مستقرة وعلى طرق دراسية مستفيضة، علماً بأن في اللغة العربية من أساليب النقض والإبطال والمنع والحجج والبراهين العقلية ما يجعلها تتميز على غيرها من اللغات، سواء في غزارة مادتها أو طرق استعمالها، وكفاها شرفاً أن اختارها الله لغة لكتابه الخالد ولرسوله الكريم ولأهل جنته.

وعلى فرض أن المناهج الاستدلالية في القرآن قد اتفقت مع بعض القواعد المنطقية في نتائج صحيحة، فهذا لايدل على أن القرآن سلك في استدلاله منهج المنطق اليوناني، أو أنه صورة عنه، وإنما يدل على توافق الحق في الاستدلال الصحيح، والمنطق اليوناني فيه الحق والباطل، فلا ضير أن يلتقي الحق في نتيجة صحيحة، إلا أن القرآن الكريم يمتاز بأسلوبه ومناهجه فيعلو بها عن سائر الأشكال المنطقية والطرق الجدلية المعقدة العقيمة، فحجج القرآن وبراهينه واضحة جلية رغم اشتماله على أنواع الحجج

والبراهين، كما ذكر ابن القيم رحمه الله في كتابه بدائع الفوائد حيث يقول: وإذا تأملت القرآن وتدبرته وأعرته فكراً وافياً اطلعت فيه من أسرار المناظرات وتقرير الحجج الصحيحة وإبطال الشُبَه الفاسدة وذكر النقض والفرق المعارضة والمنع على ما يشفي ويكفي لمن بصره الله وأنعم عليه بفهم كتابه».

(٢) أن القرآن الكريم لم يخضع يوماً من الأيام لقواعد وضعها البشر، ومنها السقيم والخاطىء والركيك كالمنطق اليوناني الذي يقال إن أرسطو وضع مناهجه لتنظيم القواعد الجدلية والمناهج الاستدلالية عندما ظهرت الجماعة السفسطائية التي تنكر الحقائق وتلبسها بلباس الباطل ، فهذه القواعد المنطقية ليست سليمة من كل وجه.

(٣) أن القرآن الكريم جاء مخاطباً للعقل البشري في أجل مظاهر القوة والبيان، ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عربي اللسان وكان يحُق به في مبدأ الدعوة رجال من الرعيل العربي الأول الذين جنّدهم الله لحمل رسالة الإسلام الخالدة إلى أمم الأرض كانت إرادة الله أن ينزل هذا القرآن باللغة العربية الفصحى ليفهم هذا الرعيل الأول كتاب الله فتقوم عليه الحجة، وتتضح له المحجة، وترتكز عليه مهمة التبليغ بعد وفاة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وقد كان هؤلاء كما أراد الله خير صحب لخير رسول، اضطلعوا بمهام الدعوة، وعقدوا ألوية الفتح وساروا جنوداً أمناء وقادةً فاتحين لأقطار الأرض، فكانوا الواسطة الخيرة الأمينة بين هذه الأمة وبين نبيها محمد صلى الله عليه وسلم في تبليغ رسالة الله الخالدة، فلو نزل القرآن بخلاف ما يألفون من الأساليب لحدثت فجوة بينهم وبين تدبر آياته وتفهم معانيه، ولكنه نزل في أسلوب عربي مبين، يفهم منه العامة ما يقنعهم ويلزمهم الحجة ويفهم منه الخاصة ما يصقل عقولهم ويكشف لهم أسرار مدلولاته على أكمل وجه فتقوم الحجة ويتضح لهم البرهان.

(٤) أن القرآن الكريم جاء معجزة خالدة لنبي الإسلام صلى الله عليه وسلم حيث ظهر في قوم بلغت عندهم البلاغة والفصاحة أوج عزتها، وكان كل نبي يبعث بمعجزة من جنس ما يبرع فيه قومه.

وكان العرب يعرفون مدلولات اللغة العربية، وسبرأ غوارها، فلو جاء القرآن في أسلوب مخالف لأسلوبهم مجافٍ للغتهم، لذهبت روعة الإعجاز.

(٥) أن اللجوء إلى الغامض من الأساليب مع القدرة على البيان بأوضح الأساليب وأسلم التراكيب التي يعجز الناس عن الإتيان بمثلها، يعد عجزاً، فإن الإلغاز لا يعد من صور البيان، فلو لجأ القرآن إلى دقائق الطرق المنطقية لكان ملغزاً، ولكنه جاء على هذا النسق البياني في أسلوب عربي مبين، فأعجز البشر أجمعين.

(٦) أن القرآن الكريم خفف من النزعات الجدلية التي قد تكون سبباً في ضياع الحق، فكانت استدلالاته مشتملة على التوجيه والإرشاد والدعوة باللين والرفق، وكان يوجه الدعاة إلى هذا السلوك القويم، لأنه أدعى لقبول الحق ولين الجانب، ولهذا أمر الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام أن يدعوا فرعون باللين والتلطف فقال تعالى: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[1] .

وإنما يلجأ القرآن للجدل وإقامة الحجة والبرهان عند ظهور المعارضات والشبه لكي يلزم المجادل ويفحم المعاند والمكابر، وبالتالي تظهر قوة الإعجاز ليُعلم أنه من لدن حكيم خبير، وأنه معجزة خالدة، علماً أنه أتاح للعقل البشري فرصة التفكير وتقبل المناقشة فيما يعرض له من مشكلات عَقَديَّة أو تشريعية فكان يتقبل الأسئلة ويرد عليها بالجواب الكافي الشافي ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2] .

(٧) أن الاعتماد في الاستدلال على ما فطرت عليه النفوس من الإيمان بما تشاهد وتحس دون عمل فكري عميق أقوى أثراً، وأبلغ حجةً، وقد اشتملت أدلة القرآن

---

(١) سورة طه : الآية ٤٣ ــ ٤٤.
(٢) سورة البقرة : الآية ٢٦٠.

الكريم وبراهينه على مافطرت عليه النفوس، وما تشهد بصحته العقول دون إخلال بأحكام الحجة، وروعة البيان، وسلامة المنطق، فهو في تناول الخاصة والعامة يأتي من الحقيقة البرهانية بما يرضي العقول، ومن المتعة الوجدانية ما يهز القلوب ويحرك المشاعر.

فالقرآن الكريم في استدلاله يفتح أمام العقل البشري آفاقاً من الحكم والعظات ويدخل على القلب أنواعاً من الأحاسيس الوجدانية من تشويق وترقيق وتحذير وتنفير وتهويل وتعجب، وإنّك لتلمس ذلك في مطالع سوره وآياته « مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ... الآية» (١) .

مناقشة بعض آراء الغزالي والرازي وابن رشد وابن تيمية :

أريد أن ألمح بالإشارة إلى أربعة أئمة من قادة الفكر الإسلامي درسوا الفلسفة وتعمقوا في المنطق، حتى أدركوا من هذه العلوم البواطن والظواهر، ومن خلال دراستهم لهذه العلوم تكون لديهم فكر فلسفي عميق، إلا أنهم يختلفون في بواعث دراساتهم لهذه العلوم وفي نتائج تلك الدراسات، ولست بصدد الموازنة بين هؤلاء الأئمة في حياتهم الفكرية ودراساتهم الفلسفية، فإن كل واحد منهم يمكن أن تدرس حياته وآراؤه في رسالة مستقلة ولكنني أريد الإيماء إلى بعض الجوانب في حياتهم العلمية مما له صلة بأدلة القرآن وما يقابلها من أدلة المنطق والكلام.

الإمام الغزالي :

الإمام الغزالي المتوفَّي سنة ٥٠٥هـ رحمه الله يقرر في مقدمة كتابه «المستصفى» أن الحقائق العلمية لا يمكن أن تعرف على وجه الدقة إلا بالمنطق إذ يقول : «نذكر في هذه المقدمة مدارك العقول وانحصارها في الحد والبرهان، ونذكر شرط الحد الحقيقي وشرط البرهان الحقيقي وأقسامها على منهاج أوجز مما ذكرناه في كتاب «محك النظر»

---

(١) سورة الزمر : آية ٢٣.

وكتاب «معيار العلم» وليست هذه المقدمة من جملة علم الأصول، ولا من مقدماته الخاصة به بل هي مقدمة العلوم كلها ومن لا يحيط بها فلا ثقة له بعلومه»[1] .

هكذا كان رأي الغزالي رحمه الله، وهو في رأيه هذا جعل معرفة الحقائق وفهم الأدلة موقوفة على فهم المنطق ومن لا يحسن علم المنطق فليس أهلاً لأن يكون موضع الثقة في علمه.

وهذا القول فيه نظر ، فإنه لا يتفق مع منهجه في كتابه «القسطاس المستقيم» و«محك النظر» ولعله يقصد من تلك المقدمة المنطقية طرق الاستدلال الواضحة والموازين العقلية الصحيحة على وجه العموم دون تخصيص هذا بمنطق أرسطو، وإنما هو منطق العقل والفكر الإنساني.

ولكن منهجه في مقدمة «المستصفى» لا يساعد على هذا الفهم، إذ أنه تحدد اتجاهاته المنطقية ونزعاته الفلسفية رغم حملته العنيفة على الفلاسفة في بعض الأحيان ونقده لكلامهم، ولكنه مع ذلك لم يستطع التخلص من المناهج الفلسفية،

ولعل من أسباب ذلك، أنه في بداية دراسته للفلسفة التي من شعبها المنطق كان يبحث عن الحقيقة والمعرفة، فجمع قواه وغاص في أعماق الأعماق الفلسفية، حتى خرج منها، فإذا به صفر اليدين من الحقائق العلمية التي كان ينشدها، بل اعترته الحيرة والشك حتى كاد يهلك ، لولا أن تداركه الله بلطف منه ورحمة، وقد تحدث عن نفسه في كتابه «المنقذ من الضلال» أنه مر بتجربة قاسية هي تجربة الشك في الحسيات والعقليات واستمر على ذلك شهرين هو فيهما على مذهب السفسطة، بحكم الحال لا بحكم المنطق والمقال[2] .

وكثير من العلماء يرون أن الغزالي رحمه الله، غمر نفسه في الفلسفة ولم يستطع الخروج منها، لأنه طلبها ليعرف الحقيقة من ورائها، فكانت نيته في الطلب سبباً في

---

(١) المستصفى ج ١ ص ١٠ طبعة جديدة بالأوفست عن المطبعة الأميرية ـ القاهرة بولاق ـ سنة ١٣٢٢هـ.

(٢) انظر المنقذ من الضلال ص ٧٩، دار النصر للطباعة بالقاهرة.

أن أحاطت به غمراتها، وكان يعيش في أقطارها، فالتقى العلم الشرعي بالعقل الفلسفي، ففلسف الشريعة أو ألبس الفلسفة لبوس الشرع من حيث يشعر أو لا يشعر».(١)

وكان القاضي أبو بكر ابن العربي يقول: «أبو حامد دخل في بطون الفلاسفة ثم أراد أن يخرج منهم فما قدر»(٢) .

والذي أريد التنبيه عليه هنا أن رأي الإمام الغزالي في مقدمة كتابه «المستصفى» قد يُستغل للطعن في علوم سلف هذه الأمة، إذ لم تكن لهم دراية بالمنطق اليوناني، وهو ما لا يقصده الإمام الغزالي قطعاً، ولكن جملة «ومن لا يحيط بها فلا ثقة له بعلومه» جملة عامة لا تخلو من المآخذ، ولسنا بسبيل البحث عن مدى الاستفادة مما لدى الغير من العلوم والمعارف، والاطلاع على أنواع الثقافات لدى ، الأمم الأخرى، وأخذ ما تدعو إليه الحاجة من القدر المشترك في نتاج الفكر الإنساني من تبادل الخبرات والمنافع في مجالات الحياة العلمية والعملية فإنه لا مانع من ذلك إذا كانت عندنا الحصانة النفسية والإيمان الكامل بصحة ما جاءت به شريعة الإسلام.

أما ما يتعلق بالمعتقدات والأخلاق وأنظمة الحكم فإنه لا يجوز لنا أن نستورد شيئاً من تلك الأمم، لفساد معتقداتهم، وتدهور أخلاقهم، وانحرافهم عن فطرة الله التي فطر الناس عليها من الإيمان بما تدعو إليه الرسل من التوحيد، وما ينبغي أن تكون عليه أنظمة الحياة من العدل والمساواة والرقي في مراتب السمو الإنساني والمثل العليا المستوحاة من قبس السماء ومشكاة النبوة، وأعود لتمحيص رأي الغزالي في المنطق، وعلى ضوء ما ورد في كتابيه «محك النظر» و «القسطاس المستقيم» فإنه يرى أن العلوم المنطقية لا يتعلق شيء منها بالدين نفياً وإثباتاً بل هو النظر في طرق الأدلة والمقاييس وشروط مقدمات البرهان وكيفية تركيبها، وشروط الحد الصحيح وكيفية ترتيبه ، وأن «العلم» إماً تصور، وسبيل معرفته الحد، وإما تصديق وسبيل معرفته البرهان، وليس

---

(١) انظر ابن تيمية لمحمد أبو زهرة ص ٢٣٩.

(٢) انظر موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ج ١ ص ٢.

في هـذا ماينبغي أن ينكر، بل هو من جنس ما ذكره المتكلمون وأهل النظر في الأدلة إنما يفارقونهم بالعبارات والاصطلاحات وبزيادة الاستقصاء في التعريفات والتشعيبات.

ومع هذا الرأي الذي يراه الغزالي، فإنه لا يعفي المناطقة من الظلم في بعض القضايا ومن الآفات المتطرقة إلى المنطق وفي ذلك يقول :

«نعم لهم نوع من الظلم في هذا العلم، وهو أنهم يجمعون للبرهان شروطاً يعلم أنها تورث اليقين لا محالة، لكنهم عند الانتهاء إلى المقاصد الدينية ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط، بل تساهلوا غاية التساهل، وربما ينظر في المنطق أيضاً من يستحسنه ويراه واضحا، فيظن أن ما ينقل عنهم من الكفريات مؤيدة بمثل تلك البراهين فاستعجل بالكفر قبل الانتهاء إلى العلوم الإلٰهية، فهذه الآفة متطرقة إليه»[1] .

والغزالي رحمه الله تعالى رغم تمكنه من العلوم المنطقية، واطلاعه على الآراء الفلسفية، فإنه لا يعدل بأدلة القرآن غيرها من أدلة المتكلمين بل يرى أن أدلة القرآن أنفع وأشمل، وذلك لأنها لا تساق للخاصة فقط، إنما تساق لجماهير الناس، تخاطب فطرتهم وجداناً وعقلاً، أما أدلة المنطق فهي جافة لا تخاطب الوجدان.

فقد وازن الغزالي رحمه الله في كتابه « إلجام العوام عن علم الكلام» بين أدلة القرآن وطريقة المتكلمين فقال :

«أدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ويستضر به الأكثرون ، بل إن أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع به الصبي الرضيع والرجل القوي، وسائر الأدلة كالأطعمة التي ينتفع بها الأقوياء مرة، ويمرضون بها أخرى، ولا ينتفع بها الصبيان أصلاً»[2] .

---

(١) المنقذ من الضلال للغزالي ص١٠٢، ص١٠٣.

(٢) تاريخ الجدل للاستاذ محمد أبو زهرة ص ٧٢.

وبعد إطلاعي على كلام الإمام الغزالي في كتابه «معيار العلم» و«محك النظر» وبعض كتبه الأخرى، تبين لي أن منهج الغزالي في المنطق يؤدي إلى أنه استنبط قواعده المنطقية من القرآن الكريم مباشرة ولم يتبع المنهج اليوناني إلا في القدر المشترك الذي لا تختلف نتائجه، كما أنه يرى أن أصل القواعد المنطقية قديمة أقدم من اليونان، وأن مبادئها في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام، وعلى كل حال فله مواقف متعددة ودراسات واسعة لا تتسع لعرضها هذه الصفحات القليلة.

الإمام الرازي :

لم يكن فخر الدين الرازي المتوفَّى سنة٦٠٦هـ أقل شأناً من الإمام الغزالي في اتجاهاته الفلسفية وعمقه في الحكمة النظرية، وإن كانت نظرة الإمام الغزالي للأدلة السمعية بعد ثبوتها غير نظرة الرازي، فإن الإمام الغزالي رحمه الله يقدر الأدلة الصحيحة بعد ثبوتها وتحقق السماع فيها من النبي صلى الله عليه وسلم، ويقدمها على الأدلة العقلية بهذا الاعتبار، بينما يرى الرازي وجمهور الفلاسفة أن أدلة القرآن أدلة خطابية إقناعية، وأنها ليست برهانية قطعية ملزمة في الأصول، وأن البراهين الحقة هي ما اشتمل عليه علم المنطق والكلام.

وكثير من أرباب الكلام يرون أن القرآن لم يأت بالأدلة القطعية البرهانية، ويقولون إن أدلته خطابية إقناعية فقط، وقد نقل الإمام السيوطي في كتابه الإتقان عن ابن أبي الأصبع قوله «زعم الجاحظ أن المذهب الكلامي لا يوجد منه شيء في القرآن بينما هو مشحون به».

وأبو عثمان الجاحظ إنما يقصد بهذا أن علم المنطق والكلام هو المقياس للأدلة العقلية والبراهين القطعية، فإذا ضَمَمْنا قوله هذا إلى قول الرازي في نظرته للأدلة السمعية كان بينهما توافق في الرأى أمام هذه الأدلة، ولقد وقع فخر الدين الرازي في هذه الهوّة عندما قرر في كتابه «نهاية العقول» «أن الاستدلال بالسمعيات في المسائل الأصولية لايمكن بحال، لأن الاستدلال بها موقوف على مقدمات ظنية وعلى رفع المعارض العقلي، وأن العلم بانتفاء المعارض لايمكن، إذ يجوز أن يكون في نفس الأمر دليل عقلي يناقض مادل عليه القرآن ولم يخطر ببال المستمع».

والإمـام الرازي في قوله هذا قد جنى على الأدلة السمعية، واعتبرها مقدمات ظنية لا تنتج اليقين وهذا اتجاه غريب من إمام مثله.

ومن خير ما رأيت في الرد عليه ما كتبه الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه عن «ابن تيـمـية» بعد إيراده قول الرازي هذا قال: «ولسنا نوافق فخر الدين الرازي على ذلك القول لثلاثة أسباب :

(١) أن الـقـرآن لم يجـيء بـالخبر وحـده في أمـور الاعتقاد، بل جاء بالدليل مقترناً بـالخبر ردفاً لـه فآيـاتـه مـشتـمـلات على تـوجـيـه النظر إلى الكون، وما فيه من إبداع وإحـكـام وإتـقـان ومـا مـن آيـة دلـت على الـتـوحـيـد إلا وقد حفت بها توجيهات إلى الحـقـائـق الـكـونـية، فما في القرآن ليس خبراً مجرداً بل هو دليل عقلي مستقيم للمتأمل المستبصر».

(٢) أنـه يـفـرض أن مـا نـص عليه القرآن وما ساقه من دليل قد يكون فيه دليل عـقلي يـنـاقـضه وإذا وجد الاحتمال سقط الاستدلال، وهذا تفكير غريب لأن القرآن إذا سـاق دليلاً وكان منتجاً فإننا لا نفرض مناقضاً حتى يقوم هذا المناقض، وإلا فإن كـل دليل مهما يكن مستمداً من بداهة العقول والمقررات، يصح أن يرفض، لاحتمال أن يـوجد ما يناقضه فإن احتمال المناقض، كما يجوز على أدلة القرآن يجوز على غيرها، وإذا قـيـل إن الأدلـة التي يسوقها الفلاسفة وأشباههم تكون مشتقة من بداهة العقول، فـكل دليل في ذاته يحمل في نفسه منع ما يناقضة، إذا قيل ذلك فإننا لا ندري لماذا لايـفـرض في الأدلـة الـتي يسوقها القرآن ذلك الغرض أيضاً، إذ هي توجه الأنظار إلى حـقـائـق الكائنات، وذلك في ذاته ينفي احتمال المناقض أو على الأقل المناقض الذي له دليل وإن ذلك كاف في الجزم واليقين».

(٣) أنـه يـؤمـن كـل الإيمـان بـالأدلة العقلية في الإلٰهيات، ويرى أنها تُنتج جزماً ويـقـيـنـاً، مع أن ذلك موضع نظر بين العلماء والحكماء، فإن من المقررات العقلية أن الـبـراهين الرياضية وما يتصل بها تنتج جزماً وقطعاً لا ريب في ذلك، لأنها تبنى على الـبـديهيات التي تقرر المساواة الأصلية، وأن مساوي المساوي يتساوى مع الأول، وأنها

في اتساقها الفكري تنتهي إلى ذلك دائماً، وأنها مهما تتعقد على المدارك فإنها تنتهي إلى مبدأ التساوي الفكري».

أما الأدلة المتصلة بالطبيعيات فإنها عند أولئك الفلاسفة تنتج ظناً لأن أساسها الاستقراء والارستقراء قد يكون ناقصاً.

والأدلة المتصلة بالإلٰهيات اختلف الباحثون في شأنها، والمحققون على أنها في ذاتها لا تنتج قطعاً تاماً ولكن بترادفها وتكاثرها قد يكون منها الجزم واليقين.

فإذا كان الرازي يترك القرآن وأدلته في إثبات العقائد معتبراً ذلك دليلاً سمعياً لا يعول عليه فيها، فقد ترك موضع الجزم واليقين إلى متاهات العقول وضلال الأفهام(١) .

ونحن إذ نقول هذا الكلام بناء على أن الرازي توفي وهو على رأيه في الأدلة السمعية، ولكن الأدلة والمصادر تفيد بأنه رجع عن كثير من آرائه الفلسفية كما يدل عليه قوله في كتابه«أقسام اللذات»: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن أقرأ في الإثبات ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾(٢) ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾(٣) «وأقرأ في النفي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾(٤) ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾(٥) «ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي»(٦) كما تقدم.

ومما يدل على رجوع الرازي عن آرائه الفلسفية إلى كثير من آراء السلف الصالح

---

(١) ابن تيمية ــ للشيخ محمد أبو زهرة ص ٢٥٢ ــ ٢٥٣.
(٢) طه : ٥.
(٣) فاطر : ١٠.
(٤) الشورى : ١١.
(٥) طه : ١١٠.
(٦) انظر الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٣٢١.

وتمسكه بالكتاب والسنة ما ورد في وصيته في آخر عمره التي أملاها على تلميذه إبراهيم ابن أبي بكر الأصفهاني.

قال ابن خلدون عن هذه الوصية «إنها تدل على عقيدة حسنة» ونوردها هنا لأن لها علاقة واتصالاً بالتفسير وبمصنفات الإمام.. وقد أملاها الإمام على تلميذه إبراهيم بن أبي بكر الأصفهاني حين مرض وأيقن بالموت وكان إملاؤها في الحادي والعشرين من المحرم سنة ست وستمائة، وإن كانت تراخت منيته إلى أن مضى ما يقرب من عام بعد إملائها.

ومن نصوص هذه الوصية بعد أن حمد الله وصلى على ملائكته وأنبيائه قال: «... فاعلموا أنني كنت رجلاً محباً للعلم فكنت أكتب في كل شيء لا أقف على كميته وكيفيته، سواء كان حقاً أو باطلاً غثاً أو سميناً، إلا أن الذي نظرته في الكتب المعتبرة لي أن هذا العالم المحسوس تحت تدبير مدبر منزه عن مماثلة المتميزات والأعراض وموصوف بكمال القدرة والعلم والرحمة، ولقد اختبرت الطرق الكلامية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى، ويمنع عن التعمق في إيراد المعارضة والمتناقضات، وما ذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل في تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية، ولهذا أقول : كلما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجوب وجوده ووحدته وبراءته عن الشركاء في القدم والأزلية والتدبير والفعالية، فذاك هو الذي أقول به وألقى الله تعالى عليه، وأما ما انتهى الأمر فيه إلى الدقة والغموض، فكل ما ورد في القرآن والأخبار الصحيحة المتفق إله عليها بين الأئمة المتبعين للمعنى الواحد، فهو كما هو، والذي لم يكن كذلك أقول : يا إله العالمين إني أرى الخلق مطبقين على أنك أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، فلك ما مر به قلبي أو خطر ببالي، فاستشهد علمك وأقول: إن علمت مني أني أردت تحقيق باطل أو إبطال حق فافعل بي ما أنا أهله، وإن علمت مني أني ما سعيت إلا في تقرير ما اعتقد أن هو الحق وتصورت أنه الصدق، فلتكن رحمتك مع قصدي لا مع حاصلي فذاك جهد المقل، فأنت أكرم من أن تضايق الضعيف الواقع في الزلة فأغثني وارحمني، واستر زلتي، وَامْحُ حوبتي، يا من لايزيد ملكه عرفان العارفين، ولا ينقص بخطأ المجرمين، وأقول : ديني متابعة

سنة محمد سيد المرسلين، وكتابي هو القرآن العظيم، وتعويلي في طلب الدين عليهما» [1].

هذه نصوص من وصية الإمام الفخر الرازي رحمه الله، وهي تدل في جملتها على الشعور بخطر التعمق الفلسفي، فيما من شأنه أن يوقع في المهالك، وتدل على حسن الرغبة في انتهاج طريق القرآن واتباع الطريق الأقوم، الذي سار عليه السلف الصالح دون اللجوء إلى التعمق في المذاهب الكلامية والمناهج الفلسفية مما لا طائل تحته.

الإمام ابن رشد :

انتهج بعض الفلاسفة منهجاً خطيراً في تقريراتهم للطرق الاستدلالية كما تقدم، إذ رأوا أن السمعية لا تصلح أن تكون مصدراً لليقين، فهم يقولون إن القرآن جاء بالأدلة الخطابية والمقدمات الإقناعية التي تقنع الجمهور دون أن تكون تلك المقدمات منتجة لليقين، وأنهم ليدعون لأنفسهم الطرق البرهانية، والمقدمات اليقينية في علومهم المنطقية وآرائهم الفلسفية.

وابن رشد المتوفَّي سنة٥٩٥هـ يعتبر من فلاسفة المسلمين المعتدلين، بل إنه إمام في العلوم الشرعية، ولكن نزعته العقلية جعلته يتأثر بفلاسفة اليونان، فعكف على دراسة الكتب المنطقية، والاطلاع على الآراء الفلسفية، بيد أن منهجه تجاه أدلة القرآن كان معتدلاً إلى حد كبير، وإن وقع في تقسيم الأدلة القرآنية إلى أدلة خطابية وجدلية وبرهانية، وكأنه نظر إلى كون هذه الأدلة تقنع الخاصة والعامة من الناس، فرأى أن القرآن قد اشتمل على هذه الأدِلَّة جميعها.

والذي نريد مناقشته هنا أن ابن رشد جعل بعض أدلة القرآن أدلة خطابية، وهذه العبارة محتملة لأن الخطابة في الاصطلاح المنطقي لا تنتج اليقين، ولا تبني على مقدمات يقينية، فلزم من هذا أن تكون بعض أدلة القرآن أدلة خطابية نتيجتها الظن، وهذا خطأ وقع فيه الفلاسفة وكثير من المتكلمين، ولعل هذا يرجع إلى أن القرآن قد

---

(١) انظر مقدمة تفسير الفخر الرازي ج ١ ل ــ م المطبعة البهية المصرية.

يسلك في استدلاله طرقاً إقناعية على ما هو مألوف من أساليب اللغة العربية، فإذا نظر الباحث في كتاب الله تعالى وجد الأدلة القرآنية متنوعة والطرق الاستدلالية متشعبة، وقد خيل إليه أنها أدلة خطابية لسهولة مأخذها وصفاء نبعها، وتأثيرها في الجمهور من الناس، وهنا حقيقتان يجب أن يعرفهما كل ناظر في كتاب الله تعالى:

(١) أن أسلوب القرآن يعلو على أساليب البشر علواً كبيراً، سواء أكان قد اشتمل على أدلة خطابية أم أدلة برهانية، فإنها من الكلام المعجز.

(٢) أن القرآن الكريم يعلو على الخطابة في أن كل مقدماته ونتائجه يقينية لا مجال للظن فيها فإن الظن لا يغني من الحق شيئاً.

وعلى هذا فمن وصف أدلة القرآن بأنها أدلة خطابية فقد أتى شيئاً إداً فإن الأدلة الخطابية جزء من المنطق لا ينتج إلا الظن، قال ابن سينا في الشفاء « إن الحكماء قد أدخلوا الخطابة والشعر في أقسام المنطق لأن المقصود من المنطق أن يتوصل إلى التصديق فإن أوقع التصديق يقيناً، فهو البرهان وإن أوقع ظناً أو محمولاً على الظن، فهو الخطابة، أما الشعر فلا يوقع تصديقاً لكنه لإفادة التخييل الجاري مجرى التصديق من حيث أنه يؤثر في النفس قبضاً وبسطاً عد في الموصل إلى التصديق».

وقد أورده الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه (المعجزة الكبرى) ثم عقب عليه بقوله «ولا بد لنا من أن نذكر أمرين ثابتين:

أولهما : أن الخطابة في أقيستها لا تعتمد إلا على الظن، ولا تنتج إلا الظن، ولكن يجب أن يعلم أن من الحقائق التي تجيء على ألسنة المتكلمين، والتي تجري في الأسلوب الخطابي ما هو يقين ينتج قطعياً ولا ينقص القطعية فيها أنها خلت من صور الأقيسة المنطقية والأشكال البرهانية، فليست العبرة في اليقين بالشكل، إنما العبرة بالحقيقة هي مقطوع بها أم غير مقطوع، والشكل البرهاني لا يمنحها يقيناً، كما أن عدم التمسك به لا ينقصها يقينها.

وأن كثيراً من الأدلة الخطابية تعتمد على أقوى المقدمات إلزاماً وأشدها إفحاماً وإن المنطق مميز لباطل القول، وليس موجداً لليقين بذاته فإن الأشكال المنطقية أخص خواصها أنها تكشف زور الباطل.

وقد يكون الكلام الخطابي مجملاً بالأشكال المنطقية في مقام الرد على حجج الخصوم وبيان زيفها، ووجه البطلان فيها. وكثيراً ما تستخدم الخطب التي تقوم على المحاجة والجدال والبراهين والأقيسة المنطقية لبيان وجه البطلان في كلام الخصم.

ثانيهما : أنه لا ينطبق ما يقال في الخطابة والجدل من أنهما يقومان على الأدلة الظنية على القرآن، ونحن نميل إلى أن الاستدلال القرآني له طريق قائم بذاته، وإذا نظرت إليه وجدت فيه ما امتازت به الأدلة البرهانية من يقين لا مرية فيه، وما امتازت به الأدلة الخطابية من إثارة للاقناع، وما امتازت به كل خواص البيان العالي مع أنه لا يسامي، وهو معجزة لكل الناس عربهم وعجمهم[١] . لأنه يخاطب العقل والوجدان ولا يعتمد على الثاني إلا كحجة متممة.

إذا تبين هذا، فاعلم أن قول الإمام ابن رشد في أدلة القرآن قول مجمل، فالأدلة الخطابية لها مفهوم عند المناطقة والفلاسفة، وقد تأثر ابن رشد بثقافاتهم ونحا مناحيهم، وهذا المفهوم للأدلة الخطابية عند المناطقة يختلف عن مفهومها العام الذي يرد على السنة حملة الشرع، فإن الخطب التي كان يعظ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه، و يبين لهم فيها أحكام الإسلام وتوجيهاته، إن هذه الخطب وإن أثرت في عواطف الناس واستولت على حواسهم ببلاغتها وسمو معانيها فإنها خطب تنبع من منابع اليقين وتؤتي ثماره بأروع الحجج وأحكم البراهين، وقد تلقاها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقبول والامتثال واعتبروا جميع ما ورد منها حجة يجب العمل بمقتضاها ولا تجوز مخالفتها ودرج على هذا السلف الصالح ومن اقتفى أثرهم، لأن تلك الخطب النبوية الكريمة قد اجتمعت فيها قوة الإقناع والتأثير، مع قوة البرهان واليقين فقول ابن رشد إن من أدلة القرآن أدلة خطابية قول فيه نظر.

---

(١) انظر المعجزة الكبرى /ص ٣٩١ /٣٩٢.

فإن كان يريد من كونها خطابية أنها تسكن إليها النفوس وتطمئن لها الخاصة والعامة فتسلم لها وتنقاد مقتنعة بصحة ما تدعو إليه هذه الأدلة التي هي في نفس مادتها يقينية لا يتطرق إليها الشك، وإنما تختلف عن البراهين في طريق إدائها، إذ يخفُّ بها التأثير والاستيلاء على الحواس والمدارك، إن كان يقصد هذا من قوله هو إن بعض أدلة القرآن خطابية فهذا حق لا مرية فيه بهذا الاعتبار، إلا أن الأولى عدم استعمال مثل هذا اللفظ في جانب أدلة القرآن لاختلاطه بما يرادفه من الباطل.

وإن كان يقصد بالأدلة الخطابية ما هو معروف في اصطلاح علماء المنطق والكلام من كونها مقدمات مسلمة عند الجمهور للتأثير عليهم، ولكن نتائجها غير قطعية ولا يقينية بل هي ظنية، فإننا لا نوافق ابن رشد على رأيه هذا، بل إننا نضرب به وبأمثاله عرض الحائط، لأن جميع ما في القرآن حقائق يقينية، ولا ينبع مناهجه إلا من اليقين، وقد ذم مخالفيه باتباعم الظن ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[1] .

«إنك إذا أمعنت النظر في كتاب الله وَجَدْتَ أدلته تجمع بين العمق والوضوح والدقة، واقرأ مثلاً قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[2] ثم انظر كيف يكون الاستدلال والتهويل والاستعظام في هذه الكلمات القليلة بل الدليل نفسه جامع بين عمق المقدمات اليقينية ووضوح المقدمات المسلمة ودقة التصوير لما يعقب التنازع من الفساد الرهيب، فهو برهان خطابي شعري معاً، وهذا ما لا تجده في كتاب من كتب الحكمة النظرية»[3] .

وخلاصة رأيي في هذا، أن المنهج الذي يتناسب مع الحقيقة والواقع، ومع الأدب في جانب كتاب الله تعالى أن يقال: إن القرآن الكريم امتاز بمنهج قائم بذاته في طرق الاستدلال، وأنه يجمع بين صدق المقدمات وصحة النتائج مع روعة البيان وقوة الإعجاز.

---

(١) سورة النجم : آية ٢٨.
(٢) الأنبياء آية : ٢٢.
(٣) انظر النبأ العظيم : للدكتور محمد عبد الله دراز ـ ص ١٠٩.

شيخ الإسلام ابن تيمية :

ظهر شيخ الإسلام ابن تيمية المتوفي سنة ٧٢٨ هـ رحمه الله في عصر أصيب المسلمون فيه بنكسات فكرية وضل كثير منهم في متاهات المذاهب الكلامية، والآراء الفلسفية، وسرت هذه الفلسفات فسيطرت على الفكر الإسلامي، وتغلغلت فيه بشكل خطير، فكان لا بد من خوض معركة فكرية لصد تلك الهجمات المستهدفة تشكيك المسلمين في عقائدهم، ومزج علوم الكتاب والسنة بعلوم المنطق والفلسفة اليونانية على مافيها من حق و باطل.

ولكن ابن تيمية رحمه الله تعالى، رأى من تمام منهجه في دخول هذه المعركة أن يعرف مصطلحات القوم، ومناحي الفكر الذي بنوا عليه أقوالهم واتجاهاتهم، فرأى أن يخاطب أهل الاصطلاح باصطلاحهم، و يقابل المعركة بسلاح مثلها، فدرس الفلسفة وعرفها، حتى صار أعلم بها من أهلها، لكنه درس هذه الفلسفة لينقضها واطلع على المنطق اليوناني، ليبين ما فيه من زيف لا طائل تحته.

وخرج من دراسته للفلسفة سليم العقيدة، نافذ البصيرة، لأنه دخل تلك اللجج على حذر واقتحمها عن بصيرة، إذ هو يريد سبر أغوارها، والاطلاع على ما يكمن فيها من أخطار على معتقدات الناس وتراثهم، ثم جرد ابن تيمية رحمه الله حملته على من اغتر بالفلسفة والعلوم المنطقية اليونانية، وقدمها على علم الكتاب والسنة، وهاجم ابن تيمية المناطقة في كثير من قضايا المنطق، وألف كتابه المشهور بـ (الرد على المنطقيين) وتعرض فيه لمناقضتهم في الحد والبرهان وغيرهما من قضايا المنطق اليوناني.

وابن تيمية رحمه الله تعالى إذا كان ينقض منطق أرسطو لما يرى فيه من بعض المتناقضات، فإنه لا ينقض منطق العقل الإنساني من حيث هو منطق سليم يتفق مع الفطر السليمة والتعاليم السماوية، وإلا كان في عمله هذا متناقضاً فإنه ينقض المنطق بالمنطق و يستخدم حجج العقل في إبطال حجج العقل، ومن هنا نعرف أنه يريد من عمله تصحيح المنطق السليم المتفق مع البداهة العقلية، التي لا تخالف التعاليم السماوية التي جاءت بها الرسل عليهم الصلاة والسلام، ولهذا يقول «لأن الرسل ضربت للناس الأمثال العقلية التي يعرفون بها التماثل والاختلاف، فإن الرسل دلت

الناس وأرشدتهم إلى ما به يعرفون العدل، ويعرفون الأقيسة العقلية الصحيحة التي يستدل بها على المطالب الدينية، فليست العلوم النبوية مقصورة على مجرد الخبر، كما يظن ذلك من يظن من أهل الكلام ويجعلون ما يعلم بالعقل قسيما للعلوم النبوية، بل الرسل صلوات الله عليهم بينوا العلوم العقلية التي بها تم دين الناس علماً وعملاً وضربوا الأمثال فكملت الفطرة بما نبهوا عليه، وأرشدوا به مما كانت الفطرة معرضة عنه، أو كانت الفطرة قد فسدت بما حصل لها من الآراء والأهواء الفاسدة، فأزالوا ذلك الفساد، وبينوا ما كانت الفطرة معرضة عنه، حتى صار عند الفطرة معرفة الميزان التي أنزلها الله وبيّنها رسله».

«والقرآن والحديث مملوء من هذا، يبين الله الحقائق بالمقاييس العقلية والأمثال المضروبة، ويبين طرق التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين، وينكر على من يخرج عن ذلك كقوله تعالى: (أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ)[1] وقوله تعالى (أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)[2] أي هذا حكم جائر لا عادل، فإن فيه تسوية بين المختلفين، وقال تعالى (أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ)[3] .

«ومن التسوية بين المتماثلين قوله تعالى(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ)[4]، (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟)[5] .

«والقرآن مملوء من ذلك، لكن ليس هذا موضعه، وإنما المقصود التنبيه على جنس الميزان العقلي، وأنه حق كما ذكر الله في كتابه، وليس مختصاً بمنطق اليونان، وإن

---

(١) سورة الجاثية : آية ٢١.
(٢) سورة القلم : آية ٣٥ /٣٦.
(٣) سورة ص : آية ٢٨.
(٤) سورة القمر : آية ٤٣.
(٥) سورة البقرة : آية ٢١٤.

كان فيه قسط منه، بل إن الأقيسة الصحيحة المتضمنة التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين سواء صيغ ذلك بصيغة « قياس الشمول» أو بصيغة « قياس التمثيل»، وصيغ « التمثيل» هي الأصل وهي أكمل، والميزان هو القدر المشترك، وهو الجامع، وهو الحد الأوسط» (١) .

وابن تيمية رحمه الله لاينكر المنطق جملة وتفصيلا، ولكنه يرى أن المنطق سليقة في العقل الإنساني، يستغني عنه الذكي، ولا ينتفع به البليد إذا جاء على غير سليقة واستعداد.

و يرى الإمام ابن تيمية أن فساد المنطق في البرهان حيث يقول «..أما البرهان فصورته صورة صحيحة، وإذا كانت مواده صحيحة صحيحة فلا ريب أنه يفيد علماً صحيحاً، لكن الخطأ من وجهين :

الأول : أن حصر مواده فيا ذكروه من الأجناس المذكورة لا دليل عليه البتة، فأصابوا فيا أثبتوه دون ما نفوه، فن أين يحكم بأنه لا يقين إلا من هذه الجهات المعنية، فإن رجع فيه الإنسان إلى ما يجده من نفسه فن أين له أن سائر النوع حتى الأنبياء والأولياء لايحصل لهم يقين بغير ذلك ثم الواقع خلاف ذلك».

الثاني : أن هذا البرهان يفيد العلم، لكن من أين علم أنه لا يحصل لقلب بشر علم إلا بهذا البرهان الموصوف؟! بل قد رأينا علوماً كثيرة هي لقوم ضرورية أو حسية.، ولآخرين نظرية قياسية، فلهذا كذبوا بمالم يحيطوا بعلمه، وهو ما حصل من العلوم بغير هذه المواد المحصورة، أو بغير قياس أصلاً، بل زعم أفضل المتأخرين منهم أن علوم الأنبياء والأولياء لا تحصل إلا بواسطة القياس، وكلامهم يقتضي أن علم الرب كذلك ولا دليل لهم على ذلك أصلاً سوى محض قياس الأنبياء والأولياء على نفسه، وقياس الرب والملائكة على البشر».

« فهذا موضع ينبغي للمؤمن أن يتيقنه و يعلم أن هؤلاء القوم وغيرهم إنما ضلوا

(١) الرد على المنطقيين ص ٣٨٢ ــ ٣٨٣ بتصرف يسير.

غالباً من جهة ما نفوه وكذبوا به، لا من جهة ما أثبتوه وعلموه، ولهذا كان المنطق مظنة الزندقة لمن لم يَقْوَ الإيمان في قلبه، حيث اعتقد أنه لا علم إلا بهذه المواد المعينة وهذه الصورة، وذلك مفقود عنده في غالب ما أخبرت به الأنبياء، فيشك في ذلك أو يكذب به أو يعرض عن اعتقاده والتصديق به، فيكون عدم إيمانه وعلمه من اعتقاده الفاسد أنه لاعلم إلا من هذه المواد المعينة ولا دليل عليه البتة».

وإن كانت مفيدة للعلم، فالفرق ظاهر بين كونها تفيده وبين كونها تفيده ولا يحصل بغيرها، ومما يبين ذلك، أن القياس لا يدل إلا على علم كلي، وهم معترفون بذلك، لأنه لابد فيه من مقدمة كلية إيجابية، والكلي لا يدل إلا على القدر المشترك وهو الكلي، فجميع الحقائق المعينة لا يدل عليها القياس بأعيانها. وإنما يعلم به ــ إن علم ــ صفة مشتركة بينها وبين غيرها فلا يعلم به شيء من خواص الربوبية البتة، ولا شيء من خواص ملك من الملائكة، ولا نبي من الأنبياء، ولا ولي من الأولياء، بل ولا ملك من الملوك، ولا أحد من الموجودات العلوية والسفلية، فإذا العلم بهذه الأشياء إما أن يكون منتفياً أو حاصلاً بغير قياس».

وكلا القسمين واقع وهو منتف عندهم، إذ لا طريق لهم غير القياس، وهو حاصل عند الأنبياء وأتباعهم، بل حاصل ذلك في الجماعة عند جميع أولي العلم من الملائكة والنبيين وسائر الآدميين».

وأيضاً فإذا كان لابد فيه من مقدمة كلية، فإن كانت نظرية افتقرت إلى أخرى وإن كانت بديهية فإذا جاز أن يحصل العلم بجميع أفرادها بديهية فما المانع أن يحصل ببعض أفرادها وهو أسهل».

أما الحد، فله وجوه عدة منها دعواهم أن التصورات النظرية لا تعلم إلا بالحد الذي ذكروه، فالقول فيه كالقول في أن التصديقات النظرية لا تحصل إلا بالبرهان الذي حصروا مواده ولا دليل على ذلك، ويدل على ضعفه أن الحادّ إن عرف المحدود بحد غيره فقد لزم الدور أو التسلسل وإن عرفه بغير حد بطل المدعى».

فإن قيل : بل عرفه بالحد الذي انعقد في نفسه، كما عرف التصديق بالبرهان

الذي انعقد في نفسه قبل أن يتكلم به، قيل: البرهان مباين للنتيجة فإن العلم بالمقدمتين ليس هو غير العلم بالنتيجة، وأما الحد المنعقد في النفس فهو نفس العلم بالمحدود، وهو المطلوب فأين الحد المفيد «للعلم بالمحدود وهذا أحد ما يبين»![1]

وبهذا تعرف أن شيخ الإسلام ابن تيمية لا ينكر المنطق جملة وتفصيلا، ولكنه يبين ما غلط فيه أرسطو وأتباعه من قضاياه.

وابن تيمية يرى جدوى المنطق لإزالة السفسطة، كما أنها قد تستعمل المقدمات في المناظرة، حيث يقول في كتابه الرد على المنطقيين «المقدمات الخفية قد تنفع بعض الناس في المناظرة، ومع هذا فلما كان الجلاء والخفاء من الأمور النسبية ، فقد ينتفع بالدليل الخفي والحد الخفي بعض الناس، وكثير من الناس إذا ذكر له الواضح لم يعبأ به، وقد لا يسلمه حتى يذكر له دليل مستلزم ثبوته، فإنه يسلمه وكذلك إذا ذكر له حد يميزه وهذا في الغالب يكون من معاند أو ممن تعودت أنها لا تعلم إلا ما تعنت عليه، وفكرت فيه وانتقلت فيه من مقدمة إلى مقدمة، فإن العادة طبيعة ثانية.

فكثير ممن تعود البحث والنظر صارت عادة نفسه كالطبيعة له لا يعرف ولا يقبل ولا يسلم إلا ما حصل له بعد بحث ونظر وجدل ومنع ومعارضة، فحينئذ يعرف به و يقبله و يسلمه، وإن كان عند أكثر الناس من الأمور الواضحة البينة لا تحتاج إلى بحث ونظر، فالطريق الطويلة والمقدمات الخفية التي يذكرها كثير من النظار تنفع لمثل هؤلاء في النظر وتنفع في المناظرة لقطع المعاند وتبكيت الجاحد، فإن السفسطة أمر يعرض لكثير من النفوس وهي جحد الحق».

ثم يقول ابن تيمية «ولكن قد تعرض السفسطة لبعض الطوائف ولبعض الأشخاص في بعض المعارف، فإن أمراض القلوب كأمراض الجسم، فكما أنه ليس في الوجود أمة ولا شخص يمرض بكل مرض، فليس فيهم من هو جاهل بكل شيء، وفاسد الاعتقاد في كل شيء، بل قد يوجد فيهم من هو مريض ببعض الأمراض، بل

---

(١) فتاوى ابن تيمية ج ٩ ص ٢٦٠ — ٢٦٢.

قد يوجد بعض الطوائف يكثر فيهم بعض الأمراض، وهؤلاء المرضى لا ينتفعون بالأغذية الفطرية، بل يحتاجون إلى علاج وأدوية تناسب مزاجهم».

وكذلك من كان به سفسطة ومرضت فطرته في بعض المعارف لا يستعمل معه الأدلة النظرية، بل يستعمل معه نوع من العلاج والأدوية، فقد تكون الحدود والأدلة التي تحوجه إلى النظر والفكر إذا تصورها وقدمة مما يزيل سفسطته وتحوجه إلى الاعتراف بالحق، وهذا بمنزلة من يغلط في الحساب والحساب لا يحتمل وجهين. وقد يكون غلطه ظاهراً وهو لا يعرفه أو لا يعترف به. فيسلك معه طريق طويل يعرف بها الحق، ويقال له«أخذت كذا وأخذت كذا فصار كذا، واخذت كذا وأخذت كذا فصار كذا».

«وكذلك للمناظر قد تضرب له الأمثال فإن المثال يكشف الحال حتى في المعلومات بالحس والبديهة.»

«وقد تستسلف معه المقدمات، وإلا فقد يجحد إذا عرف أنه يلزمه الاعتراف بما ينكره وهي طريقة المتقدمين من نظار المسلمين وقدماء اليونان في المناظرة يكون المستدل هو السائل لا المعترض فيستسلف المقدمات ويقول« ماتقول في كذا وفي كذا؟» أو يقول « ليبين كذا وكذا» مقدمة مقدمة، فإذا اعترف بتلك المقدمات بين ماتستلزمه من النتائج المطلوبة، فيجب الفرق بين ما تقف معرفة الحق عليه ويحتاج إليه، وبين ما يعرف الحق بدونه ولكن قد يزال به بعض الأمراض ويقطع به بعض المعاندين»[١].

ويقول عباس محمود العقاد في كتابه التفكير فريضة إسلامية مانصه:

«وموقف الإمام ابن تيمية من المنطق والجدل شبيه بموقف الإمام الغزالي، ولكنه يرى أن المنطق سليقة في العقل الإنساني، يستغني عنه الذكي ولا ينتفع به البليد إذا

---

(١) الرد على المنطقيين ص ٣٢٨ — ٣٣١.

جاء على غير سليقة واستعداد، ومن كان هذا رأيه في المنطق فمحال أن يقال عنه ويحرمه لأنه لا يلغي الفطرة ولا يحرم تركيباً أودعه الله نفوس خلقه».

ومن نظر في كتب ابن تيمية التي ناقض بها أدعياء المنطق وعشاق الجدل، علم أنه كان بصدد إنشاء منطق صحيح، وهداية إلى تطبيق أصول المنطق القويم، ولم يكن متصدياً لهدم المنطق من أساسه على جميع وجوهه وفي جميع تطبيقاته».

ثم يقول العقاد: «...وقد سلك ابن تيمية هذا المسلك في مواضع كثيرة من رسائله وكتبه التي أدارها على مناقضة الجدليين والمناطقة بالمصطلحات والتعريفات اللفظية، فلا يسع منصفاً أن يظن به أنه يحرم الحجة والبرهان، وهذه حججه وبراهينه تعتمد على الدليل والقرينة والاستقراء والمشاهدة وكل ما تنتظم به قضايا المنطق ودعاواه. وغاية ما يقوله المنصف: إن التحريم عنده مقصود به اللغو والجدل والولوع بالسفسطة على غير جدوى».

«وإن في تحكيم العقل في المنطق إنقاذ له من تحكيم المنطق فيه، ولا يكون المنطق متحكماً في العقل صارفاً له عن النظر القويم إلا إذا غلبت فيه أشكال اللفظ والصيغة على حقائق المعنى وجواهره».

فهو بهذه المنزلة ربقة للعقول، ينبغي أن يطلقوها من شباكها ليستقيموا بها على سوائها، وما كان ابن تيمية بالذي يظن به أنه يعادي المنطق لأنه يجهله ويستخف به مداراة عنه، فإن معرفته به ظاهرة في معارض قوله كأنه من زمرة المتخصصين له والمتفرغين لدراسته وحذق أساليبه، ومثل هذا لا يتصدى للمنطق، إلا أن يكون فيه ما يخشى ضرره على الناس ولا سيما المشتغلين به من غير أهله»[1] .

وابن تيمية رحمه الله يرى أن منشأ غلط المناطقة غالباً من جهة ما نفوه وكذبوه لا

---

(١) انظر كتاب التفكير فريضة إسلامية ص ٣٦، ص ٤٢.

من جهة ما أثبتوه وعلموه، فهو يرى أن البرهان صورته صحيحة، وإذا كانت مواده صحيحة فلا ريب في أنه يفيد علماً صحيحاً[1] ، كما تقدم ذكره.

وقد استخدم ابن تيمية المنطق في نقض ما يرى فيه من باطل، وهذا يعني أنه ضرب الخصوم بسلاحهم، ثم إن المجادل إذا كان لا يؤمن بالقرآن، ولا يستفيد من الآيات البرهانية والأدلة النقلية، فإننا نجادله بالأدلة العقلية حتى لو استخدمنا المنطق في نقض باطله إذا كان قد بنّي قواعد جداله على المنطق، وهذا ما يراه ابن تيمية من أن المنطق قد يفيد في تبيان أخطاء الخصم وإلزام أهل السفسطة والعناد[2] .

إن تفكير ابن تيمية عميق في أبعاد الشريعة الإسلامية، ولكنه مع هذا قد وقع قلبه وعقله تحت تأثير الكتاب والسنة، وأقوال الصحابة، وأقضيتهم، وفتاويهم، وكل ما أثر عنهم من آراء فهو ملتزم بذلك، إذ كان يرى أن علم أصول الشريعة وفروعها مرجعه النبوة وحدها، وهي مصدر العلوم والمعارف إذا فهمت على حقيقتها ففيها الغنوة وفيها العلم الحقيقي الذي يجمع شؤون الحياة الدنيا والآخرة.

وقد حمل ابن تيمية رحمه الله على من أهمل أدلة القرآن، والتجأ إلى طرق المتكلمين والفلاسفة، وهاجمهم هجوماً عنيفاً، خاصة أولئك الفلاسفة الذين يرون أن أدلة القرآن أدلة خطابية اقناعية وليس فيها براهين قطعية، وإن البراهين الحقيقية ما اشتمل عليه علم المنطق فقط.

لقد كان يرى أن مؤدى هذا الأمر، أن تكون العلوم الإسلامية مدينة لمنطق «أرسطو» في فهمها كما يكون مؤداه أن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم لم تكن لديهم الوسائل القطعية لفهم هذا الدين الحكيم، ولا لفهم عقائده لأنهم لم يكونوا على علم بمنطق «أرسطو» الذي لم يدخل في الفكر الإسلامي إلا في القرن الثاني الهجري، كأن الصحابة والتابعين ما كانوا عالمين بأصول هذا الدين إلا عن طريق ظني، ولم يتوافر لديهم الطريق القطعي.

---

(١) انظر الفتاوي ج ٩ ص ٢٥٩.
(٢) انظر الرد على المنطقيين : ص ٣٢٨، ٣٣٠.

قال ابن تيمية رحمه الله في ذلك «يقولون إنه لم يكن الرسول يعرف معنى ما أنزل عليه من هذه الآيات، ولا أصحابه يعلمون معنى ذلك، بل لازم قولهم أنه هو نفسه لم يكن يعرف معنى ما تكلم به من أحاديث الصفات، بل يتكلم بكلام لا يعرف معناه» [1] .

وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحاول تأويل الصفات في القرآن تأويلاً يتفق مع القواعد الفلسفية التي قررها علماء الكلام من بعده، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم كان علمه هو القرآن، والأدلة التي كان يعلمها هي أدلة القرآن، ولم يتجاوز ذلك، وكذلك الصحابة والتابعون من بعدهم والفقهاء المجتهدون، وذلك لأن أولئك لم يكونوا على علم بمنطق اليونان، ولا بتأويل علماء الكلام لما جاء في القرآن» [2] .

وبهذا يتبين لنا أن منهج شيخ الإسلام ابن تيمية كان منهجاً صحيحاً في وقوفه مع الأدلة الشرعية ودفاعه عنها رغم ما يحيط به من ظروف سياسة واجتماعية في عصر هبّت فيه أعاصير الفتن، فكان موقفه موقفاً صلباً حازماً في الدفاع عن الإسلام وشريعته.

كما أنه لم يكن عنده جمود فكري تجاه الحوادث والأوضاع التي شاهدها، وهي تمور بالصراع بين مختلف المذاهب والنحل، لقد برع في شتى مجالات العلم، وكان خبيراً بمقاصد الشريعة الإسلامية وأبعادها في تربية المجتمع ونظام الحكم وغيرها، مما له صلة بالحياة العامة.

وإذا كان الإمام ابن تيمية قد حمل على الإمام الغزالي أو غيره من أهل الكلام في بعض القضايا، فهو لا ينكر على العلماء اختلافهم في المسائل الفرعية والاجتهادية، وقد ألف كتاباً قيماً سماه «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» تحدث فيه عن اختلاف العلماء وبين أعذارهم فيما يقع بينهم من اختلاف فقال: «وليعلم أنه ليس أحد من

---

(١) نقض المنطق : ص ٥٧.

(٢) ابن تيمية ــ لمحمد ابو زهرة ص ٢٤٣.

الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً يعتقد مخالفة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم في شيء من سنته دقيق ولا جليل، فإنهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع الرسول صلىٰ الله عليه وسلم وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله و يترك، إلا الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه فلا بد له من عذر في تركه، وجماع الأعذار ثلاثة أصناف :

أحدها : عدم اعتقاده أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قاله.

والثاني : عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول

والثالث : اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ .

وهذه الأصناف الثلاثة تتفرع إلى أسباب متعددة».. إلى آخر ما ذكره من القضايا التي وقع الخلاف فيها بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم[1] .

كما أن شيخ الإسلام ابن تيمية لم يكن له هوى في مجادلاته، وكان يعترف لمخالفيه بالفضل الذي لهم و يرجو لهم المغفرة فيما أخطأوا فيه، حيث يقول بعد ذكر جماعة من أهل العلم : «ثم إنه ما من أحد من هؤلاء إلا من له في الإسلام مساع مشكورة وحسنات مبرورة وله في الرد على كثير من أهل الإلحاد والبدع والانتصار لكثير من أهل السنة والدين ما لا يخفى على من عرف أحوالهم وتكلم فيهم بعلم وصدق وعدل وإنصاف، ولكن لما التبس عليهم هذا الأصل ــ يعني الكلام ــ المأخوذ ابتداء عن المعتزلة وهم فضلاء عقلاء احتاجوا إلى طرده والتزام لوازمه فلزمهم بسبب ذلك من الأقوال ما أنكره المسلمون من أهل العلم والدين، وصار الناس بسبب ذلك منهم من يعظمهم لما لهم من المحاسن والفضائل، ومنهم من يذمهم لما وقع في كلامهم من البدع والباطل، وخيار الأمور أوساطها»!

وهذا ليس مخصوصاً بهؤلاء، بل مثل هذا وقع لطوائف من أهل العلم والدين،

(١) رفع الملام عن الأئمة الأعلام ــ ص ٣، ٤.

والله تعالى يتقبل من جميع عباده المؤمنين الحسنات و يتجاوز لهم السيئات «رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ»[1] .

ولا ريب في أن من اجتهد في طلب الحق من الدين من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم وأخطأ في بعض ذلك، فالله يغفر له خطأه تحقيقاً للدعاء الذي استجابه الله لنبيه وللمؤمنين حيث قالوا : (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا)[2][3] .

هذا، ورأيي في المنطق اليوناني، أنه آلة من آلات العلوم العقلية يمكن أن يستفاد منه في العلوم بمقدار ما يمحص ويحرر، ولكنه من نتاج الفكر الإنساني يعتريه الخطأ والصواب، فلا يصلح أن يكون ميزاناً للعلوم الشرعية يحكم به عليها وتخضع لقواعده وأشكاله وتعقد أصولها بقوانينه على مافيه من خطأ وصواب، لأن في هذا مجازفة لاسيما وقد تقرر عندنا قيام الحجج والبراهين في مصادر الشريعة الإسلامية قبل وصول المنطق اليوناني إلينا كفن وعلم.

علماً أن المنطق لا يكون وحده طريقاً للإنتاج الفكري فإن سلامة الفطرة واستقامة العقل قد تغني عنه في التأليف بين المسائل والتوفيق بين متنافرها، وحسبك أن تعلم أن العلماء الأولين أنتجوا في أبواب العلم وقواعد الأصول وهم لا يعرفون المنطق اليوناني.

واقرأ مثلاً رسالة الإمام الشافعي في أصول الفقه تجد فيها حسن السبك والتنسيق والتبويب والترتيب والسلامة العقلية، مع أنه لم يكن على علم بالمنطق اليوناني، إذ لم

---

(١) سورة الحشر : آية ١٠.

(٢) سورة البقرة : آية ٢٨٦.

(٣) انظر موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ج ٢ ص ٥٦ /٥٧.

يـكن قد ترجم، أو على الأقل لم يكن قد ذاع وشاع وتداولته الأقلام وتناقلته الأسماع عند المسلمين.

وبـعـد، فـإذا اسـتعمل المنطق اليوناني في العلوم وجب استعماله على حذر على أن يـكـون خـاضـعـاً للـعـلـوم الـشرعية وأن تقدم أدلتها ودلالاتها على أقيسة المنطق اليوناني وأشكاله.

الباب الرابع

موضوعات الجدل في القرآن الكريم



١ ـ الجدال في إثبات وجود الله

من أهم موضوعات الجدال في القرآن الكريم موضوع إثبات وجود الله ووحدانيته، ووجود الله تبارك وتعالى حقيقة لا تقبل النقاش والجدل، لأنها ضرورة تسري في الأحاسيس والمشاعر وتتغلغل في أعماق النفس الإنسانية، ولقد مر بنا في الباب الثاني أدلة القرآن الكريم في الموضوع وما فيها من عمق أحاط بالعقول واستولى على الألباب، فجعلها تستسلم لما أراده رب العزة للإنسان من الهداية، ولم يبق بعيداً عن هذه الساحة الربانية إلا من أغلق قلبه دون أنوار الله وأصم أذنيه عن ندائه، ولكثرة تلك الأدلة وما يقتضيه الحال والمقام من الاقتضاب قدر الإمكان وعدم التطويل، إلا فيما تدعو إليه الحاجة فقد كان الاكتفاء هنا بالإشارة إليها لئلا يطول الكلام ويحصل التكرار.

الجدال مع الدهريين والماديين والملاحدة :

وعلى طريقة القرآن ومنهجه في الاستدلال نجادل بأسلوب القرآن الدهريين والماديين والملاحدة، ونرى كيف حطم القرآن الأغلال التي تحول بينهم وبين معرفة الله وبقيت أدلته في إثبات وجود الله صخرة صلبةً تحطمت عليها أفكار هؤلاء قديماً كما تتحطم عليها أفكارهم كلما جد الزمان وتقلب الملوان، كما نرى جدال القرآن لأشهر من تحدث عنهم من الملحدين والمتألهين « فرعون والنمرود » وكل منهما ادعى أنه رب الناس وإله من دون الله عز وجل.

وإذا كان الماديون والطبيعيون يتظاهرون بإنكار وجود الله فإن هذا الوجود الإلهي يفرض نفسه على أحاسيسهم ومشاعرهم ويقولون به من حيث لايشعرون، فإنهم يقولون بتفاعل الماديات وتأثير بعضها في بعض، وهذا يعني أن الشيء لا يستقل

بحركته دون مؤثر خارجي، إنهم يخضعون نظام هذا الكون لقوانين الجاذبية في تنظيم أبعاده بحيث يكون التناسب والتوازن بين الموجودات، فلا يختل هذا النظام العام للكون، فكأنهم يقرون بضرورة وجود قوة تسير هذه القوى الكونية، وسواء أضافوا هذه القوة إلى قانون العِّلِّيّة والسببية للكون أو قانون التفاعل المادي لتلك القوى كما يرددون، فإن هذا إحساس بوجود خالق مدبر لهذا العالم ولكنهم يكابرون فطرهم وأحاسيسهم فيلجأون إلى القول بأن وجود العالم كان مصادفة واتفاقاً، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه بلا صانع، ولم يزل الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان كذلك كان وكذلك يكون أبداً»[1] .

وإذا نظرنا إلى النصوص القرآنية لم نجد هدفها يوماً من الأيام إثبات وجود الله تعالى، لأن الإيمان بوجود الله ضرورة حتمية و بديهية لا تقبل الفطر الإنسانية الأخذ والرد فيها وإن انحرفت بعض الفطر الإنسانية ومالت إلى الجحود فهذا لا يعني عدم الإحساس بوجود الله ولكنها أصيبت بنكسات قلبية أودت بها في المتاهات المظلمة ولم تستخدم ما وهب لها الله من تفكير للنظر في الكائنات والتبصر في الموجودات، لتستدل به على خالق هذا الكون ومدبره.

ولله في كل تحريكة   وتسكينة في الورى شاهد
وفي كل شيء له آية   تدل على أنه الواحد[2]

ولعلنا نلمح هذه الحقيقة، ونحن نرى القرآن الكريم وهو يرد على هؤلاء الملحدين بصرف النظر عن ادعائهم الكاذب المبني على الجهل، ولا يناقشهم في جهلهم وتفاهة تفكيرهم، إنما يهددهم، وهو يرسم لهم مشهداً مرعباً وهم معروضون أمام الله، جاثون مع الجاثين منتظرون ساعة الفصل، يقول القرآن (وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟

---

(١) المنقذ من الضلال للإمام الغزالي ص ٧٦ بتصرف يسير.
(٢) هذان البيتان لأبي العتاهية انظر ديوانه ص ٦٧.

أَنْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)[1] بل إن آيات سورة الجاثية إلى آخرها لا تكتفي بالرد على دعوى الدهريين فحسب، ولكنها تمضي في تهديدهم بتصوير مشاهد القيامة المفزعة، وأنهم لا يخرجون من النار ولا يستعتبون، وما ذلك إلا لأن هذا الوهم محض كبر مسيطر على النفوس أعمى الفطرة عن الاعتراف بحقيقة الوجود الإلهي، مما جعل السورة تختم بهذا القول الجامع (فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)[2] .

والإمام الشهرستاني يلخص مُدّعاهمُ في قولهم (نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) إشارة إلى الطبائع المحسوسة في العالم السفلي، وقصراً للحياة والموت على تركبها وتحللها، فالجامع هو الطبع والمهلك هو الدهر»[3] .

ومن الواضح أنهم ينكرون البعث والإعادة، وعلى هذا فقولهم (نَمُوتُ ونَحْيَا) يشعر باعترافهم بالحياة بعد الموت في حين أنهم في الحقيقة والواقع ينكرون ذلك

وورود الآية على ذلك النسق القرآني لا يمنع من هذا التأويل، لأن الواو للعطف، وهي لا تقتضي الترتيب على الراجح من أقوال أهل اللغة فهي لمطلق الجمع لا الترتيب.

ومما يدل على ذلك ما ورد في السنّة النبوية فقد روي عن ابن عباس رضي الله

---

(١) سورة الجاثية من آية ٢٤ ــ ٢٨.

(٢) سورة الجاثية : ٣٦ ــ ٣٧.

(٣) الملل والنحل للشهرستاني ج ٢ ص ٢٣٥ بتصرف.

عنها أن رجلاً قال للنبي صلىٰ الله عليه وسلم ما شاء الله وشئت، فقال :(أجعلتني لله ندًا ما شاء الله وحده)[١] .

وعن قتيلة، وهي بنت صيفي الأنصارية، أن يهودياً أتى النبي صلىٰ الله عليه وسلم فقال إنكم تشركون تقولون ما شاء الله وشئت، وتقولون والكعبة فأمرهم النبي صلىٰ الله عليه وسلم إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : ورب الكعبة، وأن يقولوا ما شاء الله، ثم شئت[٢] .

وورد في هذا الباب آثار تدل بمجموعها على النهي عن مثل هذا العطف بالواو.. وإنما يؤتى «بثم» التي تفيد الترتيب والتراخي في المنزلة، فيقال: ما شاء الله ثم شئت، أنا عند الله، ثم عندك، ما لي إلا الله ثم أنت، وغيرها من الألفاظ الشائعة بين الناس فإنه ينبغي استعمال الأدب عند ذكر الله تبارك وتعالى، ومن هذا ما روي عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم أنه قال (لا تقولوا ما شاء الله، وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله، ثم شاء فلان) رواه أبو داود بسند صحيح، وجاء عن إبراهيم النخعي «أنه يكره أن يقول أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول بالله ثم بك، قال ويقول : لولا الله، ثم فلان، ولا تقولوا لولا الله وفلان)[٣] ، ومما تقدم نعلم أن الواو لا تقتضي الترتيب، بل هي لمطلق الجمع، وعلى هذا فيجوز أن يكون في معنى الآية تقديم وتأخير والله أعلم.

أما مرادهم بالموت والحياة في قولهم (نَمُوتُ ونَحْيَا)، فالمراد بالحياة نشأتهم في الحياة الدنيوية، والمراد بالموت الفناء بعد هذه الحياة، وقد زعم هؤلاء أنهم وجدوا في هذه الحياة بحكم طبيعة النشوء والتوالد الماديين، وأن الدهر سيفنيهم تلقائياً عند انتهاء حياتهم، وعلى هذا فهم لا يعترفون بإلٰه خلقهم ورزقهم في الحياة الدنيا، ولا يؤمنون

---

(١) رواه ابن مردويه وأخرجه النسائي وابن ماجة من حديث عيسى بن يونس عن الأجلح عن ابن عباس وفي سنن ابن ماجة «اذا حلف أحدكم فلا يقل ما شاء الله وشئت، ولكن ليقل ما شاء الله، ثم شئت» قال في الزوائد ـــ: في إسناده الأجلح بن عبد الله مختلف فيه ضعفه الإمام أحمد وأبو حاتم والنسائي وأبو داود وابن سعد، ووثقه ابن معين ويعقوب ابن سفيان والعجلي وباقي رجال الإسناد ثقات، انظر سنن ابن ماجة ج ١ ص ٦٨٤.

(٢) رواه النسائي وصححه ج ٧ ص ٧ سنن النسائي.

(٣) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ص ٤١٥ /٤١٦.

بإله يتوفَّى الأنفس حين موتها، و يبعثها مرة أخرى، ليفصل بين خلقه، فيسعد أولياءه، و يظهر عدله في أعدائه، لكن ما هو هذا الدهر الذي ادَّعوا أنه سيهلكهم؟ أهو الزمان الممتد الذي يتعاقب فيه الليل والنهار؟ أم هو اسم من أسماء الله تعالى استناداً إلى قول الرسول الكريم صلىٰ الله عليه وسلم في الحديث القدسي :(قال الله عز وجل يؤذيني ابن آدم يسبّ الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار)[1] .

ولقد أخذ بالثاني جماعة من الظاهرية،[2] وهو لا يستقيم مع ما تدل عليه الآية من اعتقاد الدهريين، إذ لو كان هذا اسماً من أسماء الله، لكان الدهريون في مقالتهم هذه موحدين كأنهم قالوا: وما يهلكنا إلا الله، وهم لا يقولونها قطعاً، ومعنى الحديث إن تُيُقِّن صحته أن الدهر أثر من آثار قدرة الله، يصرّف فيه ما يشاء من شئون خلقه من الخلق والرزق والتدبير والإحياء والأماتة وغير ذلك، فسب الدهر سب لموجده وخالقه، بطريق غير مباشر، ومن هذا القبيل ماروي عن النبي صلىٰ الله عليه سلم من أنه قال:(لعن الله من لعن والديه)[3] ، ومعنى هذا أن يلعن أبا الرجل فيلعن الرجل أباه، و يؤيد هذا ما ورد في الصحيح أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال (من الكبائر شتم الرجل والديه قالوا يارسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال نعم يسبّ أبا الرجل، فيسب أباه، و يسبُّ أمه فيسبُّ أمه)[4] ومعنى هذا أنه سبَّ والديه؟ بطريق غير مباشر، وكذلك من سب الدهر، فكأنه سب الله تعالى، لأنه سخط على ما جاء في الدهر من قضاء الله وقدره.

ومن هذا يتبين أن المراد بالدهر هو الزمن المعروف، ولا يصح حمله هنا على أنه من أسماء الله تعالى لما يلزم من فساد المعنى في الآية على هذا الاعتبار، والعلم عند الله تعالى.

أما دعوى هؤلاء الدهريين بأنه ليس هناك خالق موجود، وأنهم وجدوا في الحياة

---

(١) راواه البخاري في صحيحه ج ٦ص ١٦٦.
(٢) انظر فتح المجيد باب النهي عن سب الدهر.
(٣) رواه مسلم فى صحيحه ج ٣ ص ١٥٦٧.
(٤) رواه مسلم في صحيحه ج ١ ص ٩٢.

عن طريق التوالد بين الذكر والأنثى، وسيموتون بفقدان الحياة عندما يتعرض الواحد منهم لشيء من نوازل الدهر، فمثل هذه الدعوى رد عليها القرآن، وردّ تلك المقدمات التي أوردها دليلاً لدعواهم..فقد رفض مقدماتهم بأمرين :

١ـ بنفي العلم عنهم فيما يتعلق بهذا الادعاء، كما قال القرآن (وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ)[١] ، والنفي هنا يفيد العموم، لأنه نكرة في سياق النفي، فيعم.
٢ ـ إثبات الظن والتخرّص في دعواهم (إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ)[٢] (وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا)[٣] .

فقد نفى القرآن الكريم أن تكون دعواهم مستندة إلى دليل، وإذا فقد الدليل في الدعوى، أو طعن فيه بشيء من المطاعن المعتبرة، سقط الاستدلال به، وإذا منعت المقدمة بطلت النتيجة.

كما رد عليهم القرآن في غير هذه الآية، بإثبات وجود الله عن طريق البراهين القطعية وجادلهم عن طريق الحصر المنطقي بقوله : (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ)[٤] .

والجدال مع الدهريين لا يخلو من افتراضات ثلاثة :

١ ـ إما أن يكون كل شيء قد وجد من غير موجد، من دون علة له أو سبب في الإيجاد.
٢ ـ وإما أن يكون كل شيء قد أوجد نفسه، وهذان الافتراضان تمنعهما بداهة العقول.
٣ ـ والافتراض الثالث : أن كل شيء موجود لا بد له من موجد ينتهي إليه الخلق والتدبير، وهو الله تعالى.

---

(١) سورة الجاثية : ٢٤.
(٢) سورة الجاثية : ٣٢.
(٣) سورة النجم : ٢٨.
(٤) سورة الطور : ٣٥، ٣٦.

فثبت عن طريق هذا الحصر قيام البرهان القطعي على وجود الله تعالى، وإبطال دعوى المنكرين من الماديين والطبعيين والدهريين.

ولو حاولنا مدّ أطناب الإطناب في سرد الأدلة على وجود الخالق، لما استطعنا ذلك نظراً لكثرتها، إذ أن كل موجود من عدم، فهو دليل على وجود الموجد كما قال الأعرابي وقد سئل ما الدليل على وجود الله: «إنّ البعرة تدل على البعير، وأثر الأقدام يدل على المسير، أفسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أفلا تدل على السميع الخبير».

ومن لطائف المناظرات التي وقعت مع بعض الدهريين ما يحكي عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى، أن قوماً من أهل الكلام أرادوا البحث معه في تقرير وجود الله تعالى، فقال لهم: أخبروني، قبل أن نتكلم في هذه المسألة، عن سفينة في دجلة تذهب فتمتليء من الطعام والمتاع وغيره بنفسها، وتعود بنفسها، فترسي بنفسها، وتفرغ وترجع كل ذلك من غير أن يدبرها أحد، فقالوا هذا محال لا يمكن أبداً، فقال لهم إذا كان هذا محالا في سفينة، فكيف في هذا العالم كله علوه وسفله. وينسب هذا لغير أبي حنيفة»[1] .

وإذا تأملت فيما يحيط بك من الموجودات الظاهرة عرفت عن طريق الضرورة الحتمية، بأن هذا العالم لم يكن وليد المصادفة والاتفاق، وإنما وجد بقدرة قادر، وحكمة مدبر فاعل، ألا ترى أنك لو نظرت إلى لوحة جميلة قد رسمت عليها مناظر خلابة ألا يتبادر إلى ذهنك أن هذه اللوحة قد مرت عليها يد فنان خبير بتناسق الألوان والأذواق، أما إنها قد رسمت نفسها، ووجدت على هيئتها ابتداء بطريق المصادفة، فإن هذا ما لم يقل به أحد.

ولو نظرت إلى قصر مشيد قد تناسق بناؤه، وأحكمت أركانه، ألا يتبادر إلى ذهنك بأن هذا تصميم مهندس بارع في الهندسة المعمارية؟ أم ترى أن هذا القصر وجد على هيئته بطريق الاتفاق؟ أم أو جدته عوامل الطبيعة؟ أم لا بد من تصميم خبير وقدرة

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص : ٢١.

عليم بصير بفن الإنشاء والتعمير، فإذا كانت هذه الأمور الظاهرة التي يتساوى في إدراكها كل مميز من بني الإنسان لم توجد إلا بإيجاد موجد خبير فهل يعقل أن يوجد هذا الكون بهذه الدقة والإحكام بما فيه من أجرام فضائية وعوالم متنوعة دون أن يكون له خالق قدير وفاعل مريد (أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ)[1] .

وقد جادل كثير من الفلاسفة القدماء المؤلهين جادلوا الدهريين والطبيعين ونذكر منها المناظرة التي جرت بين سقراط و « أرسطو ديموس » الذي كان ينكر الإله.

قال سقراط: أي الناس من يعجبك براعته في الصنائع؟ فقال أرسطو ديموس نعم وسمى من الشعراء والمصورين ممن كان يعده أبرع من غيره، فقال سقراط أيهما عندك أرفع شأناً أمن يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل أم من يصور الأشباح الحية المتحركة؟ فقال من يصنع الصور الحية، اللهم إلا إذا كانت تلك الصور من عمل المصادفة والاتفاق لا من عمل العقل، قال سقراط: إذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها وأشياء أخرى بينة القصد والمنفعة فا قولك في تلك الأشياء؟ ما هي التي عندك من فعل العقل وماهي التي عندك الاتفاق؟ قال: لا شك في أن ما ظهر قصده ومنفعته من فعل العقل، قال سقراط: أولست ترى أن صانع الإنسان في أول نشأته جعل آلات الحس لما في تلك الآلات من المنفعة الظاهرة؟ فأعطاه البصر والأذنين ليبصر و يسمع ما يكون لعيشه صادقاً، وما فائدة الروائح لو لم تكن لنا الخياشيم، وكيف ندرك المطاعم ونفرق بين المر والحلو والمز، ولو لم يكن لنا لسان نذوق به لصرنا معرضين للآفات، أو لست ترى كيف اعتنت القدرة الإلهية بذلك فجعلت الأجفان كالأبواب لتمنع ما يصيب البصر وجعلت الأهداب كالمناخل لتقيها من أضرار الرياح، وما قولك في آلة السمع وهي تقبل جمع الأصوات ولا تمتلىء أبداً؟ أما رأيت الحيوانات كيف رتبت أسنانها المقدمة وأعدت لقطع الأشياء فتلقيها إلى الأضراس فتدقها دقاً، فإذا تأملت في ترتيب ذلك أيمكنك أن تشك هل هي من فعل الاتفاق أم

---

(١) سورة إبراهيم : ١٠.

من فعل العقل؟ قال أرسطو ديموس: نعم إذا تفكرنا في ذلك لا نشك في أنها من فعل صانع حكيم كثير العناية بمصنوعاته(١)

وكثير من عباقرة الفلسفة القدماء منهم والمحدثون مؤلهون، فسقراط وأفلاطون وأرسطو وأفلوطين، وديكارت، وكانت، من المؤلهين، وهذا لاينفي وجود الإلحاد عند بعض الفلاسفة وأن له ممثليه باستمرار قديماً وحديثاً. و(ديموقر يطس) في العهد اليوناني هو الذي حاول بكل جهده أن يقيم من الإلحاد أو ما يسمى بمبدأ الديالكتيك أو ما يسمونه بنظر ية (ترابط الوجود) مذهباً، وكانت فكرته أن المادة قديمة وهي مركبة من أجزاء لا تتجزأ، وهذه الأجزاء أو الذرات دائمة التحرك في الفضاء اللانهائي . ومن اجتماعها تتكون الأجسام، و بافتراقها تفنى، وهكذا استمر الأمر من الأزل وسيبقى إلى الأبد من دون غاية ولا هدف، إنها الآلية البحتة .

وهذه الفكرة، وإن كانت قديمة، فإنها فكرة كل من يتخذ الإلحاد مذهباً في العصور الحديثة، وإن اختلفت كيفيات التعبير عنها، فإنها فكرة الماديين المحدثين، كما كانت فكرة الماديين القدماء وعلى غرارها وضع لينين « الدفاتر الفلسفية» كما وضع ستالين « المادية الجدلية والمادية التاريخية» بل كانت رسالة كارل ماركس للدكتوراه عن أبيكور وهيراكليت، وهما من الإغر يق القدامى الذين يرجع إليهم تار يخ أول محاولة للفلسفة الإلحادية(٢) .

وقد حمل لواء المادية الجدلية الحديثة « ماركس»، وهي في الحقيقة امتداد لتلك الماديات الجدلية القديمة، ولكن «ماركس» اتبع في سبيل تنفيذ مخططاته المادية الإلحادية وسائل جهنمية؟ فبينما كان أستاذه «هيجل» يعتقد أن مهمة الفلسفة هي تفسير العالم، قال «ماركس» إن مهمة الفلسفة هي تغييره، ولقد استغل الوضع الذي

---

(١) تعليق الدكتور عبد الحليم محمود على المنقذ من الضلال ص: ٩٨ ــ ٩٩ نقلا عن مخطوطة (سنتلانا) مخطوطة مكتبة الجامعة.

(٢) انظر الماركسية في الفلسفة لحسني ناثان ص ١١٤.

تقوم عليه الديانة المسيحية في أوربا، والكهنوت الذي أحاطها بسياج غليظ فصلها عن الدولة والمجتمع، ومنع الناس من أسباب التحرر الفكري، ومن التأمل في خلق الله، وما يمكن أن يجد من الاكتشافات والتقدم الحضاري فاستغل «ماركس» ما في نفوس كثير من الناس من سخط على الكنيسة، وما يجري فيها من طقوس تفصلها عن الدولة وشئون الحياة العامة، فابتدأ بمهاجمة الأديان السماوية وسماها «أفيون الشعب» الذي يخدرها عن محاولة النهوض من البؤس، والانحطاط إلى بلوغ الرخاء المادي، ومضى «ماركس» في فلسفته المادية الجدلية يحشد أمامها سفسطته الزائفة وآراءه المادية التافهة المتهافتة، ويسوغ ماديته الصرفة عندما يقول: «إن المادة هي التي أنشأت الحضارة الصناعية الحديثة، وهي التي أثمرت الاكتشافات والابتكارات الفنية»، ويقول أتباعه أنَّ هذه المادة هي التي أتاحت للإنسان غزو الفضاء، وفتحت للإنسان عصر الذرة، في حين أن العقل البشري هو الذي استحدث كل هذا، العقل البشري الذي امتثل لأمر الله في التدبر في الكون والنظر في مخلوقات الله، والعقل البشري الذي ليس شيئاً مادياً يراه ويلمسه «كارل ماركس».

ثم هو يخالف الواقع المادي، عندما يأتي بتحديد مطالب الإنسان بالغذاء والكساء والإشباع الجنسي، ويهمل المطالب الأخرى كلها وأخصها العقيدة، ولا يتسع المجال لسرد المذاهب المادية كلها فالحديث عنها يطول، ولكنها لا تلبث أن تتهافت أمام البراهين العقلية الصحيحة عندما ينظر إليها الإنسان بفطرته السليمة وفكره الواعي المستنير، وقد أورد الدكتور عبد الحليم محمود خلاصة وجيزة لحجج قدماء الفلاسفة في إبطال المذاهب المادية عن الأستاذ «سانتلانا» في المخطوط المعنون بعنوان : «المذاهب الإسلامية» ونحن نورد ما لخصه هناك فيما يلي :

أ ــ وأما القول بالطبيعة وأن لاشيء غيرها، فهو لا يرضى العاقل المتبصر، كأنه يقول : نعم أنا لا أنازع في كون الطبيعة والحركة من أصول الموجودات، وإنما توقفت في كيفية صدور الفعل منها، فلو لم يكن هناك إلا مادة تتحرك من الأبد إلى الأبد، فمن أين حصل لهذا العالم هذا النظام العجيب والترتيب الغريب، الذي حارت فيه العقول وقصرت عن إدراكه الفحول.

كيف ينسب ذلك إلى الاتفاق والمصادفة ومجرد البخت؟ ليت شعري كيف اجتمعت تلك الأجزاء؟ وكيف تألفت على اختلاف أشكالها وتباين موادها وقواعدها؟ وكيف بقيت على تآلفها؟ وكيف تجددت على نمط واحد المرة بعد المرة؟

وقد شهدت المعاينة بأن حركات أجزاء لا نهاية لها ولا محرك لا تفضي إلاّ إلى غاية الالتباس وعدم القياس.

هذا لعمري كمثل من وضع حروف المعجم في صندوق ثم جعل يحركة يوماً بعد يوما طمعاً منه أنها تتألف من تلقاء نفسها فيتركب منها قصيدة بليغة أو رسالة عميقة في المنطق أو كتاب في الهندسة دقيق، أليس ذلك من السفه المبين؟ فإنه لو دام على تحريكها السنين والدهور لما حصل منها إلا على حروف، فكيف يتصور حدوث هذا الوجود « العالم» بما هو عليه من الاتساق والإحكام وتضافر الأجزاء، وعجيب مناسباتها، بعضها لبعض من حركات اتفاقية في خلاء لا نهاية له؟ قال أرسطو في كتاب سمع الكيان: «إن كل نظام يدل على وجود العقل».

ب ـــ وفضلاً عن هذا فإن ما يحصل اتفاقاً لا يحصل إلا مرة واحدة ولا يتكرر، ولايسوغ بناء حكم عقلي عليه، ولا يقبل القياس بخلاف ما شهدت به التجربة في عالمنا من الثبوت، ولولا هذا لما أمكن إنشاء علم من العلوم الرياضية والطبيعية.

ج ـــ هذا، وإذا فرضنا وجود مجرد الطبيعة ولا شيء سواها فمن أين هذه القوة العقلية التي يجدها كل واحد من نفسه؟

وهي مع ما فيها من العجز والقصور وكثرة الخطأ، من أظهر الشواهد على وجود ما يخالف مجرد المادة في هذا العالم.

ولا سبيل من المادة إلى الأفعال العقلية لما بينها من المغايرة الأصلية فبوجود هذه القوة يستدعي وجود جوهر يجانسها ويماثلها، ليكون أصلاً لها ومركزاً.

هل يحتمل أن ما نشاهده من تصور المعقولات والكشف عن الكليات، وتفريق القضايا وتركيب القياسات، ليس هو في نفس الأمر إلا اصطكاك جزء من المادة بجزء آخر.

هل يحتمل أن ما تضمنته عقولنا من البحوث الدقيقة والمآخذ العميقة كالمنطق، والرياضيات والإلهيات وما فتنت به القلوب من الشعر الرائق والمطرب من الألحان وسحر البيان أصله من تلك الأجزاء؟ كانبعاث النار من اصطكاك الحجر بالحجر، وذلك خصوص النار، إذ ليس بين مادة النار ومادة الحجر فرق كبير.

د ـ إن المادة غير قادرة على أن تكون علة نفسها، فكيف تكون علة لما هو أعلى منها مكاناً وأهم شأناً في درجة الوجود، وإلا كان الأخس أصلاً لما هو أرفع، وهذا ما تبعده وتأنفه الفطرة السليمة[1] .

وهناك حقيقة تسلم بها العقول وهي منع الدور والتسلسل، فإن كون الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان يقتضي الدور الممتنع وكون كل شيء استفاد حياته ووجوده مما قبله إلى مالا نهاية يقتضي التسلسل في المؤثرين إلى ما لا نهاية وهذا ممتنع أيضاً، وقد أشار الرسول صلىٰ الله عليه وسلم إلى مثل هذا الدليل البرهاني فقال للرجل الذي سأله عن البعير يجرب فتجرب لأجله الإبل : «فمن أجرب الأول»[2] .

إشارة منه صلىٰ الله عليه وسلم إلى أن إعداء البعير الأول إن كان من إعداء غيره له فإنه لا ينتهي إلى غاية وهذا هو التسلسل في المؤثرات.. وهذا باطل بصريح العقل.

وإن انتهى إلى غاية وقد استفاد الجرب من إعداء من جرب به ذلك البعير فهو الدور الممتنع فانظر إلى هذه الجملة الوجيزة من كلام المصطفى صلىٰ الله عليه وسلم

---

(١) انظر تعليق الدكتور عبد الحليم محمود على المنقذ من الضلال ص ٩٣ ـ ٩٥.

(٢) انظر سنن بن ماجة ج ٢ ص : ١١٧١ ونص الحديث: عن ابن عمر قال قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم (لا عدوى ولا طيرة ولا هامة)، فقام اليه رجل فقال يا رسول الله: البعير يكون به الجرب فتجرب به الإبل قال: «ذلك القدر، فمن أجرب الأول»، قال في الزوائد: حديث ابن عمر ضعيف فيه أبو خباب: اسمه يحيى ابن أبي حية وهو ضعيف.

بين فيها إبطال الدور والتسلسل، وطالما تنطع الفيلسوف، وتشدق المتكلم، وقرب ذلك في عدة ورقات ليبين هذا ولكن المصطفى صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم حيث قال: « فمن أجرب الأول»[1] .

وإذا أردنا أن نعرف الطريق التي دعا إليها القرآن الكريم في إثبات وجود الله تعالى وجدناها تنحصر في طريقين، كما ذكرهما الفيلسوف ابن رشد في كتابه «الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة»[2] .

الطريق الأول : طريق الوقوف على العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجله ولنسم هذا دليل العناية.

الطريق الثاني : ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات مثل اختراع الحياة في الجماد والإدراكات الحية والعقل، ولنسم هذا دليل الاختراع.

ثم قال ابن رشد : ولذلك كان واجباً على من أراد معرفة الله حق معرفته أن يعرف جواهر الأشياء، ليقف على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات، لأن من لم يعرف حقيقة الشيء لم يعرف حقيقة الاختراع، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى : (أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ)[3] .

وكذلك أيضا من تتبع معنى الحكمة في وجود موجود، أعني معرفة السبب الذي من أجله خلق، والغاية المقصودة به كان وقوفه على دليل العناية أتم، فهذان الدليلان هما دليلا الشرع.

وقد ذكر ابن رشد أن الآيات الواردة في القرآن، المنبهة على الأدلة المفضية إلى وجود الصانع سبحانه تنحصر في هذين الجنسين من الأدلة ــ يعني بذلك ــ دليل

---

(١) أنظر بدائع الفوائد لابن القيم ج ٤ ص ١٢٧.

(٢) ص ٦٥.

(٣) سورة الأعراف : ١٨٥.

العناية، ودليل الاختراع، ثم قال وذلك بين لمن تأمل الآيات الواردة في الكتاب العزيز في هذا المعنى، وذلك أن الآيات التي في الكتاب العزيز في هذا ا لمعنى إذا تُصُفِّحَتْ وُجدتْ على ثلاث أنواع:

١) آيات تتضمن التنبيه على دلالة العناية.

٢) آيات تتضمن التنبيه على دلالة الاختراع.

٣) آيات تجمع الأمرين من الدلالة جميعاً.

فأما الآيات التي تتضمن دلالة العناية فقط فمثل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾[1] ومثل قوله: (تبارك الذي جعل فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾[2] ومثل قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ الآية..)[3] ومثل هذا كثير في القرآن.

وأما الآيات التي تتضمن دلالة الاختراع فقط، فمثل قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ ﴾[4]، ومثل قوله تعالى ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾[5] ومثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾[6] ومن هذا قوله تعالى حكاية عن قول إبراهيم: ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾[7] إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى.

وأما الآيات التي تجمع الدلالة فهمى كثيرة أيضاً، بل هي الأكثر مثل قوله تعالى

---

(١) سورة النبأ من ٦ــ ١٦.
(٢) سورة الفرقان ٦١.
(٣) سورة عبس ٢٤.
(٤) سورة الطارق ٥ و ٦.
(٥) سورة الغاشية ١٧.
(٦) سورة الحج ٧٣.
(٧) سورة الأنعام ٧٩.

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ) إلى قوله (فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ)[1] .

فإن قوله (الذي خلقكم والذين من قبلكم) تنبيه على دلالة الاختراع وقوله (الذي جعل لكم الأرض فراشا) تنبيه على دلالة العناية، ومثل هذا قوله تعالى (وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ)[2] وقوله تعالى (وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾)[3]
وأكثر الآيات الواردة في هذا المعنى يوجد فيها النوعان من الأدلة، ثم يبين ابن رشد أن هاتين الطريقتين — يعني دلالة العناية ودلالة الاختراع — هما بعينيهما طريقة الخواص، كما هي طريقة الجمهور، وفسر الخواص بالعلماء ومعروف أن الجمهور: العامة من الناس، ثم قال «وإنما الاختلاف بين المعرفتين في التفصيل، أعني أن الجمهور يقتصرون من معرفة العناية والاختراع على ما هو مدرك بالمعرفة الأولى المبنية على علم الحس، وأما العلماء فيزيدون على ما يدرك من هذه الأشياء بالحس ما يدرك بالبرهان، أعني من العناية والاختراع، حتى لقد قال بعض العلماء: إن الذي أدركه العلماء من معرفة أعضاء الإنسان والحيوان هو قريب من كذا وكذا آلاف منفعة، وإذا كان هذا هكذا فهذه الطريقة هي الطريقة الشرعية والطبيعية، وهي التي جاءت بها الرسل ونزلت بها الكتب، والعلماء ليس يفضلون الجمهور في هذين الاستدلالين من قبل الكثرة فقط، بل ومن قبل التعمق في معرفة الشيء الواحد نفسه، فإن مثال الجمهور في النظر إلى الموجودات مثالهم في النظر إلى المصنوعات التي ليس عندهم علم بصنعتها، فانهم انما يعرفون من أمرها أنها مصنوعات فقط وأن لها صانعاً موجوداً، ومثال العلماء في ذلك مثال من نظر إلى المصنوعات التي عنده علم ببعض صنعتها وبوجه الحكمة منها، ولا شك أن من حاله من العلم بالمصنوعات هذه الحال هو أعلم بالصانع من جهة ما هو صانع، من الذي لا يعرف من تلك المصنوعات، إلا

---

(١) سورة البقرة من ٢١ — ٢٢.
(٢) سورة يس : ٣٣.
(٣) سورة آل عمران : ١٩١.

أنها مصنوعة فقط، أما مثال الدهرية الذين جحدوا الصانع سبحانه وتعالى في هذا فمثالُ من أحسن مصنوعات فلم يعترف أنها مصنوعات، بل ينسب ما رأى فيها من الصنعة إلى الاتفاق والأمر الذي يحدث من ذاته»[1] .

ولقد جاء القرآن الكريم بالأدلة الكونية في الأنفس والآفاق، شاهدة بوجود الله تعالى متمثلة في بدائع وأحكام تصريفه لشئون خلقه، جاءت واضحة في نظام الكائنات وسائر المخلوقات، وقد وجدت هذه الكائنات على هيئة صالحة لاستخدام الإنسان لها وتذليلها له، وتسخيرها للانتفاع بها.

كما أن خلق الإنسان نفسه في تركيب بدنه وأجزائه وعجائب تكوينه على هيئة تدعو إلى الدهشة والحيرة، كلها تدل على أن هذه العناية والدقة في سائر المخلوقات محال أن تكوّن نفسها بنفسها، ومحال أن تكون على سبيل المصادفة العمياء ومن غير حكيم وصانع مبدع أفاض عليها من عنايته وحكمته، وهو الله سبحانه وتعالى.

ولقد استخدم القرآن الكريم لجدله وبراهينه على إثبات الصانع تعالى ما في عالم الحيوان من عجائب في خلقه وتكوينه وأجهزته الدموية والهضمية والعصبية والتنفسية ونظام التوالد وتنوعه إلى حيوانات برية وبحرية، وهوائية طائرة ميكروبية، وحيوانات طويلة العمر، وأخرى قصيرة الأجل، وحيوانات تبيض، وأخرى تلد، وحيوانات للأكل والحمل والألبان ومنافع أخرى كثيرة ولو ذهبنا ننظر إلى كل هذا التنوع وكيفيات أخرى من التنوع، كاختلاف الألوان والأصوات، وطريقة الحياة، وتناول الطعام، ونظام المعيشة، لأدركنا أن ذلك التخصص والتمايز والتنوع، لم يكن عفوياً ولا مصادفة، بل كان بصنع فاعل حكيم مختار ليس من جنس الحوادث، بل هو خالق كل شيء سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن

(١) الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة ص ٦٩ ـ ٧٠ بتصرف.

يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)[1] .

وقال تعالى: (وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)[2] .

وقال تعالى: (وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ)[3] .

وقال تعالى: (أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[4]

وقال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ)[5] .

واستخدام القرآن الكريم لجدله وبراهينه لإثبات الصانع، ما في عالم النبات من عجائب وسنن ونواميس تحار فيها العقول، كيف توضع الحبة في الأرض الرطبة فلا تتلفها الرطوبة والعفونة، كما يظن بادىء الرأي، ولكنها تربو وتنتفخ وتنشق من أسفل عن جذور تمتد إلى باطن الأرض، ومن أعلى عن ساق يصعد إلى أعلى شاقاً لنفسه طريقاً من بين التراب، وكيف يتنوع عالم النبات، ويختلف شكلاً ونوعاً وطعماً ومذاقاً ولوناً ورائحة وتختلف كذلك الثمار والفواكه، بعضها يؤكل ظاهره، ويرمي باطنه، وبعضه بالعكس يؤكل باطنه ويرمي ظاهره، وإلى هذه المعاني تشير الآية

---

(١) سورة النور : ٤٥.
(٢) سورة الأنعام : ٣٨.
(٣) سورة هود : ٦.
(٤) سورة النحل : ٧٩.
(٥) سورة الملك : ١٩.

الكريمة في سورة الأنعام ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ﴾(١) وقوله في سورة فاطر: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ﴾(٢) وقوله في سورة الرعد: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ .. ﴾(٣) . ونظر القرآن في برهانه على وجود الله الخالق إلى عالم الكواكب وما فيه من عجائب كيف أنها رفعت بلا عمد أو جبال تسير في الفضاء بدقة ونظام في سيرها لا يرتطم بعضها ببعض نعلم من حركاتها عدد السنين والحساب والأيام والليالي والشهور وتتنوع بسبب سيرها الفصول السنوية من صيف إلى شتاء إلى ربيع إلى خريف، وكثير ما يشير القرآن الكريم في غير ما موضع إلى هذه المعاني كما في سورة الرعد ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾(٤) وقوله في سورة النحل: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾(٥) وقوله في سورة الأنعام: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾(٦) ويوجه القرآن في برهانه على وجود الله الأنظار إلى الرياح وتنوعها إلى حارة ورطبة وشمالية وجنوبية وشرقية وغربية وبطيئة في سيرها وعاصفة وعقيم لا سحاب فيها وممطرة تحمل السحاب والماء وإلى حمل الرياح مادة التلقيح من ذكور النبات إلى إناثه وإلى جريان الفلك في البحار بواسطتها قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴾(٧) وقال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ

---

(١) سورة الأنعام: ١٤١.
(٢) سورة فاطر: ٢٧.
(٣) سورة الرعد: ٤.
(٤) سورة الرعد: ٢.
(٥) سورة النحل: ١٢.
(٦) سورة الأنعام: ٩٧.
(٧) سورة الحجر: ٢٢.

لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)[1] وقال تعالى (وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ)[2] .

ثم وجه القرآن الأنظار إلى مايتبع الرياح والهواء، و يتفاعل معه من السحاب والمطر والرعد والبرق، وان كل ذلك عجيب الصنع، دقيق الحصول، متنوع في كمه وكيفه، وفي الآثار المترتبة عليه وفي سبب حصوله وتكونه، وفي انتفاع العباد والبلاد به، وما يتبع ذلك من اختلاف دراسات الحرارة والبرودة، وتأثير ذلك على سائر الموجودات فوق الغلاف الأرضي لو نظرنا إلى كل ذلك بتمعن لأدركنا أن فاعل ذلك لابد أن يكون حكيماً عليماً كما أشارت إلى ذلك سورة النور حيث يقول تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ)[3] .

وقوله تعالى في سورة الرعد : (هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ)[4] .

ثم وجه القرآن أنظار المكابرين إلى الأرض وما فيها من بحار وأنهار وجبال ووديان وصحاري وصخور ومعادن ومستخرجات من باطنها ومستخرجات من قشرتها السطحية، وإلى مافي الماء من عذوبة وملوحة وجزر ومد وتيارات سطحية وسفلية وأمواج كالجبال وأخرى هادئه وإلى صلاحية الأرض للحياة عليها والتقلب في

---

(١) سورة الأعراف : ٥٧.

(٢) سورة الشورى : ٣٢ ــ ٣٤.

(٣) سورة النور : ٤٣ ــ ٤٤.

(٤) سورة الرعد : ١٢، ١٣.

مناكبها لطلب المعائش فلا هي بالرخوة بحيث يغوص الناس فيها ولا هي بالصلبة، بحيث يستعصى على الناس حفرها للانتفاع بما في باطنها، ولا هي باردة يتجمد الناس فوقها، ولا ملتهبة بحيث تنصهر المخلوقات فوقها بل جعلها الله تعالى مهاداً وبساطاً للعباد، كما نطق بذلك القرآن في أكثر من موضع لو نظرنا إلى ذلك بإنصاف لعرفنا بداهة أن هذا التنوع لايمكن أن يكون مصادفة واتفاقاً[1].

وإلى هذه المعاني يشير القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)[2].

وقوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)[3].

وقوله تعالى: (أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ)[4].

وقوله تعالى: (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ)[5].

---

(١) دراسات في علوم القرآن للدكتور عبد الغني الراجحي بتصرف:

(٢) سورة فاطر: ٢٧ ـ ٢٨.

(٣) سورة الرعد: ٣.

(٤) سورة الرعد: ١٧.

(٥) سورة الحجر: ١٩ ـ ٢٠.

وقوله تعالى : (أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)(١) .

وقوله تعالى : (وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)(٢) .

وقوله تعالى : (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ)(٣) .

كل هذه الآيات بتنوع أساليبها واختلاف موضوعاتها تلفت الأنظار إلى أن هذا الكون وما يحتويه لم يكن وليد المصادفة والاتفاق، وإنما هو مخلوق عن علم عليم وقدرة قادر وهو الله تبارك وتعالى.

ومن جبابرة الماديين الملحدين النمرود ابن كنعان :

وقد حكى لنا القرآن الكريم محاجّته لإبراهيم عليه السلام في ربه فقال تعالى : (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ)(٤) .

وكان قد طلب من إبراهيم عليه السلام دليلاً على وجود الرب، والذي يدعو إليه كما ذكره ابن كثير في تفسيره(٥) فيكون موضوع المناظرة: دعوى إبراهيم عليه السلام

---

(١) سورة النمل : ٦١.
(٢) سورة فاطر : ١٢.
(٣) سورة فصلت : ٩ ــ ١٠.
(٤) سورة البقرة : ٢٥٨.
(٥) ج ١ ص ٣١٣.

(أن الله هو الرب)، وقد استدل على ذلك بأنه يحيي ويميت، أي يهب الحياة لما يشاء من الأجسام، فتبنمو وتتحرك فتؤتي ثماراً مادية ومعنوية، وتختص بميزات الحياة المعروفة في علم الأحياء، ثم ينزع عنها الحياة، فتموت وتعود إلى سيرتها الأولى.

وقد عارضه النمرود بدليل مماثل ــ على زعمه ــ فقال : «(أنا أحيي وأميت)»، لأني أعفو عمن استحق القتل، فأكون قد أحييته، أي وهبت له حياة، وأعدم من أشاء من الناس، فأكون قد أمته، أي سلبته الحياة.

ولم يشأ إبراهيم عليه السلام أن يدخل في إبطال دليل خصمه، لأنه يعرف أن هذه المعارضة فاسدة لأن حقيقة الإحياء والإماتة التي فسرها النمرود غير التي يقصدها إبراهيم عليه السلام، فانتقل لالزامه وإفحامه، وقطع لجاجته، إذا أن حال النمرود لايخلو إما أن يكون ما فهم حقيقة الإحياء والإماتة، أو فهم ذلك ولكنه قصد المصادمة والمباهتة، وكلاهما يوجب العدول إلى دليل يفضح معارضته، ويقطع حجاجه، ومتى كان الخصم بهذه المنزلة جاز لخصمه الانتقال إلى دليل آخر أقرب إلى الفهم وأفلح للحجة[1] .

وقد أشار ابن كثير في تفسيره إلى أن النمرود أراد أن يدعي لنفسه مقام الإحياء والإماتة عناداً ومكابرة، ويوهم أن الفاعل لذلك، وأنه هو الذي يحيي ويميت، كما افترى بذلك فرعون بعده في قوله (مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي)[2] ولهذا قال له إبراهيم لما ادعي هذه المكابرة (فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ)[3] أى إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي وتميت، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من الشرق، فإن كنت إلهاً كما أدعيت تحيي وتميت فأت بها من المغرب، فلما علم عجزه وانقطاعه، وأنه لايقدر على المكابرة في هذا المقام، بهت، أي أخرس فلم يتكلم وقامت عليه الحجة.

---

(١) أنظر استخراج الجدال من القرآن الكريم ص ٧.

(٢) سورة القصص ٣٨

(٣) سورة البقرة ٢٥٨

ثم قال ابن كثير رحمه الله «وهذا التنزّيل على هذا المعنى أحسن مما ذكر كثير من المنطقيين، أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني انتقال من دليل إلى أوضح منه، ومنهم من قد يطلق عبارة ترديه، وليس كما قالوه بل المقام الأول، يكون كالمقدمة للثاني، ويبين بطلان ما ادعاه نمرود في الأول والثاني، ولله الحمد والمنة. وقد ذكر السدي أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم والنمرود بعد خروج إبراهيم من النار، ولم يكن قد اجتمع بالملك إلا في ذلك اليوم، فجرت بينهما هذه المناظرة»[1] .

قلت والله أعلم، إن إبراهيم عليه السلام لما رأى من خصمه المعاندة واللجاجة والمغالطة، أراد أن يستدرج خصمه، وأن يحيطه بلجام من الإلزام والإفحام، فكأنه قال له : لو سلمنا لك إحدى مقدمات دليلك جدلاً، فإننا نريد منك البرهان على المقدمة الثانية، وهي أن من يحيي ويميت قادر على تسخير هذا الكون، فهل تستطيع أن تغير شيئاً من نظام هذا الكون على خلاف ما هو عليه الآن؟

وعمد إبراهيم عليه السلام إلى الشمس دون سائر الآيات الكونية الأخرى، ليلزم خصمه بأحد أمرين، كلاهما من صميم دعوة إبراهيم عليه السلام.

الأمر الأول : قطع لجاجة الخصم وإفحامه وإثبات عجزه، وقد حصل هذا الأمر وفقاً لما أراده إبراهيم عليه السلام ولله الحمد.

الأمر الثاني : أن إبراهيم قد خبأ للخصم في هذا الطلب إلزاماً آخر يفسد على الخصم جمهور اتباعه ومناصريه، فيما لو استرسل في مغالطته، إذ كانوا يعتقدون في الكواكب بأنها مؤثرة ويعتبرون الشمس الإله الأكبر فلو قال الملك من قبيل المكابرة والمعاندة : أنا الذي أتيت بها من المشرق، وأنا الذي سخرتها تجري في مدارها على هذا النظام القائم، لقال إبراهيم عليه السلام ما دمت أنت المدبر لهذه الأفلاك والمسير لها فكيف يعتقد قومك بأنها آلهة يعبدونها من دونك فهل يكون الإله مدبّراً أو مسيّراً، وهذا أمر يستلزم بطلان اعتقادهم في هذه الكواكب بأنها آلهة.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ص ٣١٣.

ولم أرى من أشار إلى هذا المأخذ من المفسرين رغم أصالته في السياسة الجدلية، فيكون إبراهيم عليه السلام قد خرج من هذا الجدال بنتائج الانتصار على الباطل (وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ)[1] .

ومن الجبابرة الماديين الملحدين : فرعون إذ تظاهر بادعاء الربوبية لنفسه، كما حكى الله ذلك عنه بقوله (فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ)[2] وقوله تعالى (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ)[3] .

وفرعون يدرك أن ادعاءه للربوبية ليس أمراً سهلاً تهضمه العقول، وتستسيغه الأذواق، لاسيما أنه يعرف أن من أفراد مملكته من هو أكبر منه سناً، و يعرف ولادته ونشأته، ولكنه أراد التضليل بهذا الإدعاء، لصد الناس عن الإيمان بموسى عليه السلام، عندما جاءه برسالة الله.

ولهذا تجده غير مستقر في دعواه، إذ يقول مثلاً (ماعَلِمْتُ) ولم يقل بطريق الجزم ليس لكم من إله غيري، و يقول (وإنّي لأظُنّهُ مِنَ الكَاذِبين)، ولم يجزم بكذبه، لأنه لا يقدر على أن يدعي خلق السموات والأرض، وتسيير هذه القوى الكونية في هذا العالم.

وإنك لتلمس في تقلبه في الكلام ومراوغته في الجدال، ما تنطوي عليه نفسه من المخادعة، لصرف الناس عن الحق واستعبادهم، وتقمصه أثواب الألوهية، ليرهب من حوله، و يستميلهم، إذا شعر بفجوة بينه و بينهم.

وقد يلجأ في التمهيد للاستدلال على ألوهيته إلى أشياء مادية، حكى الله تعالى عنها شيئاً من ذلك بقوله (وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ

---

(١) سورة الأنعام ٨٣.

(٢) سورة النازعات ٢٣، ٢٤

(٣) سورة القصص ٣٨.

وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ)[1] فقد جعل فرعون ميزان الحق والصدق أمراً مادياً يرجع إلى قوة السلطان وطغيان المادة، ولكنه في قرارة نفسه يشعر بخيبة الأمل و يعرف ما عليه موسى عليه السلام من الحق والصدق، وما هو مؤيد به من المعجزات التي تضمن انتصاره على الباطل، مهما طال الزمن.

والقرآن الكريم صريح في ذلك حين يتحدث عن فرعون وملئه، فقد أوضح أنهم قد عرفوا الحق ولكنهم تكبروا ظلماً وعلوا وانتهجوا دروب الفساد في الأرض، ولم يخضعوا لسلطان الحق لما جاءهم فقال تعالى: (فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ)[2] .

وما تقدم من الحديث في هذا المبحث كان عن الجدل في وجود الله تعالى. أما إثبات الوحدانية لله تعالى، فهو ما سنتحدث عنه في المبحث التالي بعون الله.

(١) سورة الزخرف ٥١ ــ ٥٣.
(٢) سورة النمل ١٣ ــ ١٤.

ب - الجدال في إثبات وحدانية الله

هذا المبحث له علاقة بالذي قبله.. لأن الأول يتعلق بالأدلة على وجود الله تعالى وهذا المبحث يتعلق بالأدلة على وحدانية الله تعالى وهو متضمن للأول إلزاماً والتزاماً بمعنى أن من أقر بوحدانية الله فقد اعترف بوجوده سبحانه بينما المبحث الأول يتضمن الثاني إلزاماً فقط، فقد كان المشركون يقرون بوجود الله تعالى كما قال جل وعلا ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[1] وقوله تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[2] ولم يدخلهم إقرارهم بوجود الله في التوحيد الذي بعث الله من أجله الرسل وهو توحيد الألوهية، ولكنهم ملزمون بإقرارهم فإنه إذا ثبت أن خالق هذا الكون موجود ثبت أنه واحد «لأن الصنعة مفتقرة إلى الصانع وليست مفتقرة إلى ما زاد على الصانع فصار وجود ما زاد على الصنعة جائزاً والجائز الوجود لا يجوز أن يكون إلهاً مبدعاً قديماً»[3] .

وقد سلك القرآن في استدلاله على وحدانية الله مسلكين :

المسلك الأول : الاستدلال على ذلك بانتظام الكون وسلامته من الاختلال والتصادم.. ومن أبرز الأدلة في ذلك ما يسميه علماء الكلام بدليل التمانع وهو بمعنى «قياس الخلف» الذي تقدم ذكره في طرق الاستدلال القرآني، ويتمثل هذا في ثلاث آيات هي :

---

(١) سورة الزخرف ٩.
(٢) سورة الزخرف : ٨٧.
(٣) استخراج الجدال من القرآن لعبد الرحمن بن نجم المعروف بابن الحنبلي ص ١١.

١ ــ قوله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)[1] .

٢ ــ قوله تعالى (قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا)[2] .

٣ ــ قوله تعالى (مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)[3] .

قال الإمام عبد الرحمن بن نجم في كتابه استخراج الجدال من القرآن بعد إيراده قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) قال: وهذا الدليل معتمد أرباب الكلام من أهل الإسلام، وقد نقل عن بعض علماء السلف أنه قال: «نظرت في سبعين كتاباً من كتب التوحيد فوجدت مدارها على قوله تعالى: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)[4] ، وآعلم أن تقرير الدليل في الآية الأولى أن يقال: الله واحد لأن التدبير لا ينتظم في دار واحدة بِمُدبرَيْنَ، فكيف ينتظم التدبير العام في جميع هذا الكون بمدبِرّين؟ فلو وجد ذلك لتنازعت الإرادتان بين سلب وإيجاب، إذ يريد أحدهم حياة شخص والآخر موته أو إسعاده والآخر إشقاءه وهذا التنازع يؤدي إلى فساد السموات والأرض لتخالف الإرادات، ولكنهما صالحان غير فاسدين، فبطل ما يؤدي إلى فسادهما وهو تعدد الآلهة، فثبتت الوحدانية لله تعالى وتقرير الدليل الثاني مبني على فهم المراد من قوله تعالى: (إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً) وفيه قولان:

الأول : أن المراد به على فرض وجود آلهة مع الله، فإنها ستطلب إليه القربى وتفتقر إليه، والجواب عن هذا الافتراض أن من يفتقر إلى غيره لا يصلح أن يكون إلهاً.

---

(١) سورة الأنبياء : ٢٢.
(٢) سورة الإسراء : ٤٢.
(٣) سورة المؤمنون : ٩١.
(٤) استخراج الجدال من القرآن ص ١١ ــ ١٢.

القول الثاني : أن المراد به على فرض وجود آلهة مع الله فإنها ستتجه لمنازعته ومغالبته على السلطة فيقع الصدام الذي ينتج عنه فساد العالم.. والجواب عن هذا الافتراض : أنه لم يفسد العالم ولم يختل نظام الكون فثبت أن ليس مع الله آلهة أخرى.

وتقرير الدليل في الآية الثالثة قريب مما تقدم في الآية الثانية، فإنه لو فرض وجود اله مع الله لانفرد كل إله بسلطان مستقل، واتجه للمغالبة والاستعلاء بالقوة على غيره فينشأ عن ذلك فساد الكون أو تغلب أحدهما على الآخر، والمغلوب لا يكون إلهاً، ولكن نظام الكون لا فساد فيه ولا اختلال فدل على أن مدبره إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

وقد ذكر بعض العلماء أنها قد تثار الشبهة على هذه الأدلة من وجهين :

أحدهما : أنه يجوز أن يكون اثنان تتفق إرادتهما فلا يقع خلاف فلا فساد.

وثانيهما : قالوا : لما رأينا وجود الشيء وضده، مثل الموت والحياة، والنور والظلمة، والخير والشر، وما يقتضي الحكمة و ينافيها من النقض بعد البناء والعجز بعد القوة جاز أن ينسب إلى مدبرين اثنين.

والجواب على الوجه الأول :

أن يقال : يستحيل وجود اثنين متحدين إرادة متكافئين علماً، والقدرة والإرادة والحكمة والتدبير على وجه لا تتقدم صفة أحدهما على صفة الآخر في الأعيان والأذهان فإذا وجدا ــ وذلك مستحيل ومتعذر ــ فهما واحد سموه اثنين و يقال في حصر هذا الافتراض: لو فرض وجود إلهين وأراد أحدهما تحريك جسم وأراد الآخر تسكينه فلا يخلو الأمر إما أن يحصل مرادهما فيكون الجسم ساكناً متحركاً في آن واحد.. وهذا جمع بين النقيضين وهو باطل، وإما ألا يحصل مراد واحد منهما فيخلو الجسم عن الحركة والسكون.. وهذا ممتنع بالإضافة إلى عجز كل منهما في تنفيذ مراده، ومن كان كذلك فليس بإله قادر، وإما أن يحصل مراد أحدهما دون الآخر،

فالذي حصل مراده هو الإله القادر، والآخر عاجز، لا يصلح للألوهية، وإما أن تتنازع الإرادتان فيستعمل كل إله سلطته وقدرته ضد الآخر، فينشأ عن هذا فساد الكون وخراب العالم، والواقع أن الكون بما فيه يجري على أحكم نظام وأدقه فتبين من هذا أن خالق هذا الكون ومن فيه إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

والجواب على الوجه الثاني : أن صدور الشيء وضده أدل على قدرة الصانع وقد نبه الله سبحانه وتعالى على ذلك في عدة مواضع من الكتاب العزيز من ذلك قوله (يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[١] .

وقوله تعالى (الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون)[٢] وغير ذلك من الآيات.

المسلك الثاني : في التركيز على إبطال معبودات المشركين، وبيان تفاهتها وأنها لا تخلق ذبابة ولا تستطيع أن تدفع عن نفسها ضرراً، ولا تجلب لها نفعاً فكيف تملك لغيرها ضراً أو نفعاً؟ وبيان تفاهة المشركين أيضاً عندما يعبدون هذه الأوثان، وأنها أضعف وأحقر من أن يقام لها وزن أو يثار حولها جدل (مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ)[٣] وقد بعث الله الرسل وأنزل الكتب لتحقيق هذا المبدأ العظيم، وهو إثبات وحدانية الله تعالى وترك ما يعبد من دونه وهذا الأصل العظيم هو الأصل الأول، الذي دعت لتحقيقه جميع الأديان السماوية، إذ بعث الله في كل أمة رسولاً يدعو

---

(١) سورة الرعد : ٤.

(٢) سورة يس : ٨٠.

(٣) سورة العنكبوت : ٤١.

إلى عبادة الله وحده لا شريك له قال تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)[1] .

وبما أن هذا الفصل معقود لبيان الجدال في وحدانية الله فسنتحدث عن جدال الأمم السابقة لأنبيائهم في وحدانية الله تعالى، ونورد الأمثلة التي توضح هذا الغرض بإذن الله تعالى.

---

(١) سورة النحل : ٣٦.

نماذج من جدال الأنبياء مع قومهم

أ ــ جدال نوح عليه السلام مع قومه :

نوح عليه السلام هو أبو الإنسانية الثاني، وأول الرسل دعوة إلى التوحيد، بعثه الله حين حدث الشرك في بني آدم، فدعا قومه وأبلغهم رسالة الله، فقابلوه بالتهم والمفتريات، وأكثروا من الحجاج والنقاش فلا يزداد إلا دفاعاً عن الحق وبياناً وتفنيداً لشبهاتهم، حتى بلغ بهم العجز مداه وضجوا وسئموا وقالوا: (يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِيْنَ).

وقد حكى الله هذه المجادلة بقوله (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾) إلى قوله (إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ)[1] .

أما موضوع المجادلة، فهو الدعوة إلى عبادة الله وحده، وقد بدأ نوح عليه السلام بعرض هذه الحقيقة التي أمره الله بتبليغها فقال: (إني لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم).

أدلة المعارضة : وقد عارضه قومه في دعواه، وبنوا معارضتهم على مقدمات ثلاث اعتبروها أدلة مرجحة لمعارضتهم :

---

(١) تراجع الآيات في سورة هود من ٢٥ ــ ٣٣.

الأولى قولهم : (ما نراك إلا بشراً مثلنا) ومعنى هذا أنه لو كان رسولاً لما كان بشراً ولكنه بشر إذن فليس برسول.

الثانية قولهم : (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي) ومعنى هذا أن اتّباع مجموعة من ضعفاء الناس الذين يستجيبون للأمور عن غير تفكير وتدبر لنوح عليه السلام، مدعاة لتكذيبه، وبطلان رسالته، ولو كانت حقاً لاتبعه القادة والأغنياء ووجهاء القوم.

الثالثة قولهم (وما نرى لكم علينا من فضل) ومعنى هذا أنهم لا يشاهدون مع نوح ومن آمن معه أموراً مادية توجب التفضيل كالغنى والقوة.. وقد جعلوا ميزان التفضيل كثرة العرض من الجاه والخيرات المادية، وبعد إيراد هذه المقدمات التي اعتبروها أدلة مرجحة في نظرهم ختموها بقولهم «بل نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ» كالنتيجة لمقدماتهم الاستدلالية الثلاث، وكان رد نوح مبطلاً لأدلة المعارضة وقد سلك عليه السلام في مجادلته لقومه أفضل الطرق وأوضح السبل واستعمل في جداله أسلوباً جذاباً راقياً.. وقد تضمن الرد على قومه تفنيد شبهاتهم التي اعتبروها أدلة، ونقضها واحدة تلو الأخرى.. ويتلخص الرد فيما يلي :

الرد الأول : كانت شبهتهم أنه بشر مثلهم وأن البشرية تتنافى مع الرسالة فرد عليهم بقوله (يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون) ويتضمن الرد الكريم ما يلي :

أ ــ أن الاصطفاء بالرسالة من خصائص الله وأن الله يصطفي برحمته من يشاء سواء كان من اصطفاه بشراً، أو غير بشر فكيف تحجزون رحمة الله، وبأي دليل من العقل أو من الوحي؟ وهل يمتنع على الله أن يصطفي بَشَراً رسُولاً؟.

ب ــ كيف تستطيعون رد البينة التي أكرمني الله بها.. والبينة التي مكنه الله منها أمران، أمر فكري يتضمن الحقائق الدينية المؤيدة بالبراهين العقلية، وأمر مادي ينجلي بالمعجزة التي تشهد بصدقه وبهذا الرد المحكم أسقط لهم حجتهم الأولى.

الرد الثاني : كانت شبهتهم أن أتباع نوح عليه السلام ضعفاء الناس، ولفقهم

الـذيـن لايتثبتون في الأمور، بل يستعجلون فيها دون تفكير ولا رو ية، فرد عليهم بقوله ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾(١) و يتضمن هذا الرد الكريم من نوح عليه السلام أمر ين:

الأول : أنه ليس بطالب مال حتى يقرب إليه الأغنياء و يطرد الفقراء الذين يسمونهم أراذل بسبب فقرهم وإنما هو مبلغ رسالة ربه للناس جميعاً، أغنيائهم وفقرائهم، ومسئولية الفقراء نحو الإيمان والالتزام بشرائع الله كمسئولية الأغنياء سواء بسواء فهم ملاقو ربهم أيضاً فسائلهم ومحاسبهم، ثم يختتم حجته هذه بكشف جهل مجادليه بعناصر التكليف الرباني للناس، و يشعرهم بأن فروق الغنى والفقر، والشرف والضعف، لا تدخل في عناصر التكليف بالإيمان والتزام شرائع الله لعباده.

الثاني : أن الله سيؤاخذه و يعاقبه إذا هو اصطفى الأغنياء والشرفاء وطرد الفقراء والضعفاء فمن ينصره و يدفع عقاب الله عنه إذا هو فعل شيئاً من ذلك؟!.

الثالث : كانت دعوتهم بأنهم لم يروا لنوح ومن آمنوا معه ميزات دنيو ية فضلهم الله بها بسبب إيمانهم على الذين لم يؤمنوا كالمال أو الجاه أو الخيرات الكثيرة، إذ قالوا ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾(٢) .

فرد عليهم بقوله (ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب). «و يتضمن هذا الرد تعر يفهم بأن الدنيا هي مجال الابتلاء العام والمؤمنون والكافرون فيه على السواء وليست خزائن الله بيده، يفيض منها على من آمن برسالته، وليست الدنيا في الأصل دار التفضيل بالمال والخيرات، بحسب الإيمان، وصالح الأعمال، فخزائن الله بيد الله يفيض منها على من يشاء من عباده لحكمة الابتلاء التي يعلمها سبحانه، وعلم

---

(١) سورة هود : الأيتان ٢٩، ٣٠.

(٢) سورو هود : الآية : ٢٧

الغيب الذي يرتبط به تحصيل المنافع المادية الدنيوية هو أيضاً من خصائص الله وليس مما وضعه الله بين يدي حتى استعمله في جلب المنافع الدنيوية لمن آمن معي»[1] .

وقد رأينا في هذه المجادلات كيف أبطل نوح شبهاتهم بالحجة والبرهان والمنطق السليم ولكنهم قوم عميت بصائرهم عن معرفة الحق وركبوا طغيانهم في المعاندة والمكابرة والاستهزاء بعد أن سلك نوح معهم أرقى الأساليب وذكرهم بآيات الله الآفاقية والنفسية وما أنعم الله به عليهم من الخيرات المادية فلم يستجيبوا له بل (جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا) (ومكروا مكراً كباراً وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث و يعوق ونسراً.. الآية) وحين وصل الأمر إلى ذروته واستحكم العناد ولم يعد في القوم أمل لفتح قلوبهم لنور الحق والإيمان قال نوح: (رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا)[2] .

فانتقلت بذلك المعركة الجدلية الكلامية إلى معركة تدخلت فيها يد القدرة الإلهية حين قال نوح لربه (إِنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ) فكان نصر الله كما قال سبحانه (فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ)[3] .

لقد أهلكم الله بحادث الطوفان بعد ذلك المعترك الفكري وبعد الحرص الشديد من نوح عليه السلام على هداية قومه، ولكن سبحان الذي بيده هداية القلوب وتصريف كل شيء (وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »[4] .

---

(١) انظر أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها للاستاذ عبد الرحمن الميداني ص ٣٧٧ ــ ٣٧٨.

(٢) سورة نوح الآيات : ٧، ٢٢ ــ ٢٧.

(٣) سورة القمر : ١١ ــ ١٦.

(٤) سورة هود ٣٤.

جدال هود عليه السلام مع قومه :

لقد كانت دعوة الرسل جميعهم متفقة في أصل التوحيد، وما من رسول إلا بدأ دعوته بتحقيق هذا الأصل العظيم، وهو إفراد الله بالعبادة، ولهذا سنوجز الحديث ونكتفي بمثال واحد لجدال كل نبي مع قومه مما تحدث عنه القرآن الكريم إلا في المقامات التي تحتاج إلى زيادة في الإيضاح، وقد جاء هود عليه السلام إلى قومه (عاد) وأبلغهم رسالة ربه، وأقام عليهم الحجة، فقاوموا دعوته وناوؤا رسالته واستمسكوا بعقيدة الآباء وتركوا شريعة السماء فجادلهم وأقام لهم البراهين على وحدانية الله تعالى.

وقد حكى ٱللَّهُ تبارك وتعالى تلك المجادلة في عدة سور من القرآن الكريم، منها ما جاء في سورة الأعراف قال تعالى (وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ) إلى قوله (فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ)[1] .

موضوع المجادلة : إفراد الله بالعبادة، وقد بدأ هود عليه السلام بعرض دعوته عليهم إذ قال لهم: (يا قوم أعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون) وقد تضمنت الدعوى مطلباً عظيماً وهو عبادة الله الواحد القهار.

١) لأن البرهان قائم على أنه الذي خلق هذا الكون وما يحتويه فهو المستحق للعبادة.

٢) لم يقم برهان نقلي أو عقلي على عبادة غيره معه، بل البراهين العقلية والنقلية توجب عبادة الله وحده، وعلى هذا فعبادة غير الله معه باطلة يجب محاربتها والقضاء عليها لتخلص العبادة لله وحده لا شريك له.

وقد عارضوا دعوة هود عليه السلام بقولهم (إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ)وهذا مطعن منهم في رجاحة عقل هود عليه السلام وعدالته وصدقه وحيث طعن في مصدر الدليل بطل الاستدلال به..

---

(١) سورة الأعراف من ٦٥ ــ ٧١.

وقد منعهم هود عليه السلام هذه الدعوى بأسلوب مهذب كريم حيث قال (يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ).

ومعنى هذا أن السفاهة عبارة عن هراء في القول وتشتت في الفكرة والموضوع بينما أنا في مستقر قواي العقلية، وقد كلفت بحملّ هذه الرسالة وتبليغكم إياها وفيها سعادتكم وهي تحمل أعظم المبادىء وأشرف الدعوات، ثم بينّ لهم أنه لا وجه للاستغراب والتعجب من تكليف الله رجلاً منهم مهمةَ إبلاغ الرسالة لأن الله يختص برسالته من يشاء من عباده.. وليس بدعا من الرسل فقد جاء قبله نوح عليه السلام وهم يعلمون ذلك، ولهذا قال: (أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ).

ولكنهم بدافع التقليد والتعصب يتعصبون لعقيدة الآباء والتعصب يعمي و يصم، ولهذا قالوا (أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ) وهذه معارضة أخرى تتضمن ما يلي:

١ ــ استنكار مبدأ الوحدنية لله في عبادته.

٢ ــ التصميم على انتهاج طريق الآباء في عبادة الآلهة مع الله.

٣ ــ التحدي لهود عليه السلام في أن يستعجل ما يخوفهم به من عذاب الله، وهذا يعني إنكار وقوع ذلك في اعتقادهم أو مكابرة ومعاندة لقطع جدال هود عليه السلام ودعوته لهم..

وقد أنكر عليهم هود عليه السلام مسلكهم المعوج وعنادهم المستحكم وجدالهم بالباطل فقال (قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ) وقد تضمن رد هود عليه السلام ما يلي:

١) أن استمرارهم على هذا المنهج المنحرف يدل على أنهم قد حرموا التوفيق وحل عليهم غضب من الله لعنادهم وتكذيبهم رسالة الله.

٢) استنكاره مجادلتهم إياه في أسماء لم يرثوا عبادتها عن شريعة سماوية سابقة ولم يقم على عبادتها برهان حتى يستمسكوا به و يعتمدوا عليه بل هي من وضع الآباء وتزيين الشيطان.

٣) أن تعجيل العذاب هو إلى الله وحده وهو الذي يحدد وقته فما عليهم إلا أن ينتظروا ما توعد الله به المكذبين لرسله، وفيه تهديد لهم وتخويف من عذاب الله إن استمروا على كفرهم.. وقد استمروا على كفرهم وعنادهم (فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ)(١).

جدال صالح عليه السلام مع قومه :

بعث الله صالحاً عليه السلام إلى قومه «ثمود» وأمرهم بعبادة الله وحده وذكرهم بما وهب لهم الله من النعم، وطلب إليهم أن يرجعوا إلى الله وأن ينتهوا عن شركهم فعارضوا دعوته.. وقد أبلغهم رسالة الله تعالى، وأقام لهم البرهان على صدقه وصحة ما يدعو إليه، وقد حكى الله تعالى ذلك بقوله : (وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) إلى قوله تعالى (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ)(٢) موضوع المجادلة: إفراد الله بالعبادة، وقد بدأ صالح عليه السلام يعرض حقائق دعوته فقال (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ)، ثم أردف ذلك بتذكيرهم بأصل نشأتهم وما أتاح لهم في هذه الحياة من وسائل ليعمروا هذه الأرض بما

---

(١) سورة الحاقة ٦ ـ ٨.

(٢) سورة هود : ٦١ ـ ٦٥.

يتناسب مع أحوالهم نشاطهم الفكري والعملي فقال (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ).

وقد تضمنت هذه الدعوى ما يلي :

١ ـ الأمر بعبادة الله وحده وبيان أنه لا يوجد معه آلهة أخرى والبراهين على ذلك قائمة.

٢ ـ كونهم يؤمنون بأن الله هو الذي أنشأهم يقتضي وجوب الإيمان بوحدانيته في العبادة.

٣ ـ أن كل نعمة من النعم الظاهرة والباطنة تستحق شكر المنعم ولا تجيز كفرانه.

المعارضة : وقد عارضه قومه في دعوته بقولهم (يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) وتتضمن المعارضة ما يلي:

١ ـ أن صالحاً كان قبل دعوته هذه من أصحاب الفضل والمكانة ثم تغيرت صفاته في نظرهم بمجرد إعلانه الدعوة وتبليغ الرسالة.

٢ ـ أنهم لم يبتدعوا عبادة الأوثان من عند أنفسهم، بل كان آباؤهم يعبدونها كذلك.. إذاً سيبقون على عقيدة الآباء و يعارضون كل دعوى تخالفها أو تحاول إبطالها.

٣ ـ ختموا تلك المعارضة بأنهم في شك، مريب مما يدعوهم إليه وما دام الشك قائماً فلا داعي لاتباع صالح حتى يرتفع هذا الشك وتنجلي الحقيقة.

وقد رد عليهم صالح عليه السلام بقوله : (يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ

وقد تضمن الرد ما يلي :

١ ــ إنني على استعداد لإقامة البرهان على صدقي فيما أبلغكم من رسالة الله وقد قامت البينة على ذلك.

٢ ــ إنني مكلف من قبل الله تعالى بإبلاغ هذه الرسالة ولا أستطيع مخالفة أمره لأنه لا ملجأ من الله إلا إليه.

٣ ــ إن آية صدقي في إخراج هذه الناقة آية لكم فلا تمسوها بسوء، فإن فعلتم ذلك عمكم الله بعذاب من عنده وهذه الناقة هي معجزة صالح عليه السلام وكان لها شرب ولهم شرب يوم معلوم وكان التحدي ليس بأن يأتوا بمثلها ولكن كان بالهلاك إن مسوها بسوء، فعقروها فأنذرهم صالح عليه السلام عن أمر ربه بأن العذاب نازل بهم بعد ثلاثة أيام وقد صدق وعد الله كما أخبرهم به فقال (تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب) وقد استكملت المعركة الجدلية الكلامية براهينها وقامت حجة الله عليهم بإرسال الرسول وتأييده بالمعجزة الدالة على صدقه وكانت نهاية تلك المعركة الجدلية، كما قص الله تعالى علينا ذلك بقوله: (فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ »[1] .

جدال إبراهيم عليه السلام مع قومه :

إبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء وقد بعثه الله في قوم عبدوا غير الله معه وانحرفت فطرتهم عن فطرة الله التي فطر الناس عليها من الإيمان بالوحدانية والتزام الهدايات التي جاءت بها تعاليم السماء على ألسنة الرسل والأنبياء، ومجادلة إبراهيم مع خصومه تعطينا صورة حية للمواقف المثالية في الدعوة والمناهج الرائعة في الأساليب الجدلية عندما يدعو لتحرير العقول، لتخليصها من كوابيس الوثنيات، وعبادة

(١) سورة هود آية ٦٨.

الهياكل، وقد ظهر إبراهيم عليه السلام فوجد قومه يعبدون الكواكب، وهؤلاء القوم على مذهب الصابئة المتعصبة للروحانيات.

«وهم يقولون بأن للعالم صانعاً حكيماً ولا يمكن الوصول إلى جلاله ومعرفته، وإنما يتقرب إليه بواسطة المقربين إليه وهم الروحانيون المطهرون الذين (لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)[1] ويعتقدون أن هؤلاء الروحانيين هم الأسباب المتوسطة في الاختراع والإيجاد وتصريف الأمور من حال إلى حال كما يعتقدون أن الكواكب السبعة السيارة في أفلاكها هي هياكل للروحانيات، فلكل روحاني هيكل ولكل هيكل فلك ونسبة الروحاني إلى ذلك الهيكل الذي اختص به نسبة الروح إلى الجسد فهو ربه ومدبره وكانوا يسمون الهياكل أرباباً آلهة، والله هو رب الأرباب وإله الآلهة، ومنهم من جعل الشمس إله الآلهة ورب الأرباب»[2] .

ويعرف هؤلاء بأصحاب الهياكل وهم عبدة الكواكب كما وجد إبراهيم عليه السلام أقواماً يعبدون الأصنام وهم أصحاب الأشخاص كما يسميهم الشهرستاني في كتابه «الملل والنحل»، ويعتقدون هؤلاء مثل اعتقاد أصحاب الهياكل من أنه لابد من متوسط يتوسل به ويتقرب عن طريقه إلى الله، ولكنهم يرون أن الهياكل قد ترى في وقت ولا ترى في وقت آخر، لأن لها طلوعاً وأفولا وظهوراً بالليل واختفاء بالنهار فلم يصف لنا التقرب بها، والتوجه إليها، فلابد لنا من صور وأشخاص موجودة قائمة نصب أعيننا نعكف عليها، ونتوسل بها إلى الهياكل، فنتقرب بها إلى الروحانيات، ونتقرب بالروحانيات إلى الله سبحانه وتعالى فنعبدهم: (لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ)[3] .

فاتخذوا أصناماً أشخاصاً على مثال الهياكل السبعة كل شخص في مقابله هيكل ويعرف الآلهة هؤلاء بأصحاب الأشخاص، كما تقدم وهم عبدة الأوثان، إذ سموها

---

(١) سورة التحريم آية ٦.
(٢) الملل والنحل للشهرستاني ج ٢ ص ٤٩.
(٣) الزمر آية ٣.

آلهة في مقابلة الآلهة السماوية(1) ، وقالوا (هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ)(2) ، وقد ذكرنا مسلك المعبودات التي كان يتمسك بها قوم إبراهيم عليه السلام لأننا سنشهد معتركاً فكرياً وعملياً بين إبراهيم عليه والسلام وأصحاب تلك المعتقدات.. نشهد الصراع الفكري في السياسة الجدلية التي سلكها إبراهيم لابطال تلك الخرافات الوثنية التي اصطنعها قومه، تلك المواقف التي شهد له القرآن الكريم بإقامة الحجة على قومه كما قال تعالى: (وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)(3) .

وقد جادل إبراهيم عليه السلام كلا من أصحاب الهياكل وأصحاب الأشخاص وهدم مذهبها، وسنتحدث عن مشاهد من جدل إبراهيم عليه السلام في مواقف متعددة فيما يلي:

المشهد الأول جداله مع أبيه بالحجة القولية :

لقد بدأ إبراهيم عليه السلام يهدم مذاهب الأشخاص وهي الأصنام التي يعبدونها من دون الله، ولما كان (آزر) أبو إبراهيم أعلم القوم بعمل الأصنام، وكانوا يشترون منه الأصنام، كان أكثر الحجج معه وأقوى الإلزامات عليه.. وقد ضرب إبراهيم مثلاً أعلى لكل مجادل بالحق، حيث جمع بين قوة الحجة وأدب الحديث، ولكنه كان مع والده أشد تلطفاً وحناناً وأكمل أدباً وبياناً..

وقد حكى الله تبارك وتعالى تلك المجادلة بقوله : (وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن

---

(1) الملل والنحل ص ٥٠ بتصرف.

(2) يونس ١٨.

(3) سورة الأنعام : ٨٣.

لَمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ)(١) ومن هذه الآيات السابقة ترى أسلوب النبوة المخلصة في التعليم والتوجيه.. إنه اسلوب يفيض عطفاً ويسيل رقة وحناناً، يحذر في لطف، وينذر في لين، ويعرف مكانة الأبوة فيعطيها حقها من اللين والاحترام.. فماذا كان جواب تلك الأبوة الضالة وهي في العادة موطن الرحمة والعطف والحنان والشفقة..؟ لقد انقلبت شواظاً من نار، وتحولت لظى من جحيم، وانفرط منها عقد الرحمة فعاد قسوة وجفاء وإن أردت البرهان فاستمع إلى قول تلك الأبوة الظالمة (قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً).

ويقابل إبراهيم عليه السلام هذه الشدة باللين والإحسان فيقول «سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً) هذا جانب من جوانب الأدب الرفيع الذي استعمله إبراهيم في مجادلته لأبيه.

أما الجانب الإلزامي في هذه المجادلة فيتمثل فيا يلي :

١) قول إبراهيم لأبيه (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً).

ومعنى هذا أن العبادة قربة ووسيلة إلى من يملك النفع والضر ويتصف بصفات الكمال والجلال وهذه الآلهة التي تعبدها من دون الله لا نرى لها شيئاً من هذه الخصائص فهي لا تسمعك إن دعوتها ولا تنصرك إن قربت لها شيئاً أو أظهرت لها ذل العبودية. وهي لا تملك لأنفسها ضراً ولا نفعاً فن باب أولى أن لا تملكه لغيرها بل إن مظاهر الكمال والنفع والضر فيك أظهر منها لأنك تسمع وتبصر وتتحرك فأنت أشرف درجة منها، وكيف يكون العابد أكمل وأشرف من المعبود، وهذه حقيقة لا

---

(١) سورة مريم : ٤١ ــ ٤٨.

يجد والد إبراهيم عنها محيصاً، ومما يزيد هذه الحقيقة بياناً أن أبا إبراهيم يصنع هذه المعبودات بيده، فهل المصنوع من حجارة أو غيرها من الماديات يصلح لأن يكون إلهاً؟ وبعد إقامة الحجة والبرهان على بطلان عبادة هذه الأصنام دعا إبراهيم عليه السلام والده إلى الحنيفية السمحة والملة العادلة المستقيمة فقال (يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً).

ومعنى هذا أنني مؤيد بالوحي من الله يدلني ويهديني إلى صراطه المستقيم، وليس عندك شيء من ذلك والذي عنده علم من الله أحق بالاتباع والامتثال ممن لا علم عنده ولا هداية (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)[1] .

ولقد كانت الإجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام جائرة منحرفة إذ قال أبوه (أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً) فكان جوابه لإبراهيم جواب جاهل لأنه قابله على النصيحة له بالرجم والهجر وهو شبيه بجواب قومه إذ قالوا (حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ)[2] .

هذا مشهد من مشاهد جدال إبراهيم عليه السلام لأبيه وقد تمثل فيه الأدب الكريم والحجة البالغة، فكان الأدب والبرهان يجريان في مجادلة إبراهيم كفرسَيْ رهان، وهذا المشهد يمثل الحجة القولية، والبرهان القاطع على بطلان عبادة هذه الأصنام، فلما لم تجد تلك الحجة القولية وحدها مع أبيه، رجع إلى الحجة العملية مقرونة بالحجة القولية، ويتمثل هذا في المشهد الآتي في جدال إبراهيم عليه السلام.

المشهد الثاني جداله لأبيه وقومه بالحجة العملية والقولية :

سلك إبراهيم عليه السلام في جداله مع قومه وأبيه مسلكاً عجيباً في إبطال عبادة هذه الأصنام وأراد أن يبرهن على بطلانها برهاناً عملياً، ولكنهم كانوا يحوطونها بحمايتهم ويدافعون عنها بمهجهم وأرواحهم، وما كانوا يوماً من الأيام ليسمحوا

---

(١) سورة الزمر : ٩.
(٢) سورة الأنبياء : ٦٨.

لإبراهيم عليه السلام بأن يحتال عليهم، لينفذ خطته العملية ضد معبوداتهم الخرافية، وكان قوم إبراهيم يعتقدون في النجوم بأن لها تأثيراً في العوالم الأرضية، كما كانوا يتشاءمون من السقم وسريان العدوى فجاء إبراهيم عليه السلام إلى مجاراتهم ظاهراً فيما يعتقدون (فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ)[١] .

تلك خطة إبراهيم في تنفيذ هذه العملية هيأ لها جواً ليخلو بهذه الأصنام ويسألها سؤال تهكم واحتقار: لماذا لا تأكل مما لديها من القرابين المقربة ولم لا تنطق فتبدي شيئاً مما له أدنى مرتبة من مراتب النفع والضر أو حتى أدنى مرتبة من مراتب الحيوانية، فإذا بها جماد لا يعقل وحجارة لا تنطق، وقد حكى الله تعالى ذلك الصراع الفكري والعملي بصورة أشمل في سورة الأنبياء حيث قال تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ) إلى قوله (قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ)[٢] .

وقد بدأ إبراهيم الخليل بسؤالهم عن تلك التماثيل التي يعبدونها من دون الله، والسؤال يتضمن تحقيق أحد أمرين: إما إقامة البرهان على كون تلك الأصنام آلهة صالحة للعباده، وإما اعترافهم ببطلان ألوهية هذه الأصنام وعدم صلاحيتها للعبادة، فكان سؤال إبراهيم لأبيه وقومه بقوله: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون، وكان الرد عليه بقولهم: وجدنا آباءنا لها عابدين، فهل شريعة الآباء بما فيها من ضلال وانحراف جديرة بمعارضة شريعة السماء، ولهذا أجابهم عليه السلام بأن مجرد عكوف الآباء على عبادة هذه الأصنام ليس مسوغاً للاستمرار على عبادتها عندما يتبين لهم الحق ويقوم البرهان على بطلان عبادتها فقال (لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) ثم بين إبراهيم أن الله الذي خلق السموات والأرض هو رب كل شيء، وهو

---

(١) سورة الصافات : ٨٨ ـ ٩٣.

(٢) سورة الأنبياء : ٥١ ـ ٦٩.

المستحق للعبادة ثم توعدهم بتحطيم أصنامهم والكيد لها بعد ذهابهم عنها ووجود الفرصة المناسبة، وقد عرفنا فيما تقدم الوسيلة التي اتبعها إبراهيم، حتى نفذ خطته لتحطيم هذه الأصنام، وقد حطمها فعلاً (فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون).

ولعل الحكمة التي أرادها إبراهيم في إبقاء كبير الأصنام لكي يدور الجدال حوله ويجري الاستجواب له فيما إذا كان ينطق أو ينفع أو يضر فإذا تبين أنه عاجز لا يملك شيئاً من ذلك فغيره من بقية الأصنام الصغار أولى بالعجز، وكل هذا نكاية من إبراهيم بتلك الأصنام وفضحاً لمعتقدات أبيه وقومه في عبادتهم للجمادات التي لا تنطق ولا تملك أن تدفع عن نفسها ما يراد بها من سوء، فكيف تدفعه عن غيرها؟ فنفذ إبراهيم عليه السلام حجته العملية ثم جاء أبوه وقومه يهرعون إلى آلهتهم فوجدوها على تلك الحال المخزية فدار بينهم حوار ونقاش حول هذا الحادث كما حكى الله تعالى ذلك بقوله: (قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون).

فلما أتي بإبراهيم واجتمعوا حوله وقلوبهم تكاد تتميز من الغيظ، بدأوا بتوجيه السؤال إليه فقالوا: أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ ومن طرائف ما يذكره بعض المفسرين وأصحاب السير أن إبراهيم عليه السلام لما كسر أصنامهم وضع الفأس في عنق الصنم الكبير الذي أبقَى عليه زيادة في التنكيل والتسفيه لتلك الآلهة، ولهذا قال في جوابه لقومه (بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون) وهذا المنهج الذي سلكه إبراهيم عليه السلام في عمله هذا هو منهج الجدل الحي المتفاعل مع طوايا النفس، وكوامن الضمير، حيث ساق إبراهيم عليه السلام جوابه لأبيه وقومه على طريق الإلزام والإفحام، ولم يكن كاذباً في قوله، كما يظنه من لا علم عنده بعصمة الأنبياء فإن إبراهيم ساق لهم جوابه من واقع معتقداتهم ليبرهن لهم أن تلك المعبودات لا تصلح للعبادة.. وإتيان الدليل من واقع ما يعتقده الخصم أبلغ في الإلزام والإفحام.. وفرق بين سوق الدليل لمن يطلب الرشد و يبحث عن الحقيقة و بين سوقه للمعاند المعرض عن الحق فيساق لقطع لجاجته وإبطال شبهاته..

فكان مسلك إبراهيم عليه السلام في جوابه المتقدم من هذا القبيل لكي يلزمهم إلزاماً عملياً، وهذا أسلوب من الأساليب الجدلية، ووسيلة من وسائل قمع الباطل، وإزهاقه فكيف يظن بأبي الأنبياء عليه السلام غير هذا؟ أو لم يشهد له القرآن بإيتاء الحجة على قومه ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[1]

أما الطريق الإلزامي الذي يتضمنه جواب إبراهيم فهو ما يلي :

١) نسبة الفعل إلى كبير الأصنام في قول إبراهيم (بل فعله كبيرهم هذا)، ومن المعلوم لديهم أنه جماد لا يتحرك ولا يفعل شيئاً من العدوان، فالإلزام إذا ما دام لا يملك الحركة والإرادة ولا يقدر على الفعل بنفسه، ولا يدفع عنه الفعل من غيره، فأي مظهر من مظاهر الألوهية في هذا الصنم؟.

٢) أمرهم بتوجيه السؤال إلى الأصنام المكسرة من فعل بها هذا العمل، أكان إبراهيم أم هو كبير الأصنام؟، ومن المعلوم أيضاً أنها لا تنطق فهي عاجزة عن الدفاع عن نفسها وبالتالي لا تملك الإفصاح حتى عن الشخص الذي حطمها فهل بقّى لها ميزة من ميزات الألوهية تستحق بها العبادة بعد هذا؟.

وهذا ما عناه إبراهيم عليه السلام بقوله : (فاسألوهم إن كانوا ينطقون) وكان قول إبراهيم عليه السلام هذا بمنزلة صيحة عليهم بددت أفكارهم، وأربكت لجاجتهم، فبقي الحوار دائراً في قرارات أنفسهم ثم تنفسوا الصعداء فقالوا (إنكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رؤسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون).

فألزمهم إبراهيم بالحجة والبرهان ووبخهم على سفاهة أحلامهم وتفاهة معبوداتهم فقال: أفٍّ لكم، ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون؟

وأمام هذا التحدي من إبراهيم الخليل لمعبوداتهم وقطع رجائهم في أن يكون على

---

(١) الأنعام : ٨٣.

ملتهم ما كان منهم إلا أن جمعوا له أكوام الحطب ليحرقوه نصرةً لآلهتهم وانتقاماً لمعبوداتهم وقد فعلوا ما في استطاعتهم أن يفعلوه من الإتيان بالحطب وإيقاد النار والقاء إبراهيم في تلك النار المتأججة، ولكنهم لا يقدرون على محو دعوته الحقيقية أو إزهاق نفسه الطاهرة الكريمة لأن الله معه، لقد قال الله تعالى لتلك النار (يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم) فكانت برداً وسلاماً على إبراهيم إذ وجدوه بعد أيام من إلقائه في النار قائماً يصلي في روضة خضراء في وسط النار كما ورد في بعض الآثار، وهكذا يكون التصميم في الدعوة والإخلاص في العمل وصدق التوجه إلى الله تعالى. ونأتي إلى ختام هذا المشهد من الصراع الفكري والعملي بين إبراهيم عليه السلام وبين أبيه وقومه.

المشهد الثالث جدال إبراهيم عليه السلام لأصحاب الهياكل :

وذلك باستقرائه مع قومه أفراد النجوم والقمر والشمس، لإثبات عدم صلاحيتها للألوهية، كما أراه الله الحجة على قومه في عبادة الأصنام أراه الله تعالى الحجة عليهم في عبادة الكواكب قال الله تعالى: (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) أراه الله ملكوت الكونين تشريفاً له على الروحانيات وهياكلها وترجيحاً لمذهب الحنفاء على مذهب الصابئة[١] ، وقد عرفنا في المشهد السابق الخطة التي رسمها إبراهيم عليه السلام حتى توصل إلى الأصنام فحطمها، وقلنا أنه احتال على قومه برسم تلك الخطة الجريئة المحكمة وإذ نسميها حيلة فإن الحيلة في مثل هذه المواقف حسنة لأنه إنما يريد بها إسعادهم وخلاصهم من الشرك وعبادة الأصنام، وعندما صمت آذانهم عن سماع الهدى وعميت بصائرهم عن قبوله واحتجبت قلوبهم عن بشائر الإيمان لم يبق أمامه إلا أن يبرهن لهم برهاناً عملياً على فسادها ولا سبيل له للوصول إليها إلا بمثل تلك الخطة فلا ضير في عمل هذا للنكاية بالأعداء وفلج الخصوم عند استحكام الباطل في تصرفاتهم، فإذا عرفنا المغزى من قول إبراهيم عليه السلام فيما حكاه الله عنه بقوله (فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ)[٢] وقول

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ص ٢٢ ج ٢.

(٢) سورة الصافات : ٨٨ ــ ٨٩.

إبراهيم (بل فعله كبيرهم هذا) إذا عرفنا هذا تبين لنا أنه ساق هذا الكلام على جهة الإلزام والتوصل إلى هدم معتقدات الخصم من أساسها، وعلى هذا فلا غرابة في الخطة التي اتبعها إبراهيم الخليل في إبطاله مذهب أصحاب الهياكل إذ سلك معهم مسلك الموافق الجاري لهم في النحلة لكي تلين عريكتهم وتنفتح صدورهم وقلوبهم إلى سماع ما يدلي به من برهان قاطع ضمن سياسة جدلية محكمة، وقد حكى الله ذلك بقوله تعالى (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ)[1] .

واعلم أن العلماء قد اختلفوا في مراد إبراهيم عليه السلام بهذا الاستدلال البديع هل كان فيه ناظراً أم كان فيه مناظراً؟ فروى ابن جرير الطبري من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ما يقتضى أنه كان ناظراً، واختاره ابن جرير الطبري مستدلاً بقوله (لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين).

وقال ابن كثير في تفسيره «والحق أن إبراهيم عليه السلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام»[2] وهذا هو الصحيح الذي يشهد بصحته العقل والنقل.

وسأورد نماذج من أقوال العلماء في هذه المسألة لنخلص منها بنتيجة واضحة جلية إن شاء الله، ومن هذه النماذج ما يلي:

قال الإمام الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى (فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي... الآية) ما نصه: «إعلم أن أكثر المفسرين ذكروا أن ملك ذلك

---

(١) سورة الأنعام : ٧٦ ــ ٧٩.
(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٥١.

الزمان رأى رؤيا وعبرها المعبرون بأنه يولد له غلام ينازعه في ملكه فأمر ذلك الملك بذبح كل غلام يولد فحبلت أم إبراهيم به وما أظهرت حبلها للناس فلما جاءها الطلق ذهبت إلى كهف في جبل، ووضعت إبراهيم وسدت الباب بحجر فجاء جبريل عليه السلام ووضع أصبعه في فمه فمصه فخرج منه رزقه وكان يتعهده جبريل... ... إلخ فنظر من باب ذلك الغار ليرى شيئاً يستدل به على وجود الرب سبحانه فرأى النجم الذي هو ضوء النجوم في السماء.... الخ.

«ثم القائلون بهذا القول اختلفوا فنهم من قال : إن هذا كان بعد البلوغ وجريان قلم التكليف عليه، ومنهم من قال إن هذا كان قبل البلوغ، واتفق أكثر المحققين على فساد القول الأول واحتجوا عليه بوجوه :

«الحجة الأولى» أن القول بربوبية النجم كفر بالإجماع والكفر غير جائز بالإجماع على الأنبياء».

«الحجة الثانية» أن إبراهيم عليه السلام كان قد عرف ربه قبل هذه الواقعة بالدليل، والدليل على صحة ما ذكرناه أنه تعالى أخبر عنه أنه قال قبل هذه الواقعة لأبيه آزر: (أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)[1] .

«الحجة الثالثة» أنه تعالى حكى عنه أنه دعا أباه إلى التوحيد، وترك عبادة الأصنام بالرفق ، حيث قال (يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا[2]) وحكى في هذا الموضع أنه دعا أباه إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام بالكلام الخشن واللفظ الموحش، ومن المعلوم أن من دعا غيره إلى الله تعالى فإنه يقدم الرفق على العنف واللين على الغلظة ولا يخوض في التعنيف والتغليظ إلا بعد المدة المديدة واليأس التام فدل هذا على أن الواقعة، إنما وقعت بعد أن دعا أباه إلى التوحيد مراراً وأطواراً ولا شك أنه إنما اشتغل بدعوة أبيه بعد فراغه من مهم نفسه،

---

(١) سورة الأنعام : ٧٤.

(٢) سورة مريم : ٤٢.

فثبت أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن عرف الله بمدة» ثم قال الرازي في الحجة السادسة: «إنه تعالى قال في صفة إبراهيم عليه السلام: (إذ جاء ربه بقلب سليم) وأقل مراتب القلب السليم أن يكون سليماً من الكفر وأيضاً مدحه فقال: (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين) أي آتيناه رشده من قبل من أول زمان الفكرة، وقوله (وكنا به عالمين) أي بطهارته وكماله، ونظيره قوله تعالى: (الله أعلم حيث يجعل رسالته).

«الحجة السابعة» قوله : «وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) أي وليكون بسبب تلك الإراءة من الموقنين، ثم قال بعده (فلما جن عليه الليل) والفاء تقتضي الترتيب فثبت أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن صار إبراهيم من المؤمنين العارفين بربه».

«الحجة الثامنة» : أن هذه الواقعة إنما حصلت بسبب مناظرة إبراهيم عليه السلام مع قومه والدليل عليه أنه تعالى لما ذكر هذه القصة قال (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) ولم يقل على نفسه فعلم أن هذه المباحثة إنما جرت مع قومه لأجل أن يرشدهم إلى الإيمان والتوحيد لا لأجل أن إبراهيم كان يطلب الدين والمعرفة لنفسه.

«الحجة التاسعة» أن القوم يقولون : إن إبراهيم عليه السلام إنما اشتغل بالنظر في الكواكب والقمر والشمس حينما كان في الغار وهذا باطل، لأنه لو كان الأمر كذلك فكيف يقول (يا قوم إني بريء مما تشركون) مع أنه كان في الغار حيث لا قوم ولا صنم.

«الحجة العاشرة» قال تعالى (وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله) وكيف يحاجونه وهم بعدما رأوه وهو ما آرهم، وهذا يدل على أنه عليه السلام إنما اشتغل بالنظر في الكواكب والقمر والشمس بعد أن خالط قومه ورآهم يعبدون الأصنام ودعوه إلى عبادتها فذكر قوله (لا أحب الآفلين) رداً عليهم وتنبيهاً لهم على فساد قولهم(١) .

(١) الفخر الرازي ج ١٣ ص ٤٧ و ص ٨٩.

ثم قال الرازي : «وأما الاحتمال الثاني» وهو أنه ذكره قبل البلوغ وعند القرب منه فتقريره أنه تعالى كان قد خص إبراهيم بالعقل الكامل والقريحة الصافية فخطر بباله قبل بلوغه إثبات الصانع سبحانه فتفكر فرأى النجم فقال (هذا ربي) فلما شاهد حركته قال (لا أحب الآفلين) ثم إنه تعالى أكمل بلوغه في أثناء هذا البحث فقال في الحال (إني بريء مما تشركون) فهذا احتمال لا بأس به وإن كان الاحتمال الأول أولى بالقبول لما ذكرنا من الدلائل الكثيرة على أن هذه المناظرة إنما جرت لإبراهيم عليه السلام وقت اشتغاله بدعوة القوم إلى التوحيد والله أعلم[١] .

وقال الآلوسي في تفسيره ما نصه : (قَالَ هَذَا رَبِّي) استئناف مبني على سؤال نشأ من الكلام السابق وهذا منه عليه السلام على سبيل الفرض وإرخاء العنان مجاراة مع أبيه وقومه الذين كانوا يعبدون الأصنام والكواكب، فإن المستدل على فساد قول يحكيه ثم يكر عليه بالإبطال، وهذا هو الحق الحقيق بالقبول[٢] .

وقال أحمد بن المنير الاسكندري في كتاب «الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال» بعد ذكر قول الله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام (قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين) قال ما نصه: «والتعريض بضلالهم ثانيا أصرح وأقوى من قوله أولاً (لا أحب الآفلين)، وإنما ترقى إلى ذلك لأن الخصوم قد أقامت عليه بالاستدلال الأول حجة، فأنسوا بالقدح في معتقدهم، ولو قيل هذا في الأول فلعلهم كانوا ينفرون ولا يصغون إلى الاستدلال، فما عرّض صلوات الله عليه بأنهم على ضلالة إلا بعد أن وثق باصغائهم إلى تمام المقصودة واستماعهم إلى آخره، والدليل على ذلك أنه ترقى في النوبة الثالثة إلى التصريح بالبراءة منهم، والتقريع بأنهم على شرك حين قامت عليهم الحجة، وتبلج الحق، وبلغ من الظهور غاية المقصود[٣] .

وقال صاحب تفسير المنار في قوله (قَالَ هَذَا رَبِّي) قال : «ومنه قصة طويلة

---

(١) الفخر الرازي ج ١٣ ص ٤٧، ٤٨، ٨٩.

(٢) الألوسي ج ٧ ص ١٩٨.

(٣) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣١.

مروية عن محمد بن إسحاق فيها أن إبراهيم صلىٰ الله عليه وسلم ولدته أمه في مغارة أخفته فيها خوفاً عليه من ملكهم نمرود بن كنعان وأنه طلب من أمه بعد خمسة عشر يوماً من ولادته أن يخرج من المغارة، فأخرجته عشاء فنظر وتفكر في خلق السموات والأرض.. وذكر رؤيته للكوكب فالقمر فالشمس، ولا شك في أن هذه القصة موضوعة لهذه المسألة وأن ابن إسحاق أخذها عن بعض اليهود الذين كانوا يلقنون المسلمين أمثال هذه القصص ليلبسوا عليهم دينهم، فتبطل ثقة يهود وغيرهم بهم.. وأما ما أخرجه ابن جرير الطبري عن ابن عباس من تفسير (هَذَا رَبِّيْ) بالعبادة فلا يصح، وهو من مراسيل علي بن أبي طلحة مولى بني العباس، وقد روي عن ابن عباس تفسيراً كثيراً ولم يره وقال فيه أحمد بن حنبل له أشياء منكرات، وقال الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب «صدوق يخطيء..»[1] ومعاوية بن أبي صالح الراوي عنه من رجال مسلم وقد ليّنه ابن معين وقال أبو حاتم لا يحتج به، ولم يرضه البخاري ولا ابن القطان فكيف يؤخذ بروايته عن ابن عباس أن إبراهيم خليل الرحمن كان في صغره مشركاً؟ هذا إذا فرضنا أن السند إليه صحيح.

ومن العجب أن ابن جرير اختار هذا القول مع تقريره القول المقابل له على أحسن وجه، وهو الذي جزم به الجمهور من أنه كان مناظراً لقومه، فقال ما قال تمهيداً للانكار عليهم، فحكى مقالتهم أولا حكاية استدرجهم بها إلى سماع حجته على بطلانها، إذ وهم أنه موافق لهم على زعمهم ثم كر عليه بالنقض بانياً دليله على قاعدة الحس ونظر العقل، وقيل إنه استفهام إنكار أو تهكم واتسهزاء حذفت أداته أي أهذا ربي الذي يجب عليَّ أن أعبده وقيل: أراد هذا ربي بزعمكم أو أنكم تقولون هذا ربي، وذلك مما لا يتلاءم مع ما سيأتي في الشمس ولا يقبله الذوق.

أما ابن جرير فاحتج أولاً بالرواية وقد علمت أنها لا تصح حجة على دعوى شرك الخليل عليه الصلاة والسلام، ولو في الصغر على أنها مطلقة، وثانياً بالعبارة التي قالها بعد أفول القمر، وسترى حسن توجيهها على الوجه الآخر، أما الجمهور فاحتجوا

---

(١) أنظر تهذيب ج ٧ ص ٣٣٩ ــ ٣٤٠ للحافظ بن حجر العسقلاني.

بحجج كثيرة أطال الإمام الرازي في تعدادها، وفي أكثر ما أورده نظر ظاهر وأقوى حجتهم السياق من حيث تشبيه إراءة الله تعالى إياه هذا الملكوت وما يترتب عليه من إبطال ربوبية الكواكب بإراءته ضلال أبيه وقومه في عبادة الأصنام، ومن إسناد هذه الإراءة إلى الله تعالى الدال على تمييز ما رأى بها على ما كان يرى قبلها ومن تعليل الإراءة بما تقدم، ومن التعقيب على ذلك بمحاجة قومه وقوله تعالى: إنه آتاه الحجة عليهم[1] .

وهذا هو القول الصحيح، فإن إبراهيم عليه السلام ساق أدلته لاستدراج خصومه وإبطال معبوداتهم ساق تلك الأدلة على جهة الإلزام لا على جهة الإلتزام فقال في الكوكب: هذا ربي، ثم قال في القمر هذا ربي ثم قال في الشمس هذا ربي هذا أكبر.. الخ وهذه ثلاثة أدلة على إبطال مذهب قومه وعدم صلاحيتها للعبادة.

ثم ساق دليلاً رابعاً وهذا الدليل الرابع مسوقٌ على جهة الإلزام والالتزام وهو قوله (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِيْ فَطَرَ السَّمَواتِ والأَرْضَ حَنِيْفاً وَمَا أَناَ مِنَ المُشْرِكِيْنَ).

ومما يؤيد أن ما تقدم كان مناظرة لقومه وليس نظراً ما يلي :

١) قوله تعالى (وحَاجَّهُ قَوْمُهُ) والمحاجة فيها مفاعلة، وأردف ذكر المحاجة عقب الاستدلال عليهم لبيان أنهم لم يستجيبوا لإبراهيم في استدلاله ولم يسلموا له في النهاية وإنما لجأوا إلى المحاجة.

٢) أنه قال (يَا قَوْمِ إنِّى بَرِيءٌ مِماَّ تُشرِكُوْنَ) ولم يقل إني بريء من الشرك الذي وقعت فيه.

٣) أن الدعوة للتوحيد وتقرير المبادىء يأتي عن طريق الوحي والتكليف بعد الاستواء وبلوغ الأشد الذي يختلف في حق كل نبي، ويحيى عليه السلام توفي في الثالثة والثلاثين من عمره جاء في حقه (يَا يَحْيَى خُذِ الِكتَابَ بقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الحُكْمَ

---

(١) تفسير المنار للسيد رشيد رضا ج ٧ ص ٥٥٧ ـ ٥٥٨.

صَبِيّاً) وفي قوله تعالى عن موسى (ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً) في حين جاء عن يوسف (وَلَماَّ بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً) بيد أن معظم الأنبياء بما فيهم إبراهيم عليه السلام ربما تحملوا مهام الرسالة بعد بلوغ الأربعين سنة من العمر بحيث تكتمل فيهم جميع المقومات العقلية والجسمية وهذا ما حدث لنبينا محمد صلىٰ الله عليه وسلم.

٤) أنه تعالى قال (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إبْراهِيْمَ عَلَى قَوْمِهِ) والإشارة ترجع إلى ما تقدم من المحاجة والاستدلال فهل الحجة التي آتى الله إبراهيم على قومه هي الشرك وقوله للكواكب (هَـٰذَا رَبّيْ)؟ وكيف يجاب عن قوله تعالى (إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ)[١] .

والقول بأن إبراهيم عليه السلام كان ناظراً لا يتفق مع عصمة إبراهيم عليه السلام ومعرفته بربه، واستدلالهم بقول إبراهيم (لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِيْ رَبّيْ لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالّيْن) حجة عليهم لا لهم، فإن إبراهيم عليه السلام التجأ في طلب الهداية إلى رب له مستقر وجوده في قرارة نفسه وإبراهيم أعلم الناس بما يجوز في حق الله وما يمتنع من الحدوث والتغير.

وإنما قصد إبراهيم عليه السلام إبطال مذاهب عبدة الكواكب ببيان فسادها وعدم صلاحيتها لأن تكون آلهة «فساق الإلزام على أصحاب الهياكل مساق الموافقة في المبدأ والمخالفة في النهاية ليكون الإلزام أبلغ والإفحام أقوى، وإلا فإبراهيم الخليل عليه السلام لم يكن في قوله: (هَذَا رَبّيْ) مشركاً كما لم يكن في قوله (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـذَا) كاذباً، وسوق الكلام على جهة الإلزام غير سوقه على جهة الالتزام[٢] وعلى هذا فقولهم إن إبراهيم في استدلاله هذا كان ناظراً باحثاً عن حقيقة الرب ليعرفه قول مرجوح بل هو في نظري مخالف لما يجب أن يعتقد في أنبياء الله ورسله من العصمة والمعرفة التي لا يعتريها شك أو تردد، لأنهم أعلم بالله تعالى المنزه عن صفات

---

(١) سورة النحل : ١٢٠.

(٢) أنظر الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٢٣٢.

المحدثين، وإنما لجأ أصحاب هذا القول إليه بناء على اعتقادهم بأن الشك طريق اليقين، وأن إبراهيم عليه السلام لو لم يشك لما وصل إلى حقيقة اليقين في ربه، و يستدلون على ذلك بقوله صلىٰ الله عليه وسلم : نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال (رب أرني كيف تحيي الموتى قال أوَ لَمْ تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي)[1] .

قال الحافظ بن حجر في «فتح الباري» «.. واختلف السلف في المراد بالشك هنا فحمله بعضهم على ظاهره وقال كان ذلك قبل النبوة، وحمله أيضاً الطبري على ظاهره وجعل سببه حصول وسوسة الشيطان، لكنها لم تستقر، ولا زلزلت الإيمان الثابت، واستند في ذلك إلى ما أخرجه هو وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والحاكم من طريق عبد العزيز الماجشون عن محمد بن المنكدر عن ابن عباس قال: «أرجي آية في القرآن هذه الآية (وإذ قَالَ إبراهيمُ ربِّ أرني كَيْفَ تُحْيِيْ المَوتَى) الآية، قال ابن عباس: هذا لما يعرض في الصدور، و يوسوس به الشيطان، فرضي الله من إبراهيم عليه السلام بأن قال: (بَلَى)، ومن طريق معمر عن قتادة عن ابن عباس نحوه، ومن طريق علي بن زيد عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس نحوه، وهذه طرق يشد بعضها بعضاً وإلى ذلك جنح عطاء فروى ابن أبي حاتم من طريق ابن جريج «سألت عطاء عن هذه الآية قال: دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس فقال ذلك».

«وذهب آخرون إلى تأويل ذلك... ... ثم اختلفوا في معنى قوله صلىٰ الله عليه وسلم (نحن أحق بالشك.. «الحديث»)».

«فقال بعضهم : معناه نحن أشد اشتياقاً إلى رؤية ذلك من إبراهيم، وقيل معناه إذا لم نشك نحن فإبراهيم أولى أن لا يشك، أي لو كان الشك متطرقاً إلى الأنبياء

---

(١) صحيح البخاري ج ٦ ص ٣٩.

لكنت أنا أحق به منهم، وقد علمتم أني لم أشك فاعلموا أنه لم يشك، وإنما قال ذلك تواضعاً منه أو من قبل أن يعلمه الله بأنه أفضل من إبراهيم...»[١] .

وقد ذهب بعضهم إلى إجراء الحديث على ظاهره على معنى أنه قد يحدث بعض الحيرة في بعض الأمور للنبي ثم يتبين له الهدى والصواب، وهذا قبل النبوة و يستدلون بمثل قوله تعالى (ووجدك ضالاً فهدى)[٢] .

ولكن الأنبياء باتفاق العلماء معصمون عن الرذائل، حتى قبل نبوتهم، إذ لم ينقل عن أحد منهم ما يشين كرامته أو يدنس عرضه قبل الرسالة، فأما بعد الرسالة فهم معصومون عن ارتكاب الكبائر والصغائر عمداً، وعن الخطأ في مجال التبليغ، فأما الاجتهاد فقد يخطىء النبي في بعض القضايا الاجتهادية، ولكن الله تعالى يبين له خطأه ضرورة ولا يقره على الخطأ فيصحح ما أخطأ فيه و يبينه للناس.

واعلم أن جمهور العلماء المحققين قد أولوا الحديث السابق على أنه لنفي الشك.

وإذا كا وإذا كان الإمام الحافظ بن حَجَر لم يرجح في كلامه السابق أحد القولين، فإنه يميل إلى نفي مثل هذا عن إبراهيم عليه السلام، فقد قال في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم (هذا ربي) ما نصه: وقيل له على طريق الاحتجاج على قومه تنبيهاً على أن الذي يتغير لايصلح للربوبية وهذا قول الأكثر أنه قاله توبيخاً لقومه أو تهكما بهم وهو المعتمد، ولهذا لم يعد ذلك من الكذب وأما إطلاقه الكذب على الأمور الثلاثة، فلكونه قال قولاً يعتقده السامع كذباً لكنه إذا حقق لم يكن كذباً لأنه من باب المعاريض المحتملة للأمرين فليس بكذب محض»[٣] .

و يقول الإمام الآلوسي في تفسير قوله تعالى (كيف تحيي الموتى) مالفظه : يعجبني

---

(١) فتح الباري ج ٦ ص ٤١١ ــ ٤١٢.
(٢) سورة الضحى : ٧.
(٣) فتح الباري ج ٦ ص ٣٩١.

ما حرره بعض المحققين في هذا المقام وبسطه في الذَّبِ عن الخليل عليه السلام من الكلام وهو أن السؤال لم يكن عن شك في أمر ديني والعياذ بالله، ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء ليحيط علماً بها، وكيفية الإحياء لا يشترط في الإيمان الإحاطة بصورتها، فالخليل عليه السلام طلب علم ما لا يتوقف الإيمان على علمه، و يدل على ذلك ورود السؤال بصيغة كيف» وموضوعها السؤال عن الحال، ونظير هذا أن يقول القائل كيف يحكم زيد في الناس؟ فهو لا يشك أنه يحكم فيهم ولكنه سأل عن كيفية حكمه المعلوم ثبوته ولو كان سائلاً عن ثبوت ذلك قال : أيحكم زيد في الناس؟، ولما كان الوهم قد يتلاعب ببعض الخواطر فتنسب إلى إبراهيم ــ حاشاه ــ شكا، من هذه الآية قطع النبي صلى الله عليه وسلم دابر هذا الوهم بقوله على سبيل التواضع (نحن أحق بالشك من إبراهيم) أي ونحن لم نشك فلأن لا يشك إبراهيم أحرى[1] .

و يقول الشيخ محمد رشيد رضا :« ما من أحد إلا وهو يؤمن بأمور كثيرة إيماناً يقينياً وهو لا يعرف كيفيتها و يود لو يعرفها فهذا « التلغراف» الذي ينقل الخبر من المشرق إلى المغرب في دقيقة واحدة يؤمن به الناس و يقل فيهم العارف بكيفية نقله للخبر بهذه السرعة .. أفيقال فيمن طلب بيان هذه الكيفية، إنه شاك؟»».

وقال أبو محمد بن حزم في كتاب «الفصل» «وأما قوله عليه السلام (رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي) فلم يقره ربنا عز وجل وهو يشك في إيمان إبراهيم عبده وخليله ورسوله عليه السلام، تعالى الله عن ذلك، ولكن تقرير الإيمان في قلبه وإن لم ير كيفية إحياء الموتى فأخبر عليه السلام عن نفسه أنه مؤمن مصدق وإنما أراد أن يرى الكيفية فقط، و يعتبر بذلك، وما شك إبراهيم عليه السلام في أن الله تعالى يحيي الموتى وإنما أراد أن يرى الهيئة كما أننا لا نشك في صحة وجود الفيل والتمساح والكسوف وزيادة النهر والخليفة؟ ثم يرغب من لم ير ذلك منا في أن يرى كل ذلك ولا يشك في أنه حق لكن ليرى العجب الذي يتمثله ولم تقع عليه حاسة بصره فقط.

---

(١) تفسير الألوسي ج ٣ ص ٢٦ ــ ٢٧.

وأما ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم (نحن أحق بالشك من إبراهيم) فمن ظن أن النبي صلى الله عليه وسلم شك قط في قدرة ربه عز وجل على إحياء الموتى فقد كفر. وهذا الحديث حجة لنا على نفي الشك عن إبراهيم، أي لو كان الكلام من إبراهيم عليه السلام شكاً لكان من لم يشاهد من القدرة ما شاهد إبراهيم عليه السلام أحق بالشك فإذا كان من لم يشاهد من القدرة ما شاهد إبراهيم غير شاك فإبراهيم عليه السلام أبعد من الشك: (قال أبو محمد) ومن نسب ها هنا إلى الخليل عليه السلام الشك فقد نسب إليه الكفر ومن كفر نبياً فقد كفر، وأيضاً فإن كان ذلك شكاً من إبراهيم عليه السلام وكنا نحن أحق بالشك منه فنحن إذاً شكاك جاحدون كفار. وهذا كلام نعلم والحمد الله بطلانه من أنفسنا بل نحن ولله الحمد مؤمنون مصدقون بالله تعالى وقدرته على كل شيء يسأل عنه السائل[1] وغاية ما في هذا الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم أراد نفي الشك عن إبراهيم عليه السلام، واستعمل في نفي الشك عنه نوعاً من الأدب والتواضع مع أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وكأنه يقول: إبراهيم منزه عن أن يشك في الله، ولو وقع الشك من إبراهيم لكنا أولى بالوقوع فيه ولكننا لا نشك في قدرة الله فإبراهيم أولى بعدم الشك وهذا أحسن ما يحمل عليه الحديث، ثم إن الرسل عليهم الصلاة والسلام تخاطب الأمم كما حكى الله ذلك في كتابه العزيز حيث قال تعالى (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... الآية)[2] فكيف يصح القول بأن إبراهيم عليه السلام كان شاكاً ثم بدأ في التدرج حتى وصل إلى اليقين؟

وإذا تأملت أقوال المحققين من العلماء وجدتها تضفي على النفس المؤمنة طمأنينة وارتياحاً فيما يجب اعتقاده في أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، فإبراهيم عليه السلام كان مناظراً لقومه مجادلاً لهم بالحجة القولية والعملية ولم يكن ناظراً باحثاً عن ربه الذي يجب أن يتخذه رباً ومعبوداً.

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ٧ ــ ٨.
(٢) سورة إبراهيم : ١٠.

والحقيقة التي يجب أن يبنى عليها هذا النقاش هي أن نقول لا يخلو الأمر من احتمالين:

الأول : أن يكون إبراهيم عليه السلام قال هذا الكلام في استقرائه لأفراد النجوم والقمر والشمس بعد أن صار نبياً رسولاً.

الثاني : أن يكون قال هذه المقالة قبل أن يوحَى إليه بالرسالة، يعني في زمن الصغر والطفولة عند بداية نظرته إلى الكون والحياة.

فعلى الاحتمال الأول يمتنع قطعاً هذا المعنى لأن إبراهيم عليه السلام أعلم بربه من أن يشك فيه، أو يقول لشيء من المخلوقات إنه ربه، كيف وقد قال الله تعالى فيه ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾[1] .

وعلى الاحتمال الثاني يواجهنا أمران :

١) أحدهما : احتياج هذا الاحتمال إلى إثبات من طريق الوحي أو طريق تاريخي صحيح.

٢) إن الإنسان العادي بفطرته السليمة يشعر ضرورة بأن الله خالق كل شيء وأن جميع مايشاهد في الكون من مخلوقات الله تعالى، فكيف مالت فطرة إبراهيم عليه السلام تلك الفطرة الطاهرة السليمة، إلى نوع من الشك في ربه حتى ذهب يستقرىء أفراد الكواكب ليقول في كل مرة لواحد منها إنه ربه، وإذا نظرت لبعض أقوال العلماء في هذا المقام وجدتها لا تخلو من ضعف، أنظر مثلاً قول الإمام عبد الرحمن بن نجم المعروف بابن الحنبلي في كتابه «استخراج الجدال من القرآن الكريم»، يقول في جدال إبراهيم عليه السلام مع نفسه ما نصه (رأى كوكباً قال هذا ربي) إلى آخر القصة، وجه استدلاله أنه رأى إنارة الكوكب وحسنه وعلو مكانه ولم ير قبله مثله فقال (هذا ربي) بناء على أن الرب لاينبغي أن يكون له مثيل»[2] .

---

(١) سورة الأنبياء : ٥١.

(٢) استخراج الجدال من القرآن ص ٦.

وقول المؤلف: «لم يرَ قبله مثله» فيه إشكال وهو أن يقال: هل أدرك إبراهيم ذلك من أول نظرة للكون والوجود فقال هذا الكلام؟ أم عاش مدة لا يعرف شيئاً عن النجوم والقمر والشمس من أنها تطلع وتغرب في أوقاتها المحددة؟ وقد حمل ابن حزم في كتابه الفصل على هذا القول، فقال« وأما قوله عليه السلام إذ رأى الشمس والقمر (هذا ربي) فقال قوم إن إبراهيم عليه السلام قال ذلك محققاً أول خروجه من الغار وهذه خرافة موضوعة مكذوبة ظاهرة الافتعال، ومن المحال الممتنع أن يبلغ أحد حد التمييز ويتكلم بمثل هذا الكلام، وهو لم ير قط شمساً ولا قمراً ولا كوكباً، وقد أكذب الله هذا الظن الكاذب بقوله الصادق (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين)، فمحال أن يكون من آتاه الله رشده من قبل يدخل في عقله أن الكوكب ربه أو أن الشمس ربه من أجل أنها أكبر قرصاً من القمر هذا ما لا يظنه إلا مجنون العقل، والصحيح من ذلك أنه عليه السلام إنما قال ذلك موبخاً لقومه كما قال لهم نحو ذلك في الكثير من الأصنام، ولا فرق لأنهم كانوا على دين الصابئة يعبدون الكواكب ويصورون الأصنام على صورها وأسمائها في هياكلهم ويعيدون لها الأعياد، ويذبحون لها الذبائح ويقربون لها القرب والقرابين والدخن ويقولون إنها تعقل وتدبر وتضر وتنفع ويقيمون لكل كوكب منها شريعة محدودة فوبخهم الخليل عليه السلام على ذلك وسخر منهم وجعل يريهم تعظيم الشمس لكبر جرمها كما قال تعالى (فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون) فأراهم ضعف عقولهم في تعظيمهم لهذه الأجرام المسخّرة الجمادية وبيّن لهم أنهم مخطئون، وأنها مدبرة تنتقل في الأماكن، ومعاذ الله أن يكون الخليل عليه السلام أشرك قط بربه، أو شك في أن الفلك بكل ما فيه مخلوق، وبرهان قولنا هذا أن الله تعالى لم يعاتبه على شيء مما ذكر ولا عنّفه على ذلك بل صدقه تعالى بقوله (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء) فصح أن هذا بخلاف ما وقع لآدم وغيره بل وافق مراد الله عز وجل بما قال من ذلك وبما فعل»[1] .

والحقيقة التي لا مناص عنها، والتي ندين الله بها ونعتقدها أن إبراهيم عليه

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ج ٤ ص ٧ ــ ٨.

السلام في قوله (هذا ربي) كان مناظراً لقومه مستدلا بذلك على بطلان عبادة الكواكب وعدم صلاحيتها للألوهية.

وإذا تقرر عندنا هذا الرأي، فلنرجع إلى بيان تلك المجادلة وكيف استدل إبراهيم عليه السلام على عدم صلاحية هذه الكواكب للعبادة، وقد بينّ الله تعالى ذلك بقوله (فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين) لأنه أدرك نقص ذلك الكوكب وعيبه لأن الأفول تغير والتغير حدوث والكامل لا يجوز عليه الحدوث لأنه صانع الحدوث، وطرد إبراهيم عليه السلام القياس في الإثبات والنفي مستدلا على بقية الكواكب.

قال الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل) بشأن استدلال إبراهيم عليه السلام مانصه: «ثم استدل بالأفول، والزوال والتغير والانتقال، على أنه لايصح أن يكون رباً إلهاً فإن الإله القويم لا يتغير، وإذا تغير احتاج إلى مغيرّ، هذا لو اعتقدتموه رباً قديماً وإلهاً أزلياً، ولو اعتقدتموه واسطة وقربة وشفيعاً ووسيلة، فإن الأفول والزوال يخرجه أيضاً عن حد الكمال، ومن هذا ما استدل عليهم بالطلوع وإن كان الطلوع أقرب إلى الحدوث من الأفول فإنهم إنما انتقلوا إلى عمل الأشخاص لما عراهم من التحير بالأفول، فأتاهم الخليل عليه السلام من جهة تحيرهم فاستدل عليهم بما اعترفوا بصحته وذلك أبلغ في الاحتجاج، ثم لما(رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين) فيا عجباً ممن لا يعرف رباً كيف يقول (لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين) رؤية الهداية من الرب غاية التوحيد ونهاية المعرفة، والواصل إلى الغاية والنهاية، كيف يكون في مدارج البداية؟، دع هذا كله خلف قاف، وارجع بنا إلى ماهو شاف كاف، فإن الموافقة في العبارة على طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج وأوضح المناهج وعن هذا قال (فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر)لاعتقاد القوم أن الشمس ملك الفلك وهو رب الأرباب الذي يقتبسون منه الأنوار و يقبلون منهاالآثار[1] (فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا

(١) الملل والنحل للشهرستاني ج ٢ ص ٥٣ بتصرف يسير.

تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ[1].

وبعد : فلقد رأينا ذلك الصراع الفكري والعملي والمعترك العقدي الذي خاضه إبراهيم عليه السلام في سبيل تحقيق دعوة التوحيد، وإبطال الوثنيات وعبادة الكواكب وتجريد هذه المعبودات الخرافية من كل معنى من معاني الإلٰهية التي لا تصلح إلا لله الواحد القهار الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً.

أما جدال إبراهيم مع النمرود فقد تقدم في الفصل الذي قبل هذا فلا داعي لإعادته هنا، بيد أن ها هنا لفتة لطيفة للعلاقة بين جداله مع النمرود وجداله مع عبدة الكواكب تتمثل في إفحامه للنمرود بالإتيان بالشمس من المغرب، وهذه العلاقة تكمن في معرفة السر في اختيار إبراهيم للشمس مثالاً دون غيرها من القوى الكونية.

وقد ذكرنا هناك أن إبراهيم قد خبأ للنمرود إلزاما آخر يكمن في هذا المثال فيما لو استمر النمرود في مكابرته، وبهذا نأتي إلى ختام هذا المشهد من الجدل الرائع والاستدلال الملزم المتمثل في جدال إبراهيم عليه السلام.

---

(١) سورة الأنعام : ٧٩.

جدال القرآن مع مشركي العرب واليهود والنصارى

جدال القرآن مع مشركي العرب :

ظهر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في جزيرة العرب، وهي تموج بالخرافات والوثنيات من عبادة الأصنام والكواكب وعبادة الجن والملائكة، وقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشريعة الخالدة والدين العالمي ليحرر العقول من عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق ويقيم على العدل أعظم نظام سماوي شرعه الله للإنسانية، ولكن الدعوة الخيرة التي جاء بها رسول الإنسانية صلى الله عليه وسلم واجهت خصوماً تغلغلت الوثنيات في أنفسهم، وزج بهم الكبرياء في متاهات الغي والضلال، فهم لا يرضون عن أن ينال أحد من آلهتهم شيئاً ولهذا وقفوا لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم في كبرياء وعنف .

وبالرغم من صلفهم وعنادهم، فإن القرآن الكريم قد خاطبهم باللين والحكمة والإرشاد إلى مناهج الصواب، وذكرهم بأخبار الأمم الماضية وحذرهم نتائج كفرهم وعواقب استمرارهم على الشرك بالله، فنهم من هدى الله، ومنهم من حقت عليه الضلالة، وفي هذا المقام نورد نماذج من جدال القرآن لهؤلاء المشركين فنقول :

المشهد الأول :

من أوثان العرب المشهورة . اللات والعزى ومناة، وقد قال الله تعالى في ذلك (أَفَرَءَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ

جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ)[1].

بدأ القرآن بمناقشة هؤلاء المشركين في معبوداتهم التي يعبدونها من دون الله والتي سموها بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان، وإنما ولدها الظن والهوى، ومع هذا فقد أطلقوا هذه الأسماء المؤنثة على الملائكة، دون علم ولا روية، وإنما مجرد ظن وتخرص بدليل قوله تعالى (إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباوكم ما أنزل الله بها من سلطان).

وهذه المسألة تتضمن ما يلي :

١ ــ أن العرب كانوا يفرحون بمجيء الولد الذكر، لحاجتهم إليه في الدفاع عن العرض والقبيلة، وكانوا يكرهون أن يأتي لأحدهم أنثى كما قال تعالى عنهم (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ)[2] .

فإن كان هؤلاء يعظمون البنين ويحتقرون البنات فكيف ينسبون إلى الله ما يحتقرون ولأنفسهم ما يعظمون؟ وهل العدل يقتضي مثل هذه القسمة الظاهرة الجور وعدم الإنصاف؟ ولو صحت مثل هذه القسمة في جانب الله تعالى، لكان الله أولى بالبنين أو على الأقل يتساوى معهم فيا يختارون لأنفسهم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وقد ذكر الله هذه القسمة الجائرة بقوله تعالى :(ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذن قسمة ضيزى).

فقد ألزمهم القرآن بأنهم جائرون في قسمتهم هذه، وأنها غير مستقيمة، وإذا يأباها منطق العقل والضمير الإنساني كما تأباها الحقيقة والواقع .

وفي قوله (تلك إذن قسمة ضيزى) تسليم جدليّ، كأنه قال سلمنا لكم جدلاً أن

---

(١) سورة النجم : آية ١٩ ــ ٢٥.
(٢) سورة النحل : آية ٥٨ ــ ٥٩.

لله ولداً، فهل القسمة العادلة تَقْضي أن يكون لكم الولد الأفضل ولله الولد الأدنى، وفي هذا إلزام لهم وإفحام بمقتضى تلك القسمة الجائرة.

وبعد إلزامهم وتسجيل الظلم عليهم أتى ببيان الحقيقة في هذه المعبودات، وأنها أسماء جاءت من نسج الخيال واستهواء الشيطان، ولم يستندوا في عبادتها أو تسميتها إلى برهان عقلي أو نقلي فقال تعالى :(إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان).

وقد سجل الله عليهم في اتخاذهم تلك المعبودات أمرين اثنين :

(الأول) قوله : (إن يتبعون إلا الظن).

(الثاني) قوله: (ما تهوى الأنفس).

ومعنى هذا أنهم لم يبنوا اعتقادهم على اليقين بل على الظن والتخرص (وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً) كما أنهم فعلوا ذلك تباعاً لِهَوَى الأنفس وهوى الأنفس لايصلح أن يكون إلهاً مشرعاً، إذ لو كان ذلك ما كان ذلك ما احتاج الناس إلى إرسال الرسل وإنزال الكتب ولكان إله كل إنسان هواه (أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ)[1] ، وهذا معنى قوله تعالى : (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس).

وبعد إيضاح القرآن فساد تلك المعبودات بين أنه جاءهم بالهدى ودين الحق من الله تعالى وأن هدى الله أحق أن يتبع لأنه المالك المتصرف في جميع خلقه وليس لأحد الخيرة من أمره إذا قضى الله ورسوله أمراً بل الواجب تنفيذ أمر الله واجتناب نهيه لأن الجميع في قبضته وتحت عظمته وسلطانه، بعد تبيان هذه الحقائق ومناقشتها بمنطق الحجة والبرهان عالج القرآن موقفاً آخر من مواقف المشركين إذ أنهم قالوا: لئن كان ما يقوله محمد عن ربه حقاً من أننا سنبعث بعد الموت لنكونن خيراً ممن آمن معه كما نحن في الدنيا أحسن بالمال والجاه فسنكون في الآخرة كذلك ، وستشفع لنا

---

(١) الجاثية : آية ٢٣.

آلهتنا عند الله، فرد عليهم القرآن هذه المزاعم بأن الله هو الذي يملك أمور الدنيا والآخرة وأن عدله يقتضي إكرام أوليائه وإذلال أعدائه فقال تعالى: (أم للإنسان ما تمنى فلله الآخرة والأولى).

وقطع عليهم القرآن ما كانوا يعتقدونه في الملائكة من أنها تشفع لهم الشفاعة المطلقة إذ كانوا يسمونها بأسماء آلهتهم يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى فقال تعالى (وكم من ملك في السموات والأرض لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء و يرضى).

لقد قيد القرآن الشفاعة بشرطين :

(١) إذن الله تعالى للشافع بالشفاعة فقال تعالى : (مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ)[١] .

(٢) رضاه عن المشفوع له كقوله تعالى : (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ)[٢] .

وعلى هذا فليس في في مكانة الملائكة أو أي مخلوق ما يسوغ عبادته من دون الله ما دام لا يملك النفع والضر ولا يقدر على الشفاعة في مواقف الحساب والعذاب إلا بإذن الله تعالى والله لا يأذن بالشفاعة إلا عند رضاه عن المشفوع له، والله لا يرضى عن المشركين الذين قامت عليهم الحجة بدعوة التوحيد فلم يستجيبوا (إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ)[٣] .

المشهد الثاني :

وهذا مشهد آخر من مشاهد الجدل القرآني للمشركين :

قال الله تعالى (قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٥٥.

(٢) سورة الأنبياء : آية ٢٨

(٣) سورة المائدة : آية ٧٢.

مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)[١] .

موضوع المجادلة، إثبات وحدانية الله في الخلق والتدبير والعبادة :

بدأ القرآن الكريم باستجواب المشركين عن أمور تتعلق بأحوال الرزق وأحوال الحواس وأحوال الحياة والموت ثم ختمها بالتدبير العام.

الأمر الأول :

عن مسبب الأرزاق في السموات والأرض، لأنها إنما تحصل الأرزاق من السماء والأرض، أما السماء فبنزول الأمطار كما قال تعالى : (وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[٢] أو يراد بالرزق من السماء التقادير العامة للأرزاق وتقسيمها، أما الرزق من الأرض ففيها أودع الله فيها من منافع مادية وأظهرها الغذاء سواء أكان نباتاً أم حيواناً.

الأمر الثاني :

أحوال الحواس ومن أشرفها وأظهرها وأشدها ضرورة وأعجبها خلقاً السمع والبصر ولهذا خصها بالذكر، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: (سبحان من أبصر بشحم وأسمع بعظم وأنطق بلحم)[٣] .

---

(١) يونس : آية ٣١ ــ ٣٥.
(٢) سورة الجاثية : ٥.
(٣) الفخر الرازي ج ١٣ ص ٨٦.

الأمر الثالث :

أحوال الموت والحياة من إخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي . ومعنى إخراج (الحي من الميت) إخراج الإنسان من النطفة والطائر من البيضة، وإخراج (الميت من الحي) إخراج النطفة من الإنسان والبيضة من الطائر.

وذكر القرطبي في تفسيره أعم من هذا، إذ قال في قوله تعالى (ومن يخرج الحي من الميت) قال: «أي النبات من الأرض، والإنسان من النطفة، والسنبلة من الحبة، والطير من البيضة، والمؤمن من الكافر»[١] . وهذا التعميم أولى يشمل الحياة النباتية والحيوانية، وقد أشار القرآن إلى هذا بقوله تعالى(إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ)[٢] .

على أن لكل مادة من مواد هذه المخلوقات وغيرها من آلاف المخلوقات وحدة أساسية هي وحدة تركيبها، فالكائنات الحية من أبسط أنواعها إلى أشدها تعقيداً في الخلقة تتكون من وحدات أساسية هي الخلايا، فالخلية هي الوحدة المتناهية في الصغر التي تحتوي على مادة الحياة وبها القدرة على توزيع هذه الحياة على كل كائن حي كبيراً كان أو صغيراً، وكل خلية تؤدي وظائفها الحيوية العديدة بدرجة من الدقة يتضاءل بجانبها أقصى ما وصل إليه الإنسان من مهارة في صناعة الآلات الدقيقة، وهي التي يطلق عليها اسم (البروتوبلازم).

ويقول الدكتور (وليم سيفرتين) في تعريفها : «إن المادة الحية المعروفة باسم (البروتوبلازم) هي خليط معقد جداً من الماء والأملاح والسكريات والدهون والبروتينات، وفي هذه المادة الحية غير المتجانسة تحدث تلك العمليات التي تؤلف في مجموعها الحياة وتتألف كل النباتات والحيوانات من «البروتوبلازم»، و «بروتوبلازم» النباتات والحيوانات واحد تقريباً ولكنه ليس نفس الشيء تماماً وهذه

---

(١) تفسير القرطبي : ج ٨ ص ٣٣٥.
(٢) سورة الأنعام : آية ٩٥.

الفروق أساسية وحيوية وإلا لما نمت بيضة الضفدعة فصارت ضفدعة، ولما نمت بذرة البلوط فاستحالت شجرة بلوط، وهذه الفروق كبيرة ولكنها خفية عنا فمن أبرز الحقائق في علم الحياة أن كل أنواع «البروتوبلازم» مهما كان مصدرها خافية تبدو متشابهة إلى حد كبير وتشبه بياض البيضة وفيه نقط دقيقة منتشرة»[1] .

والذي يهمنا في هذا الموضوع إثبات القدرة المستعلية على طاقة البشر والتي أوردها القرآن في مقام الاستدلال على قدرة الله تعالى وحكمته .

ومن فروع هذه المسألة معنى ظاهر قريب لم أر من ذكره من المفسرين، وهو أن الجنين الميت قد يخرج من بطن أمه التي فيها الحياة، وقد يخرج الجنين حياً من بطن أمه بعد فقدانها الحياة، وتلك عملية أيضاً تمتد إليها يد القدرة الإلٰهية، فإذا تحقق شيء من هذه الصورة فلا مانع من دخوله تحت عموم الآية لا سيما أن اللفظ القرآني لا يمنع من ذلك .

الأمر الرابع :

قوله (ومن يدبر الأمر) وهذا من عطف العام على الخاص لأن أقسام التدبير في العالم العلوي وفي العالم السفلي وفي عالم الأرواح والأجساد أمور لا نهاية لها، ولهذا جاء باللفظ الكلي العام ليشمل تدبير الكون بما يحتويه .

نعم، لقد استجوب القرآن الكريم أولئك المشركين عن هذه الأمور الأربعة، والهدف من هذا إلزام المشركين بما يعترفون به، وبما فطرت عليه النفوس البشرية من الإيمان بما تحس أو يبلغ عندها في بداهة العقول إلى حد الضرورة، ولهذا عندما سئل المشركون هذا السؤال لم يكن لهم بد من الاعتراف بما يعتقدون من وجود الله وتدبيره لشؤون خلقه، كما قال تعالى عنهم (فسيقولون الله) إذلا مجال للمكابرة والعناد في

---

(١) روح الدين الإسلامي للأستاذ عفيف عبد الفتاح نقلاً عن كتاب (العلم يزحف) تأليف جيمس ستوكلي ترجمة الدكتور محمد الشحات ص ٧٣.

شيء من ذلك لغاية وضوحه، ومعظم المشركين الذين جادلهم القرآن يقولون بأن الله هو الخالق المدبر لخلقه، وإنما يعبدون تلك الآلهة لتقربهم إلى الله زلفى .

ومما يؤيد اعترافهم بالله وإقرارهم به، ما رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» عن عمران، أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال لحصين (كم إلٰهاً تعبد؟ قال سبعة، ستة في الأرض، وواحد في السماء، قال من لرهبتك ورغبتك قال الذي في السماء، قال فاترك الستة وأعبد الذي في السماء، وأنا أعلمك دعوتين) فأسلم، وعلمه النبي صلىٰ الله عليه وسلم أن يقول: اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي»[1] .

ومن ذلك ما ورد في تلبية بعض المشركين من العرب، وهي نزار كانت تقول إذا أهلت «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك»[2] .

ولم تكن عبادة المشركين للأصنام عميقة في قرارات أنفسهم، لأنهم كانوا يدركون عدم جدواها، وقد ذكر ابن الكلبي في كتاب الأصنام أن صنماً يقال له (سعد) وكان صخرة طويلة فأقبل عليه رجل من كنانة بإبل له ليوقفها عليه يتبرك بذلك فيها. فلما أدناها منه نفرت منه، وكان يهراق عليه الدماء فذهبت في كل وجه، وتفرقت عليه، وأسف فتناول حجراً فرماه به وقال: لا بارك الله فيك إلهاً أنفرت عليّ إبلي، ثم خرج في طلبها حتى جمعها وانصرف عنه وهو يقول :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا ... فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتنوفة ... من الأرض لايدعى لغي ولا رشد[3]

وقال بعض المشركين حين وجد الثعلبان قد بال على رأس صنمه:

---

(١) لمعة الاعتقاد لابن قدامة ص ١٥.
(٢) انظر الأصنام لابن الكلبي ص ٧، وانظر تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٢.
(٣) كتاب الأصنام لابن الكلبي ص ٣٧.

أرب يبول الثعلبان برأسه   لقد ذل من بالت عليه الثعالب[1]

وقصة صنم عمرو بن الجموح مشهورة حيث كان يطيبه، و يضع عنده سيفاً و يقول له انتصر، وكان بعض المسلمين يؤذي عمراً في صنمه، فقد أخذوه مرة فقرنوه مع كلب ميت ودلوهما بحبل في بئر فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل وقال:

تالله لو كنت إلهاً مستدن   لم تك والكلب جميعاً في قرن

ثم أسلم عمرو وحسن إسلامه، وقتل يوم أحد شهيداً رضي الله عنه وأرضاه)[2]

وهناك قصص أخرى تدل على عدم إيمان بعض عبدة الأوثان الإيمان الكامل بأوثانهم كقصة جعفر بن أبي خلاس الثعلبي مع صنم يقال له (سعير)[3] والهوازني مع (ذي الخلصة) وغيرهما مما نقله الكلبي وغيره، وقد نزل القرآن الكريم فشنع على هؤلاء المشركين عبادتهم للأصنام التي يحسون و يلمسون عدم نفعها وجدواها، وكان من مناهج القرآن في مجالات خصومه أنه يقرر الخصم بما لا مجال لإنكاره، لأن إلزام الخصم عن طريق ما يسلم به من أبلغ الطرق الجدلية، لأنه إذا سلم المقدمات جميعا فقد ألزم بالنتيجة سواء التزم ذلك أو لم يلتزم .

وأمام هذه الحقائق الثابتة التي اعترف بها المشركون أنفسهم، بين القرآن الكريم أن من بيده تصريف كل شيء، هو رب كل شيء ومليكه، وهو الإله الحق المعبود وعبادة ما عداه زور وضلال (فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون).

ثم أعاد القرآن استجواب أولئك المشركين عن آلهتهم التي يعبدونها من دون الله هل لها قدرة على بدء الخلق ثم إعادته.

---

(١) انظر كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ٩٩، وانظر تاج العروس، مادة ث ح ل ب. وكتاب الأصنام ص ٤٧.

(٢) انظر تفسير بن كثير ج ٢ ص ٢٧٦.

(٣) انظر الأصنام لابن الكلبي ص ٤١.

وترتيب الدليل في غير القصص القرآني أن يقال: إن الله هو المستحق للعبادة وحده لأنه قادر على إيجاد الخلق من العدم ابتداء، وعلى رعاية تخليق الإنسان في جميع مراحل نموه، ثم إعادته بعد فنائه، وآلهتكم التي تعبدونها من دون الله عاجزة عن ذلك، والعاجز لا يصلح أن يكون إلهاً، فثبت أن الإله القادر هو الله تعالى المستحق للعبادة وحده .

ثم وجه القرآن استجواباً آخر للمشركين يتعلق بالهداية، وأن من بيده الهداية العامة والخاصة لغيره أحق أن يتبع شرعه و يطاع أمره ونهيه، لأنه هو الذي يهب الهداية (الذي أعطى كل شيء خلقة ثم هدى).

والاستدلال على وجود الصانع بالخلق أولاً، ثم بالهداية ثانياً، منهج من مناهج القرآن فقد حكى الله تعالى عن الخليل عليه السلام أنه ذكر ذلك فقال: (ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ)[1] .

وعن موسى عليه السلام أنه ذكر ذلك فقال: (رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ)[2] .

وأمر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بذلك فقال: (سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ)[3] .

وهذه الحقيقة دليل قاطع، لأن الإنسان لَهُ جسد وله روح، فالاستدلال على وجود الصانع بأحوال الجسد هو الخلق، والاستدلال بأحوال الروح هو الهداية فهنا لما ذكر دليل الخلق في الآية الأولى وهو قاله تعالى (هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده) اتبعه بدليل الهداية،[4] في قوله (قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي إلى الحق) هذه حقائق ثابتة وجد المشركون أنفسهم ملزمين بها وليس

---

(١) سورة الشعراء : آية ٧٨.

(٢) سورة طه : آية ٥٠.

(٣) سورة الأعلى : الآيات ١ ــ ٣.

(٤) انظر الفخر الرازي : ج ١٧ ص ٨٩ ــ ٩٠.

لهـم قـدرة على دفعها، فالتجؤا إلى جدل آخر يقصدون من ورائه إبطال كل دليل يأتي به محـمـد صلى الله عليه وسلم، ولكن القرآن كان لهم بالمرصاد (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا)(١) .

فالمشركون لما عجزوا عن مقابلة الحجة بالحجة في القرآن الذي هو معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يدعو إليه من توحيد وشريعة، عمدوا بلجاجتهم إلى محاولة قطع هذا المعين الذي لا ينضب وإطفاء نور الله الذي أعشت وضاءته أعينهم العمياء، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

قالوا عن القرآن أنه مفترى من دون الله، فأجابهم القرآن بقوله (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ... الآية) ثم قالوا: إفتراه محمد من عند نفسه وأعانه عليه قوم آخرون، وقالوا: إنما تعلمه من غلام أعجمي، وأمام هذه المزاعم الباطلة كان لا بد من إلجام خصومتهم وقطع دابر لجاجتهم وإفحامهم بالدليل القاطع الذي أعجزهم، فتحداهم بأن يأتوا بسورة مثل إحدى سور القرآن، وأمرهم مبالغة في التحدي بأن يدعوا من يظنون فيه القدرة على مساعدتهم في هذا التأليف والإحكام الذي يخرج عن طوق البشر، فعجزوا عن ذلك وظهرت قدرة المعجز، وهذا ما عناه الله بقوله (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)(٢) .

ثم أخبر القرآن الكريم أن تلك المعارضة الساقطة التي أثاروها لم تكن لها صلة بالحقيقة، وإنما قصارى ما لهم فيها من شبهة أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاءهم بشيء لا يحيطون بعلمه وأنه يحمل من المعاني والأخبار الغيبية والإعجاز بكل صوره وأشكاله ما يسمو على مداركهم وأفهامهم، فلم يكن لهم أمام ذلك إلا الإنكار والطعن فيه زوراً وبهتاناً.

وسنة الله في خلقه أن يلقى رسل الله من يعارض دعوتهم و يكذب رسالتهم ولكن

---

(١) سورة الفرقان : آية ٣٣.

(٢) سورة يونس : آية ٣٨.

العاقبة للمتقين والنصر لابد مِن أن يتجلى بإظهار الدعوة وكثرة الأتباع أو بإهلاك الضالين المكذبين في الدنيا إنجازاً لوعد الله في قوله تعالى ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[1] .

المشهد الثالث :

قال الله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

موضوع المجادلة الرد على عبدة الأصنام :

لما كان المشركون يعبدون الأصنام من دون الله، كان لزاماً أن يبرهنوا على استحقاق أصنامهم للعبادة، أو يعجزوا عن ذلك، فبدأ القرآن باستجوابهم عن أمرين

الأول :

هل يعقل أن يضاف إلى هذه الأصنام خلق جزء من أجزاء هذا العالم؟

وبما أنهم لم يدعوا لهذه الأصنام خلق شيء من العالم فقد انتفى ذلك عنها جملة وتفصيلاً.

الثاني :

هل يجوز أن يقال إنها أعانت إلٰه العالم في خلق جزء من أجزاء هذا العالم، فتكون شريكة له في الخلق والتدبير، وبما أن هذا لايصح لا في المعقول ولا في المنقول فقد ثبت ضرورة أن الخالق الحقيقى لهذا العالم هو الله تعالى.

---

(١) سورة غافر : آية ٥١.

(٢) سورة الاحقاف : آية ٤.

والعبادة عبارة عن الإتيان بأكمل وجوه التعظيم وذلك لايليق إلا بمن صدر عنه أكمل وجوه الإنعام، فلما كان الخالق الحق والمنعم الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى وجب أن لا تكون العبادة والعبودية إلا له ولأجله، ولما كان المشركون لا يألون جهداً في التخلص من طرق الإلزام التي جاء بها القرآن وكان بالإمكان أن يلجوا في جهالتهم و يقولوا إننا لا نعبد هذه الأصنام لأنها تستحق العبادة وإنما نعبدها لأن الله أمرنا بهذا أو وجدنا في الكتب الإلٰهية ما يدل على عبادتها فلهذا عبدناها، فقد أفحمهم القرآن بأن حصر الأوصاف المدعاة التي تسوغ لهم عبادة هذه الأصنام وهي: أن تكون خالقة لبعض أجزاء العالم ، أو أن تكون شريكة لله في الخلق والتدبير، أو يكون عندهم وحي من الله بعبادتها، أو أنهم ورثوا ذلك من الكتب السماوية السابقة.

أما كونها خالقة لشيء من العالم أولها شرك في الخلق والتدبير فهذا معلوم الفساد بالضرورة كما تقدم.

وأما أن يكون عندهم أمر من الله بعبادتها أو جاءت في الكتب الصحيحة السابقة، فلا سبيل إلى معرفة ذلك إلا بالوحي والرسالة، فنقول هذا الوحي الدال على الأمر بعبادة هذه الأوثان إما أن يكون قد نزل على محمد صلىٰ الله عليه وسلم، أو في سائر الكتب الإلٰهية المنزلة على سائر الأنبياء، أو لم يوجد ذلك في الكتب الإلٰهية لكنه من تقابل العلوم المنقولة عنهم فالكل باطل.

وأما إثبات ذلك بالوحي إلى محمد صلىٰ الله عليه وسلم فهو معلوم البطلان أيضاً لأن دعوته مع هذا الأمر في طرفي نقيض، وأما إثباته عن طريق اشتمال الكتب الإلٰهية المنزلة على الأنبياء المتقدمين عليه فهو أيضاً باطل لأنه علم بالتواتر الضروري إطباق جميع الكتب الإلٰهية على المنع من عبادة الأصنام، وهذا هو المراد من قوله تعالى (أئتوني بكتاب من قبل هذا) وأما إثبات ذلك بالعلوم المنقولة عن الأنبياء سوى ما جاء في الكتب فهذا أيضاً باطل، لأن العلم الضروري حاصل بأن أحداً من الأنبياء ما دعا إلى عبادة الأصنام وهذا المراد من قوله تعالى (أو أثارة من علم) ولما بطلت جميع شبهات المشركين عن طريق هذا الحصر المنطقي ثبت أن اشتغالهم بعبادة

الأصنام في غاية الفساد ولهذا أعقب الآية السابقة بقوله تعالى(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ)[1] .

وهـذا المـشهـد ينتهي فيما يتعلق بالجدل مع عبدة الأصنام عند قوله تعالى بعد الآية السابقة (وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ)[2] . لكن المعركة الجدلية لم تنته بعد بل انتقلت إلى صراع فكري آخر حول قضايا الإيمان بأن هذا القرآن من عند الله، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم حق، وهذا الجدل يتعلق بإثبات القرآن وإثبات الرسالة ولهذا مقام آخر سنتحدث عنه إن شاء الله.

المشهد الرابع :

قال الله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ)[3] .

موضوع المجادلة : بيان عجز معبودات المشركين وتفاهتها :

في قوله تعالى (ضرب مثل فاستمعوا له) في حين لانرى في الآية مثلاً فكيف سماه مثلاً؟.

وقد أجاب الفخر الرازي في تفسيره عن هذا بقوله «لما كان المثل في الأكثر نكتة عجيبة جاز أن يسمى كل ما كان كذلك مثلاً»[4] .

وقال النحاس : «المعنى ضرب الله عز وجل ما يعبدون من دونه مثلاً قال وهذا أحسن ماقيل فيه»[5] .

---

(١) سورة الأحقاف : آية ٥.
(٢) سورة الأحقاف : آية ٦.
(٣) سورة الحج : آية ٧٣.
(٤) الفخر الرازي ج ص ٦٨.
(٥) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٩٦.

وقد استدل القرآن الكريم على بطلان عبادة الأصنام بأمرين :

الأول :

عجز هذه الأصنام بل وسائر المعبودات من دون الله على خلق أحقر وأقل المخلوقات شأناً وهو الذباب، فهي عاجزة حتى ولو اجتمعت لخلق هذا المخلوق التافه، فإذا عجزت مجمعة فمن باب أولى أن تعجز منفردة، وإذا ثبت عجزها فكيف يليق بالمخلوق العاقل أن يعبدها من دون الله، وهذا هو الأمر الأول فيما يتعلق بسلطانها وتأثيرها في الغير وهو المعنى بقوله تعالى (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له).

الثاني :

فيما يتعلق بدفاعها عن نفسها أو عن ما حواليها، وهذه مرتبة أخف من الأولى وأسهل ، كأن الله تعالى أراد الزيادة في تحقير هذه الأصنام وعابديها فقال تعالى : (وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستقذوه منه).

قال السدي : «كانوا يجعلون للأصنام طعاماً فيقع عليه الذباب فيأكله»[١] .

والذي يظهر والله أعلم أن المراد من الآية التمثيل لعجز هذه الأصنام عن الحركة وعن دفع ما يراد بها من سوء فإذا عجزت عن الدفاع عن نفسها فهي عن غيرها أعجز وأحقر، وما دامت كذلك فهل تستحق شيئاً من العبادة، علماً بأن قدرة العابد في هذا المقام أكمل وأشرف من المعبود فإن العابد يملك الحياة والسكون وقد يملك الدفاع عن نفسه بقدر طاقته فله في الجملة أرادة وقدرة وتلك الأضنام لا إرادة لها ولا قدرة.

وقد ختم الله الآية بقوله تعالى (ضعف الطالب والمطلوب) وفي هذا احتمالان :

---

(١) تفسير القرطبي : ج ١٢ ص ٩٧.

(١) أن يكون الطالب الآلهة والمطلوب الذباب.

(٢) أن يكون الطالب عابد الصنم، والمطلوب الصنم لأن العابد في هذه الحالة يطلب إلى الصنم بالتقرب إليه، والصنم مطلوب إليه بهذا التقرب.

وقد ذكر الفخر الرازي قريباً من هذا في تفسيره[١] واستظهر الاحتمال الثاني لأن كون الصنم طالباً ليس حقيقة بل هو على سبيل التقدير، أما على الاحتمال الثاني فعلى سبيل التحقيق لكن المجاز فيه حاصل، لأن الوثن لا يصح أن يكون ضعيفاً لأن الضعف لا يجوز إلا على من يصح منه أن يقوى، ولكن ظاهر السياق يدل على أن الطالب الصنم والمطلوب الذباب كما هو اختيار ابن جرير الطبري وابن كثير»[٢] .

بقي أن نعرف لماذا خص الله الذباب بالذكر في الآية دون غيره من الحيوانات الضعيفة؟.

ذكر القرطبي في تفسيره أنه خص لأمور أربعة هي: «لمهانته وضعفه وآستقذاره وكثرته، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوه من دون الله عز وجل على خلق مثله ودفع أذيته، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين وأرباباً مطاعين؟! وهذا من أقوى الحجج وأوضح البراهين[٣] .

وقد ألزم القرآن الكريم هؤلاء المشركين بعجز معبوداتهم عن الخلق والتدبير وحسن الحركة والإرادة، ولهذا انقطعوا في مجادلتهم لأنهم أمام هذه الحقائق لا يقدرون على المعارضة، لأن عجز هذه الأصنام مستقر في بداهة العقول كما يشهد به الواقع المحسوس، وينتهي هذا المشهد القرآني ببيان عظمته تعالى وعدم وحاجته إلى أحد من خلقه فقال تعالى: (ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز) أي ما عظموه حق

---

(١) انظر الفخر الرازي ج ٢٣ ص ٦٨ /٦٩.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٣٥.

(٣) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٩٧ بتصرف يسير.

تعظيمه حيث جعلوا هذه الأصنام على نهاية خساستها شريكة له في العبادة ثم أي حاجة إلى القول بالشريك له تعالى وهو القوي العزيز؟ وقد ذكر الكلبي أن قوله تعالى (ماقدروا الله حق قدره) ونظيره في سورة الأنعام نزلت في جماعة من اليهود وهم مالك ابن الصيف وكعب بن الأشرف وكعب بن أسد وغيرهم لعنهم الله حيث قالوا إنه سبحانه لما فرغ من خلق السموات والأرض عيي من خلقها فاستلقى واستراح ووضع إحدى رجليه على الأخرى فنزلت هذه الآية تكذيباً لهم[1] ، ونزل قوله تعالى (وما مسنا من لغوب) وليس غريباً أن يصدر من اليهود مثل هذا فقد افتروا على الله أكثر من هذا فقالوا عزير ابن الله، وغيروا وبدلوا فيما لديهم من الكتاب ولكن السياق يدل على ارتباط الآية بما قبلها من وجوب تنزيه الله تعالى عن عقائد المشركين، ومهما يكن فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب».

المشهد الخامس :

قال الله تعالى (أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ)[2] .

موضوع المجادلة إبطال عبادة الأصنام :

اختلف المفسرون في هذه الآية : فمنهم من يرى أنها مرتبطة بما قبلها وأنها نزلت في شأن آدم وحواء وذكروا آثاراً لا تخلو في جملتها من ضعف، والآية هي قوله تعالى (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا

---

(١) الفخر الرازي : ج ٢٣ ص ٦٩.

(٢) سورة الأعراف : آية ١٩١ ــ ١٩٥.

فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ)[1] .

وذهب كثير من المحققين إلى أن الآية تعني المشركين من ذرية آدم من عبادة الأوثان والأصنام، ولكي يتضح الأمر نذكر القولين مع الترجيح :

القول الأول :

إن قوله تعالى (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ... الآية) يراد به آدم وحواء، وعمدة أصحاب هذا القول ما رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال: «حدثنا عبدالصمد حديثا عمر بن إبراهيم حدثنا قتادة عن الحسن بن سمرة عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال : لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فإنه يعيش فسمته عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره»[2] .

وقد أعل الحافظ ابن كثير رحمه الله هذا الحديث من وجوه ثلاثة[3] .

(١) أن عمر بن إبراهيم هذا البصري وقد وثقه ابن معين ولكنه قال أبو حاتم الرازي لا يحتج به، ولكن قد رواه ابن مردويه من حديث المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعاً فالله أعلم.

(٢) أنه قد روى من قول سمرة نفسه ليس مرفوعاً كما ذكره ابن جرير في تفسيره عن سمرة بن جندب قال سمى آدم ابنه عبد الحارث[4] .

(٣) أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً لما

---

(١) سورة الأعراف : ١٨٩ ــ ١٩٠.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده ج ٥ ص ١١.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٧٤.

(٤) تفسير الطبري ج ١٣ ص ٣١٠.

عدل عنه، ومما اعتمد عليه أصحاب هذا القول أيضاً ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى (فلما آتاهما صالح جعلا له شركاء فيما آتاهما)، قال: قال تعالى (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاه) آدم (حَمَلَتْ) فأتاهما إبليس لعنه الله فقال : إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعاني، أو لأجعلن له قرني أيّل فيخرج من بطنك فيشقه ولأفعلن ــ يخوفهما ــ فسمياه عبد الحارث فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً، ثم حملت الثانية فأتاهما أيضاً فقال أنا صاحبكما الذي فعلت لتفعلن أو لأفعلن ــ يخوفهما ــ فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً ثم حملت الثالث فأتاهما أيضاً، فذكر لهما، فأدركهما حب الولد فسمياه عبد الحارث، فذلك قوله تعالى (جعلا له شركاء فيما آتاهما) رواه ابن أبي حاتم كما نقله عنه ابن كثير[1] .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره، وقد تلق هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه كمجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة، ومن الطبقة الثانية قتادة والسدي وغير واحد من السلف، وجماعة من الخلف، ثم قال: وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب وقد صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم)[2] .

وابن كثير رحمه الله كعادته في التحقيق يفصل القول في الأخبار المروية عن أهل الكتاب ويبين أنها على أقسام ثلاثة :

(١) منها ما علمنا صحته بما دل الدليل عليه من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

(٢) منها ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً.

(٣) منها ما هو مسكوت عنه، فهو المأذون في روايته بقوله عليه السلام (حدثوا

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٧٥.

(٢) لفظ البخاري « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما إنزل الينا». انظر صحيح البخاري كتاب التفسير.

عن بني إسرائيل ولا حرج)[1] ، وهو الذي لا يصدق ولا يكذب لقوله: (فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم).

ثم ذكر رحمه الله أن الأثر السابق المروي عن ابن عباس يتراوح بين القسم الثاني والثالث، حيث قال: «وهذا الأثر هو من القسم الثاني أو الثالث وفيه نظر، فأما من حدث به من صحابي أو تابعي فإنه يراه من القسم الثالث[2] .

القول الثاني :

إن الآية تتحدث عن مشركي بني آدم من عبدة الأوثان والأصنام على اختلاف بينهم، هل المراد بهم اليهود والنصارى أم المشركين وهو الأظهر والأولى .

ومستند أصحاب هذا القول، ما رواه ابن جرير الطبري حيث قال: «حدثنا ابن وكيع قال حدثنا سهيل بن يوسف عن عمرو عن الحسن (جعلا له شركاء فيما آتاهما) قال : كان هذا في الملل ولم يكن بآدم»[3] .

وابن جرير الطبري رحمه الله يرى أن الشرك كان في الإسم لا في العبادة، ولهذا قال : وأولى القولين بالصواب قول من قال : عني بقوله (فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء) في الاسم لا في العبادة وأن المعنى بذلك آدم وحواء لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك[4] .

وقد بني قوله هذا على أن جملة (فتعالى الله عما يشركون) وما بعدها مستأنفة وأن الكلام عن آدم وحواء قد انقضى عند قوله (جعلا له شركاء فيما آتاهما) وروى في ذلك أثراً عن السدي أن قوله (فتعالى الله عما يشركون) يقول هذه فصل من آية آدم خاصة في آلهة العرب.

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح : انظر سنن الترمذي ج ٤ ص ١٤٧ وانظر مختصر سنن أبي داود ج ٥ ص ٢٥٤.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٧٥.

(٣) تفسير الطبري ج ١٣ ص ٣١٤.

(٤) تفسير الطبري ج ١٣ ص ٣١٥.

ورأى ابن جرير هذا وجيه لولا أن سياق الآيات وترابطها لا يساعد على هذا فإن الكلمات: شركاء، يشركون، أيشركون، كل هذه الكلمات في موضوع واحد تتحدث عن الشرك والمشركين.

والذي يترجح في نظري من هذا هو القول الثاني للأمور التالية :

(١) أن سياق الآيات يدل على أن الحديث عن قوم مشركين وهم عباد الأصنام كما في قوله تعالى في آخر الآيات (ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها .. الآية) وهذا لا يتناسب مع أول الآية على القول بأن المراد بها آدم وحواء فيما رزقا من الولد.

(٢) إن آدم عليه السلام لم يكن مشركاً بالله تعالى لأن الشرك يتنافى مع عصمة الأنبياء، وكون المعصية صدرت منه بالأكل من الشجرة المنهى عن أكلها فإنها معصية لا تبلغ درجة الشرك قال الله تعالى (ولم نجد له عزماً) وقد أهبطه الله من الجنة إلى الأرض بسبب المعصية وصرح القرآن بقبول التوبة منه والعفو عنه : فأما الشرك فلم يؤثر عن نبي من أنبياء الله أنه أشرك أو تعمد الوقوع في الشرك، فكيف يتناسب هذا مع قوله (جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون).

(٣) إن الإمام فخر الدين الرازي وصف القول الأول بأنه فاسد لوجوه، منها :

١ ــ أنه تعالى قال (فتعالى الله عما يشركون) وذلك يدل على أن الذين أتوا بهذا الشرك جماعة .
٢ ــ أنه تعالى قال بعده (أيشركون مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون) وهذا يدل على أن المقصود من هذه الآية الرد على من جعل الأصنام شركاء لله تعالى، ولم يجر لإبليس اللعين في هذه الآية ذكر .
٣ ــ لو كان المراد إبليس لقال: أيشركون من لا يخلق شيئاً، ولم يقل مالا يخلق شيئاً، لأن العاقل إنما يذكر بصيغة (من) لابصيغة (ما).

وذكر وجوهاً أخرى لا داعي لذكرها، وهذه الوجوه في الحقيقة لا يسلم واحد منها من اعتراض ولكنها قرائن مساعدة على ترجيح الرأي الثاني.

ثم أورد الفخر الرازي ما ذكره القفال فقال: «إنه تعالى ذكر هذه القصة على تمثيل ضرب المثل، ويبين أن هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين في جهلهم وقولهم بالشرك، وتقرير هذا الكلام أنه تعالى يقول: هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة وجعل من جنسها زوجها إنساناً يساويه في الإنسانية فلما تغشى الزوج زوجته وظهر الحمل دعا الزوج والزوجة ربهما لئن آتيتنا ولداً صالحاً سوياً فنكونن من الشاكرين لآلائك ونعمائك فلما آتاهما الله ولداً صالحاً سوياً جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاهما لأنهم تارة ينسبون ذلك الولد إلى الطبائع كما هو قول الطبائعيين، وتارة إلى الكواكب كما هو قول المنجمين، وتارة إلى الأصنام والأوثان كما هو قول عبدة الأصنام، ثم قال تعالى (فتعالى الله عما يشركون) أي تنزه الله عن ذلك الشرك وهذا جواب في غاية الصحة والسداد»[1] .

(٤) أن الأسانيد الصحيحة عن الحسن البصري رضي الله تعالى عنه أنه فسر الآية بأنها في ذرية بني آدم ولم تكن في آدم وحواء، وذكر الحافظ ابن كثير رحمه الله أن تفسير الحسن للآية بذلك من أحسن التفاسير وأولى مما حملت عليه الآية ولهذا قال في تفسيره مانصه « وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ولهذا قال الله تعالى (فتعالى الله عما يشركون ثم قال : فذكر آدم وحواء أولا كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس كقوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح... الآية)، ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زينت بها السماء ليست هي التي يرمى بها وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها ولهذا نظائر في القرآن والله أعلم»[2] .

(٥) أن الإمام أبو محمد ابن حزم في كتاب (الفصل في الملل والأهواء والنحل) حمل على من قال بأن آدم سمى ابنه عبد الحارث فقال «وهذا الذي نسبوه إلى آدم

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٥ ص ٨٦ /٨٧.
(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٧٥، ٢٧٦.

عليه السلام من أنه سمى ابنه عبد الحارث خرافة موضوعة مكذوبة من تأليف من لا دين له ولا حياء ولم يصح سندها قط، وإنما نزلت الآية في المشركين على ظاهرها»[1] .

إذا تقرر هذا، وأن الآية تتحدث عن المشركين من عباد الأوثان والأصنام، فاعلم أن القرآن جاء بالاستفهام على سبيل التعجب والإنكار من موقف هؤلاء المشركين .

فإن العبادة لمن يقدر على الخلق والتدبير ومن يملك الضر والنفع وبيده تصريف الأمور وهذه الأصنام لم تتصف بشيء مما يكون خصائص الألوهية، فهي لا تخلق شيئاً هي مخلوقة، وهي لا تملك النصر لعابديها ولا لأنفسها، فثبت بالدليل القاطع والبرهان العقلي والنقلي فساد عبادة هؤلاء المشركين لأصنامهم وتفاهة معبوداتهم، وهذا هو معنى الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى: (أيشركون ما لايخلق شيئاً وهم يخلقون ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون).

ثم أقام القرآن دليلاً آخر على نفي العلم والتميز عن هذه المعبودات إذ نفى في الآية السابقة القدرة عنها ونفى هنا أن يكون لها علم بشيء من الأشياء حيث قال تعالى (وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون).

ثم أعقب هذا بكون هذه المعبودات مخلوقة مربوبة لله، وأنها لا تملك لعابديها نفعاً ولا ضراً ولا تستجيب لهم عند الشدائد والكربات ومن المعلوم أن من أخص أنواع العبادة الالتجاء والاعتصام بالمعبود عند نزول الشدائد، فإذا كانت هذه الأصنام لا تستجيب لهم فأي فائدة في عبادتها؟

ثم أقام القرآن دليلاً آخر على فساد هذه الأصنام وأن الإنسان العاقل ينبغي له أن يربأ بنفسه عن هذه السخافات الوثنية، إذ أن تلك الأصنام المعبودة لا تتصف بصفات العابد لها من القدرة والسمع والبصر ومظاهر القوة فقال تعالى (ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها).

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل : ج ٤ ص ٥.

وذكر الأعضاء الأربعة، وهي الأرجل والأيدي والأعين والآذان، ولا يعني أن من حملها من المخلوقين يصلح للعبادة وإن كان فيها مظهر من مظاهر الكمال الإنساني وإنما المراد إثبات أن الإنسان أفضل بكثير من هذه الأصنام، بل لا نسبة لفضيلة الإنسان إلى هذه الأصنام البتة، وإذا كان ذلك كذلك فيكف يليق بالأفضل الأكمل أن يحني رأسه للأخس الأدون؟!.

ولما أفحم القرآن هؤلاء المشركين بدوافع الحجج والبراهين على فساد معبوداتهم، خوفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن آلهتهم ستنتقم منه كما قال الحسن : أنهم كانوا يخوفون الرسول عليه السلام بآلهتهم[1] .

وقد تحداهم رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم هم وآلهتهم بأمر الله تعالى له بذلك فقال تعالى (قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون).

واستدل الرسول صلىٰ الله عليه وسلم بالفارق بينه وبين المشركين في أصل العبادة فإن الرسول صلىٰ الله عليه وسلم يعبد الله الحق القادر، الذي إذا التجأ إليه نصره وكفاه شر أعدائه، ولا أدل على ذلك من قيامه بدعوته المخالفة لما عليه ذلك المجتمع الجاهلي ونشرها وإعلانها على مسامعهم وتسفيه أحلامهم، ومعبوداتهم وقد تآمروا عليه بالقتل وعلى دعوته بالإبطال ومع ذلك كفاه الله شرهم ونصره وأظهره عليهم وهو فرد واحد في مجتمع يعج بالعصبيات والنعرات المختلفة، فهذا حال الرسول صلىٰ الله عليه وسلم وهذا حال معبوده وهو الله الإلٰه القادر الخالق لكل شيء.

أما حال المشركين وحال معبوداتهم، فإن مطالبهم باءت بالإخفاق وآلهتهم التي يعبدونها من دون الله لا تقدم لهم عوناً، ولا تدفع عنهم ولا عن نفسها أذى أو مكروهاً، فلماذا بعد الحق إلا الضلال (إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون).

---

(١) انظر تفسير الرازي ج ١٥ ص : ٩٣

المشهد السادس :

قال الله تعالى (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ)(١) .

وقال تعالى (وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ)(٢) .

موضوع المجادلة محاولة المشركين الطعن في القرآن بدعوى التناقض :

وردت آثار تدل بمجموعها على أن المشركين جادلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، والآيات السابقة تعطينا صوراً من هذا الجدال .

فقد قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على المشركين قول الله تعالى (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ) ومعنى هذا أن المشركين وجميع معبوداتهم من الأصنام سيدخلون النار و يكونون من وقودها .

وانتهز المشركون هذا التعميم في الآية الكريمة ليتخذوا منه مطعناً في القرآن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وليرموه بالتناقض والاختلاف .

وقد تولى معظم هذا الجدال عبد الله بن الزبعرى السهمي، إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن الآية السابقة (أهذا خاص بنا ولآلهتنا أم بجميع الأمم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل بجميع الأمم) فقال ابن الزبعرى خصمتك ورب الكعبة ألست تزعم أن عيسى بن مريم نبي، وتثني عليه خيراً، وعلى

---

(١) سورة الأنبياء : آية ٩٨ ـ ١٠٢.

(٢) سورة الزخرف : الآيات من ٥٧ ـ ٥٩

أمه، وقد علمت أن النصارى يعبدونها واليهود يعبدون عزيرا، والملائكة يُعبدون، فإذا كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم»[1] .

وقد رد الله تعالى على هذا الاعتراض بقوله (إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ)[2] .

ومن هذا الجدال ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا معشر قريش إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير) فقالوا له ألست تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً صالحاً، فقد كان يعبد من دون الله ؟ فأنزل الله عز وجل (ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون)[3]

وقال القرطبي : «لما قال الله تعالى (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) تعلق المشركون بأمر عيسى ابن مريم وقالوا : «ما يريد محمد إلا أن نتخذه إلهاً كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم إلهاً قاله قتادة، ونحوه عن مجاهد قال : إن قريشاً قالت إن محمداً يريد أن نعبده كما عبد قوم عيسى عيسى فأنزل الله هذه الآية، يعني قوله تعالى (ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون).

وقال ابن عباس أراد به مناظرة عبد الله بن الزبعرى مع النبي صلى الله عليه وسلم في شأن عيسي وأن الضارب لهذا المثل هو عبد الله بن الزبعرى السهمي حالة كفره لما قالت له قريش إن محمداً يتلو (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ... الآية فقال لو حضرته لرددته عليه قالوا وما كنت تقوله ؟ قال كنت أقول له هذا المسيح تعبده النصارى واليهود تعبد عزيزاً أفهما من حصب جهنم ؟ فعجب

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٢٧ ص ٢٢١.
(٢) سورة الأنبياء : آية ١٠١ ـ ١٠٢.
(٣) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٣٢، والقرطبي ج ١٦ ص ١٠٣.

قريش من مقالته ورأوا أنه قد خصم محمداً وذلك معنى قوله (يصدون) فأنزل الله تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون)[1] .

وقد روى قصة عبد الله بن الزبعرى بشكل أشمل محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله في كتاب السيرة، كما نقله عنه ابن كثير، فقال «وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغني يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم وفي المسجد غير واحد من رجال قريش فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه وتلا عليه (أنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون، إلى قوله (وهم فيها لا يسمعون) ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل عبد الله بن الزبعرى السهمي، حتى جلس معهم فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله ابن الزبعرى والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفاً ولا قعد وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله بن الزبعرى أما والله لو وجدته لخصمته فسلوا محمداً كل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده، فنحن نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيرا، والنصارى تعبد المسيح عيسى بن مريم، فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى ورأوا أنه قد احتج وخاصم فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده إنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته) وأنزل الله تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون) أي عيسى وعزير ومن عبدوا من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون) إلى قوله (ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين).

ونزل فيما ذكر من أمر عيسى وأنه يعبد من دون الله قوله تعالى (ولما ضرب ابن

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ١٠٢ ــ ١٠٣.

مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل .. الآيات)[1] .

وبعد ذكر هذه الآثار التي تدل في جملتها على مجادلة المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم نأتي إلى مناقشة شبه المشركين وردود بعض المفسرين عليها :

(١)اعترض المشركون على قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) وعلى قوله صلى الله عليه وسلم (يا معشر قريش إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير).

وشبهتهم أن الآية والحديث جاءتا بصيغة العموم مما يجعل سائر المعبودين من الأصنام والأنبياء والملائكة والصالحين داخلين في هذا العموم، ومن المعروف أن من المشركين من يعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيراً ومن النصارى من يعبد عيسى بن مريم، فيكف يكون هؤلاء من حصب جهنم كما في الآية؟! وكيف لا يكون فيهم خير وقد أثنى الله ورسوله عليهم؟

ولهم شبهة أخرى : وهي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يذم آلهتهم ويمدح عيسى بن مريم فظنوا أنه إنما يريد أن يعبدوه من دون الله كما فعلت النصارى بعيسى عليه السلام وقد ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى من رواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله (ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون) قال يعني قريشاً لما قيل لهم (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ... الآيات) فقالت له قريش فما ابن مريم؟ قال (ذاك عبد الله ورسوله) فقالوا : والله ما يريد هذا إلا أن نتخذه رباً كما اتخذت النصارى عيسى بن مريم رباً فقال الله عز وجل (ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون)[2] .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٩٨ — ١٩٩، وج ٤ ص ١٣١ وتفسير الطبري ج ١٧ ص ٩٦ — ٩٧.

(٢) تفسير الطبري ج ٢٥ ص ٨٦ طبعة مصطفى البابي الحلبي عام ١٩٥٤م.

هذا هو مجمل اعتراضهم وملخص شبهاتهم، واعلم أن بعض المفسرين أجابوا على شبهة المشركين حول الآية المتقدمة والحديث وما في معناهما، فعول بن جرير الطبري في تفسيره في الجواب على أن «ما» لما لا يعقل عند العرب[1] ، وتبعه في هذا الفخر الرازي حيث قال إن «ما» لا تتناول العقلاء البتة[2] .

وجواب الحافظ ابن كثير رحمه الله قريب من هذا حيث يقول عند قوله تعالى (ما ضربوه لك إلا جدلاً)قال : «أي مراء وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية، لأنها لما لا يعقل وهي قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) ثم هي خطاب لقريش وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه، فتعين أن مقالتهم إنما كانت جدلاً منهم ليسوا يعتقدون صحتها»[3] .

والذي يظهر لي من هذا والله أعلم أن (ما) استعملت في الآية بلفظ العموم وأنه يدخل في عمومها كل ما عبد من دون الله فشمل كل طاغوت دعا الناس إلى عبادة نفسه أو رضي بذلك، وتدخل معبودات المشركين من الأصنام في هذا دخولاً أولياً .

أما عيسى والعزير والملائكة وكل من عبد من دون الله دون رضى منه بذلك فإن نصوص الشرائع العامة وأدلة العقل تخرجهم من هذا العموم (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ)[4] ، (مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ)[5] .

ولما أراد المشركون إثارة الشبهة اغتنموا ما في هذه الآية من عموم واعتبروه مناقضة لما نطق به رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرآن، ولما كان ما في الآية من عموم قد يوقع الدهماء من الناس في لبس إنسياقاً وراء شبه المشركين أنزل الله تعالى نصاً صريحاً لإخراج الذين عبدوا من دون الله كالمسيح وعزير والملائكة من عموم الآية

---

(١) انظر تفسير بن جرير الطبري ج ١٧ ص ٩٧ ــ ٩٨.

(٢) الفخر الرازي ج ٢٧ ص ٢٢٢.

(٣) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٣٢.

(٤) سورة فاطر : آية ١٨، وسورة الأنعام : آية ١٦٤.

(٥) سورة التوبة : آية ٩١.

لكونهم من عباد الله الصالحين فقال تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) .

فعلى هذا يكون قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) عاماً وهو مخصوص بقوله تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) والقاعدة الأصولية أن الخاص مقدم على العام، وقد رجحت أن تكون الآية عامة لما يلي :

١ ــ أن قول ابن جرير الطبري رحمه الله وغيره من المفسرين أن «ما» لما لا يعقل عند العرب وأنها لا تتناول العقلاء البتة قول فيه نظر، فإن «ما» قد استعملت لما يعقل خاصة في قوله تعال (فَٱنكِحُواْ مَاطَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ)[1] وقول امرأة عمران (رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَافِي بَطْنِي مُحَرَّرًا)[2] ، واستعملت مشتركة لما يعقل ولما لايعقل في قوله تعالى (سَبَّحَ لِلَّهِ مَافِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَافِي ٱلْأَرْضِ)[3] .

٢ ــ أن جواب الرسول صلىٰ الله عليه وسلم على ابن الزبعرى الآنف الذكر يدل على أن الرسول صلىٰ الله عليه وسلم فهم من الآية العموم ولهذا قال (كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده).

وهذا تعميم من الرسول صلىٰ الله عليه وسلم وقد جاء بصيغة (من) وهي للعقلاء، وقال (أحب) والحب والبغض لا يكونان إلا من عاقل له إرادة .

ومن المعلوم أن الرسول صلىٰ الله عليه وسلم حينما قال هذا الكلام كان يعرف أن عيسى ابن مريم وعزيراً والملائكة، لا يحبون أن يعبدهم أحد ولا يرضون بذلك فقوله صلىٰ الله عليه وسلم (كل من أحب) تعميم من جهة وتخصيص من جهة أخرى، فهو عام في كل من عبد من دون الله من الجمادات أو العقلاء الراضين بذلك، وهو خاص في إخراج كل من عبد من دون الله دون إذن منه ورضىً بذلك .

---

(١) سورة النساء : آية ٣.
(٢) سورة آل عمران : آية ٣٥.
(٣) سورة الصف : آية ١.

٣ ــ أن قوله تعالى في الملائكة (بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) إلى قوله (وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)[١] يدل على تعذيب من ادعى لنفسه الألوهية أو دعا الناس إلى عبادة نفسه

وإن كان هذا لم يحدث من أحد من الملائكة أو الأنبياء فإن هذا شرط والشرط لا يلزم وقوعه كقوله تعالى : (قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ)[٢] .

أما ما ذكره ابن كثير رحمه الله من أن الخطاب في الآية لقريش وأنه يراد من الآية الأصنام والأنداد التي كانوا يعبدونها، فإننا نقول : فرق بين ما يراد من الآية أو كان سبباً لنزولها، وبين ما يدل عليه لفظ الآية من العموم، وقد تقدم أن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب .

أما شبهتهم في أن محمداً صلى الله عليه وسلم يريد منهم أن يعبدوه مثل ما عبدت النصارى عيسى بن مريم، فهي شبهة ظاهرة البطلان لأنه صلىٰ الله عليه وسلم لم يطلب ذلك لنفسه من أحد من الخلق بل استعاذ بالله أن يجعل قبره وثناً يعبد كما روى، إذ قال : (اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد) رواه مالك مرسلاً عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم، ورواه البزار عن زيد عن عطاء عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً، وله شاهد عند الإمام أحمد بسنده عن سهل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رفعه (اللهم لا تجعل قبري وثناً، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)[٣] .

وسد صلىٰ الله عليه وسلم الذرائع المفضية إلى الشرك فقال (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) رواه[٤] البخاري ومسلم.

---

(١) سورة الأنبياء : آية ٢٩.
(٢) سورة الزخرف : آية ٨١.
(٣) انظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٢٤٦.
(٤) انظر صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب «واذكر في الكتاب مريم» الخ.

والمراد من الإطراء المنهي عنه الذي يكون وسيلة للشرك ولهذا قال (كما أطرت النصارى ابن مريم) والرسول صلىٰ الله عليه وسلم غني عن الإطراء فقد جمع الله له بين العبودية الخاصة والرسالة العامة وهي أشرف المراتب (تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا)[1] .

وليس معنى هذا أن نهضم رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم حقه فيما يجب له من المحبة والتعظيم والطاعة والذكر الجميل بما هو له أهل، فإن شهادة أن محمداً رسول الله لايتحقق كمالها إلا بطاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر واجتناب ما عنه نهى وزجر وأن لايعبد الله إلا بما شرع .

ولا يؤمن أحد يكون رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم (أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين) كما ثبت في الصحيحين[2] فتعظيم أمره صلىٰ الله عليه وسلم واحترام ذاته الشريفة، أمر معلوم من الدين بالضرورة، إلا أن هذه المحبة وهذا التعظيم ينبغي أن يكونا في حدود ما أقره الشرع فلا تبلغ بنا درجة الغلو فنكون قد أفرطنا كما أفرطت اليهود والنصارى في عزير والمسيح ابن مريم عليهما السلام، وبالتالي لا نتهاون في حقه فنعتبره فرداً عادياً، وقد شرفه الله بالرسالة العامة إلى الثقلين، وجعله خاتم النبيين والمرسلين وصاحب المقام المحمود والحوض المورود، وهو سيد الناس أجمعين.

والصحابة رضوان الله تعالى عليهم، كانوا على جانب عظيم من المحبة والاحترام والتعظيم له ولأمره ونهيه، لكنه صلىٰ الله عليه وسلم كان يحمي جانب التوحيد فتجده ينكر على الرجل الذي قال له ما شاء الله وشئت قال : (ما شاء الله وحده أجعلتني لله نداً) ولما قال أحد الصحابة قوموا بنا نستغيث برسول الله صلىٰ الله عليه وسلم من هذا المنافق فقال صلى الله عليه وسلم (إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله) رواه الطبراني بسنده، كل هذا منه صلىٰ الله عليه وسلم كان حماية للتوحيد وسداً للذرائع المفضية إلى الشرك، أفبعد هذا يقول عاقل إن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يريد من قريش أن تتخذه رباً كما اتخذت النصارى عيسى بن مريم ؟.

---

(١) سورة الفرقان : آية ١.

(٢) انظر صحيح البخاري كتاب الايمان ج ١ ص ١٢.

ولما كانت النصارى تعتقد في عيسى الألوهية، لأنه وجد من أم بلا أب وكان من أمره أنه يبرىء الأكمه، والأبرص، ويحيي الموتى كل ذلك بإذن الله تعالى، لما كانت هذه الأمور مثار شبهة عند المجادلين، وبينّ الله تعالى القول الحق في عيسى فقال تعالى: (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل) فهو عبد لا يعبد ورسول لا يكذب، وسيأتي الحديث عن عيسى عليه السلام وعبادة النصارى له والقول الحق ومناقشة الشبهات حول هذا إن شاء الله تعالى .

هذا مشهد من مشاهد الجدل القرآني مع المشركين في تقرير التوحيد والرد على مطاعنهم التي يحاولون التشكيك بها فيما جاء به رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم .

وقد رأينا أن الذي تولى كبر هذه المجادلة هو عبد الله بن الزبعرى عندما كان على كفره، وقد كان شاعراً مشهوراً، وكان يهاجي المسلمين، ثم هداه الله للإسلام فأسلم وحسن إسلامه، وقال معتذراً عن هجائه عندما قام إلى الرسول صلىٰ الله عليه وسلم مسلماً .

يا رسول المليك إن لساني ... راتق ما فتقت إذ أنا بور
إذ أجاري الشيطان في سنن الغي ... ومن مال ميله مثبور

وقال :

منع الرقاد بَلابلٌ وهمومُ ... والليل معتلج الرواق بهيمُ
مما أتاني أنّ أحمدَ لامني ... فيه فبتُّ كأنّني محموم
يا خير من حملت على أوصالها ... عيرانة سرح اليدين غشومُ
إنّي لمعتذر إليك من الذي ... أسديت إذ أنا في الضلال أهيم
أيام تأتيني بأغوى خطة ... سهم وتأمرني بها مخزوم
وأمد أسباب الردى ويقودني ... أمر الغواة فأمرهم مشئوم
فاليوم آمن بالنبي محمد ... قلبي ومخطىء هذه محروم

مضت العداوة وانقضت أسبابها ودعت أواصر بيننا وحلوم

فاغفر فدى لك والديّ كلاهما زللي فإنك راحم مرحوم[1]

المشهد السابع :

قال الله تعالى (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)[2].

وقال تعالى (فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾)[3] .

موضوع المجادلة يتركز في ثلاث نقاط :

(١) جعل المشركين الله شركاء .
(٢) افتراؤهم على الله تعالى بأن له ولداً.
(٣) قولهم في الملائكة إنهم بنات الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

قال الله تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم).

وقال تعالى (وجعلوا بينه و بين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون).

---

(١) السيرة النبوية للحافظ ابن كثير ج ٣ ص ٥٨٥ ــ ٥٨٦.

(٢) سورة الانعام : آية ١٠٠ ــ ١٠٢.

(٣) الصافات : آية ١٤٩ ــ ١٥٩.

هاتان الآيتان بينهما وحدة موضوعية فهما تتحدثان عن عقائد المشركين في الجن، ولكن ينبغي أن نعرف من المراد بالجن هنا؟ وكيف جعلوهم شركاء لله؟ وما هو النسب الذي جعلوه بين الله تعالى وبين الجنة؟

أ ــ قوله تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن) فيه أقوال ثلاثة للمفسرين :

الأول :

أن المراد بالجن الملائكة كما قال قتادة والسدي[١] لأن مشركي العرب كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله، وسموا بالجنة لاجتنانهم أي استتارهم عن الأبصار، وهذا القول إنما يدل على قول المشركين أن الملائكة بنات الله، ولا يدل على جعل الملائكة شركاء لله إلا إذا قيل أن الملائكة مع كونها بنات الله فهي مدبرة لأحوال العالم، وحينئذ يحصل الشرك وقد ذكر قريباً من هذا القول الفخر الرازي وحكم ببطلانه[٢] .

ومما يدل على بطلان هذا القول ما حكاه الله عن الملائكة من قولهم يوم القيامة (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ)[٣] ، فإن هذه الآية صريحة في كون الجن هنا غير الملائكة .

الثاني :

أن المراد بالجن جنس الجان على الحقيقة ومعنى جعلهم شركاء لله أنهم أمروا المشركين بعبادة الأصنام ودعوهم إليها فأطاعوهم، وهذا قول الحسن البصري وطائفة من المفسرين وجنح إليه ابن كثير رحمه الله في تفسيره حيث قال: «فإن قيل فكيف عبدت الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام فالجواب : إنهم ما عبدوها إلا عن

---

(١) تفسير القرطبي ج ٧ ص٥٣.
(٢) الفخر الرازي ج ١٣ ص ١١٥.
(٣) صورة سبأ : آية ٤٠ ــ ٤١.

طاعة الجن وأمرهم إياهم بذلك كقوله تعالى (إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا)[1] .

وكقوله تعالى (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾)[2] وتقول الملائكة يوم القيامة (سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ)[3] ، ولهذا قال تعالى:(وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم)[4] .

وقد استبعد هذا القول الفخر الرازي أيضاً وقال: «لأن الداعي إلى القول بالشرك لايجوز تسميته بكونه شريكاً، له لابحسب حقيقة اللفظ ولا بحسب مجازه»[5] ، إلا أن هذا القول الثاني في نظري ليس ببعيد، لأن الشرك قد يقع بمجرد الطاعة في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحله الله كقوله تعالى: (ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ)[6] فقد تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية على عدي بن حاتم الطائي فقال «يارسول الله لسنا نعبدهم قال: أليس يحلون لكم ما حرم الله فتحلونه ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟ قال بلى، قال النبي صلى الله عليه وسلم «فتلك عبادتهم» رواه الإمام أحمد والترمذي وحسنه، وابن جرير مطولاً، فإذا كانت الطاعة في التحليل والتحريم بخلاف ما شرعه الله عبادة، فالطاعة في فعل الشرك أولى أن تكون عبادة، وعبادة غير الله شرك.

الثالث :

أن الآية الكريمة نزلت في الزنادقة، فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال قوله تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن) نزلت في الزنادقة الذين قالوا إن الله

---

(١) سورة النساء : ١١٧ ــ ١١٨.
(٢) سورة يس : آية ٦٠ ــ ٦١.
(٣) سورة سبأ : آية ٤١.
(٤) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٦٠.
(٥) الفخر الرازي ج ١٣ ص ١١٥.
(٦) سورة التوبة : آية ٣١.

وإبيليس أخوان، فالله تعالى خالق الناس والدواب والأنعام والخيرات، وإبليس خالق السباع والحيات والعقارب والشرور[1] .

وقد ذكر الفخر الرازي في تفسيره «أن هذا القول الذي ذكره ابن عباس أحسن الوجوه في الآية، وذلك لأنه يحصل به لهذه الآية مزيد فائدة مغايرة لما سبق ذكره في الآيات المتقدمة، قال ابن عباس والذي يقوي هذا الوجه قوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) وإنما وصف بكونه من الجن لأن لفظ الجن مشتق من الاجتنان وهو الاستتار والملائكة والروحانيون لا يرون بالعيون فصارت كأنها مستترة عن العيون فهذا التأويل أطلق لفظ الجن عليها».

ثم أشار الفخر الرازي إلى الزنادقة هم المجوس، وإنما قال ابن عباس هذا قول الزنادقة، لأن المجوس يلقبون بالزنادقة، لأن الكتاب الذي زعم «زرادشت» أنه نزل عليه من عند الله فسمي (بالزند) والمنسوب إليه يسمى زندي ثم عرب فقيل زنديق ثم جمع فقيل زنادقة»[2] .

ثم قال الفخر الرازي «وأعلم أن المجوس قالوا : كل ما في العالم من الخيرات فهو من (يزدان)[3] ، وجميع ما فيه من الشرور فهو من «أهرمن»[4] وهو المسمى بإبليس في شرعنا، ثم اختلفوا فالأكثرون منهم على أن «أهرمن» محدث، ولهم في كيفيته أقوال عجيبة، والأقلون منهم قالوا إنه قديم أزلي وعلى القولين فقد اتفقوا على أنه شريك لله في تدبير هذا العالم فخيرات هذا العالم من الله تعالى وشروره من إبليس فهذا شرح ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما».

ثم قال الفخر الرازي : فإن قيل فعلى هذا التقدير، القوم أثبتوا لله شريكاً واحداً وهو إبليس فكيف حكى الله عنهم أنهم أثبتوا لله شركاء؟.

---

(١) الفخر الرازي ج ١٣ ص ١١٣.
(٢) الفخر الرازي ج ١٣ ص ١١٣.
(٣) يزدان : الإله القديم الأزلي عند المجوس وهو الخير أو النور.
(٤) اهر من : إله محدث وهو الظلمة أو الشر..

والجواب : إنهم يقولون : عسكر الله هم الملائكة وعسكر إبليس هم الشياطين، والملائكة فيهم كثرة عظيمة وهم أرواح طاهرة مقدسة وهم يلهمون تلك الأرواح البشرية بالخيرات والطاعات والشياطين أيضاً كثرة عظيمة وهي تلقي الوساوس الخبيثة إلى الأرواح البشرية والله مع عسكره من الملائكة يحاربون إبليس مع عسكره من الشياطين فلهذا السبب حكى الله تعالى عنهم أنهم أثبتوا لله شركاء من الجن فهذا تفصيل هذا القول»[١] .

وهذا القول الثالث وجيه، لأن الزنادقة (المجوس) يصرحون بإثبات شريك لإلٰهِ العالم في تدبير هذا العالم .

ب ـ قوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) اختلف المفسرون في المراد بالجنة هنا على أقوال ثلاثة :

الأول :

أن المراد بهم الملائكة، قال القرطبي في تفسيره أكثر أهل التفسير أن الجنة ههنا الملائكة[٢] .

قال مقاتل : أثبتوا نسباً بين الله تعالى وبين الملائكة حين زعموا أنهم بنات الله وسميت الملائكة جنا لاجتنانها عن الأبصار، أو لأنهم خزان الجنة، وقد استشكل الفخر الرازي هذا القول لأن الله تعالى أبطل قول المشركين في الآيات السابقة من أن الملائكة بنات الله ثم عطف عليه قوله «وجعلوابينه وبين الجنة نسباً» والعطف يقتضي كون المعطوف مغايراً للمعطوف عليه فوجب أن يكون المراد من هذه الآية غير ما تقدم[٣] .

---

(١) الفخر الرازي : ج ١٣ ص ١١٣.
(٢) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ١٣٤.
(٣) انظر الفخر الرازي ج ٢٦ ص ١٦٧.

الثاني :

أن المراد بالجنة سادات الجن والنسب المصاهرة فقد روي عن مجاهد أنه قال : قال المشركون الملائكة بنات الله تعالى فقال أبو بكر رضي الله عنه : فمن أمهاتهن ؟ قالوا بنات سروات الجن وكذا قال قتادة وابن زيد ولهذا قال تبارك وتعالى (ولقد علمت الجنة) أي الذين نسبوا إليهم ذلك (إنهم لمحضرون) أي أن الذين قالوا ذلك لمحضرون في العذاب يوم الحساب لكذبهم في ذلك وافترائهم وقولهم الباطل بلا علم[١] ، وذكر القرطبي في تفسيره عن قتادة والكلبي ومقاتل قولهم «قالت اليهود لعنهم الله إن الله صاهر الجن فكانت الملائكة من بنيهم»[٢] وقد استبعد هذا القول الفخر الرازي لأن المصاهرة لا تسمى نسباً»[٣] .

الثالث :

أن الآية نزلت في الزنادقة الذين قالوا إن الله تعالى وإبليس أخوان، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فقد ذكر ابن جرير الطبري في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) قال زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى هو وإبليس أخوان تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً»[٤] .

وذكر هذا القول القرطبي في تفسيره عن ابن عباس والضحاك والحسن»[٥] فعلى هذا يكون المراد من قوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) هو حكاية مذهب الزنادقة وهم المجوس القائلون بـ (يزدان) و (أهرمن) وقد ذكر الفخر الرازي أن هذا القول أقرب الأقاويل، ولكن تعقبه الآلوسي في تفسيره حيث قال «ويبعد هذا القول عندي، والظاهر أن ضمير (جعلوا) كالضمائر السابقة لقريش ولم يشتهر ذلك عنهم، بل ولا عن قبيلة من قبائل العرب، وليس المقام للرد على الكفرة مطلقاً[٦] .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٣.
(٢) انظر تفسير القرطبي ج ١٥ ص ١٣٤ ــ ١٣٥.
(٣) انظر الفخر الرازي ج ٢٦ ص ١٦٨.
(٤) تفسير الطبري : ج ٢٣ ص ١٠٨.
(٥) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ١٣٥.
(٦) روح المعاني ج ٢٣ ص ١٥١.

وإذا نظرت إلى هذا القول الثالث في هذه الآية : والقول الثالث في الآية السابقة وجدتهما قولاً واحداً فيكون بين الآيتين وحدة موضوعية على هذا القول .

والذي يظهر لي أن بين الآيتين وحدة موضوعية باعتبار آخر لأنهما تتحدثان عن جعل المشركين الجن شركاء لله في العبادة فإن قوله تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن) صريح في كون المراد بهم عالم الجن وأن المشركين أشركوهم مع الله في العبادة، والعبادة أنواع متعددة فمن صرف منها شيئاً لغير الله فقد أشركه مع الله، وجعل الجن شركاء لله قد يكون في الاستعاذة بهم والالتجاء إلى سادتهم عند المخاوف في الوديان والأماكن الموحشة .

وقد تحدث القرآن عن هذا النوع من الشرك فقال تعالى (وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا)[1] قال الحسن وابن زيد وغيرهما : كان العرب إذا نزل الرجل بواد قال «أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه فيبيت في جواره حتى يصبح فنزلت هذه الآية»[2] .

وأورد ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال «كان رجال من الإنس يبيت أحدهم بالوادي في الجاهلية فيقول أعوذ بعزيز هذا الوادي فزادهم ذلك إثماً».

والاستعاذة من العبادات التي أمر الله بها عباده فقال تعالى (وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ)[3] فمن توجه بشيء من هذه العبادات لغير الله فقد جعله شريكاً في عبادته ونازع الرب في ألوهيته.

وقوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) قال الحسن : أشركوا الشيطان في

---

(١) سورة الجن : آية ٦.
(٢) فتح القدير للشوكاني ج ٥ ص ٣٥٥.
(٣) سورة فصلت : آية ٣٦.

عبادة الله فهو النسب الذي جعلوه، قال القرطبي رحمه الله: «قول الحسن في هذا أحسن ودليله قوله تعالى (إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)[1] أي في العبادة.

فيكون المراد من الآية على رأي الحسن أن المشركين جعلوا بين الله تعالى وبين الجن مناسبة حيث أشركوهم به تعالى في استحقاق العبادة، والعبادة كما تقدم أنواع متعددة فإذا صرف شيء منها لغير الله كان شركاً وعلى هذا فإن موضوع الآيتين واحد وهو جعل المشركين لله شركاء في العبادة والعلم عند الله تعالى.

ففي الآية الأولى وهو قوله تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم) أي وقد خلقهم فإن المشركين جعلوا لله شركاء من مخلوقاته تعالى، فكيف يكون المخلوق شريكاً لخالقه؟

وقد تقرر أن كل ما سوى الله فهو مخلوق لأن الشيء لا يخلق نفسه، وتعدد الخالقين ممتنع كما تقدم في دليل التمانع، ووجود الشيء من غير خالق مستحيل فتعين أن يكون ما سوى الله تعالى مخلوقاً له، وعلى هذا فإن اشراك بعض المخلوقين مع الله فيما يجب له من العبادة والتعظيم شرك، فيكون في الآية دليل قاطع على فساد تلك المعتقدات سواء اعتقاد مشركي العرب في الجن أو اعتقاد المجوس بأن أبليس شريك لله في ملكه وخلقه وكذلك القول في الآية الثانية وهي قوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) فإن الله تعالى منزه عن صفات المحدثين، فلا مناسبة بينه وبين أحد من خلقه سواء أكانت المناسبة بمعنى المصاهرة أم بمعنى المشاكلة والمماثلة، وقد بينت الآية ضلال أولئك المشركين حتى أن الجن أنفسهم يعلمون أن مصير هؤلاء المشركين إلى النار ولهذا قال تعالى (ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون) هذا فيما يتعلق بالجدل في جعل المشركين الجن شركاء لله .

أما النقطة الثانية :

وهي افتراؤهم على الله تعالى بأن له ولداً كما حكى تعالى ذلك عنهم بقوله

---

(١) سورة الشعراء : آية ٩٨.

(وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون) وهذه المزاعم يشترك في القول بها اليهود والنصارى ومشركو العرب فاليهود تقول عزيز ابن الله، والنصارى تقول المسيح ابن الله، كما قال تعالى عنهم (وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ)[1] ومشركو العرب يقولون الملائكة بنات الله، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وبما أننا سنتحدث عن مفتريات اليهود والنصارى في نسبتهم الولد إلى الله تعالى في حديث مستقل، فإننا سنؤخر مناقشة أقوالهم إلى موضعها المناسب خشية التكرار، ونقتصر في الحديث هنا على ذكر مفتريات مشركي العرب في قولهم إن الملائكة بنات الله وإنهم إناث، وكيف جادلهم القرآن الكريم وأبطل مزاعمهم بالحجة والبراهان فيكون موضوع المجادلة الآتية هو: «قول مشركي العرب إن الملائكة بنات الله».

واعلم أن القائلين بهذا هم بعض قبائل العرب كجهينة وخزاعة وبني مليح وبني سلمة وعبد الدار، فقد زعموا أن الملائكة بنات الله كما ذكره القرطبي[2] .

ونقل الواحدي عن المفسرين أنهم قالوا إن قريشاً وأجناس العرب جهينة وبني سلمة وخزاعة وبني مليح قالوا الملائكة بنات الله[3] ، ولقد قال هؤلاء المشركون في الملائكة ثلاثة أقوال كل واحد منها في غاية الكفر والكذب .

أولاً : جعلوهم بنات الله فجعلوا لله ولداً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ثانياً : جعلوهم إناثاً فحطوا من مكانة الملائكة ونسبوا لله الولد الأقل ولأنفسهم الولد الأكمل.

ثالثاً : أنهم بعد كل هذه الافتراءات عبدوا الملائكة من دون الله.

---

(١) سورة التوبة : آية ٣٠.
(٢) تفسير القرطبي ج ١٥ ج ١٣٣.
(٣) الفخر الرازي ج ٢٦ ص ١٦٧.

وهذه المجادلة تشتمل على أمرين :

الأمر الأول : دعوى المشركين أن الملائكة بنات الله، واستجواب هؤلاء المشركين كما يلي:

أيكون لله البنات ولكم البنون؟

وهل يتفق هذا القول مع العقل والعدل والخلق؟

إن هذا القول باطل لأنكم معشر العرب تستنكفون من البنت، والشيء الذي يستنكف المخلوق منه كيف يمكن إثباته للخالق؟

وهذا ما عناه الله بقوله تعالى: (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)[1] فثبت بطلان كون الملائكة بنات الله.

وقد ضيق القرآن الكريم على هؤلاء المشركين منافذ الباطل فحصر الأوصاف التي يمكن أن تكون طريقاً للعلم وهي إما الحس وإما الخبر وإما النظر، فأبطل القرآن دعواهم لأنها لم تستند إلى طريق من الطرق المؤدية إلى العلم، أما طريق الحس فهي المراد من قوله تعالى (أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون) فالواقع الحقيقي أنهم لم يشهدوا كيفية تخليق الله للملائكة، والمشركون أنفسهم لم يدعوا ذلك فبطلت معرفتهم عن طريق الحس.

وأما طريق الخبر: فإن الخبر إنما يفيد العلم إذا علم كونه صدقاً وقطعاً كصدوره عن المعصوم الذي قال البرهان على صدقه، فأما الذين يخبرون عن هذا الافتراء فهم كذابون أفاكون. ولم يدل على صدقهم لا دلالة ولا أمارة وقد أشار الله إلى ذلك بقوله تعالى (ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون).

---

(١) سورة النحل : آية ٥٧ ــ ٥٩.

وأما طريق النظر فقد دل على بطلان قولهم من وجهين :

الأول :

أن دليل العقل يقتضي فساد هذا المذهب لأن الله تعالى أكمل الموجودات والأكمل لا يليق به اصطفاء الأخس، وهو المراد من قوله تعالى (أصطفى البنات على البنين مالكم كيف تحكمون) يعني أن إسناد الأفضل إلى الأفضل أقرب عند العقل من إسناد الأخس إلى الأفضل، فإن كان حكم العقل معتبراً في هذا الباب كان قولكم باطلاً.

الثاني :

أن نترك الاستدلال على فساد مذهبهم ونطالبهم بإثبات الدليل على صحة مذهبهم فإذا لم يجدوا ذلك الدليل ظهر ضده وهو خلو الدعوى من أي دليل يدل على صحة قولهم وهذا هو المراد من قوله تعالى (أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين) فثبت بما ذكرنا أن القول الذي ذهبوا إليه لم يدل على صحته لا الحس ولا الخبر ولا النظر، فكان المصير إليه باطلاً قطعاً كما ذكره الرازي في تفسيره[١] وبهذا تبطل دعوى المشركين في الملائكة من أنهم بنات الله، بل عباد مكرمون لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

وقد جادل القرآن الكريم هؤلاء المشركين في عدة مواضع، وألزمهم بالحجة البالغة وبين فساد هذه السخافات الوثنية كقوله تعالى (وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ)[٢] .

---

(١) انظر الفخر الرازي ج ٢٦ ص ١٦٩.

(٢) سورة الزخرف : آية ١٥ ــ ١٩.

وإنك لترى وحدة موضوعية بين هذه الآية والآيات السابقة، إذ كل آية منها عالجت مفتريات المشركين في ملائكة الرحمٰن بالأدلة العقلية، وناقشت هؤلاء المشركين بمنطق الحجة والبرهان فلا يستطيعون المعارضة وهم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان.

وإذا نظرت إلى هذه الآية، وجدتها تحمل الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لهؤلاء المشركين لشناعة زعمهم ومخالفته للحس والعقل والفطرة، فالآية تناقشهم فيما يلي :

(١) جعلهم لله من عباده جزءاً، أي عدلاً أو بعضاً لأن الولد يكون بضعة من والده وجزءاً له، فإذا كانوا جميعاً عبيداً لله فهل يصح أن يكون أحد منهم شريكاً لله أو بعضاً منه.

(٢) ناقشتهم الآية عن سر اختيارهم البنين لأنفسهم وجعلهم البنات لله تعالى، علماً أنه تقرر عند هؤلاء المشركين تفضيل البنين على البنات فلو كان مرجع القسمة إلى العقل لكان الله أولى بالبنين من البنات ولو كان مرجعها إلى العدل بصرف النظر عن استحالة ذلك أو إمكانه لكان العدل يقتضي على أسوأ تقدير التسوية في القسمة ولكنهم تجاوزوا في الطغيان والسذاجة حدود المألوف من الذوق والفطرة الإنسانية (ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى.

(٣) بينت الآية أن الأنثى محل نقص في الظاهر والباطن في الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلى وما في معناه ليجبر ما فيها من نقص كما قال الشاعر[١] :

وما الحَلْيُ إلا زِينةٌ لنقيصة ... يتمّمُ من حُسْن إذَا الحُسنُ قَصَّرا
وأمّا إذا كانَ الجَمَالُ مُوفراً ... كحُسنِك لم يحتَجْ إلى أن يُزَوّرا

وأما نقص معناها فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار عند الانتصار لا عبارة لها ولا

(١) الشاعر ابن الرومي.

همة، كما قال بعض العرب وقد بشر ببنت: ما هي بنعم الولد، نصرها بكاء، وبرها سرقة(١) .

فإذا كانت الأنثى محل نقص فما وجه نسبتها إلى الله تعالى غير سخافة الوثنية الحمقاء، ولهذا طالبتهم الآية بما يبرر هذا الافتراء إما بشيء من الحس أو الخبر أوالنظر كما تقدم في الآيات السابقة، لأن هذه الطرق الثلاث هي التي يحصل بها العلم، فلما عجزوا عن الإتيان بشيء من ذلك بطل قولهم وسقطت شبهتهم ، وظهر أمر الله ممثلاً في عقيدة التوحيد الخالصة النقية من أدران الشرك وأوضار الوثنية.

المشهد الثامن :

قال الله تعالى (فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ)(٢) .

هذا المشهد الثامن الذي نختتم به المشاهد المتعلقة بمشركي العرب من عبدة الأصنام والأوثان فيا زعموه لله من شركاء وما تعلقوا به من شبهات في عبادتهم للأوثان سواء منها ما يعتقدون فيه الضر والنفع لذاته، أو ما يرجون منه القربة والشفاعة عند الله تعالى، وتلك المشاهد التي تقدم ذكرها ليست على سبيل الحصر للجدل الذي دار بين القرآن وخصومه فيا يتعلق بتقرير عقيدة التوحيد فإن ذلك مما يضيق عنه هذا المجال، ولكنها نماذج تشرح أبعاد الجدل القرآني في مقارعة خصومه بالحجة والبرهان وإلزامهم بمنطق الحجة والبيان فلا يخرج القرآن من الجدال في قضية من القضايا إلا ظافراً منتصراً وقد ألزم خصومه الحجة وأبان لهم المحجة سواء التزموا بذلك أم لم يلتزموا لأنه لا يلزم من الالتزام، وإنما يلزم الانقطاع، فقد انقطعوا في مجادلاتهم وخسروا في معارضتهم للقرآن إذ كانوا يحاولون معارضته بالنقض والإبطال ولكن القرآن الكريم ألجم خصومتهم بالجدل المحكم والاستدلال الرائع المفحم.

---

(١) انظر تفسير بن كثير ج ٤ ص ١٢٥.

(٢) سورة الحج : آية ٣٠ ــ ٣١.

أما هذا المشهد الذي رسمته هذه الآية الكريمه للمشركين فقد صورت فيه مشهداً رهيباً لمن زلّت به قدمه وانحرفت عن الإيمان عقيدته وهي صورة صادقة لحال كل مشرك.

إن منهج القرآن في مجادلته لخصومه لا يقصد من ذلك مجرد الإلزام والغلبة ولكنه يريد هداية القلوب وتقرير الحق وإزهاق الباطل، وفي قوله تعالى (فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور) توجيه للإنسانية بالابتعاد عن ملابسة كل طاغوت يعبد من دون الله وفيها تصوير للأوثان بأنها رجس لوخامة ما ينتج عنها من الاعتقاد والفساد.

وقد قرن الله الأوثان بقول الزور لأن الشرك من باب الزور فإن المشرك يزعم أن الوثن تحق له العبادة وهذا أعظم أبواب الزور والافتراء.

وبعد الأمر بترك عبادة الأوثان والتوجيه لسلوك المنهج المستقيم والتزام عقيدة التوحيد الخالص، رسم القرآن صورة صادقة لتلك الاهتزازات النفسية والفكر المتشتت لدى كل مشرك فقال تعالى (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق).

قال سيد قطب رحمه الله «وهي صورة صادقة لحال من يشرك بالله فهوى من أفق الإيمان السامق إلى حيث الفناء والانطواء إذ يفقد القاعدة الثابتة التي يطمئن إليها قاعدة التوحيد ويفقد المستقر الآمن الذي يثوب إليه فتخطفه الأهواء تخطف الجوارح وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح وهو لا يمسك بالعروة الوثقى ولا يستقر على القاعدة الثابتة التي تربطه بهذا الوجود الذي يعيش فيه»[١] .

إن هذه الآية الكريمه قد صورت تلك الحيرة للمتذبذبين الذين ارتكسوا في أوحال

---

(١) في ظلال القرآن ــ ج ٧ ص ٩٢.

الماديات وابتعدوا عن منهج القرآن الكريم الذي فيه لكل قوم منهاج، ولكل داء علاج، ولكل مشكلة حل، واعلم أن أوضاع المشركين تنقسم إلى حالتين :

الأولى :

أن يكون المشرك متذبذباً متمادياً على الشك وعدم التصميم على ضلالة واحدة فيشبه في هذه الحالة بمن اختطفته الطير وتوزعته فلا يستولي طائر على مزعة منه إلا انتهبها منه آخر فذلك حال المتذبذب لا يلوح له خيال إلا اتبعه ونزل عما كان عليه.

الثانية :

أن يكون المشرك مصمماً على معتقد باطل لو نشر بالمناشير لما تراجع عنه، وهذا لا سبيل إلى تشكيكه ولا مطمع في نقله عما هو عليه، فهو فرح مبتهج بضلالته، فهذا شبيه في إقراره على كفره باستقرار من هوت به الريح إلى واد سافل فاستقر في، ونظير تشبيهه بالاستقرار فيه الوادي السحيق الذي هو أبعد الأخباء عن السماء وصف ضلاله بالبعد في قوله تعالى (أولئك في ضلال بعيد)، وقوله (قد ضلوا ضلالاً بعيداً) أي صمموا على ضلالهم فبعدُ رجوعهم إلى الحق»[١] .

والآية الكريمة وإن لم تتسم بطابع الجدل في مظهرها العام فهي لا تخلو منه في جوهرها، بل هي في الصميم منه ولكن الجدل الذي اشتملت عليه تركز في تبيان معالم حقائق الأوثان وما تنطوي عليه من فساد وما يتسبب لمن تعلق بها من حيرة واضطراب فكأن الآية في جدلها مع المشركين تنتهج الخطوات الآتية :

(١) المعروف أن المشركين كانوا يذبحون الذبائح ويهلون بها لغير الله من الأوثان والأصنام تقرباً وتوسلاً إليها، فجاءت الآية لتبين لهم هذا الاتجاه المنحرف عن سنن الرشاد، جاءت لتقول: هذه أوثان يجب أن تنفر منها النفوس وتبتعد عنها المدارك لأنها خبيثة في ذواتها، وهي أصل الغواية وأساس الضلال، ومن تلبس بها فقد وقع في

---

(١) انظر كتاب الإنصاف فيا تضمنه الكشاف من الاعتزال لابن المنير، طبع مع الكشاف للزمخشري ج ٣ ص ١٣.

الرجس الذي تنفر منه الطباع السليمة وقد يكون رجساً معنوياً يتعلق بتلويث الأفكار بالشرك والوثنية.

وإذا كان هذا وضع الأوثان فهل يصح لأي شخص عاقل أن يتلمس بها أو يطوف حواليها، فضلاً عن أن يعتقد فيها النفع والضر ولهذا كان قوله تعالى (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) مشعراً بأن العاقل لا يقارب تلك المعتقدات الضالة كما عبّر بقوله تعالى (فاجتنبوا) لأن الأمر بالمجانبة لها والابتعاد عنها أبلغ من الأمر بالانتهاء لأن الأمر بالانتهاء لا يكون إلا بعد الوقوع.

(٢) بينت الآية أن المشرك ليس له قاعدة صلبة تقوم عليها ركيزة الإيمان عنده، ومن كان كذلك تعرض لتلك الاهتزازات النفسية وطوحت به الأهواء وتلاعبت به شياطين الجن والإنس حتى يهلك، فالآية حينما رسمت تلك الصورة الرهيبة لكل مشرك أعلنت عن عدم الطمأنينة والاستقرار لمن كان هذا حاله بل هو في حيرة واضطراب نفسي لفقدانه القيم الإيمانية التي تملأ قلبه نوراً وسعادة، ولهذا كانت المفاضلة بين الحالتين حالة المؤمن وحالة المشرك، فالمشرك يعيش في تلك الحالة المضطربة المردية، والمؤمن يعيش في هذه الحياة وقد استقر قلبه وفكره على قاعدة صلبة من الإيمان يتحطم على جنباتها كل فكر دخيل يناقض الدين والعقيدة قال تعالى (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا)[١] .

المشهد التاسع :

قال تعالى (وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ)[٢] .

---

(١) سوره طه : آية ١٢٤.
(٢) سورة التوبة : آية ٣٠ ـ ٣١.

اشتملت هذه الآية على ثلاثة مواضيع :

١ ــ قول اليهود عزير ابن الله.
٢ ــ قول النصارى إن الله هو المسيح ابن مريم، وإن المسيح ابن الله، وإن الله ثالث ثلاثة.
٣ ــ اتخاذ اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله.

قول اليهود عزير ابن الله :

اختلفت الروايات عن أهل العلم في أصحاب هذه المقالة من اليهود، فقيل هو رجل من اليهود اسمه «فنحاص بن عازوراء» وهو على ما جاء في بعض الروايات القائل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾[(١)] . كما أخرجه بن المنذر عن ابن جريج[(٢)] .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أتى جماعة من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم سلام بن مشكم والنعمان بن أوفى بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا: كيف نتبعك يا محمد وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزير بن الله فأنزل الله في ذلك قوله (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله .. الآية)[(٣)] .

قال الفخر الرازي: «وعلى هذين القولين، فالقائلون بهذا المذهب بعض اليهود إلا أن الله نسب ذلك القول إلى اليهود بناء على عادة العرب في إيقاع اسم الجماعة على الواحد، يقال فلان يركب الخيول، ولعله لم يركب إلا واحداً منها، وفلان يجالس السلاطين ولعله لا يجالس إلا واحداً ثم قال: «والقول الثالث: لعل هذا المذهب كان فاشياً فيهم ثم انقطع فحكى الله ذلك عنهم ولا عبرة بإنكار اليهود ذلك فإن حكاية الله عنهم أصدق»[(٤)] .

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٨١.
(٢) روح المعاني للآلوسي ج ١٠ ص ٨١.
(٣) تفسير الطبري ج ١ ص ١١٠، وانظر الفخر الرازي ص ٣٣ والألوسي ج ١٠ ص ٨١.
(٤) انظر الفخر الرازي ج ١٦ ص ٣٣.

وقد وردت آثار كثيرة تدل على صدور هذه المقالة من اليهود ومنها ما يلي :

قال الإمام الكلبي: لما قتل بختنصر علماء اليهود جميعاً وكان عزير إذ ذاك صغيراً فاستصغره ولم يقتله فلما رجع بنو إسرائل إلى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة بعث الله تعالى عزيرا ليجدد لهم التوراة، ويكون آية بعدما أماته مائة عام، يقال إنه أتاه ملك بإناء فيه ماء فسقاه فمثلت في صدره فلما أتاهم فقال لهم: إني عزير، كذبوه وقالوا إن كنت كما تزعم فأمل علينا التوراة ففعل فقالوا: إن الله تعالى لم يقذف التوراة في قلب رجل إلا لأنه ابنه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً[1] وقال الإمام البيضاوي: «وإنما قالوا (عزير ابن الله) لأنه لم يبق فيهم بعد وقعة (بختنصر) من يحفظ التوراة وهو لما أحياه الله بعد مائة عام أملى عليهم التوراة حفظاً فتعجبوا من ذلك وقالوا ما هذا إلا لأنه ابن الله»[2] .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما « أن اليهود أضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق فأنساهم الله تعالى التوراة. ونسخها من صدورهم، فتضرع عزير إلى الله وابتهل إليه فعاد حفظ التوراة إلى قلبه فأنذر قومه به، فلما جربوه وجدوه صادقاً فيه، فقالوا ما تيسر هذا لعزير إلا أنه ابن الله».

وقال السدي: العمالقة قتلوهم فلم يبق منهم أحد يعرف التوراة)[3] .

ومما تقدم من الآثار، وما ورد بمعناها يتبين لنا أن منشأ شبهة اليهود في عزير هو اختصاصه بحفظ التوراة في وقت من الأوقات دون سائر اليهود، ولهذا زعموا أنها ما حصلت له هذه الكرامة إلا لأنه ابن الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

والسؤال الذي يفرض نفسه أمام هذه المزاعم الباطلة هو: هل يلزم في كل شخص حباه الله بنعمة من اصطفاء بالنبوة والرسالة أو استجابة للدعوة أو ظهور كرامة من

---

(١) تفسير أبي السعود ج ٢ ص ٢٦٥.

(٢) تفسير البيضاوي ص ٢٢٣.

(٣) تفسير الفخر الرازي ج ١٦ ص ٣٣ ــ ٣٤.

كرامات الأولياء على يديه، هل يلزم من هذا أن يكون ذلك الشخص ابناً لله؟! وإذا كان كذلك فهذا موسى بن عمران وشقيقه هارون بن عمران عليهما السلام قد جاءا بالتوراة من عند الله ولهما من الفضل والشرف ماليس لعزير فلماذا لم يقولا إنهما ابنان لله؟

إن الحقيقة التي لا شك فيها هي أن اليهود أضاعوا التوراة وتركوا العمل بما فيها فضلوا عن منهج الله القويم وهديه المبين وذهبوا يحرفون الكلم عن مواضعه، وأصدق دليل على هذا ما حكاه الله تعالى عنهم في كتابه العزيز كقوله تعالى (مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ)[1] .

وقوله تعالى: (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ)[2] .

وقوله تعالى: (أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)[3] .

فإذا كان هؤلاء اليهود ليسوا مصدر ثقة فيما استحفظوا عليه من كتاب الله فمن الطبيعي أن لا يوثق بأقوالهم التى تخالف العقل والنقل وتخالف الفطرة الإنسانية المستقيمة، فقد قالوا: (إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ)[4] وحكى الله عنهم كثيراً من المخازي كقوله تعالى: (وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ) فدعا عليهم بقوله (غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ)[5] .

أفيستبعد بعد هذا أن يفتروا على الله كذباً فينسبوا له الأبناء؟ بل أو لم يدعوا

---

(١) سورة النساء : آية ٤٦.

(٢) سورة المائدة : آية ١٣.

(٣) سورة البقرة : آية ٧٥.

(٤) سورة آل عمران : آية ١٨١.

(٥) سورة المائدة : آية ٦٤.

أنهم أبناء الله وأحباؤه، كما حكى الله عنهم ذلك بقوله : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾[1]

وقد ناقض القرآن الكريم زعمهم هذا بقوله: (قل فلم يعذبكم بذنوبكم) ومعنى هذا أن الحبيب لا يهين كرامة حبيبه بالتعذيب، فلأي شيء يعذبكم في الدنيا بالقتل والأسر والمسخ وقد اعترفتم بأنه سيعذبكم في الآخرة بالنار أياماً بعدد أيام عبادتكم العجل ولو كان الأمر كما زعمتم لما صدر عنكم ما صدر ولما وقع عليكم ما وقع.

ثم بين القرآن الكريم أنهم كسائر البشر وأنهم سيجزون بالإحسان إحساناً وبالإساءة عقاباً وأنهم خاضعون لمشيئة الله النافذة (بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير).

واليهود قد عرفوا بنقض العهود والمواثيق وقتل الأنبياء ولسنا بصدد تعداد مفتريات اليهود فهي كثيرة ولكننا نقول إنه لا يستغرب أن يصدر عنهم مثل هذا الافتراء في قولهم إن عزيراً ابن الله ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾[2] .

قول النصارى إن الله هو المسيح ابن مريم، وإن المسيح ابن الله، وإن الله ثالث ثلاثة:

إذا أردنا إن نجمع أطراف الحديث عن عيسى عليه السلام وما دار حوله من شبه ومفتريات فإن البحث سيطول بنا، وهذا وحده يمكن أن يكون موضوع رسالة مستقلة ولكنني سأوجز الحديث عن أهم النقاط المتصلة بموضوع هذا البحث فأقول: ذكر القرآن الكريم عن النصارى مزاعم ثلاثة:

قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم :

قال الله تعالى ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾[3] وشبهتهم في

---

(١) سورة المائدة : آية ١٨.

(٢) سورة الكهف : آية ٥.

(٣) سورة المائدة : آية ١٧.

ذلك ما كان يجريه الله تعالى على يديه من خوارق العادات إذ كان تيحيي الموتى و يبرىء الأسقام ويخبر بالغيوب ويخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيراً وذلك كله بأمر الله تعالى وليجعله آية للناس، ولكنهم حملوا هذه الأمور على أنها من قدرة عيسى عليه السلام الذاتية وهي خارجه عن طوق البشر فينبغي أن يكون المقتدر عليها موصوفاً بالإلهية وأصحاب هذا الزعم طائفة اليعقوبية «و ينسبون إلى يعقوب البرذعاني (أو البردعي) وكان راهباً بالقسطنطينية»[1] وكان داعية للمذهب الموتوفيزيقي ونشره في الشام بمساعدة المنذر بن الحارث بن جبلة الغساني قال الشهرستاني: اليعقوبية أصحاب يعقوب. قالوا بالأقانيم الثلاثة كما ذكرنا إلا أنهم قالوا انقلبت الكلمة لحماً ودماً فصار الإله هو المسيح، وهو الظاهر بجسده بل هو هو، وعنهم أخبرنا القرآن (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ)[2] ، فمنهم من قال ان المسيح هو الله ومنهم من قال: ظهر اللاهوت بالناسوت فصار ناسوت المسيح مظهر الجوهر لا على طريق حلول جزء فيه ولا على سبيل اتحاد الكلمة التي هي في حكم الصفة بل صار هو هو، وهذا كما يقال: ظهر الملك بصورة إنسان أو ظهر الشيطان بصورة حيوان، وكما أخبر التنزيل عن جبريل عليه السلام (فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا)[3] وزعم أكثر اليعقوبية أن المسيح جوهر واحد وأقنوم واحد إلا أنه من جوهرين وربما قالوا طبيعة واحدة من طبيعته فجوهر الإله القديم وجوهر الإنسان المحدث تركبا تركيباً كما تركبت النفس والبدن فصارا جوهراً واحداً وأقنوماً[4] واحداً وهو إنسان كله وإله كله ... [5] الخ».

وقد أورد القرطبي في تفسيره خبراً يتضمن اختلاف النصارى في عيسى عليه السلام وأنهم طوائف متعددة فقال: «ذكر عبد الرازق قال أخبرنا معمر عن قتادة في

---

(١) انظر كتاب الفصل لابن حزم ج ١ ص ٤٩.

(٢) المائدة : آية ٧٢.

(٣) سورة مريم : آية ١٨.

(٤) الأقنوم : الأصل، والكلمة من الدخيل.

(٥) الملل والنحل ج ١ ص ٢٢٥ ــ ٢٢٦.

قوله تعالى: (ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون) قال اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر أخرج كل قوم عالمهم فامتروا في عيسى حين رفع فقال أحدهم هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا وأمات من أمات ثم صعد إلى السماء وهم اليعقوبيون فقال الثلاثة: كذبت ثم قال اثنان منهم للثالث قل فيه، قال: هو ابن الله وهم «النسطورية» فقال الاثنان كذبت ثم قال أحد الإثنين للآخر قل فيه فقال هو ثالث ثلاثة الله إله وهو إله وأمه إله وهم «الإسرائيلية»[1] ملوك النصارى، قال الرابع: كذبت بل هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته وهم المسلمون فكان لكل رجل منهم أتباع ـ على ما قال فاقتتلوا فظهروا على المسلمين فهذا قول الله تعالى (وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ)[2] وقال قتادة وهم الذين قال الله تعالى فيهم (فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ)[3] ، اختلفوا فيه فصاروا أحزاباً فهذا معنى قوله (ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ)[4] .

وقد أورد الفخر الرازي كلاماً على قوله تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) وهو أن أحداً من النصارى لا يقول: إن الله هو المسيح بن مريم فكيف حكى الله عنهم ذلك مع أنهم لا يقولون به ثم أجاب عن ذلك فقال «إن كثيراً من الحلولية يقولون إن الله تعالى قد يحل في بدن إنسان معين أو في روحه وإذا كان كذلك فلا يبعد أن يقال إن قوماً من النصارى ذهبوا إلى هذا القول بل هذا أقرب مما يذهب إليه النصارى، وذلك لأنهم يقولون إن أقنوم الكلمة اتحد بعيسى عليه السلام فأقنوم الكلمة إما أن يكون ذاتاً أو صفة فإن كان ذاتاً فذات الله تعالى قد حلت في عيسى واتحدت بعيسى فيكون عيسى هو الإله على هذا القول، وإن قلنا إن الأقنوم عبارة عن الصفة فانتقال الصفة من ذات الله إلى ذات أخرى غير معقولة ثم بتقدير انتقال أقنوم العلم عن ذات الله تعالى إلى عيسى يلزم خلو ذات الله عن العلم

---

(١) ويسمون الملكانية كما سيأتي.

(٢) آل عمران : آية ٢١.

(٣) سورة مريم : آية ٣٧.

(٤) تفسير القرطبي : ج ١١ ص ١٠٦.

ومن لم يكن عالماً لم يكن إلهاً فحينئذ يكون الإله هو عيسى على قولهم فثبت أن النصارى وإن كانوا لايصرحون بهذا القول إلا أن حاصل مذهبهم ليس إلا ذلك[١] .

وهذا الافتراء الذي ظهر من بعض فرق النصارى في غاية السخافة والبطلان، لأنهم يقرون بأن المسيح عليه السلام خرج من بطن أمه مريم في مكان محدود وزمن معلوم من بعد آدم وإبراهيم وموسى فمن الذي خلق العالم ودبر شؤونه قبل المسيح؟ أليس الإله الحق الذي اكتملت له صفات الربوبية والألوهية وانفرد بالخلق والتدبير؟؟.

واليعقوبية اعتقدت أن المسيح هو جوهر من جوهرين وهو إله، وهو المولود، فقالوا: إن مريم ولدت إلهاً»[٢] ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فكيف يمكن أن تضم أطراف هذه المتناقضات؟

وبالجملة، فالقرآن الكريم صريح في صدور هذه المقالة عن بعض فرق النصارى، وقد جادلهم القرآن الكريم وأبطل مزاعمهم ودحض حججهم فقال تعالى: (قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً) ومعنى ذلك من يقدر على دفع شيء من أفعال الله أو منع شيء من مراده، فقد أخبر الله تعالى أن المسيح لو كان إلهاً لقدر على دفع ما ينزل به أو بغيره، وقد أمات الله أمه ولم يتمكن من دفع الموت عنها، فلو أهلكه هو أيضاً فمن يدفعه عن ذلك أو يرده، ثم قال تعالى:(ولله ملك السموات والأرض وما بينهما) ومعنى هذا أن الله تعالى هو المتصرف في جميع خلقه في السموات والأرض وما بينهما، والمسيح وأمه مخلوقان محدودان، وما أحاط به الحد والنهاية لا يصلح للألوهية.

ولما كان مثار الشبهة عند النصارى هو ما يجريه الله على يد عيسى عليه السلام من خوارق العادات وما ظهر من خلق الله تعالى له على غير ما جرت به السنن

---

(١) الفخر الرازي ج ١١ص ١٩٠ ــ ١٩١.

(٢) انظر الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٢٢٧.

الكونية في التوالد والتناسل، لما كان هذا من الأمور العجيبة، وقد ختم الله تعالى هذه الآية التي ترد على مزاعم النصارى بقوله تعالى: (يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير) فبين تعالى وقوع مشيئته النافذة وقدرته الشاملة، فقد يخلق تعالى الإنسان تارة من الذكر والأنثى كما هو معتاد في نظام التوالد العام، وتارة من غير أب ولا أم كما في خلقه لآدم عليه السلام، وتارة من أم بلا أب كما في خلق عيسى عليه السلام، وتارة من ذكر دون أنثى كما في خلق حواء من ضلع آدم عليه السلام.

فالله تبارك وتعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وقد يؤيد رسله بالمعجزات التي تخرج عن طوق البشر فإذا صور عيسى عليه السلام الطير من الطين وقدر هذه الصورة فما الذي يمنع من أن يخلق الله في هذه الصورة اللحم والحياة والقدرة، معجزةً لعيسى عليه السلام؟ وما المانع من أن يجري الله على يديه إحياء الموتى وإبراء الأسقام معجزة له عليه السلام، والله تعالى هو القادر على ذلك فلا اعتراض عليه في شيء من أفعاله، وتعالى الله عما يقوله الظالمون علواً كبيراً.

قالوا إن الله ثالث ثلاثة :

قال الله تعالى: (لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ)[1] وقال تعالى: (يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ)[2] .

هذه الآية صريحة في وجود عقيدة التثليث عند النصارى، قال القرطبي رحمه الله: «والنصارى مع فرقهم مجمعون على التثليث، و يقولون إن الله جوهر واحد وله ثلاثة أقانيم فيجعلون كل أقنوم إلهاً و يعنون بالأقنوم الوجود والحياة والعلم، وربما يعبرون عن

---

(١) المائدة : آية ٧٣.

(٢) سورة النساء : آية ١٧١.

الأقانيم بالأب والابن وروح القدس، فيعنون بالأب الوجود، و بالروح الحياة، و بالابن المسيح»[1] .

وأصحاب هذا القول هم (الملكانية) كما ذكره الشهرستاني حيث قال «أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم واستولى عليها ومعظم الروم ملكانية، قالوا إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح وتدرعت بناسوته، و يعنون بالكلمة أقنوم العلم، و يعنون بروح القدس أقنوم الحياة، ولا يسمون العلم قبل تدرعه ابناً بل المسيح مع ما تدرع به ابن، فقال بعضهم إن الكلمة مازجت جسد المسيح كما يمازج الخمر أو الماء اللبن، وصرحت الملكانية بأن الجوهر غير الأقانيم وذلك كالموصوف والصفة، وعن هذا صرحوا بإثبات التثليث وأخبر عنهم القرآن الكريم (لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ)[2]

وقالت الملكانية، إن المسيح ناسوت[3] كلي لا جزئي وهو قديم أزلي من قديم أزلي، وقد ولدت مريم عليها السلام إلهاً أزلياً، والقتل والصلب وقعا على الناسوت واللاهوت معاً، وأطلقوا لفظ الأبوة والبنوة على الله عز وجل وعلى المسيح لما وجدوا في الإنجيل حيث قال: إنك أنت الابن الوحيد» وحيث قال شمعون الصفا: «إنك ابن الله حقاً»، ثم قال الشهرستاني «ولعل ذلك من مجاز اللغة كما يقال لطلاب الدنيا أبناء الدنيا، ولطلاب الآخرة أبناء الآخرة[4] .

وأعلم أن عقيدة التثليث وجدت عند النصارى، وورد ما يدل على أن بعض النصارى يعتقد في مريم الألوهية كما قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ)[5]، وقوله تعالى : (مَّا الْمَسِيحُ

---

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص٢٣.

(٢) سورة المائدة : آية ٧٣.

(٣) الناسوت : الطبيعة الإنسانية، وهو (الناس) زيد في آخره واو وتاء كملكوت.

(٤) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٢٢٢.

(٥) سورة المائدة : آية ١١٦.

ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ)[1] .

ومعنى التثليث على هذا: إذا كان عيسى وأمه إلهين فالله هو الثالث، تعالى الله عن الشركاء والأنداد، وجمهور النصارى في زماننا لا يقولون بألوهية مريم بل يطلقون عليه اسم «سيدتنا» ولعل ذلك الاعتقاد كان عند بعض الفرق منهم ثم بادت، و يؤيد هذا ما ذكره أبو محمد بن حزم رحمه الله في كتاب الفصل «أن من النصارى البربرانية وهم يقولون إن عيسى وأمه إلهان من دون الله عز وجل، وهذه الفرق قد بادت، وعمدتهم اليوم ثلاث فرق» ثم ذكر الملكانية والنسطورية واليعقوبية[2] .

وأورد الآلوسي رحمه الله استشكالاً على الآية السابقة، وذلك لا يعلم أن أحداً من النصارى اتخذ مريم عليها السلام إلهاً، ثم قال وأجيب عنه بأجوبة :

الأول : أنهم لما جعلوا عيسى عليه الصلاة والسلام إلهاً لزمهم أن يجعلوا والدته أيضاً كذلك لأن الولد من جنس من يلده، فذكر إلهين عن طريق الإلزام لهم.

والثاني : لما عظموها تعظيم الإله أطلق عليه اسم الاله كما أطلق اسم الرب على الأحبار والرهبان في قوله تعالى (إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) لما عظموهم بتعظيم الرب، والتثنية حينئذ على حد القلم أحد اللسانين.

الثالث : أنه يحتمل أن يكون فيهم من قال بذلك، و يعضد هذا القول ما حكاه أبو جعفر الإمامي عن بعض النصارى أنه قد كان فيما مضى قوم يقال لهم المريمية، يعتقدون في مريم أنها إله وهذا كما كان في اليهود قوم يعتقدون أن عزيرا ابن الله عز اسمه وهو أولى الأوجه عندي»[3] .

وقد أشار محمد بن إسحاق إلى أن شبهة القائلين بأن الله ثالث ثلاثه وهي قول

---

(١) سورة المائدة : آية ٧٥.

(٢) الفصل في الملل والنحل ج ١ ص ٤٨ ــ ٤٩.

(٣) تفسير الآلوسي ج ٧ ص ٦٥.

الله تعالى «فعلنا وأمرنا، وخلقنا، وقضينا» فقولون لو كان واحداً ما قال إلا فعلت وقضيت وأمرت وخلقت ولكنه هو وعيسى ومريم، كما نقله عنه صاحب مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم[1] .

ولا شبهة لهم في ذلك فإنه جائز من الناحية اللغوية للمعظم نفسه أن يقول فعلنا وأمرنا، ولله العظمة والكبرياء والجلال فهل هذه الشبهة السخيفة على فرض كونها شبهة تبرر قولهم بتعدد الآلهة وكفرهم بوحدانية الله وما يجب له من التنزيه والتعظيم.

وقد ذكر الفخر الرازي: «إن المتكلمين حكوا عن النصارى أنهم يقولون: جوهر واحد ثلاثة أقانيم أب وابن وروح القدس، وهذه الثلاثة إله واحد كما أن الشمس اسم يتناول القرص والشعاع والحرارة وعنوا بالأب الذات وبالابن الكلمة وبالروح الحياة، وأثبتوا الذات والكلمة والحياة وقالوا إن الكلمة التي هي كلام الله اختلطت بجسد عيسى اختلاط الماء بالخمر واختلاط الماء باللبن وزعموا أن الأب إله والابن إله والروح إله والكل إله واحد، ثم قال الرازي: «واعلم أن هذا معلوم البطلان ببديهة العقل فإن الثلاثة لا تكون واحداً والواحد لا يكون ثلاثة، ولا يرى في الدنيا مقالة أشد فساداً وأظهر بطلاناً من مقالة النصارى».[2]

وقال أبو محمد بن حزم «ولولا أن الله تعالى وصف قولهم في كتابه إذ يقول تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) وإذا يقول تعالى حاكياً عنهم (إن الله ثالث ثلاثة) وإذ يقول تعالى (أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله) لما انطلق لسان مؤمن بحكاية هذا القول العظيم الشنيع السمج السخيف، وتالله لولا أننا شاهدنا النصارى ما صدقنا أن في العالم عقلا يسع هذا الجنون ونعوذ بالله من الخذلان»[3] .

---

(١) انظر مختصر السيرة ص ٤٢٤ للشيخ عبد الله ابن محمد بن عبد الوهاب.

(٢) الفخر الرازي ج ١٢ ص ٦٠.

(٣) كتاب الفصل لابن حزم ج ١ ص ٤٩.

وآعلم أن النصارى على تفرق مذاهبهم متفقون على التثليث، والتثليث، إما أن يعنى به الأقانيم الثلاثة وهي أقنوم الوجود وأقنوم الحياة وأقنوم العلم وقد يعبرون عنها بالأب والابن وروح القدس، فيعنون بالأب الوجود، وبالروح الحياة، وبالابن المسيح كما تقدم، أو يعنى به الله سبحانه وتعالى ومريم والمسيح، كما روي عن ابن عباس أنه قال «يريد بالتثليث الله تعالى وصاحبته وابنه»[1] .

وكما تقدم في الخبر الذي أورده القرطبي عن قتادة وفيه «ثم قال أحد الأثنين للآخر قل فيه قال هو ثالث وثلاثة الله إله وهو إله وأمه إله[2] .

ومهما يكن فالقول بالتثليث صدر عن النصارى وتبين أن منهم من يعتقد في مريم الأولهية وقد رد عليهم القرآن الكريم بأقوى حجة وأحكم برهان كما سيأتي في الفقرة الآتية.

ويمكن أن يقال في الرد على هؤلاء إنه لايخلو الأمر إما أن يريدوا من الثلاثة أن كل واحد منها متصف بصفات الإله من الوجود والحياة والعلم والقدرة والاستقلال بالملك والخلق والتدبير، فهذا بخلاف أصلهم ثم أن هذا يمتنع لقيام الأدلة عى امتناع تعدد الآلهة كما تقدم في دليل التمانع، وإما أن يريدوا أن الكلمة امتزجت بجسد المسيح، فيبطل هذا لامتناع حلول صفات القديم بغير ذات الله تعالى.

وإما أن يريدوا الاتحاد فهذا باطل لأنه عند الاتحاد إما أن يقال ببقائهما أو بعدمهما أو ببقاء أحدهما وعدم الآخر، فعلى افتراض بقائهما فإذا هما اثنان كما كانا، وعلى افتراض عدمهما فالإله الواحد الموجود غيرهما لأنه لا يجوز عليه العدم، وعلى افتراض عدم أحدهما فالإله الحق هو الحي والباقي ولا يتحقق الاتحاد مع العدم، وسيأتي الرد على من يدعي ألوهية عيسى وأمه بقوله تعالى: (كانا يأكلان الطعام) فإن من يأكل الطعام ويتركب جسمه ثم يتحلل لا يصلح أن يكون إلهاً.

وبالجملة، فهذه أقوال مخالفة للعقول الرشيدة ومزاحمة للأصول الثابتة، تأباها الفطر

---

(١) القرطبي ج ٦ ص ٢٣.
(٢) القرطبي ج ١١ ص ١٠٦.

السليمة، وتنفر منها الضمائر الحية المؤمنة، وهي أقوال متهافتة متضاربة ينقض بعضها بعضاً، فلله الحمد والمنة على أن هدانا لدين الإسلام (وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله).

قالوا المسيح ابن الله:

إعلم أن قول النصارى «المسيح ابن الله» يرجع إلى شبهة عرضت لهم فيه، وهي أن الله تعالى خلقه من أم دون أب خلاف ما جرت سنته تعالى في التوالد والتناسل فقالوا عنه إنه ابن الله كما تقدم.

ولهم شبهة أخرى في قوله تعالى: (وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) فادعى بعض اتباعهم أن (من) للتبعيض فيكون عيسى بعضاً من الله تعالى.

وقد نقل عن محمد بن اسحاق قوله عن النصارى «إنهم يحتجون في قولهم إنه ولد الله بأنهم يقولون لم يكن له أب يعلم وقد تكلم في المهد وهو شيء لم يصنعه أحد من ولد آدم قبله»[1] .

وأصحاب هذا القول هم «النسطورية» ينسبون إلى نسطور وكان بطريكاً بالقسطنطينية كما قال ابن حزم[2] .

قال الشهرستاني «أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون وتصرف في الإنجيل بحكم رأيه، وإضافته إليهم إضافة المعتزلة إلى هذه الشريعة، قال إن الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة الوجود والعلم والحياة، وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات ولا هي هو، واتحدت الكلمة بجسد عيسى عليه السلام لا على طريق الامتزاج كما قالت الملكانية ولا على طريق الظهور به كما قالت اليعقوبية ولكن كإشراق الشمس في كوة على بلورة وكظهور النقش في الشمع إذا طبع بالخاتم[3] ، وقد ذكروا أقوالاً

---

(١) انظر مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم للشيخ عبد الله بن محم بن عبد الوهاب ص ٤٢٤.

(٢) انظر كتاب الفصل ج ١ ص ٤٩.

(٣) الملل والنحل ج ١ ص ٢٢٤.

أخرى كزعم بعضهم أن الابن لم يزل متولداً من الأب، وإنما تجسده وتوحده بجسد المسيح حين ولد والحدوث راجع إلى الناسوت، فالمسيح إله تام وإنسان تام، وهما قديم وحادث، والاتحاد غير مبطل لقدم القديم ولا لحدوث الحادث[1] وهذا المذهب قريب مما ذهبت إليه اليعقوبية كما تقدم. إن هذه المفتريات الضالة المضلة لولا وجوب إبطالها لما جاز لمسلم أن يدونها في كتاب ولا أن يتلفظ بها لأنها كفر صريح وهدم لقاعدة التوحيد العظمى، إنها مفتريات تقشعر منها الجلود وتنفر منها الفطر السليمة، ولقد جادلهم القرآن وأقام الحجج والبراهين على عبودية عيسي عليه السلام لله تعالى، وسنذكر فيما يلي الشبه التي تشبث بها النصارى في شأن عيسى عليه السلام وكيف رد عليهم القرآن الكريم:

(١)قالوا إن عيسى ابن الله، لأنه وجد من أم بلا أب من البشر وما دام كذلك فلابد من أن يكون ابنا لله، وهم بهذا الادعاء ينسبون الولد والتولد إلى الله تعالى، ويرد على هذه الشبهة بأنها قد قامت الأدلة السمعية والعقلية على استحالة أن يكون لله تعالى ولد أو صاحبة أو والد أو شريك، وقد عظم الله أمر هذه المقالة الشنيعة فقال تعالى: (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا)[2].

وقد أنذر الله تعالى الذين ينسبون إليه الولد بالوعيد الشديد والتهديد الأكيد فقال تعالى: (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا)[3] .

وقد أبطل القرآن الكريم مزاعم اليهود والنصارى ومشركي العرب في نسبة الولد

---

(١) تفسير الألوسي ج ٦ ص ٢٦

(٢) سورة مريم : آية ٨٨ ــ ٩٥.

(٣) سورة الكهف : آية ٥ ــ ٦.

إلى الله تعالى، حيث قالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله، وقال مشركو العرب الملائكة بنات الله، فأبطلت هذه المزاعم بقول الله تعالى: (بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ)[1] فنفى التولد عنه لامتناع التولد من شيء واحد وأن التولد إنما يكون بين اثنين وهو سبحانه لاصاحبة له، وأيضاً فإنه خلق كل شيء، وخلقه لكل شيء يناقض أن يتولد عنه شيء، وهو بكل شيء عليم، وعلمه بكل شيء يستلزم أن يكون فاعلاً بإرادته، فإن الشعور فارق بين الفاعل بالإرادة والفاعل بالطبع فيمتنع مع كونه عالماً أن يكون كالأمور الطبيعية التي تتولد عنها الأشياء بلا شعور كالحار والبارد، فلا يجوز إضافة الولد إليه»[2]

ومن الأدلة العقلية على نفي الولد عن الله تعالى ما يلي:

١ ــ أن يقال: يجب أن يكون الإلٰه واجب الوجود لذاته، فولده إما أن يكون واجب الوجود لذاته أو لا يكون، فإن كان واجد الوجود لذاته، كان مستقلاً بنفسه قائماً بذاته لا تعلق له في وجوده بالآخر، ومن كان كذلك لم يكن له والد البتة، لأن الولد مشعر بالفرعية والحاجة إلى أصله.

وإما أن يكون ذلك الولد ممكن الوجود لذاته فحينئذ يكون وجوده بإيجاد واجب الوجود لذاته، ومن كان كذلك فيكون عبداً له لا ولداً له، ومن عرف هذه الحقيقة لم يتردد في نفي الولد عن الله تعالى.

٢ ــ إن الولد مشعر بكونه متولداً عن جزء من أجزاء الوالد، وذلك إنما يعقل في حق من يكون مركباً ويمكن انفصال بعض أجزائه عن بعض، وهو محال في حق الواحد الفرد الواجب لذاته.

وفي قوله تعالى: (بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) استدلال بخلق السموات والأرض

---

(١) سورة الأنعام : آية ١٠١.

(٢) كتاب الرد على المنطقيين لابن تيمية ص ٢١٩.

ابتداء من غير مثال سابق، والجدل في هذه الآية يشمل النصارى وجميع من زعم الولد لله تعالى، والنصارى ومشركو العرب يقرون بأن الله هو الذي خلق السموات والأرض ابتداء، ولكن الاستدلال بقوله تعالى: (بديع السموات والأرض) على النصارى أليق من غيرهم لأنهم استغربوا وجود عيسى عليه السلام من غير أب على غير مثال سابق ولهذا قالوا إنه ابن الله ولكن الغرابة تزول إذا عرفوا خلق آدم عليه السلام من غير مثال سابق كما سيأتي، وإذا عرفوا خلق السموات والأرض ابتداء من غير مادة، فالابداع عبارة عن تكوين الشيء من غير سبق مثال، فكأن الآية تقول للنصارى: سلمنا لكم أن عيسى حدث من غير أب ولا نطفة، بل إنه إنما حدث ودخل في الوجود لأن الله تعالى أخرجه إلى الوجود من غير سبق الأب، ولكنكم تقولون إنه ابن الله وعلى هذه فلا يخلو الأمر إما أن تريدوا بكونه ولداً لله تعالى أنه أحدثه على سبيل الإبداع من غير تقدم نطفة ووالد، وإما أن تريدوا بكونه ولداً لله تعالى كما هو المألوف المعهود من كون الإنسان ولداً لأبيه.

أما الاحتمال الأول: فإن النصارى والمشركين يسلمون بأن الله تعالى خلق السموات والأرض ابتداء (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ)[1] ويلزم على هذا أن يكون خلقه للسموات والأرض إبداعاً، فلو لزم من مجرد كونه مبدعاً لاحداث عيسى عليه السلام كونه والداً له للزم من كونه مبدعاً للسموات والأرض كونه والداً لهما، ومعلوم أن ذلك باطل بالاتفاق، فثبت أن مجرد كونه مبدعاً لعيسى عليه السلام لا يقتضي كونه والداً له، فبطل بهذا الاحتمال الأول.

أما الاحتمال الثاني :

وهو أن يكون مراد القوم من الولادة هو الأمر المعتاد المعروف من الولادة في الحيوانات فهذا أيضاً باطل ويدل على بطلانه وجوه:

الوجه الأول :

أن تلك الولادة لا تصح إلا ممن كانت له صاحبة وشهوة، وينفصل عنه جزء

---

(١) سورة لقمان : آية ٢٥.

ويحتبس ذلك الجزء في باطن تلك الصاحبة، وهذه الأحوال إنما تثبت في حق من يجوز عليه الاجتماع والافتراق والبداية والنهاية والشهوة واللذة، وكل ذلك على خالق العالم محال، وهذا المراد من قوله تعالى (أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة).

الوجه الثاني :

أن تحصيل الولد بهذا الطريق إنما يصح في حق من لا يكون قادراً على الخلق والإيجاد والتكوين دفعة واحده، فلما أراد الولد وعجز عن تكوينه دفعة واحدة عمد إلى تحصيله بالطريق المعتاد، أما من كان خالقاً لكل الممكنات قادراً على كل المحدثات، فإذا أراد إحداث شيء قال له «كن فيكون»، ومن كان هذا الذي ذكرنا صفته ونعته امتنع منه إحداث شخص بطريق الولادة وهذا هو المراد من قوله تعالى (وخلق كل شيء).

الوجه الثالث :

وهو أن هذا الولد إما أن يكون قديماً أو محدثاً وليس من الجائز أن يكون قديماً، لأن القديم يجب كونه واجب الوجود لذاته وما كان واجب الوجود لذاته كان غنياً عن غيره فامتنع كونه ولداً لغيره، فبقي أنه لو كان ولداً لوجب كونه حادثاً، فنقول إنه تعالى عالم بجميع المعلومات فإما أن يعلم أن له في تحصيل الولد كمالاً ونفعاً أو يعلم أنه ليس الأمر كذلك ، فإن كان الأول فلا وقت يفرض أن الله تعالى خلق هذا الولد فيه إلا والداعي إلى إيجاد هذا الولد كان حاصلاً قبل ذلك، ومتى كان الداعي إلى إيجاده حاصلاً قبله وجب حصول الولد قبل ذلك وهذا يوجب كون ذلك الولد أزلياً وهو محال، وإن كان الثاني فقد ثبت أنه تعالى عالم بأنه ليس له في تحصيل الولد كمال حال ولا ازدياد مرتبة في الألوهية، وإذا كان الأمر كذلك وجب أن لا يحدث البتة في وقت من الأوقات وهذا هو المراد من قوله (وهو بكل شيء عليم) كما ذكره الفخر الرازي[1] .

---

(١) انظر الفخر الرازي ج ١٣ ص ١١٦ ــ ١١٩ بتصرف .

وبالجملة، فلا أعظم جرما ممن وصف الله بصفات المحدثين من المشركين والضالين وإن الجن لأحسن حالاً منهم وأكمل إيماناً إذ نفوا عن الله الصاحبة والولد كما حكى الله تعالى عنهم قولهم (وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا)[1] .

وأعلم أن القرآن الكريم قد جادل أهل الكتاب في شأن عيسى وأكثر الجدال معهم وألزمهم بالحجة والبرهان مبيناً فساد اعتقادهم في ألوهية عيسى أو أنه ابن الله.

والجدال بعد هذا ينحصر في شأن عيسى عليه السلام مع أهل الكتاب اليهود والنصارى وما ألزمت به طائفة منهم فهو ملزم للأخرى، فإن اليهود والنصارى في طرفي نقيض في شأن عيسى عليه السلام، وكان اعتقادهم فيه بين الإفراط والتفريط، فاليهود يقولون أنه ولد بغي وزنى وأنه ابن ليوسف النجار، والنصارى يقولون هو ابن الله، والحق غير هذا وذاك على ماسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

ومن آيات الجدال في شأن عيسى عليه السلام ما يلي:

(١) قوله تعالى (مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ)[2].

وفي هذه الآية إبطال للمزاعم التي يعتقدونها في عيسى عليه السلام والإبطال يتجلى في أمرين :

الأول :

أن يقال لهم : إن عيسى عليه السلام كغيره من الرسل السابقين جاء بالآيات والمعجزات كما جاءوا بأمثالها، فإن كانت شبهتكم فيه أن الله أبرأ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى على يده، فقد أحيى الله العصا وجعلها حية تسعى معجزة لموسى عليه

---

(١) سورة الجن : آية ٣.
(٢) سورة المائدة : آية ٧٥.

السلام، وفلق له البحر عندما ضرب به بالعصا كما قال تعالى ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[1] .

وإن كانت شبهتكم فيه أنه خلق من غير أب فقد خلق آدم من غير أب ولا أم ولم يقل أحد بألوهيته بل هو رسول من رسل الله تعالى، وهذا هو المعنى بقوله تعالى (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل).

الثاني :

أن يقال لهم، إن عيسى وأمه كانا يأكلان الطعام وهذه علامة الحدوث والافتقار، فإن من يأكل ويجوع و يفتقر إلى الأكل ثم يتحلل جسمه لا يصلح للألوهية.

وفي قوله (وأُمُّهُ) يشعر بأن كل من كان له أم فقد حدث بعد أن لم يكن، وكل من كان كذلك كان مخلوقاً لا إلهاً وهذا هو المطلوب.

(٢) قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾[2] .

والخطاب في الآية موجه لأهل الكتاب : اليهود والنصارى لأنهم تجاوزوا الحد بالإفراط والتفريط في شأن عيسى عليه السلام، وقد اشتملت الآية على عدة جُمل نذكر منها ما يلي:

(١) قوله تعالى (وكلمته ألقاها إلى مريم) والكلمة هي أمر الله تعالى وإنما سمي عيسى عليه السلام كلمة لوجوده بقوله تعالى (كُنْ) كما ذكر ذلك كثير من المفسرين.

---

(١) سورة الشعراء : آية ٦٣.

(٢) سورة النساء : آية ١٧١.

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى في الرد على الجهمية والزنادقة وقد تناظر مع أحد الجهمية فقال الجهمي: « إنا وجدنا آية في كتاب الله تدل على أن القرآن مخلوق فقال الإمام أحمد: أي آية؟ فقال: قول الله تعالى (إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته) وعيسى مخلوق، فرد عليه الإمام أحمد رحمه الله بجواب جاء منه: ولكن المعنى في قول الله جل ثناؤه (إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم) حين قال له (كُنْ) فكان عيسى (بكن) وليس عيسى هو (كن) ولكن بكن كان، فكن من الله تعالى قول وليس «كن» مخلوقاً وكذب النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى وذلك أن الجهمية قالوا: عيسى روح الله وكلمته إلا أن الكلمة مخلوقة، وقالت النصارى عيسى روح الله من ذات الله وكلمة الله من ذات الله كما يقال هذه الخرقة من هذا الثوب»[1] .

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى : في قوله تعالى (وكلمته ألقاها إلى مريم) أي خلقه يعني عيسى بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل فكان عيسى بإذنه عز وجل وكانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب والأم والجميع مخلوق لله عز وجل ولهذا قيل لعيسى إنه كلمة الله وروح منه لأنه لم يكن له أب تولد منه وإنما هو ناشيء عن الكلمة التي قال له بها «كن» فكان، إلى أن قال ابن كثير: «وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه هو كقوله (كن فيكون) وقال ابن أبي حاتم «حدثنا أحمد بن سنان الواسطي قال سمعت شاذ بن يحيى يقول في قول الله تعالى (وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) قال ليس الكلمة صارت عيسى ولكن بالكلمة صار عيسى» واستحسن ابن كثير رحمه الله هذا القول، وانتقد ابن جرير الطبري فيما ادعاه في قوله تعالى (ألقاها إلى مريم) أي أعلمها بها كما زعمه في قوله (وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه) أي يعلمك بكلمة منه ويجعل ذلك كقوله تعالى (وَمَاكُنتَ تَرْجُوٓاْ أن يَلْقَىٓ

---

(١) الرد على الجهمية والزنادقة ص ٢٧.

إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ)[1] بل الصحيح أنها الكلمة التي جاء بها جبريل إلى مريم فنفخ فيها بإذن الله فكان عيسى عليه السلام[2] .

وقيل : إن الكلمة ها هنا بمعنى الآية كما قال تعالى (وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا)[3] وقوله (مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ)[4] وقد جعل الله تعالى عيسى آية للناس كما قال تعالى (وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً)[5] .

وهذا القول في نظري يرجع إلى معنى الكلمة إذا اعتبرنا عيسى آية من آيات الله القولية، بمعنى أنه وجد بقول الله (كُنْ) فكان.

لكن آيات الله الآفاقية والنفسية غير مناسبة لقوله (وكلمته ألقاها إلى مريم) وإن كانت تدخل باعتبار آخر في عموم الإيجاد والتكوين بقوله تعالى (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ)[6] .

والأظهر عندي : أن عيسى عليه السلام لما فقد في حقه سبب من الأسباب المادية المتعارف عليها في التوالد من الذكر والأنثى أضيف حدوثه إلى الكلمة، فجعل كأنه الكلمة نفسها، كما أن من غلب عليه الكرم يقال فيه على سبيل المبالغة: إنه محض الجود ومن غلب عليه العدل يقال فيه إنه عدل، ويؤيد هذا ما حكاه الآلوسي في تفسيره عن الإمام الغزالي رحمه الله تعالى أنه قال «لكل مولود سبب قريب وبعيد فالأول المنيّ والثاني قول «كن» ولما دل الدليل على عدم القريب في حق عيسى عليه السلام أضافه إلى البعيد وهو قال «كن» إشارة إلى إنتفاء القريب،

---

(١) سورة القصص : آية ٨٦.
(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٩٠.
(٣) سورة التحريم : آية ١٢.
(٤) سورة لقمان : آية ٢٧.
(٥) سورة المؤمنون : آية ٥٠.
(٦) سورة يس : آية ٨٢.

وأوضحه بقوله سبحانه (ألقاها إلى مريم) أي أوصلها إليها وحصّلها فيها، فجعله كالمنّي الذي يلقى في الرحم فهو استعارة»[1] .

(٢) قوله تعالى (وروُح مِنْهُ) من شبه النصارى في عيسى عليه السلام أنهم يقولون هو جزء من الله و يعتبرون (من) في قوله (منه) تبعيضية فيكون عيسى جزءاً من الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

والروح هنا، قيل النفخة فيكون معنى قوله (وَرُوحٌ مِنْهُ) أي نفخة منه لأنه حدث عن نفخة جبريل عليه السلام في درع مريم بأمر الله إياه بذلك فنسب إلى أنه (رُوحٌ مِنَ اللهِ) لأنه بأمره كان، وإنما سمي النفخ (روحاً) لأنها ريح تخرج من الروح واستشهدوا على ذلك بقول ذي الرمة :

وقلت له ارفعها إليك وأحيها بروحك واقتتْهُ لها قيتة قدرا[2]

يعني بقوله «أحيها بروحك» أي أحيها بنفخك.

وقيل معناها (الرحمة)، فيكون قوله (وَرُوحٌ مِنْهُ) أي رحمة منه، كما قال تعالى (وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ)[3] فجعل الله عيسى عليه السلام رحمة منه على من اتبعه وآمن به وصدقه لأنه هداهم إلى سبيل الرشاد كما ذكره ابن جرير الطبري، ثم أورد أقوالاً أخرى فقال: «ولكل هذه الأقوال وجه ومذهب غير بعيد من الصواب»[4] .

والظاهر أن معنى (روُح منه) أي خلقه، وإنما أضيفتْ الروح المخلوقة إلى الله

(١) تفسير الآلوسي ج ٦ ص ٢٤.
(٢) ديوان ذي الرمة ج ٣ ص ١٤٢٩.
(٣) سورة المجادلة : آية ٢٢.
(٤) تفسير الطبري ج ٩ ص ٤٢١ ــ ٤٢٢ بتصرف .

إضافة تشريف كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله في قوله تعالى (هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ)[1]، وفي قوله تعالى: (وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ)[2] ولا شك في وقوع النفخ في هذه الروح كما قال تعالى: (وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا)[3] وكان ذلك بواسطة الملك وهو جبريل عليه السلام فإن الله بعثه إليها فتمثل لها فى صورة بشر سوى، وأمره الله تعالى أن ينفخ بفيه في جيب درعها فنزلت النفخة فولجت في فرجها فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام»[4].

والنفخ: سبب ظاهري لإيجاد الروح في كل مولود ففي قصة آدم قال الله تعالى: (فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ)[5].

وثبت في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح... الحديث)[6].

فالنفخ حاصل من الملك بأمر الله تعالى وهو ظاهر في الأسباب العادية الطبيعية في التوالد، ولما كانت الأسباب المادية معدومة في آدم وحواء وهما الأبوان وما ينشأ عن تزاوجهما من النطف التي يتكون منها الجنين وعدم سبب منها في عيسى عليه السلام وهو الفحل، لما كان الأمر كذلك وهو من الغرابة بمكان خصهما الله بذكر النفخ فيهما وأضاف الروح إليه تعالى تشريفاً وتكريماً لهما، فجبريل بالنسبة لعيسى نفخ والله خلقه بقوله (كن) فسبحان من لا يخلق غيره ولا يعبد سواه.

---

(١) سورة الأعراف: آية ٧٣.
(٢) سورة الحج: آية ٢٦.
(٣) سورة الأنبياء: آية ٩١.
(٤) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٩٤.
(٥) سورة ص: آية ٧٢.
(٦) انظر صحيح البخاري كتاب بدء الخلق ــ باب ذكر الملائكة.

ثم اعلم أن من في قوله (رُوْحٌ مِنْهُ) لابتداء الغاية ولا يصح أن تكون للتبعيض كما تقوله النصارى.

وقد حكى الآلوسي في تفسيره «إن طبيباً نصرانياً حاذقاً للرشيد ناظر علي بن الحسين الواقدي المروزي ذات يوم فقال له: إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى، وَتَلاَ هذه الآية، فقرأ الواقدي قوله تعالى (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه) فقال: إذن يلزم أن يكون جميع الأشياء جزء منه سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، فانقطع النصراني فأسلم وفرح الرشيد فرحاً شديداً ووصل الواقدي بصلة فاخرة»[1] .

(٣) قول الله تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون).

وهذه الآية نزلت عند حضور وفد نصارى نجران على رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم كما ذكره الطبري[2] وكثير من المفسرين، وادعى الفخر الرازي الإجماع على ذلك[3] .

وشبهة النصارى أن وجود عيسى عليه السلام من أم بلا أب يقتضي أن يكون ابناً لله، فكأنهم قالوا لمحمد صلىٰ الله عليه وسلم: إذا سلمت أن عيسى ليس له أب من البشر لزمك الاعتراف بأن أباه هو الله تعالى.

فأجابهم رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم بالنقض والإبطال لشبهتهم بأنه لو لزم من وجود عيسى من أم بلا أب كونه ابناً لله، للزم أن يكون آدم ابناً لله تعالى بطريق الأولى فإنه وجد من غير أم ولا أب باعترافكم ثم إنه إذا جاز أن يخلق الله تعالى آدم من التراب فلم لا يجوز أن يخلق عيسى من دم مريم؟ بل هذا أقرب إلى العقل فإن

---

(١) الآلوسي ج ٦ ص ٢٥.
(٢) انظر تفسير الطبري ج ٦ ص ٤٦٧.
(٣) انظر الفخر الرازي ج ٨ ص ٧٩.

تولد الحيوان من الدم الذي يجتمع في رحم الأم أقرب من تولده من التراب اليابس، وهذا دليل ملزم لهم لأنهم لم يقولوا بألوهية آدم عليه السلام.

وفي قوله تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم) تشبيه لعيسى بآدم في كون كل منهما خلق من غير أب لا أن عيسى مثل آدم خلق من تراب.

قال الزمخشري : هو مثيله في أحد الطرفين فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به لأن المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف ولأنه شبيه به في أنه وجد وجوداً خارجاً عن العادة المستمرة وهما في ذلك نظيران، ولأن الوجود من غير أب وأم أغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أقرب مما استغرب به»[1] .

وقوله تعالى (خَلَقَهُ مِنَ تُرَابٍ) ليس صلة لآدم ولا صفة له، ولكنه خبر مستأنف على جهة التفسير بحال آدم كما ذكره الرازي، ونقل عن الزجاج قوله «هذا كما تقول في الكلام مثلك كمثل زيد تريد أن تشبهه به في أمر من الأمور ثم تخبر بقصة زيد فتقول فعل كذا وكذا»[2] .

وقد أورد الفخر الرازي على الآية إشكالاً وهو أنه تعالى قال (خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون).

فهذا يقضي أن يكون خلق آدم متقدماً على قول الله له (كُنْ) وذلك غير جائز، ثم أجاب عن ذلك بعدة أجوبة منها قوله: قال أبو مسلم: قد بينا أن الخلق هو التقدير والتسوية ويرجع معناه إلى علم الله تعالى بكيفية وقوعه وإرادته لإيقاعه على الوجه المخصوص وكل ذلك متقدم على وجود آدم عليه السلام تقديماً من الأزل إلى الأبد، وأما قوله (كُنْ) فهو عبارة عن إدخاله في الوجود فثبت أن خلقه آدم متقدم على قوله (كُنْ).

---

(١) الكشاف للزمخشري ج ١ ص ٤٣٣.
(٢) الفخر الرازي ج ٨ ص ٧٩.

وهذا القول في نظري قوي لأن (ثم) تفيد الترتيب والتراخي وله شواهد من اللغة كقول زهير بن أبي سلمى في مدحه لهرم بن سنان[1] .

ولأنت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

وقد ذكر الرازي أن الجواب الصحيح «أن يقال لما كان ذلك الهيكل بحيث سيصير آدم عن قريب سماه آدم عليه السلام قبل ذلك تسمية لما سيقع بالواقع»[2] .

ومن خلال ما تقدم يتبين لنا أن القرآن الكريم قد ألزم النصارى في تلك المجادلة وأفحمهم، لأنهم لا يستطيعون المعارضة في مثل هذا طالما هم معترفون بخلق آدم من غير أب ولا أم.

ثم جاء قوله تعالى (فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ)[3] .

هذه الآية بمنزلة الحد الصارم لقطع دابر اللجاجة والباطل فقد رأينا في المواقف الجدلية السابقة كيف أقام القرآن الكريم الحجج والبراهين على إبطال دعوى النصارى في عيسى عليه السلام، وكيف جادلهم بمنطق الحجة والبرهان حتى ظهر أمر الله وخسر هنالك المبطلون.

وهذه الآية تعرف بآية (المباهلة) والمباهلة هنا هي الدعاء والابتهال إلى الله بإحلال اللعنة على الكاذب من الفريقين، ولكن بعد هذا المعترك الفكري تبين أن أولئك النصارى لا يريدون الحق ولا يلتزمون طرق المجادلة من تفهم الوضع الحقيقي لطبيعة القضية المتنازع فيها ولهذا لجأ القرآن الكريم إلى أسلوب آخر بمنزلة الحل

---

(١) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٩٤.

(٢) الفخر الرازي ج ٨ ص ٨١.

(٣) سورة آل عمران : آية ٦١.

العملي وهو التخويف بعذاب الله وانتقامه من الضالين المكذبين إن استمروا على لجاجتهم وعنادهم في مكابرة الحق.

لهذا دعاهم الرسول صلىٰ الله عليه وسلم للمباهلة وخرج صلىٰ الله عليه وسلم ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم فقال صلىٰ الله عليه وسلم (اللهم هؤلاء أهلي) فقد أخرج مسلم والترمذي وغيرهما عن سعد بن أبي وقاص قال: لما نزلت هذه الآية (قل تعالوا ندع... إلخ) دعا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال (اللهم هؤلاء أهلي).

وروى أنه خرج صلىٰ الله عليه وسلم وكان قد احتضن الحسين وأخذ بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلي رضي الله عنه خلفها وهو يقول إذا دعوت فأمنوا فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة... الخ».

وقد عدلوا عن المباهلة، ولكنهم لم يقبلوا الدخول في الإسلام وقبلوا بدلاً عن ذلك دفع الجزية فحكم عليهم رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم بأن يؤدوا في كل عام ألف حلة في صفر وألف حلة في رجب فقبلوا ذلك بدلاً عن الإسلام، والقصة مشهورة في كتب السيرة ومصادر التفسير[1] .

وقد أثار بعض المستشرقين شبهاً حول هذه المباهلة، وقالوا إن القرآن يتهرب من الجدل الفكري والإقناع بالحجة بدليل أنه لجأ إلى المباهلة لأنه عجز عن إقامة الحجة، فالقرآن لا يقبل منطق الحوار الفكري والجدل العقلي.

ومثل هذه الشبه ظاهرة البطلان ولا تحتاج إلى الرد لتفاهتها، ولكن الشخص الذي لا يعرف تدرج الجدل القرآني مع النصارى قد يعلق بذهنه شيء من هذه الشبه، فأما إذا عرف أن الجدال في شأن عيسى عليه السلام سابق على المباهلة بمدد

---

(١) انظر الفخر الرازي ج ٨ ص ٨٥ وتفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٧٠ ــ ٣٧١ وتفسير القرطبي ج ٤ ص ١٠٤.

بعضها متطاولة انزاحت عنه جميع الشبه والملابسات كما هو واضح في سورة مريم وهي مكية، وكما في سورة النساء والمائدة حيث كان الجدل فيها في شأن عيسى عليه السلام متقدماً على الجدال الذي في سورة آل عمران، لأن وفد نجران قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة تسع من الهجرة كما ذكره ابن كثير[1] .

واستدل على ذلك بأن الزهري قال «كان أهل نجران أول من أدى الجزية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وآية الجزية إنما نزلت بعد الفتح وهو قوله تعالى (قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ)[2] .

وقد ذكر الواحدي في أسباب النزول نقلاً عن المفسرين أن الله عز وجل أنزل في وفد نجران صدر سورة آل عمران إلى بضعة وثمانين آية منها»[3] .

وبهذا يتبين أن القرآن قد جادل أهل الكتاب قبل قدوم نصارى نجران وأقام الحجج والبراهين على أن عيسى عبد الله ورسوله، ثم قدم نصارى نجران سنة تسع من الهجرة فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم (ما لك تشتح صاحبنا؟ قال. وما أقول؟ قالوا: تقول أنه عبد، قال: أجل إنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول، فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير أب فإن كنت صادقاً فأرنا مثله فأنزل الله عز وجل قوله (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ)[4] .

وفي هذه الآية من البيان والإلزام ما لا يخفى، فلما لم يجد معهم أسلوب الحجاج والنقاش الفكري كان لابد من أسلوب آخر يظهر فيه الحق بالحجة العملية فكأن

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٧٠.
(٢) سورة التوبة : آية ٢٩.
(٣) انظر أسباب النزول للواحدي ص ٥٣.
(٤) سورة آل عمران : آية ٥٩.

الآية تقول لهؤلاء المجادلين لقد أصبحتم في حالة من العناد والمكابرة للحق لا يجدي معكم فيها نقاش أو جدال ولكن لعنة أبدية تنصب من الله على الكاذب من الفريقين.

ثم إننا نأخذ من الآية نفسها دليلاً على تقدم الجدال معهم قبل ذلك وهو قوله تعالى (من بعد ما جاءك من العلم) أفبعد هذا يأتي حاقد على الإسلام والمسلمين فيطعن في القرآن بمثل هذه الشبه و يوردها على كتاب الله (الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)؟.

هذه لمحة عن جدال القرآن لأهل الكتاب في شأن عيسى عليه السلام فيما يتعلق بمزاعم النصارى فيه من النبوة والألوهية، أو مزاعم اليهود فيه من أنه ولد بغي وزنى، لعنهم الله.

فأما إذا نظرنا لعيسى عليه السلام فإنه لا يرضى شيئاً مما ابتدعه أهل الضلال ممن يدعون أنهم أتباعه، وهذه الافتراءات كلها ظهرت منهم بعد رفعه إلى السماء.

إن عيسى عليه الصلاة والسلام أول ما نطق في المهد بقوله (إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا)[1] فأعلن عبوديته لله تعالى رداً على من يأتي خلفه و يزعم فيه المزاعم الباطلة.

وقال (وبرا بوالدتي) ولم يقل بوالدي، لأنه لا والد له بل وجد بقول الله له «كن» فكان.

قال ابن عباس رضي الله عنهما : «لما قال وبراً بوالدتي، ولم يقل بوالدي، علم أنه شيء من جهة الله تعالى»[2] .

---

(١) سورة مريم : آية ٣٠.
(٢) تفسير القرطبي ج ١١ ص ١٠٣.

وقد أثنى الله على عيسى عليه السلام بأنه لا يستنكف عن أن يكون عبداً لله فقال تعالى (لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ)(١) .

وهذا عيسى عليه السلام بين يدي الله تعالى، يحكي براءته من كل عابد له من دون الله و يعلن عبوديته لله تعالى، وتبليغه لرسالة ربه كما حكى الله ذلك ووعد به والله لا يخلف الميعاد فقال تعالى (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)(٢) .

إنه حوار بين العبد وربه حوار يفيض بالإيمان والتسليم المطلق لله تعالى في تصريف شؤون خلقه والبراءة من كل شبهة تشوب العقيدة الصحيحة الخالصة بشائبة الشرك، أو لم يقل المسيح عليه السلام لبني إسرائيل كما حكى الله تعالى عنه (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ)(٣) .

تلك عقائد أهل الكتاب في عيسى عليه السلام كانت قائمة على الإفراط والتفريط كما تقدم، فهدى الله تعالى هذه الأمة المحمدية إلى العقيدة الصحيحة والقول الحق فيما يجب لله تعالى من التعظيم والتنزيه، وما يجب لرسله من الاحترام والتكريم فكانت خير الأمم وأهداها منهجاً.

---

(١) سورة النساء : آية ١٧٢.
(٢) سورة المائدة : آية ١١٦ ــ ١١٩.
(٣) سورة المائدة : آية ٧٢.

وقد خص عيسى عليه السلام بمزيد من التنبيه إلى وجوب التزام العقيدة الصحيحة فيه، فقد ثبت في الصحيحين عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل)[1].

فأنت ترى أن وجه تخصيص عيسى عليه السلام بالذكر في هذا الحديث دون سائر الرسل كان لتبيان الحق فيه، وأنه عبد الله ورسوله، وقد رفع الله من قدر عيسى عليه السلام وجعله من أولى العزم الخمسة المذكورين في سورة الأحزاب، كما قال تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾[2].

وأمر نبينا محمداً صلىٰ الله عليه وسلم أن يصبر كما صبروا فقال تعالى ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[3].

قال مجاهد: أولو العزم من الرسل خمسة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلىٰ الله عليه وسلم وهم أصحاب الشرائع[4].

يعني بهم المذكورين في قوله تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾[5].

فهؤلاء الخمسة أفضل الرسل على التحقيق، ونبينا محمد أفضلهم صلىٰ الله وسلم عليه وعلى سائر النبيين والمرسلين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

---

(١) ذكره البخاري في كتاب الأنبياء، ومسلم في كتاب الإيمان.
(٢) سورة الأحزاب: آية ٠٧.
(٣) سورة الأحقاف: آية ٣٥.
(٤) فتح القدير للشوكاني ج ٥ ص ٢٧.
(٥) سورة الشورى: آية ١٣.

اتخاذ اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله.

قال تعالى : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) في هذه الآية الكريمة بيان للون آخر من ألوان الشرك الذي اتصف به أهل الكتاب وهو جعل الحاكمية لغير الله في التحليل والتحريم، إذ كان من علماء السوء منهم من يحلل ماحرم الله ويحرم ما أحل الله فلا يلبث الناس قليلاً، حتى ينصاعوا إليهم ويجعلوهم بمنزلة الرب الذي يحرم ويحلل لعباده وفق ما تقضيه حكمته وإرادته.

فالحاكمية لله وحده فلا يجوز أن يسند إلى أحد من البشر وضع لوائح التحليل والتحريم من عند نفسه، فإن في البشرية داء الشهوات والهوى وعدم الإحاطة بعواقب الأمور فكيف يوجدون الدواء لأنفسهم من أنفسهم وهي المريضة؟

وقد أورد ابن كثير رحمه الله حديث عدي بن حاتم في تفسير هذه الآية فقال ما نصه: «روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فر إلى الشام وكان قد تنصر في الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم من رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم على أخته وأعطاها فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فقدم عدي إلى المدينة وكان رئيساً في قومه طيء وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم فتحدث الناس بقدومه فدخل على رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وفي عنق عدي صليب من فضة ورسول الله يقرأ هذه الآية (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) قال: قلت إنهم لم يعبدوهم، فقال (بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم) ثم قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم (يا عدي ما تقول أيضرك أن يقال الله أكبر فهل تعلم شيئاً أكبر من الله ما يضرك أن يقال لا إله إلا الله فهل تعلم إلهاً غير الله)؟.

«ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق قال فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال: إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون، وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسير (إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) انهم

اتبعوهم فيما حللوا وحرموا، قال السدي: استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ولهذا قال تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً) أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام وما حلله فهو الحلال وما شرعه اتبع وما حكم به نفذ»[1] .

نكتفي بهذا القدر من الحديث عن هذه الآية لأنه سيأتي الجدال في التشريعات وقضايا التحليل والتحريم في غير هذا الموضع من الرسالة إن شاء الله تعالى.

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

جـ - الجدال في إثبات الرسالات

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان بدنا وروحاً، ولكل من البدن والروح غذاؤه ومقوماته، فالبدن يجد كفايته في الماديات والمحسوسات من المآكل والمشارب من أنعم الله المبثوثة في الآفاق، الروح تجد كفايتها فيما جعل الله من معقولات ومدركات معنوية ومفاهيم فكرية ورسالات سماوية منزلة من الله تعالى لهداية بني الإنسان وإرشادهم بما في طوايا هذه الرسالات من قيم ومبادىء يسعدون بها في العاجل والآجل، وهذه الرسالات المنزلة هي رحمة من الله بعباده ليربيهم بالنعم الروحية، كما يربيهم على موائد كرمه بالنعم المادية.

ولا بد لهذه الرسالات من رسل يحملونها و يبلغونها عن الله تعالى وهم الصفوة الخيرة من بني الإنسان فلا تكون الرسالة إلا لمن اختصه الله بهذه النعمة وأعده لحمل رسالته (ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)[1] .

إن هؤلاء الرسل لم تكن مهمتهم سهلة ولم يفرش طريقهم بالورود والرياحين، فقد كانت حياتهم جهاداً لإعلاء كلمة الله وتبليغ رسالاته، كانت صراعاً بين الحق والباطل. جاء الرسل عليهم الصلاة والسلام بما كلفوا بحمله من شرائع وما أمروا به من تبليغ، فعرضوا ذلك على أقوامهم فقابلهم أكثر الناس بالتكذيب والازدراء وألبوا عليهم سفهاء الناس ورعاعهم، قابلوا تلك الرسالات السماوية بما وجدوا عليه الآباء والأجداد، وما ألفوا من عادات وتقاليد، ولجأوا إلى ألوان من المجادلات واللجاجات وانتحال الشبه والملابسات لإبطال تلك الدعوات الخيرة التي تنير الطريق، وتبدي السبيل بمصابيح الهدي الإلهي، ولقد حكى لنا القرآن الكريم أنواعاً من مجادلات

---

(١) سورة الأنعام : ١٢٤.

الأمم السابقة لأنبيائهم مما يشهد لرسل الله بالبلاغ لرسالات الله وإقامة الحجج على أقوامهم ويشهد لهم بالصبر والثبات مهما واجهوا من تحديات واعتراض طريقهم من عقبات، ونذكر فيما يلي نماذج من تلك المجادلات لإثبات الرسالات، ونذكرها على سبيل المثال دون الحصر أو الاستقصاء.

جدال الأمم السابقة مع أنبيائهم :

١ ـ مجادلة قوم نوح عليه السلام له :

قال الله تعالى : (إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ)[1] .

وقال تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ)[2] .

وقال تعالى : (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ)[3] .

من مجموع الآيات السابقة يتبين لنا الصراع الفكري الذي دار بين نوح عليه

---

(١) سورة نوح : ١ ـ ٣.

(٢) سورة المؤمنون : ٢٣ ـ ٢٥.

(٣) سورة الأعراف : ٥٩ ـ ٦٤.

السلام وقومه مما يشهد له بإبلاغ رسالة الله، لقد دعا نوح عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده وترك ما يعبد من دونه، دعاهم إلى الإيمان برسالته والسمع والطاعة له فيما يبلغهم من شريعة الله فكان لنوح عليه السلام مطالب ثلاثة :

١) إفراد الله بالعبادة وترك عبادة الأصنام.
٢) تقوى الله تعالى والخوف من عقابه وانتقامه منهم إذا كذبوا رسالته.
٣) طاعته وتصديقه في كل ما يبلغ عن الله تعالى، لأنه رسول من الله والرسول يطاع و يتبع، وقد قابله قومه بالتكذيب لرسالته واتهامه بأنواع المفتريات ومن أنواع الشبه التي أوردوها على نوح عليه السلام ما يلي:

قالوا إنه بشر، ومعنى هذا أن الرسالة لا تكون لبشر، إذا لو أراد الله أن يرسل رسولاً لجعله من الملائكة فكيف يدعي الرسالة رجل من البشر والرد على الشبهة أن الله تعالى هو الخالق وهو الإله الحق فله أن يأمر عباده ببعض الأشياء و ينهاهم عن بعضها ولا يجوز أن يخاطبهم بتلك التكاليف من غير واسطة، ولا يجوز أن يكون ذلك الرسول واحداً من الملائكة لعدم إمكان تلقي الناس التكاليف الشرعية منه وهو على صورته الحقيقية، فلم يبق إلا أن يتمثل في صورة بشر، كما كان جبريل يتمثل عند نزوله بالوحي على الرسل فإذا تمثل للناس في صورة بشر، حصل اللبس والتكذيب، وقد بين الله هذه الحقيقة بقوله تعالى: (وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ)[1] فكونه ملكاً يأتي في صورة إنسان أشد غرابة وأبعد عن التصديق مما لو جاء هذا التكيف على لسان رجل منهم يعرفون صدقه وأمانته وقدره ومكانته.

وهكذا كان رد نوح عليه السلام بنفي الاستغراب والتعجب من تكليف الله تعالى رجلاً من جنسهم حملَ الرسالة وإبلاغها فقال (أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)[2] .

---

(١) سورة الأنعام : ٩.
(٢) سورة الأعراف : ٦٣.

قالوا إنه مجنون :

وذلك أنهم ظنوا أن الذي يأتي نوحاً عليه السلام من الوحي إنما هو من جنس الجنون والتخيلات الشيطانية، ولهذا قالوا ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾[1] والرد على هذه الشبهة: أن المجنون لا يأتي بما فيه الرشد والسعادة ولا يقيم الحجج والبراهين على مدعاه.

ونوح عليه السلام على عكس ما يزعمون تماماً فقد دعاهم إلى ما يصلحهم في الدنيا والآخرة، وأقام الحجج والبراهين عليهم مستدلاً بالآيات الكونية، والآفاقية والنفسية كما في السورة المسماة باسمه: سورة نوح.

وكان أسلوبه معهم في كثير من الأحيان يتسم بطابع الهدوء والتلطف، فقد كانوا يجابهونه بفظاظة القول كقولهم ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[2] .

وكان جوابه بتبيان مهام رسالته دون جفاء حيث قال ﴿ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[3] .

أفمن كان هذا جوابه يكون به مس من جنون؟ كلا فالأمر واضح، ولقد جادلهم نوح عليه السلام وأقام عليهم البينات كما حكى الله ذلك في كتابه حتى أنهم قالوا ﴿ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[4] ولهم شبه ومفتريات أخرى كلها لا تغني من الحق شيئاً وقد تقدم ذكر شيء من جدال قوم نوح عليه السلام في الفصل السابق، هذا وقد شهدنا أنواعاً من المجادلات بين هود وصالح وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم في الفصل السابق أيضاً ونكتفي بذكرها هناك خشية الإطالة.

---

(١) سورة المؤمنون : ٢٥.

(٢) سورة الأعراف : ٦٠.

(٣) سورة الأعراف : ٦١.

(٤) سورة هود : ٣٢.

مجادلة قوم لوط عليه السلام له :

قال تعالى: (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ)[١] وقال تعالى (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ)[٢] .

ولوط عليه السلام هو ابن هارون بن تارح يعني (آزر) والد إبراهيم عليه السلام فإن إبراهيم وهارون وناحور أخوة، وكلهم أولاد آزر فيكون إبراهيم عم لوط عليهما السلام، وقد آمن لوط بعمه إبراهيم كم قال تعالى: (فآمن له لوط).

وقد بعث الله لوطاً إلى أهل (سدوم) وهي مدينة في الأردن، وكان أهلها من أفخر الخلق وقد ارتكبوا أبشع الجرائم الأخلاقية التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين وهي فاحشة (اللواط) وقد أنذرهم لوط وتوعدهم بعذاب الله إن لم ينتهوا فكذبوه فأهلكهم الله بالعذاب، ومن خلال الآيات السابقة يتبين لنا الصراع المرير الذي دار بين لوط عليه السلام وقومه، وتتلخص مواضع الجدال في مطالب لوط الآتيه :

---

(١) سورة الشعراء : ١٦٠ ــ ١٧٢.

(٢) سورة هود : ٧٧ ــ ٨٣

١) تقوى الله تعالى والإيمان برسالته.
٢) طاعته فيما يأمرهم به، و ينهاهم عنه هي مقتضيات الإيمان بالرسالة.
٣) الإقلاع عن فاحشة اللوط التي هي في الحقيقة مسخ للإنسانية.
٤) عرض بناته أو بنات قومه للزواج من هؤلاء المجرمين إذا كان باعث الشهوة الجنسية هو الحامل لهم على فعل الفاحشة.

عرض عليهم لوط عليه السلام هذه المطالب، فكذبوه ولم يستجيبوا له بل هددوه بالطرد والإبعاد إذا استمر في دعوته كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله : (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)[1] .

ولما ألح عليهم في الدعوة ونهاهم عن فاحشتهم جابهوه بالتهديد فقالوا: (لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين) إذن لم يؤمنوا برسالته ولم يستجيبوا لشيء من مطالبه، ثم إن حادثة الأضياف كانت بالنسبة إلى لوط عليه السلام حادثة رهيبة تغلغلت في أعماق نفسه وبدت ملامحها على وجهه خوفاً على أضيافه وشفقة عليهم من عبث أولئك الأشرار (فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد).

ولقد بدأ الصراع النهائي عند قدوم أضياف لوط إليه إذ كان بداية الخاتمة، وهؤلاء الضيوف هم في الحقيقة ملائكة، وهم ضيوف إبراهيم عليه السلام حيث مروا على إبراهيم في طريقهم إلى لوط فبشروا إبراهيم بغلام حليم وأخبروه على أمرهم كما قص الله ذلك بقوله: (وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ)[2] .

خرج الملائكة من عند إبراهيم وجاءوا إلى (لوط) فدخلوا عليه في صورة شباب مرد حسان تشرق وجوههم بنضارة الشباب والجمال ولم يخبروه بحقيقتهم فظن أنهم

---

(١) النمل : ٥٦.
(٢) سورة العنكبوت : ٣١ ــ ٣٢.

ضيوف جاؤوا يستضيفونه فرحب بهم ولكنه اغتم من دخلوهم عليه في وقت الظهيرة لأنه خاف عليهم من أولئك المجرمين الأشرار لاسيما وأنهم في منتهى الحسن والجمال ووقع في نفسه أنه لابد منْ أن يكون قد رآهم أحد من قومه حين دخلوا عليه فلابد مِن أن يمسوهم بأذى، لذلك أخذ يفكر ماذا يصنع لو أراد المجرمون أن يعتدوا على ضيوفه؟ وسرعان ما وقع ما كان يخشاه.. فقد أقبل رجال القرية من قوم لوط وأخذ لوط عليه السلام يجادلهم بالحسنى و يناقشهم باللطف واللين لعل فيهم من يرتدع عن غيه ويخجل من خزيه في ضيفه ودعاهم إلى أن يتزوجوا ببنات القرية فإن ذلك أكرم وأفضل وأطهر ولكن (الخبثاء) صارحوه بقصدهم السيء وأنهم لا يرغبون إلا في أولئك الشباب المرد الحسان فازداد همه وغمه وشعر الملائكة بذلك فأخبروه بحقيقة أمرهم وأنهم ليسوا بشراً إنما هم (ملائكة) قدموا لإهلاك أهل هذه القرية بأمر الله تعالى لأن أهلها كانوا ظالمين، وأخبروه أن القوم لن يستطيعوا الوصول إليهم وأمروه بأن يخرج من أرض قومه مع أهله ليلاً قبل طلوع الصبح لأن موعد هلاكهم كان في وقت الصبح (إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب)[1] .

أما قول لوط عليه السلام (هؤلاء بناتي هن أطهر لكم) فقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن المراد بالبنات بنات لوط من صلبه و يروى هذا القول عن قتادة، قد اعترض على هذا القول بأمور ثلاثة :

١) أن إقدام الإنسان على عرض بناته على الأوباش والفجار أمر مستبعد لايليق بأهل المروءة فكيف بأكابر الأنبياء؟

٢) أن بناته لصلبه لا تكفي للجمع العظيم من الناس.

٣) صحة الرواية أنه كان للوط عليه السلام بنتان فكيف أطلق لفظ البنات على بنتيه؟.

وللإجابة عن هذه الاعتراضات نقول :

---

(١) انظر النبوة والأنبياء ص ٢٤٩ ــ ٢٥٠ لمحمد علي الصابوني .

أن لوطاً عليه السلام كان قد منع قومه من الزواج ببناته، لكفرهم وخبث ماهم عليه من العمل فلما ضاقت عليه الحيل ورأى قومه مصممين على انتهاك حرمته وفضحه بضيوفه تنازل عن منعهم من الزواج ببناته ارتكاباً لأخف الضررين، ويحتمل أنه كان يجوز تزويج المؤمنة من الكافر في شريعته، كما كان في أول الإسلام بدليل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوج ابنته زينب من أبي العاص بن الربيع وكان مشركاً، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: (وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ) وبقوله: (وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ)[١] .

أما كون بناته لايكفي قومه للزواج منهم، فإن لوطاً لم يلتزم بكفايتهم وإنما تنازل عن شيء كان قد منعهم منه، وأما كون بناته اثنتين فيحمل على أنه ذكر الاثنتين بلفظ الجمع كما في قوله تعالى: (فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ)[٢] والإخوة هنا الاثنان فأكثر، وقوله تعالى: (فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)[٣] وقيل إنهن كن أكثر من اثنتين)[٤] .

وذهب كثير من المفسرين، ومنهم مجاهد وسعيد بن جبير، إلى أن المراد من قول لوط (هؤلاء بناتي) أي نساء أمته لأنهن في أنفسهن بنات ولهن إضافة إليه بالمتابعة وقول الدعوة، ولأنه كان نبياً لهم فكان كالأب لهم، قال تعالى: (وأزواجه أمهاتهم) وقد اختار هذا القول الفخر الرازي[٥] ، قال مجاهد لم يكن بناته ولكن من أمته، وكل نبي أبو أمته.

وقال سعيد بن جبير يعني نساءهم هن بناته وهو أب لهم، ويقال في بعض القراءات: النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم كذا روي

---

(١) سورة البقرة : ٢٢١.
(٢) سورة النساء : ١١.
(٣) سورة التحريم : ٤.
(٤) انظر الفخر الرازي ج ١٨ ص ٣٣.
(٥) ج ١٨ ص ٣٣.

عن الربيع بن أنس وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم كما ذكره ابن كثير في تفسيره[1] .

وبالجملة، فلوط عليه السلام لم يدع قومه للزنى ببناته لصلبه أو نساء قومه قطعاً ومن زعم هذا فقد أعظم الفرية وإنما عرض عليهم الزواج في كلتا الحالتين ووصف ذلك بأنه أطهر ولا طهارة مع الزنى واقتراف الفاحشة بأي حال.

مجادلة قوم شعيب عليه السلام :

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾[2] .

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾[3] .

أرسل الله تعالى شعيباً عليه السلام إلى قومه أصحاب مدين، وأصحاب مدين هم أصحاب الأيكة لقوله تعالى في الآية السابقة (كذب أصحاب الأيكة المرسلين إذ

---

(١) ج ٥ ص ٤٥٣.

(٢) سورة الشعراء : ١٧٦ ــ ١٨٩.

(٣) سورة هود : الآيات من ٨٤ ــ ٩٥

قال لهم شعيب ألا تتقون) و يرى بعض المفسرين أن أصحاب الأيكة قوم آخرون غير أهل مدين أرسله الله إليهم بعد هلاك مدين فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة، وروى عن قتادة أنه قال: «أرسل شعيب عليه السلام إلى قومه من أهل مدين، وإلى أصحاب الأيكة»[1] .

ولعل أهل مدين هم أنفسهم أصحاب الأيكة، لأن سورة الشعراء أوضحت أنهم كانوا يطففون المكيال والميزان، وهذا وصف أصحاب مدين، وسموا بأصحاب الأيكة لأن الأيكة هي الغوطة التي يكثر فيها الشجر، وقد كانوا يجمعون بين التجارة والزراعة وأراضيهم كثيرة والأشجار وافرة الثمار فلذلك سموا أصحاب الأيكة[2] .

أما الجدال الذي دار بين شعيب عليه السلام وقومه، فقد اشتملت الآيات السابقة على بعض منه ويمكن أن نلخص المطالب البارزة في جدال شعيب لقومه فيما يلي :

١ ــ الإقرار بوحدانية الله وترك ما يعبد من دونه.
٢ ــ تقوى الله تعالى والسمع والطاعة لشعيب فيما يبلغ عن الله من أمور الرسالة.
٣ ــ عدم التطفيف في المكيال والميزان أو بخس الناس أشياءهم أو الإفساد في الأرض، وقد عارضه قومه في دعوته وكذبوا رسالته، فاعترضوا على المطلب الأول بقولهم (ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد).

واعترضوا على المطلبين الأخيرين بنفي الرسالة عنه حيث قالوا (إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين) فاعتراضهم عليه بأنه رجل مسحور وما يأتيه من الوحي إنما نوع من السحر، أو مرض نفساني، ثم إنه على فرض سلامته من السحر والمرض فإنما هو بشر مثلهم و يعنون بهذا أن الرسالة لا تكون على يد أحد من البشر، ثم ختموا ذلك بالتكذيب، وكأنهم يقولون أنت على أي حال من الأحوال كاذب فيما تزعم من دعوى الرسالة والتبليغ عن الله تعالى :

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٣ ص ١٣٥.
(٢) انظر النبوة والأنبياء لمحمد علي الصابوني ص ٢٧٢.

والرد على هذه الاعتراضات الساقطة أن يقال : إن دعوة شعيب عليه السلام وأحواله العقلية والخلقية لا تتناسب مع أحوال المسحورين وأصحاب الأمراض النفسية، وقد شهدوا له بأنه حليم رشيد (أنك لأنت الحليم الرشيد).

وقد دعاهم إلى أمور عادلة يشهد العقل بصحتها وعدالتها فهو يأمر بالوفاء و ينهى عن بخس الناس حقوقهم وعن السعي في الأرض بالفساد، وكل هذه المطالب كريمة فدعواهم إذن ساقطة متهافتة وهي باطلة بضرورة العقل كما هي باطلة بالحس والنقل، أما قولهم إنه بشر فمن الطبيعي أن يكون عندهم علم بالرسل السابقين وأخبار الأمم الماضية كما ذكرهم بذلك بقوله : (و يقوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد) فإنكارهم وجود الرسل من البشر إنكار لما هو معلوم لديهم، ولما تشهد به آثار الأمم وأخبارها.

وقد تقدم أن الرسول إلى أمم البشر لايكون إلا من البشر (وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ)[1] .

أما التكذيب لرسالته فلا يقبل منهم لأنه مطية كل مخالف، وقد قام البرهان على صدقه حيث استجاب الله دعوته وآزره بنصره عندما كذبوه وتحدوه بأن يسقط عليهم كسفا من السماء وأن ينزل عليهم العذاب إن كان من الصادقين، فابتلاهم الله بالحر الشديد «فكان لايروي ظمأهم ماء ولا تمنعهم ظلال ولا تقيهم الأسراب والمنازل ففروا هاربين وخرجوا من ديارهم مسرعين ولكنهم فروا من قضاء الله وقدره إلى قضاء الله وقدره فقد شاموا سحابة ظنوا أنها واقية لهم من حر الشمس، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها و يسترحوا بفيئها حتى إذا تكامل عددهم وتألف جمعهم رمتهم بشرر وشهب وجاءتهم صيحة من السماء وأحسوا الأرض تتزلزل تحت أقدامهم ففزعوا لهول ما رأوا وما كادوا يحسون بما حلّ بهم حتى زهقت أرواحهم وهلكت نفوسهم[2] .

---

(١) سورة الأنعام : ٩.

(٢) انظر قصص القرآن ص ١٢١ ــ ١٢٢.

وهكذا كانت عاقبة التكذيب والطغيان أن أهلكهم الله بالعذاب كما قال تعالى: (فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم).

مجادلة موسى عليه السلام لفرعون وقومه :

مجادلة موسى لفرعون من أعظم صور الصراع بين الحق والباطل، وهي تصور معركة ضارية بين جند الرحمٰن وجند الشيطان، وقد ذكرت هذه المجادلة في كثير من سورة القرآن لما فيها من عظات وعبر، وقد بدأ موسى عليه السلام بعرض دعوته على فرعون كما حكى الله تعالى ذلك في كتابه العزيز فقال: (وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ)[1] .

اشتملت دعوة موسى عليه السلام على المطالب الآتية :

١) إقرار فرعون بأن موسى رسول من عند الله بموجب البينات والبراهين التي جاء بها من عند الله.

٢) الإقرار بوحدانية الله وربوبيته.

٣) إرسال بني إسرائيل مع موسى ليبلغهم رسالة الله.

وقد رفض فرعون هذه المطالب كلها، وجادل موسى مجادلة عنيفة، فإن موسى عليه السلام ادعى بأن عنده بينة من الله تدل على صدقه فيما يدعو إليه حيث قال: (قد جئتكم ببينة من ربكم) وقبل فرعون عرض هذه البينة حيث قال: (إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين) وهذا التزام من فرعون بالتصديق عندما يأتي موسى بآية على صدقه.

---

(١) سورة الأعراف : ١٠٤ ــ ١٠٨.

وقد قام موسى عليه السلام بتقديم البينة الدالة على صدقه عندما تحداه فرعون بطلب ذلك، كما قام بعرض تلك البينات (فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين) هذه معجزة دالة على صدق موسى عليه السلام ويشترط في المعجزة أن لا يقدر على مثلها من سيقت لأجله.

وقد بهرت هذه المعجزة فرعون وقومه حتى أنهم قالوا أن موسى ساحر عليم، وظهرت آية موسى لفرعون واستيقنتها أنفسهم ولكنهم أرادوا التضليل والتمويه وأخذتهم العزة بالإثم، وكان قوم فرعون قد اشتهروا بالسحر فأرادوا تجربة أخرى مع موسى ليظهروا من سحرهم مايبهر العقول ويأخذ بالألباب، وقد فعلوا ذلك كما قال الله تعالى: (فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ)[1] .

ولكن قدرة الله غالبة وتأييده لرسله وأنبيائه بالحجج والبراهين أمر لابد منه ليظهر صدقهم وتعلوا كلمته في الأرض.

لقد أنكر فرعون تلك الآيات التي طالبها من موسى وقال له : (أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى)[2] .

إذن فرعون في المقام الأول طلب آية من موسى تدل على صدقه إن كان صادقاً وهذا منه تحد لموسى فلما أتى بها موسى صرفها فرعون لمعنى آخر وادعى أنها سحر اعتماداً منه على سحرته وما لديهم من فنون السحر المختلفة ليضلل الناس بذلك.

وفي هذا المقام الثاني ادعى بأنه سيأتي هو وقومه بسحر يغلب ما جاء به موسى وهذا تحد ثان لموسى حتى أن فرعون طلب من موسى تحديد الزمان والمكان لتلك المعركة الجدلية.

فاستجاب موسى عليه السلام لمطلب فرعون حيث قال : (موعدكم يوم الزينة

---

(١) سورة الأعراف : ١١٦.

(٢) سورة طه : ٥٧ — ٥٨.

وأن يحشر الناس ضحى وإنما أراد موسى عليه السلام أن يكون يوم العيد الذي يجتمع فيه الناس وأن يكون ذلك المشهد بين معترك الحق والباطل في رابعة النهار لكي لايخفي على أحد مايجري فيه ولتظهر قدرة الله في مثل ذلك الموقف الرهيب (فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ)[1] .

لقد انجلت هذه المعركة بانتصار الحق على الباطل وإنكسار عنفوان الكبرياء (فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ)[2] .

هزم فرعون وقومه في المقام الأول والثاني وظهر أمر الله وهم كارهون.

وذكر القرآن الكريم مواقف كثيرة احتدم فيها الجدال بين موسى وفرعون، وقد أصلاه موسى نار الحجج والبراهين، وحتى ألجم خصومته وأفحمه مما جعل فرعون يلجأ في فض تلك المجادلات إلى التهديد بالسجن، كما قص الله ذلك بقوله: (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ

---

(١) سورة طه : ٦٠ ــ ٧١ .

(٢) سورة الأعراف : ١١٨ ــ ١١٩.

وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ)[١] ،لقد أجاب موسى عليه السلام فرعون عن سؤاله بآثار وجود الله ودلائل قدرته الظاهرة.

هذا وإن المعركة بين موسى وفرعون لم تنته بهزيمة فرعون وقومه في يوم الزينة فقد استمر الصراع والجدال بعد ذلك، واستحكم العناد في نفوس آل فرعون حتى قالوا لموسى (مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)[٢] .

وبعد تلك المعارك الفكرية، أصبح لا مناص من معارك دموية فقد توعد فرعون موسى ومن آمن معه فقال : (سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ)[٣] .

وأمام هذا التوعد والتهديد أخذ موسى يحيي في نفوس أتباعه بواعث الإيمان والصبر والثبات، وإيماناً بوعد الله له بالنصر والتأييد : (قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)[٤] وظن فرعون أن تلك المعارك ستبقى معارك في مستوى القدرات البشرية وأن الكثرة الكثيرة ستكون درعاً له وسنداً في ذلك الصراع فبدأ فرعون استعداده لتوجيه ضربة قاضية لموسى وقومه ولكن تدخلت يد القدرة الإلهية في ذلك فأهلك الله فرعون وقومه بالغرق في البحر، وقد حكى الله ذلك بقوله: (وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥ

---

(١) سورة الشعراء : ٢٣ ــ ٢٩.
(٢) سورة الأعراف : ١٣٢.
(٣) سورة الأعراف : ١٢٧.
(٤) سورة الأعراف : ١٢٨.

أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ)[1] .

هذه لمحة عن الجدل الذي دار بين موسى عليه السلام وبين فرعون وقومه ونكتفي بهذا القدر من النماذج من جدال الأمم السابقة مع أنبيائهم في إثبات الرسالة.

الجدال في إثبات الرسالة المحمدية وشمولها :

إن أشق مرحلة يصادفها كل رسول من الرسل إنما هي إقناع الناس برسالته، وقد اختلفت وسائل هذا الإقناع وتنوعت أساليبه، وبدأ الرسول صلىٰ الله عليه وسلم كأسلافه من الأنبياء بتقرير أنه رسول، وأنه متصل بالسماء، وأن الوحي ينزل عليه تباعاً.

ولقد بعث رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم بالشريعة الختامية والدين العالمي وظهر في مجتمع جاهلى يتخبط في عشوائه، ونفوس أهله تتطلع إلى هاد يقودهم، ويهديهم سواء السبيل، ونزعتهم العقلية تميل إلى فهم يتشبثون بالأوثان والأصنام ويعبدونها من دون الله لكي تقربهم إلى الله زلفى ولكن النفوس عندما تألف شيئاً وتقيم عليه طويلاً لا يكون انصرافها عنه سهلاً ولا ميسوراً إلا أحاطت بها العوامل الموجبة لذلك من جميع الجوانب فلقد بدأ صلىٰ الله عليه وسلم بالدعوة وأعلن أنه رسول من عند الله ودعا إلى عبادة الله وحده لاشريك له وترك عبادة الأصنام فظهرت المعارضة من قومه بشراسة وعنف دون تحكيم للعقل والمنطق السليم في أبعاد تلك الدعوة العالمية الخيرة.

وكانت عوامل التنافس بين الأسر في القبيلة الواحدة وبين القبائل المختلفة من العوامل التي دفعت بكثير من العرب إلى معارضة الرسالة المحمدية بالإضافة إلى موقف اليهود والنصارى منها لأن انتشارها سيعرض ماهم عليه من دين ومعتقدات إلى الزوال والاندثار، ولقد كانوا يظنون بأن الرسالة ستكون فيهم، كل هذه العوامل

---

(١) سورة الشعراء : ٥٢ ــ ٦٧.

تألبت وتضافرت للقضاء على رسالة الإسلام الخالدة، ولكن الله كتب لها البقاء وهي خليقة بالبقاء إذ هي منهج متكامل للحياة الإنسانية المتكاملة، تربية للفرد وبناء للمجتمع ونظاماً للحكم.

وفيما يلي نماذج من تلك الاعتراضات التي جادلوا بها رسول الله صلىٰ عليه وسلم كما حكى الله ذلك عنهم فقال تعالى :

١ ــ (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ)[1] .

لقد ادَّعوا أن هذا القرآن الذي جاء به رسول الله صلىٰ عليه وسلم مختلق مكذوب جاء به محمد من عند نفسه واستعان على تجميعه وتنسيقه بقوم آخرين.

وقد نقض القرآن هذه الدعوى بأمرين :

أولها ــ بأنه رجل أمي لايكتب ولايقرأ فكيف ظهر عليهم فجأة بهذه المعلومات.

قال تعالى : (وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ)[2] إذ لايعقل أن يأتي رجل أمي بهذا النظام العالمي الشامل الذي يعجز البشر عن الإتيان بمثله، ولم يتلق درساً على معلم، ولا جالس فيلسوفاً، حتى يكون لهم أدنى شبهة فيه.

ثانيها ــ أنه لو كان في استطاعة محمد صلىٰ الله عليه وسلم بمساعدة مجموعة من عباقرة المفكرين في الإتيان بالقرآن من عند نفسه إن افتراض وجود عباقرة ومفكرين حينذاك لكان في استطاعة قريش وهم أهل الفصاحة والبلاغة أن يأتوا بمثله لا سيا إذا استعانوا بأهل الكتاب وبما لديهم من خبرة في عرض الأخبار والقصص، ولكن تحداهم الرسول صلىٰ الله عليه وسلم في مقامات مختلفة بأن يأتوا بحديث مثله وجعلهم في سعة من الأمر، تحداهم بحديث مثله ثم بعشر سور ثم بسورة،

---

(١) الفرقان : ٤.

(٢) سورة العنكبوت : ٤٨.

وقد عجزوا في جميع المقامات والصور ثم جاء التحدي العام للثقلين الجن والإنس ليقطع لجاجتهم ومكابرتهم و ينهي عناد كل متطاول على هذا القرآن الكريم في كل زمان ومكان فقال تعالى: (قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)[1] وهذه حقيقة لامناص من الاعتراف بها ومن أراد التجربه فامامه الميدان.

وقد حكى النقاش أن أصحاب الفيلسوف الكندي قالوا له : «أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن فقال نعم أعمل مثل بعضه فاحتجب أياماً كثيرة ثم خرج فقال والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء ونهى عن النكث وحلل تحليلاً عاماً ثم استثنى بعد استثناء ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين ولايقدر أحد أن يأتي بهذا»[2] والآية التي يعنيها الفيلسوف الكندي هي الأولى من سورة المائدة وهي قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محل الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد).

قال الإمام الشوكاني رحمه الله في تفسيره : «هذه الآية التي افتتح الله بها هذه السورة إلى قوله: (إن الله يحكم ما يريد) فيها من البلاغة ما تتقاصر عنده القوى البشرية مع شمولها لأحكام عدة، منها الوفاء بالعقود، ومنها تحليل بهيمة الأنعام، ومنها استثناء ما يتلى مما لا يحل، ومنها تحريم الصيد على المحرم، ومنها إباحة الصيد لمن ليس بمحرم[3] ، فتبين من كل ماتقدم أن دعوى الكفار بأن هذا القرآن من عند محمد صلى الله عليه وسلم أو من عند غيره من البشر دعوى ساقطة قد أبطلها القرآن كما رأينا وبهذا التحدي قام البرهان على صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما يدعيه من أمر الرسالة وعجزهم عن معارضة القرآن ملزم بالإيمان بأنه من عند الله، وأمام هذا الإلزام لم يبق عندهم إلا إيراد الشبه الساقطة وتقمص عقول الصبيان في

---

(١) سورة الاسراء : ٨٨.

(٢) فتح القدير للشوكاني ج ٢ ص ٤.

(٣) فتح القدير ج ٢ ص ٤.

معارضته، ولم الشك في أمره مع أنه لو أخبرهم أن خيلا وراء الوادي ستغير عليهم لصدقوه لأنهم لم يعهدوا عليه كذباً؟ وكانوا يلقبونه بالأمين، ثم إنه قد لبث فيهم قبل الرسالة أربعين عاماً فلم يحدثهم بشيء من أمور النبوة: ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[1] .

٢) وقال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾[2] .

اشتملت هذه الآية على خمس شبه أوردها على رسول الله صلى عليه وسلم طعناً في صفاته زاعمين أنها أمور تخل بالرسالة :

الأولى : أنه كان يأكل الطعام، والثانية : أنه يمشي في الأسواق، اعترضوا على أكله الطعام لأنهم أرادوا أن يكون الرسول ملكاً، وعيروه بالمشي في الأسواق حين رأوا الأكاسرة والقياصرة وملوك الجبابرة يترفعون عن الأسواق فقالوا هذا يطلب أن يتملك علينا فما باله يخالف سيرة الملوك[3] .

الثالثة : أنه لم يكن معه ملك يشهد له و يصدقه و يرد على من خالفه.

الرابعة : أنه لم يلق إليه كنز من السماء فينفقه فلا يحتاج إلى طلب المعايش.

الخامسة : إذا لم يكن له كنز فلا أقل من أن يكون له بستان يأكل من ثماره، ثم أعقبوا هذه الشبهات بدعوى أنه رجل مسحور و بطلان هذه الدعوى ظاهر لكل ذي لب.

إن تلك الشبهات في غاية الركاكة ومع ذلك فقد أبطلها القرآن ورد الشبهة

---

(١) سورة يونس : ١٦.

(٢) سورة الفرقان : ٧ ــ ٨.

(٣) أنظر تفسير القرطبي ج ١٣ ص ٥.

الأولى والثانية بقوله تعالى: (وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ)[1].

وبقوله تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)[2].

تلك سنته في رسله أن يجعلهم من البشر، ولم يجد اليهود ولا النصارى بدا من الاعتراف بأن الرسل السابقين كانوا حقاً كذلك، وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعلن لهم هذه الحقيقة فقال تعالى: (قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)[3].

إذن شأنه صلى الله عليه وسلم كغيره من الرسل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لطلب المعيشة ويتزوج النساء ويكون له أولاد ولا يقدح ذلك في رسالته كما لم يقدح في رسالات الأنبياء السابقين عليهم السلام.

والرسل الكرام وإن كانوا هم الصفوة من البشر إلا أن فطرتهم البشرية تجعلهم كغيرهم من البشر يحتاجون لما يقوم حياتهم من الاستمتاع بأنعم الله (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)[4] وإنما مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام إبلاغ رسالات الله تعالى إلى من أرسلوا إليهم.

أما الرد على الشبهة الثالثة: فإنه قد ثبت بالمعجزات الظاهرة أنه رسول من عند الله ومهمته تبليغ ما كلف به من الوحي، وليس له أن يغير أو يبدل في أمور الرسالة ولا أن ينزل الملائكة أو الآيات إلا بإذن الله (وما كان لرسول أن يأتي بآية إلاّ بإذن الله) فالله تعالى هو الذي يملك إرسال وإنزال الملائكة والكتب فالأمر لله وحده.

---

(١) سورة الفرقان: ٢٠.

(٢) سورة الرعد: ٣٨.

(٣) سورة الأحقاف: ٩.

(٤) المؤمنون: ٥١.

ثم ماذا يريدون من إنزال الملك وقد أتاهم رسول الله بما يشهد بصدقه وصحة رسالته، وعلى فرض أنه جاءهم ملك فلن يكون على هيئة الحقيقة بل لا بد أن يأتيهم في صورة رجل كما جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع الرسول جمع من الصحابة كما في حديث عمر بن الخطاب المشهور قال: (بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال يا محمد أخبرني عن الإسلام... الخ) وفي آخر الحديث قال صلى الله عليه وسلم (يا عمر أتدري من السائل؟ قلت الله ورسوله أعلم، قال فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم) رواه مسلم[1] .

إذن مجيء الملك على وضعه الطبيعي غير مناسب لحالهم فتعين أن يكون الرسول إلى البشر من جنس البشر وقد أشار الله إلى هذه الحقيقة بقوله: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾[2] .

أما الشبهة الرابعة والخامسة : فقد جعلوا ميزان السعادة والفضل أموراً مادية ويريدون من وراء ذلك الوصول إلى نتيجة خبيثة هي أن الله تعالى لو كان يحب رسوله لأعطاه الكنوز وكانت له الحدائق الواسعة الوارفة الظلال.

وهذا خطأ ظاهر فإن المكاسب المادية ليست برهاناً على السعادة والفضل فالله تعالى يعطي الملك والمال والصحة والبر والفاجر، وأما الرسالة فلا تكون إلا لمن اختصه الله واصطفاه من خلقه (ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ)[3] .

ومع ذلك فإن تلك الأمور المادية سهلة ويسيرة على الله تعالى ولو شاء لوهبها لرسوله صلى الله عليه وسلم ولكن له الحكمة في ترك ذلك وله الحجة البالغة.

---

(١) صحيح مسلم ج ١ ص ٢٩.
(٢) سورة الأنعام : ٩.
(٣) سورة الأنعام : ١٢٤.

قال تعالى : (تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً) قال مجاهد يعني في الدنيا، وقد أورد ابن كثير في تفسيره قول سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن خيثمة قيل للنبي صلى الله عليه وسلم إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها مالم نعطه نبياً قبلك ولا نعطي أحداً من بعدك ولا ينقص ذلك مما لك عند الله فقال: (اجمعوها لي في الآخرة) فأنزل الله عز وجل في ذلك: (تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك ... الآية)[1] إذن فهذه الشبهة في غاية البطلان ولا تقدح في فضل صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ولاتخل بشيء من أمور الرسالة.

٣ ـ قال تعالى : (وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ)[2] عندما يرى العرب حججهم تنهار وشبهاتهم تتلاشى تثور كوامن الأحقاد في أنفسهم فيهرفون بما لا يعقل ولا يتفق مع المنطق السليم فيقولون عن محمد صلى الله عليه وسلم: إنه مجنون، كما وصفوه بأنه ساحر أو مسحور، وبأنه ليس من عظماء القريتين[3] .

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا أن المجنون لايعقل شيئاً وإنما يهذي بكلام لا يستند إلى منطق عقلي ولا يكون عنده أسلوب يضم به أطراف الحديث فكيف أتى محمد صلى الله عليه وسلم بهذا القرآن الذي يتحدى الأجيال أن تأتي بمثله عبر القرون، أعتقد أن الأمر واضح لكل ذي لب، علماً أن هذه الدعاوى لم تكن وليدة يومها فهي تمتد إلى أعماق القرون الغابرة وهي وسيلة من وسائل التكذيب يستخدمها أعداء الرسل في كل زمان ومكان توجد فيه الرسل، وقد نزل القرآن وفيه تسلية لرسول الله وإشعار بأن كل نبي تعرض لمثل هذه المفتريات فقال تعالى: (كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)[4] .

لقد طلب القرآن إلى هؤلاء الظالمين المكذبين أن يتفكروا في أمر صاحبهم هذا

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣١٠.

(٢) سورة الحجر : ٦.

(٣) القريتين مكة والطائف قاله ابن عباس وعكرمة: أنظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٢٦.

(٤) سورة الذاريات : ٥٢.

الذي نشأ بينهم وترعرع على مرأى ومسمع منهم بل كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم بالصدق والأمانة ورجاحة العقل فقال تعالى: (قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ شديد)[1] .

والمعنى على ما ورد في الكشاف للزمخشري «ملخصاً» إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم، وهي « أن تقوموا لوجه الله خالصاً متفرقين اثنين اثنين وواحداً واحداً ثم تتفكروا في أمر محمد صلىٰ الله عليه وسلم وما جاء به.

أما الإثنان فيفكران و يعرض كل منهما محصول فكره على صاحبه و ينظران فيه متصافيين متناصفين لا يميل بهما اتباع هوى ولا ينبض لهما عرق عصبية حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه، وكذلك الفرد يفكر في نفسه بعدل ونصفة من غير أن يكابرها و يعرض فكره على عقله وذهنه وما استقر عنده من عادات العقلاء ومجاري أحوالهم، والذي أوجب تفرقهم مثنى وفرادى أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ويمنع من الرؤية ومع ذلك يقل الإنصاف و يكثر الاعتساف، وقد علمتم أن محمداً صلىٰ الله عليه وسلم ما به من جنة بل علمتموه أرجح قريش عقلاً وأصلحهم رأياً وأصدقهم قولاً وأنزههم نفساً فكان مظنة لأن تظنوا به الخير وإذا فعلتم ذلك كفاكم عن مطالبته بأن يأتيكم بآية[2] وكيف تصفه قريش بالجنون وهو طبيب العقول يصحح مفاهيمها ويحررها من ربق الوثنايات والخرافات ويهديها صراط الله المستقيم.

ومن لطائف هذا الموضوع قصة ضماد الأزدي مع رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم كما رواها ابن كثير في السيرة حيث قال: «روى مسلم والبيهقي من حديث داود بن أبي هند عن عمرو بن سعيد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قدم ضماد مكة وهو رجل من أزد شنؤة، وكان يرقى من هذه الرياح فسمع سفهاء من سفهاء

---

(١) سبأ: ٤٦.

(٢) الكشاف ج ٣ ص ٢٩٤ والتفكير الفلسفي في الإسلام للدكتور عبد الحليم محمود ص ٥٨.

مكة يقولون : إن محمداً مجنون فقال أين هذا الرجل لعل الله أن يشفيه على يدي؟ قال فلقيت محمداً فقلت إني أرقى من هذه الرياح وإن الله يشفي علي يدي من شاء فهلم، فقال محمد: (إن الحمد لله نحمده ونستعينه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ثلاث مرات).

فقال : والله لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات فهلم يدك أبايعك على الإسلام، فبايعه رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فقال له وعلى قومك؟ فقال ولى قومي، فبعث النبي صلىٰ الله عليه وسلم جيشاً فروا بقوم ضماد فقال صاحب الجيش للسرية هل أصبتم من هؤلاء القوم شيئاً؟ فقال رجل منهم أصبت مظهرة[1] ، فقال ردّها عليهم فإنهم قوم ضماد.

وفي رواية فقال له ضماد : أعد على كلماتك هؤلاء فلقد بلغن قاموس[2] البحر[3] . ولسنا بحاجة إلى إقامة البرهان على سلامة عقلية رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم في جميع أطوار حياته قبل الرسالة وبعدها فإن هذا ظاهر ظهور الشمس في رابعة النهار، قال المتنبي :

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

ولكن الغرض تبيان معارضة مشركي العرب للرسالة بشتى الوسائل لصرف الناس عن الإيمان حتى قالوا هذه المقالة الشنيعة وغيرها من سفساف القول وهذر الكلام.

٤ ـ لم يقف مشركو العرب في الميدان وحدهم ضد رسالة محمد صلىٰ الله عليه وسلم فقد لعب اليهود والنصارى أدواراً مهمة في التكذيب والتشكيك ولكن ما جاء

---

(١) المظهرة : البعير الذي أتت عليه الظهيرة وهو يرعى.
(٢) قاموس البحر : أبعد موضع فيه غورا.
(٣) السيرة النبوية للحافظ ابن كثير ج ١ ص ٤٥٢.

به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحق قد يتفق مع الحق الذي بقي لديهم من التوراة والإنجيل وإنكار الحقائق المشهورة لديهم تعرضهم للتناقض والاختلاف ولهذا يحجمون عن كثير من الحقائق والصفات والنواميس التي تبعث بها الرسل خشية من أن يظهر منهم ما يؤيد رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، ولكنهم لم يألوا جهداً في التشكيك والطعن في الرسالة وظهروا أمام الناس بمظهر المحافظ على عهود الله واحترام مواثيقه فإنهم يقولون ما تركوا الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم حسداً له وإنما تركوا ذلك لأنه لم يأت بالمعجزات التي أتى بها الأنبياء السابقون فهم معذورون إذا لم يؤمنوا به لأنه ليس نبياً صادقاً في زعمهم.

ولقد حكى القرآن الكريم عن اليهود شبهتهم هذه ورد عليها بما يدحضها فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (١) ﴾.

وملخص هذه الشبهة أنهم قالوا : إن الله عهد إليهم في كتبهم ألا يؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته فتقبلت منه أن تنزل نار من السماء فتأكلها.

وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم من واقع تاريخهم المظلم فقال: قل لهم يامحمد (قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات) أي بالحجج والبراهين (وبالذي قلتم) أي بنار تأكل القرابين المتقبلة (فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين) في زعمكم أنكم تتبعون الحق وتنقادون للرسل.

فقد نقض القرآن دعواهم وأبطلها ومعنى هذا أن العلة التي توجب عندكم الإيمان بالرسل قد وجدت فلم قتلتموهم؟

«وقد بين الله بهذه الأدلة أنهم يطلبون هذه المعجزة لا على سبيل الاسترشاد وإنما

---

(١) سورة آل عمران : ١٨٣.

على سبيل التعنت وذلك لأن أسلافهم طلبوا هذه المعجزة من الأنبياء السابقين مثل زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام، فلما أظهروا لهم هذا المعجز سعوا في قتلهم بعد أن قابلوهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة، وهذا يدل على أن مطالبهم كانت على سبيل التعنت إذ لو لم يكن الأمر كذلك لما سعوا في قتلهم ومتأخرو اليهود راضون بفعل متقدميهم وهذا يقتضي كونهم متعنتين أيضاً في مطالبهم ولهذا لم يجبهم الله فيها»[1] ، وقد أقام القرآن عليهم براهين متنوعة كل واحد منها ملزم لهم بتصديق محمد صلى الله عليه وسلم في كل ما يقوله، قال الله تعالى: (كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ)[2] ، فقد روى «أن إسرائيل أخذه وجع العرق الذي يقال له النسا، فنذر لئن شفاه الله تعالى منه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه وكان أحب ذلك إليه لحوم الإبل وألبانها فشفي فوفى بنذره»[3] ، وادعت اليهود أن ذاك كان حراماً على نوح حتى انتهى الأمر إليهم فبين الله تعالى بطلان دعواهم وأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يحاجهم بالتوراة فلم يجسروا على إخراجها وفي ذلك الدلالة الظاهرة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم، والأدلة كثيرة في الرد على شبه اليهود واعتراضاتهم كمسائل التحليل والتحريم وتحويل القبلة وغيرها.

٥ ــ أما النصارى فالبراهين الملزمة لهم بتصديق محمد صلى الله عليه وسلم كثيرة جداً، ومنها حادثة المباهلة مع نصارى نجران في مسألة المسيح بن مريم عليه السلام حيث بلغ الجدال في هذه المسألة ذروته كما تقدم وعولجت المشكلة من جميع جوانبها وهم لا يزدادون إلا إصراراً على رأيهم وأباطيلهم، فوجه القرآن الكريم نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يفض النزاع معهم ويلجأ إلى المباهلة فأنزل الله تعالى قوله: (فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا

---

(١) انظر الفخر الرازي ج ٩ ص ١٢٢ وانظر بني إسرائيل في القرآن للدكتور محمد سيد طنطاوي ج ١ ص ١٩٣.
(٢) سورة آل عمران : ٩٣ ــ ٩٤
(٣) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٨١ ــ ٣٨٢.

وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ)[1] .

وقد روى أنهم لما دعوا إلى المباهلة قالوا حتى نرجع وننظر فلما تخالوا قالوا للعاقب، وكان ذا رأي فيهم: يا عبد المسيح ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أنَّ محمداً نبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم والله ما باهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ولئن فعلتم لتهلكن فإن أبيتم إلا الف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم .. الخ والقصة مشهورة في التفاسير والسير[2] .

فعدول النصارى عن المباهلة اعتراف منهم برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ومتى قامت الحجة على صدق الرسول أو حصل الاعتراف به وجب تصديقه في كل ما يخبر به لأن الرسول لا يجوز عليه الكذب ولا يخطىء فيما يكلف بتبليغه من الوحي ولا تجوز عليه الخيانة فيما يبلغ عن الله تعالى. هذه لمحة عن الجدل في إثبات رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

أما شمولها لعموم البشر، فلا يخلو الأمر إما أن يكون المخالف مؤمناً بأنه مرسل من عند الله ولكن رسالته خاصة بالعرب كما تقوله العيسوية[3] وهي فرقة من فرق اليهود، وإمَّا أن يكون المخالف منكراً للرسالة جملة وتفصيلاً، فأما المعترف له بالرسالة فإنه يلزمه أن يصدقه في كل ماجاء به عن الله ومن ذلك عموم رسالته ونسخها للشرائع قبلها حتى شريعة موسى عليه السلام الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم (لو كان أخي موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي) أما كونه يؤمن برسول ولا يصدقه فيما جاء به فهذا تناقض ومكابرة.

(١) سورة آل عمران : ٦١.

(٢) وانظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٦٨.

(٣) العيسوية نسبة إلى أبي عيسى اسحاق بن يعقوب الأصفهاني، كان في زمن المنصور وابتدأ دعوته في عهد مروان بن محمد آخر بني أمية، وادعى أن له آيات ومعجزات وزعم أنه نبي وأنه رسول المسيح المنتظر، أنظر الملل والنحل للشهرستاني ج١ ص ٢١٥ ــ ٢١٦.

أما المنكر لرسالة نبينا محمد صلىٰ الله عليه وسلم مطلقاً فقد قام البرهان على صدق صاحب الرسالة صلىٰ الله عليه وسلم ولا تزال معجزاته تتحدى الثقلين الجن والإنس وهي القرآن في أن يأتوا بمثله، ومع ذلك نقول له:

إما أن تأتي بما ينقض المعجزة القائمة وإلا لزمك الاعتراف بمدلولها فإن اعترف بالرسالة لزمه التصديق بكل ما أخبر به الرسول صلىٰ الله عليه وسلم وإن ذهب يكابر و يعاند ليأتي بقرآن مثل ما جاء به محمد صلىٰ الله عليه وسلم وقع في العجز لا محالة فقد عجز أرباب الصنعة البلاغية، ولا شك فى أن غيرهم أعجز عن هذا لأنه معجزة خالدة وتحدي المعجزات تحد للقدرة الإلٰهية التي لا تغلب، فإذا لم ينقضوا المعجزة القائمة بما يماثلها، فقد شهدوا على أنفسهم بالعجز والفشل.

أما الأدلة من القرآن الكريم على عموم رسالة محمد صلىٰ الله عليه وسلم فمنها ما يلي :

١ ــ قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾(١) .

٢ ــ قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٢) .

٣ ــ قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾(٣) .

٤ ــ قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ

(١) سورة الفرقان : ١.

(٢) سورة سبأ ٢٨.

(٣) سورة الأنبياء ١٠٧.

إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)[١] .

والآية الرابعة لا تقبل الجدل في أن رسالة محمد صلىٰ الله عليه وسلم تشمل اليهود والنصارى لذكر التوراة والإنجيل ولأن السياق قبلها في بني إسرائل، ومما ورد في السنة المطهرة قوله صلىٰ الله عليه وسلم: (والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمه يهوديّ أو نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار) رواه مسلم[٢] .

تلك معالم الرسالة المحمدية الخالدة، وإذا ظهر أدعياء الفكر الحديث من المستشرقين ومن تغذى بألبانهم وروجوا لدعاواهم في القرآن الكريم بأنه من قبيل الوحي النفسي فإننا نعلم يقيناً أنهم قد نسجوا على هذه الدسيسة ثوباً أو هي من بيت العنكبوت ولن تخفى على ذوي العقول السليمة والبصائر النيرة تلك المطاعن المتهافتة التي يضمرونها للطعن في القرآن الكريم و يدرسونها فيما يقدمونه للعالم من نتاج فكري يدعون فيه الإنصاف في القول والبحث عن الحقيقة ولكنهم في بحوثهم تلك يدسون السم الزعاف بشكل مقبول عند بسطاء الناس من ذوي الثقافة المحدودة، والحقيقة أن تلك الأفكار الجديدة التي يرتبها بعض المستشرقين و يروجون له ليست إلا إعادة لفكرة الجاهلية الأولى التي وقفت طو يلاً أمام رسول البشر ية وهاديها محمد صلىٰ الله عليه وسلم، ولكن المفكرين من علماء الإسلام بحمد الله يدركون ما تنطوي عليه الشبهات المغرضة، ولقد أحسن الدكتور محمد عبد الله دراز في رده على ما يسمى اليوم بالوحي النفسي الذي يزعمون فيه أن محمداً صلىٰ الله عليه وسلم كان يتخيل القرآن عن طر يق ذلك التصور الفكري حيث قال: «ومن تتبع أنواع المجادلات التي حكاها القرآن عن الطاعنين فيه رأى أن نسبتهم القرآن إلى تعليم البشر كانت هي أقل الكلمات دوراناً على ألسنتهم وأن أكثرها وروداً في جدلهم هي نسبته إلى نفس صاحبه على اضطرابهم في تحديد تلك الحالة النفسية التي صدر عنها القرآن:

---

(١) سورة الأعراف ١٥٧ ــ ١٥٨.

(٢) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ١٣٤.

أشعر هي أم جنون أم أضغاث أحلام ... ثم قال «وهذا الرأي هو الذي يروجه الملحدون اليوم باسم «الوحي النفسي» زاعمين أنهم بهذه التسمية قد جاءونا برأي علمي جديد وما هو بجديد وإنما هو الرأي الجاهلي القديم لا يختلف عنه في جملته ولا في تفصيله فقد صوروا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم رجلاً ذا خيال واسع وإحساس عميق فهو إذاً شاعر، ثم زادوا فجعلوا وجدانه يطغي كثيراً على حواسه يخيل إليه أنه يرى و يسمع شخصاً يكلمه وما ذاك الذي يراه و يسمعه إلا صورة أخيلته ووجداناته فهو إذاً الجنون أو أضغاث الأحلام، على أنهم لم يطيقوا الثبات طو يلاً على هذه التعديلات فقد اضطروا أن يهجروا كلمة «الوحي النفسي» حينما بدا لهم في القرآن جانب الأخبار الماضية والمستقبلة فقالوا لعله تلقنها من أفواه العلماء في أسفاره للتجارة فهو إذاً قد علّمه بشر، فأي جديد ترى في هذا كله؟ أليس كله حديثاً معاداً يضاهئون به قول جهال قريش؟ وهكذا كان الالحاد في ثوبه الجديد صورة منسوخة بل ممسوخة منه في أقدم أثوابه وكان غذاء هذه الأفكار المحتضرة في العصر الحديث مستمداً من فتات الموائد التي تركتها تلك القلوب المتحجرة في عصور الجاهلية الأولى (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم).

وإن تعجب فعجب قولهم مع هذا كله إنه كان صادقاً أميناً وإنه كان معذوراً في نسبة رؤاه إلى الوحي الإلٰهي لأن أحلامه القو ية صورتها له وحياً إلٰهياً فما شهد إلا بما علم وهكذا حكى الله لنا عن أسلافهم حيث يقول: (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ)[1] فإن كان هذا عذره في تصوير رؤاه وسماعه فما عذره في دعواه أنه لم يكن يعلم تلك الأشياء لا هو ولا قومه من قبل هذا بينما هو قد سمعها بزعمهم من قبل؟ فليقولوا إنه افتراه ليتم لهم بذلك محاكاة كل الأقاو يل ولكنهم لا يريدون أن يقولوا هذه الكلمة لأنهم يدعون الإنصاف والتعقل ألا فقد قالوها من حيث لا يشعرون»[2] .

وخلاصة رأي هؤلاء الماديين : أن الوحي الهام كان يفيض من نفس النبي

---

(١) سورة الأنعام : ٣٣.
(٢) النبأ العظيم ص ٥٩ ــ ٦٠.

الموحى إليه لا من الخارج، وقد ذكر العلامة السيد محمد رشيد رضا في كتابه «الوحي المحمدي» شبهات المنكرين لعالم الغيب على الوحي الإلهي وتصويرهم لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم بما يسمونه بالوحي النفسي وذكر أن «أميل درمنجام» قد فصل الشبهة التي أجملها «مونتيه»، كما ذكر أن هذه الشبهة لها عشر مقدمات: منها دعوى الأخذ عن بحيرا الراهب والأخذ من ورقة بن نوفل، ودعوى انتشار النصرانية واليهودية في بلاد العرب ... الخ وقد ناقش تلك الشبهات ورد عليها بمنطق الحجة والبرهان (١).

ونكتفي بهذا القدر من الأدلة على عموم رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وشمولها إذ لو ذهبنا نستقصي الأدلة ونناقش شبهات الخصوم لخرجنا عن حد الاختصار.

---

(١) انظر الوحي المحمدي من ص ٨٧ ـ ١٤١.

د ـ الجدال في البعث والجزاء

الجدال في البعث والجزاء من الموضوعات المهمة التي شغلت الفكر الإنساني منذ القدم وتصارعت فيها الأفكار بين السلب والإيجاب، والبشرية بما هو مرتكز في فطرتها من حب البقاء تقاوم فكرة العدم المحض لأنها تحس بالحسرة الصارخة عندما تختنق فيها بواعث الأمل باستمرار هذه الحياة الدنيا فهي ترى مظاهر الموت على قدم وساق حيث تسلب الحياة من هذه الأجساد ثم لا تلبث الأجساد أن تتحول إلى رفات ثم تتحلل إلى ذرات، فإذا كان مصير الإنسانية إلى هذا الفناء الرهيب فما أبشعها من حياة محوطة بالمخاطر بين لحظة وأخرى إنها رحلة تشدها الأحاسيس والمدارك إلى حفرة رهيبة في نهاية المطاف فتصبح فيها الأجساد رَمة عفنة ينهشها الدود من كل مكان.

وقد جاءت الأديان السماوية مبشرة بحياة أخرى بعد الموت وجعلت مصير كل إنسان مرتهناً بما قدمت يداه في الحياة الدنيا، وبذلك عاد للإنسانية نوع من الطمأنينة إذا هي آمنت بربها وما جاءت به رسله، وقدمت عملاً صالحاً تسعد به في حياتها الأخرى.

وإذا كانت جميع الأديان السماوية تدعو للإيمان بالحياة الأخرى والبعث بعد الموت فقد كانت الأديان السابقة تكل المؤمن إلى إيمانه الذي يفترض عليه التصديق بكل ما جاءت به رسل الله عليهم الصلاة والسلام من أنباء الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، وختمت تلك الرسالات برسالة الإسلام الخالدة وهي الرسالة العالمية وليس بعدها رسالة تبين للناس ما يختلفون فيه وما يستجد من حياتهم العقلية والحضارية، فلابد من أن تكون وافية بمطالب الروح والجسد في تعاليمها وهداياتها، ولابد من أن تكون براهينها قائمة على ما جاءت به من مبادىء وقيم لأن الجدل مرتكز في بني الإنسان جبلة وطبعاً (وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً) ولما كان الإقناع بحياة أخرى بعد الموت من الأمور التي تشغل الفكر الإنساني فقد جاء القرآن

الكريم وافياً بالأدلة والبراهين القاطعة على البعث والجزاء وعرض ذلك في نماذج حية، وضمنها شبه المنكرين للبعث، ولم يتركها تمر دون مناقشة لها بالمنطق الصحيح وإبطال الشبه والملابسات بالبراهين العقلية التي تزيل فكرة الفناء الأبدي وتعيد للإنسانية طمأنينتها وتدفعها للعمل، وتحيي فيها آمال التسابق في الدرجات العلا في حياة أفضل.

منكرو البعث من الطبائعيين والماديين :

وقبل أن نتحدث عن منهج القرآن الكريم في إثبات البعث والجزاء. نريد أن نعرف أن الإنكار ممتد في الأمم الماضية عبر القرون والأعصار، وأن الفلاسفة الطبيعيين أنكروا ذلك، ونريد أن نعرف بوجه عام الشبهات التي يستمسك بها كل منكر للبعث، وليس لدينا بالنسبة للأمم الماضية سجل تاريخي أصدق من القرآن الكريم وقد حدثنا القرآن عن صدور الإنكار والاستبعاد من تلك الأمم المكذبة لرسلها فقال تعالى: (بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ)[1] .

وقال تعالى : (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ)[2] .

ووجه الاستدلال من هذه الآيات على تكذيب الأمم السابقة بالبعث، أن السياق من أول السورة يتعلق بالمكذبين بالبعث من قوله تعالى حكاية عنهم: (أ إذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد) إلى قوله: (وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرسل وثمود ..الآيات)، ثم قال: (أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد) وإن كان اللفظ يدل على مطلق التكذيب من الأمم المذكورة لرسلها إلا أن التكذيب بالبعث يدخل في ذلك دخولاً أولياً

---

(١) سورة المؤمنون : ٨١ ــ ٨٣.
(٢) سورة ق ١٢ ــ ١٥.

لارتباطه بسياق الآيات التي قبله والتي بعده، فالمنكرون للبعث هم الكفرة المنكرون لوجود الله والفلاسفة الذين يطلق عليهم الإمام الغزالي «الطبيعيون» وهم الماديون الذين لا يؤمنون بما وراء المادة فيقولون «بطن تدفع وأرض تبلغ وما يهلكنا إلا الدهر».

والطبيعيون كما يقول الغزالي «قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات وأكثروا الخوض في علم التشريح أعضاء الحيوانات فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى وبدائع حكمته ما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم مطلع على غايات الأمور ومقاصدها ولا يطالع علم التشريح وعجائب منافع الأعضاء مطالع إلا يحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير المباني لبنية الحيوان لاسيما الإنسان إلا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة، ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان به، فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضاً وأنها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم ثم إذا انعدم فلا يعقل إعادة المعدوم كما زعموا، فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود فجحدوا الآخرة وأنكروا الجنة والنار والحشر والنشر والقيامة والحساب فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ولا للمعصية عقاب فانحل عنهم اللجام وانهمكوا في الشهوات انهماك الأنعام [(١)] .

وكلام الغزالي وارد على الطبيعيين من الفلاسفة القدماء لأنه قسم الفلاسفة إلى ثلاثة أقسام: الدهريون، والطبيعيون، والإلهيون.

فالدهريون :هم الذين جحدوا وجود الصانع المدبر، وهؤلاء هم الزنادقة.

والطبيعيون «اعترفوا بالصانع لما رأوا في عجائب الطبيعة من تناسب محكم لا يمكن أن يكون وليد المصادفة، ولكنهم رأوا أن النفس تابعة للبدن ولذلك تفنى بفنائه» ولا يمكن أن تعود.

---

(١) المنقذ من الضلال للغزالي ص ٧٦ ــ ٧٧.

الإلهيون: وهم المتأخرون منهم مثل «سقراط» و«أفلاطون» و«أرسطاطاليس».

قال الغزالي: «وهم بجملتهم ردوا على الصنفين الأولين الدهرية والطبيعية وأوردوا في الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ﴾[1] بتقاتلهم»[2].

أما الطبيعيون من العرب فإنه لم يكن عندهم في إنكار البعث منطق جدلي فلسفي وليس لديهم من دليل سوى الاستبعاد والإنكار»، ولهذا يقول قائلهم:

حياة ثم موت ثم نشر   حديث خرافة يا أم عمرو[3]

وقال الآخر في رثاء أهل بدر من المشركين:

فماذا بالقليب قليب بدر   من الشيزى تكلل بالسنام

يخبرنا الرسول لسوف نحيا   وكيف حياة أصداء وهام[4]

شبهات منكري البعث:

ومن شبههم ووجوه استبعادهم للبعث الشبة الآتية:

الشبهة الأولى: أن تفتت العظام وتحلل الجسد إلى ذرات ترابية واختلاط هذه الذرات بعضها ببعض وضياعها في الأرض مع ما يطرأ على الأرض من تغيرات بالأمطار والنباتات وغيرها كل ذلك موضع بعد واستغراب من الكفار.

والجواب عن هذه الشبهة: يكون بالاحتجاج عليهم بقدرة الله الشاملة لكل شيء

---

(١) آية من الأحزاب ــ ٢٥.
(٢) انظر المنقذ من الضلال ص ٧٦ ــ ٧٧.
(٣) الملل والنحل للشهرستاني ج ٢، ص ٢٣٧.
(٤) السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٥٣٦.

ويعلمه المحيط بكل شيء ومانصبه من دلائل في الآفاق وفي الأنفس على إمكان المعاد، ومن هنا نعلم أن مبنى الأدلة على قاعدتين أساسيتين: هما القدرة والعلم.

أما القدرة : فإن الله تعالى قادر على كل شيء، وقدرته تستلزم أن يكون قادراً على جمع ماتفرق من ذرات الأجساد، وإعادة بنائها وتكوينها وإرسال الأرواح إليها ثم بعثها وحشرها، والأدلة على ذلك كثيرة منها :

١ ــ قياس الإعادة على الابتداء إما عن طريق قياس (المساواة) كما قال تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾[١] ، وكقوله تعالى: «كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين)[٢] يعني أن الإعادة ستكون مثل الابتداء في قدرة الله عليها وقد حصل الايجاد أولاً، فما المانع من الإعادة ثانياً، وإما عن طريق قياس (الأولى) كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[٣] وسيأتي لهذا مزيد من الإيضاح.

٢ ــ وأما علمه المحيط بكل شيء، فإنه يستلزم أن لا يشتبه عليه أي جزء من أحد بأجزاء الآخرين لكمال علمه وإحاطته بجميع الذرات وما تحلل منها، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾[٥] .

وقال تعالى: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾[٦] .

وفي الآية رد على المنكرين الذين قالوا: ﴿ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ

---

(١) سورة الأعراف : ٠٢٩

(٢) سورة الأنبياء : ١٠٤

(٣) سورة الروم : ٢٧.

(٤) سورة يونس : ٦١.

(٥) سورة سبأ : ٢.

(٦) سورة ق ٤.

جَدِيدٍۭ)[1] فإنهم يستبعدون كل البعد إعادة بناء الجسد وقد تفرقت أجزاؤه في الأرض واختلطت بالماء والتراب.

الشبهة الثانية : أن الإنسان إذا مات وفارقته القوة الغاذية والنامية لا تعود إليه تلك القوة مرة أخرى.

والجواب عن هذه الشبهة : أن الأرض أشد جموداً وأكثر خموداً من الإنسان والله تعالى ينبت فيها أنواع النباتات فتنمو وتتزايد فكذلك الإنسان تعود إليه الحياة، قال تعالى: (وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ)[2] . ووجه الدلالة من الآية على البعث ما ظهر في الأرض من قدرة الله الخالقة وما أودع فيها من قوة قابلة لإحياء النباتات ونموها بعد مواتها مع مافي الأرض من الصلابة كما تقدم.

قال تعالى: (وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ)[3] وفي هذه الآية استدلال بنفس النبات حيث ينمو و يزيد فكذلك الإنسان بعد الموت ينمو و يزيد بأن يرجع الله تعالى إليه قوة النشوء والنماء كما يعيدها إلى الأشجار بواسطة ماء السماء، و بين هذا و بين حال الناس عند البعث مشابهة كما ورد أن السماء تمطر مطراً كمني الرجال فتنبت منه الأجساد، ذكره النووي وأصل الحديث في صحيح مسلم (ثم يرسل الله أو قال ينزل مطراً كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس[4]) .

الشبهة الثالثة : وهي شبهة بعيدة قد يقصد بها المنكر العناد والتعنت وهي: أنه لو أكلت السباع إنساناً أو أكل إنسان إنساناً آخر، وصارت أجزاء المأكول في أجزاء الآكل فإن أعيد فأجزاء المأكول، أما أن تعاد إلى بدن الآكل فلا يبقى للمأكول

---

(1) سورة السجدة : ١٠.
(2) سورة ق : ٠٧.
(3) سورة ق : ٩.
(4) صحيح مسلم ص ٢٠١ ج ٨ مطبعة محمد علي صبيح بمصر.

أجزاء تخلق منها أعضاؤه، وأما أن تعاد إلى بدن المأكول منه فلا يبقى للآكل أجزاء.

والجواب عن هذه الشبهة كما ذكره الرازي في تفسيره يكون بقوله تعالى: (وهو بكل خلق عليم) ووجهه أن في الآكل أجزاء أصلية وأجزاء فضلية وفي المأكول كذلك فإذا أكل إنسان إنساناً صار الأصلي من أجزاء المأكول فضلياً من أجزاء الآكل والأجزاء الأصلية للآكل هي ما كان له قبل الأكل، واللهُ بكُلّ خَلْقٍ عَليْمٌ، يعلم الأصلي من الفضلي فيجمع الأجزاء الأصلية للآكل وينفخ فيها روحه ويجمع الأجزاء الأصلية للمأكول وينفخ فيها روحه وكذلك يجمع الأجزاء المتفرقة في البقاع؛ المبددة في الأصقاع بحكمته الشاملة وقدرته الكاملة[1] .

واعلم أن مسألة البعث مسألة بالغة الصعوبة لدى كل متشكك فيا جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام لأنه لابد من أن ينضم إلى أدلة البعث الإيمان بما أخبرت به الرسل، فإن مجرد الاستدلال العقلي وإن دل على ذلك أو قال بإمكانه فهو لا يكفي لاقتحام تلك المنطقة الغيبية ومعرفة ما تنطوي عليه من مظاهر الحشر والنشر والحساب والجنة والنار فلابد من الرجوع إلى ما جاءت به الرسل وبذلك تقوم الأدلة العقلية على إمكان البعث وتحقق وقوعه.

والقرآن الكريم وهو كتاب الله الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) يرد على جميع المنكرين للبعث مهما اختلفت بيئاتهم أو تنوعت أساليبهم يرد عليهم بمنطق الحجة والبرهان، ويقيم البراهين الحسية والعقلية على المعاد.

منهج القرآن في استدلاله على إمكان البعث وتحقق وقوعه :

ولقد نهج القرآن الكريم في استدلاله على إمكان البعث، وتحقق وقوعه منهجاً قويماً يجمع بين ما فطرت عليه النفوس من الإيمان، بما تشاهد وتحس ويقع منها تحت تأثير السمع والبصر وبين ما تقرره العقول السليمة ولا يتنافى مع الفطر المستقيمة، وتلك طريقة تميز بها القرآن الكريم مما لا تجده في كتب الحكمة النظرية.

---

(١) الفخر الرازي ج ٢٦ ص ١٠٩ – ١١٠.

وكان منهج القرآن في استدلاله على البعث كما يلي :

أولاً : الاستدلال على البعث بمن أماتهم الله ثم أحياهم، كما أخبر الله تعالى عن ذلك ومنهم :

١) قوم موسى قال تعالى: (وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[١] .

وقيل إن الذين أخذتهم الصاعقة هم السبعون الذين اختارهم موسى ذلك أنهم لما أسمعهم كلام الله تعالى قالوا له بعد ذلك (لن نؤمن لك) والإيمان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم فأرسل الله إليهم ناراً من السماء، فأحرقتهم ثم دعا موسى ربه فأحياهم كما قال تعالى: (ثم بعثناكم من بعد موتكم)[٢] .

٢) المضروب بعضو من أعضاء البقرة كما قال تعالى: (وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)[٣] .

قيل إن المقتول ضرب بعضو من أعضاء تلك البقرة التي أمرهم الله أن يذبحوها كما قال موسى لهم (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) فلما ضرب به حَيِيَ وأخبر بقاتله ثم عاد ميتاً كما كان[٤] .

٣) الذين أخبر الله عنهم بقوله تعالى : (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم)[٥] ، وهؤلاء قوم من بني إسرائيل وقع فيهم الوباء ففروا هاربين، قال ابن عباس: «كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من

---

(١) سورة البقرة : ٥٥ ــ ٥٦.
(٢) أنظر تفسير القرطبي ج ١ ص ٤٠٣.
(٣) سورة البقرة : ٧٢ ــ ٧٣.
(٤) انظر تفسير القرطبي ج ١ ص ٤٥٧.
(٥) سورة البقرة : ٢٤٣.

الطاعون وقالوا نأتي أرضاً ليس بها موت فأماتهم الله تعالى فمر بهم نبي فدعا الله فأحياهم»[1] .

٤) (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[2] .

والذي مر على القرية هو «عزير» عليه السلام قال ابن كثير في تفسيره «وهذا هو القول المشهور»، والقرية المشهورة هي بيت المقدس مر عليها عزير بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها»[3] .

٥) سؤال إبراهيم عليه السلام عن كيفية إحياء الموتى، قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[4] .

وقد ذكر المفسرون لسؤال إبراهيم عليه السلام هذا أسباباً منها : أنه لما قال لنمرود (ربي الذي يحيي ويميت) أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة، وأما حديث (نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرني كيف تحيي الموتى ...الخ) فقد تقدم أنه لم يكن شاكاً في قدرة الله قطعاً[5] .

أما قوله تعالى: (فصرهن إليك) فقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه

---

(١) انظر القرطبي ج ٣ ص ٢٣٠.

(٢) سورة البقرة : ٢٥٩.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣١٤.

(٤) البقرة : ٢٦٠.

(٥) انظر ص ١٧٧ ــ ١٨٣ من هذا الكتاب.

قال: أوثقهن فلما أوثقهن ذبحهن ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن ثم قطعهن ونتف ريشهن وزقهن وخلط بعضهن ببعض ثم جزأهن أجزاء، وجعل على كل جبل منهن جزءاً، قيل أربعة أجبل وقيل سبعة قال ابن عباس وأخذ رؤسهن بيده ثم أمره الله عزّ وجل أن يدعوهن فدعاهن كما أمره الله عز وجل فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش والدم إلى الدم واللحم إلى اللحم والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض، حتى قام كل طائر على حدته وأتينه يمشين سعياً ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم عليه السلام فإذا قدم له غير رأسه يأباه فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته»(1) .

٦) ما أخبر الله به عن عيسى عليه السلام من أنه كان يحيي الموتي بإذن الله كما قال تعالى: (وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ)(2) .

٧) ما أخبر الله به من قصة أصحاب الكهف.

وهذه الأدلة المتقدمة أدلة مادية حسية، وقعت كلها لتدل على إحياء الموتى بعد مماتهم وهذا برهان قطعي على القدرة الإلٰهية وقد أخبر الله ورسله عن وقوع البعث والحشر فوجب القطع بذلك لأنه أخبر به من ثبت صدقه عمن ثبتت قدرته.

ثانياً : الاستدلال على البعث بالنشأة الأولى، ومن الآيات الدالة على ذلك ما يلي :

١ ــ قال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى

(1) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣١٥.
(2) سورة آل عمران : ٤٩.

ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ)[١] .

في هذه الآيات دليلان على إمكان البعث أحدهما دليل في الأنفس والآخر دليل في الآفاق، فأما الدليل الذي في الأنفس فهو ما اشتمل عليه صدر الآية وهو متعلق بالنشأة الأولى، وأما الدليل الآفاقي فهو قوله تعالى: (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) وهو الاستدلال بخلق النبات على إمكان البعث كما سيأتي، وإنما أوردنا الاستدلالين لترتب النتائج الخمس المذكورة بعدهما عليهما، وقد اشتمل الدليلان على مقدمات صحيحة على إمكان البعث، والدليلان هما :

أ ــ الاستدلال بخلقة الحيوان أولا وهو موافق لما أجمله الله في قوله: (قل يحييها الذي أنشأها أول مرة) وقوله: (فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة)[٢] فكأنه سبحانه وتعالى قال: إن كنتم في ريب مما وعدناكم من البعث فتذكروا في خلقتكم الأولى لتعلموا أن القادر على خلقكم أولا قادر على خلقكم ثانيا[٣] .

ب ــ الاستدلال بحال خلقة النبات على ذلك وهو قوله سبحانه وتعالى: (وترى الأرض هامدة ..الخ) ثم إنه سبحانه لما قرر هذين الدليلين رتب عليهما ما هو المطلوب والنتيجة، وذكر أموراً خمسة :

١ ــ قوله تعالى : (ذلك بأن الله هو الحق) والحق هو الموجود الثابت فكأنه

---

(١) سورة الحج : ٥ ــ ٧.
(٢) سورة الاسراء : ٥١.
(٣) الفخر الرازي ج ٢٣ ص ٧.

سبحانه بين أن هذه الوجوه دالة على وجود الصانع وحاصلها راجع إلى أن حدوث هذه الأعراض المتنافية وتواردها على الأجسام دليل على وجود الصانع.

٢ ـ قوله تعالى: (وأنه يحيي الموتى) فهذا تنبيه على أنه لما لم يستبعد من الإلٰه إيجاد هذه الأشياء فكيف يستبعد منه إعادة الأموات.

٣ ـ قوله تعالى : (وأنه على كل شيء قدير) يعني أن الذي يصح منه إيجاد هذه الأشياء لابد من أن يكون واجب الاتصاف لذاته بالقدرة ومن كان كذلك كان قادراً على جميع الممكنات ومن كان كذلك فإنه لابد أن يكون قادراً على الإعادة.

٤ ـ قوله تعالى: (وأن الساعة آتية لا ريب فيها) والمعنى أنه لما أقام الدلائل على أن الإعادة في نفسها ممكنة وأنه تعالى قادر على كل الممكنات وجب القطع بكونه قادراً على الإعادة في نفسها، وإذا ثبت الإمكان وأخبر الصادق عن وقوعه وجب القطع بوقوعه[١] .

٥ ـ قوله تعالى : (وأن الله يبعث من في القبور) لأنه خبر ممن ثبت صدقه عمن ثبتت قدرته فوجب القطع بوقوعه أيضاً.

قال الفخر الرازي : «واعلم أن تحرير هذه الدلالة على الوجه النظري أن يقال الإعادة في نفسها ممكنة والصادق أخبر عن وقوعها فلابد من القطع بوقوعها[٢] .

وقد أورد السيوطي في الإتقان : «أن الإسلامين من أهل هذا العلم، يعني «المنطق» ذكروا في أول سورة الحج إلى قوله: (وأن الله يبعث من في القبور) خمس نتائج تستنتج من عشر مقدمات، وهي:

قوله: (ذلك بأن الله هو الحق) لأنه خبر أخبر به من ثبت صدقه عمن ثبتت قدرته منقول إلينا بالتواتر فهو حق ولا يخبر بالحق عما سيكون إلا الحق فالله هو الحق، وأخبر

---

(١) الفخر الرازي مع بعض التصرف ج ٢٣ ص ٩ ـ ١٠.
(٢) ج ٢٣ ص ١٠.

تعالى أنه يحيي الموتى، لأنه أخبر عن أهوال الساعة بما أخبر وحصول فائدة هذا الخبر موقوفة على إحياء الموتى ليشاهدوا تلك الأهوال التي يعملها من أجلهم، وقد ثبت أنه قادر على كل شيء، ومن الأشياء إحياء الموتى فهو يحيي الموتى.

وأخبر أنه على كل شيء قدير لأنه أخبر أنه من يتبع الشياطين ومن يجادل فيه بغير علم يذقه عذاب السعير ولا يقدر على ذلك إلا من هو على كل شيء قدير. فهو على كل شيء قدير.

وأخبر أن الساعة آتية لا ريب فيها لأنه أخبر بالخبر الصادق أنه خلق الإنسان من تراب إلى قوله: (لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً) وضرب لذلك مثلاً بالأرض الهامدة التي ينزل عليها الماء فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج، ومن خلق الإنسان على ما أخبر به فأوجده بالخلق ثم أعدمه بالموت ثم يعيده بالبعث وأوجد الأرض بعد العدم فأحياها بالخلق ثم أماتها بالمحل ثم أحياها بالخصب وصدق خبره في ذلك كله بدلالة الواقع المشاهد على المتوقع الغائب حتى انقلب الخبر عياناً صدق خبره في الإتيان بالساعة ولا يأتي بالساعة إلا من يبعث من في القبور لأنها عبارة عن مدة يقوم فيها الأموات للمجازاة فهي آتية لا ريب فيه وهو سبحانه يبعث من في القبور[1] .

وهذا الكلام الذي أورده السيوطي هنا لا يخلو من ضعف في نظري :

وقد انتقده العلامة الآلوسي فقال ما نصه : «هذا وفي الإتقان للجلال السيوطي أن الإسلاميين من أهل المنطق ذكروا في أول سورة الحج إلى قوله تعالى: (وأن الله يبعث من في القبور) خمس نتائج تستنتج من عشر مقدمات ثم بين ذلك بما يقضي منه العجب و يدل على قصور باعه في ذلك العلم[2] .

ولم يترك الإمام الآلوسي الكلام يمر على علاته بل حاول أن يرتبه ترتيباً منطقياً فقال: وقد يقال في بيان ذلك إن النتائج الخمس هي الجمل المتعاطفة الداخلة في

---

(١) الاتقان للسيوطي ج ٤ ص ٥٢ ــ ٥٣.
(٢) تفسير الآلوسي ج ١٧ ص ١٢١.

حيز الباء، واستنتاج الأولى: بأنه لو لم يكن الله سبحانه هو الحق أي الواجب الوجود لذاته لما شوهد بعض الممكنات من الإنسان والنبات وغيرها، والتالي باطل ضرورة فالله تعالى هو الحق، ودليل الملازمة برهان التمانع.

واستنتاج الثانية : بأنه لو لم يكن سبحانه قادراً على إحياء الموتى لما طور الإنسان في أطوار مختلفة حتى جعله حياً وأنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، والتالي ضرورة أن الخصم لا ينكر أنه تعالى أحيا الإنسان وأحيا الأرض فالله قادر على إحياء الموتى ووجه الملازمة ظاهر.

واستنتاج الثالثة : بأنه إذا كان الله تعالى قادراً على إحياء الموتى فهو سبحانه على كل شيء قدير، لكنه قادر على إحياء الموتى فهو على كل شيء قدير، ووجه الملازمة أن المراد من الشيء الممكن، وإحياء الموتى والقدرة على بعض الممكنات دون بعض تنافي وجوب وجوده تعالى الذاتي، وأيضاً إحياء الموتى أصعب الأمور عند الخصم المجادل حتى زعم أنه من الممتنعات، فإذاً ثبت أنه سبحانه قادر عليه بما سبق وثبت أنه تعالى قادر على سائر الممكنات بالطريق الأولى.

واستنتاج الرابعة بأن الساعة أمر ممكن ووعد الصادق بإتيانه وكل أمر ممكن وعد الصادق بإتيانه فهو آت فالساعة آتية، أما أن الساعة أمر ممكن فلأنه لا يلزم من فرض وقوعها محال، وأما أنها وعد الصادق بإتيانها فالآيات القرآنية المتحدى بها، وأما أن كل أمر ممكن وعد الصادق بإتيانه فهو آت فلاستحالة الكذب.

واستنتاج الخامسة بنحو ذلك(١) .

وكلام الآلوسي جيد إلا في تعليقه على استنتاج الثالثة : فلا أدري هل حدث ذلك سهواً حيث أسقط بعض الحروف وزاد بعض الكلمات أم أنه وقع فيما يذكر أنه وقع فيه السيوطي قبله فالكمال لله وحده.

ويمكن أن يستقيم كلام الآلوسي إذا تصرفنا في العبارة، فيكون الترتيب هكذا:

---

(١) تفسير الآلوسي ج ١٧ ص ١٢١.

واستنتاج الثالثة : بأنه لو لم يكن الله تعالى قادراً على إحياء الموتى لما كان على كل شيء قدير لكنه قادر على إحياء الموتى فهو على كل شيء قدير الخ.

أما انتقاده للسيوطي في الكلام السابق فإن فيه نظراً لأن السيوطي لاَ يلام إذا كان الكلام الذي أورده في الإتقان لغيره فإنه حينئذ يكون ناقلاً وليس على الناقل من عهدة إلا الصحة في النقل، والذي يدل على أن السيوطي كان ناقلاً ذلك الكلام عن ابن أبي الأصبع أمور ثلاثة :

أ ــ أن ذلك الكلام الذي انتقده الآلوسي جاء في نقل السيوطي عن ابن الأصبع حيث قال ما نصه : « وقال ابن أبي الاصبع : زعم الجاحظ أن المذهب الكلامي لا يوجد منه شيء في القرآن وهو مشحون به .. الخ»، ولم يرد في السياق ما يدل على انتهاء كلام ابن أبي الأصبع واستئناف كلام جديد.

ب ــ أنه قال بعد انتهائه من ذلك الكلام الذي هو موضع نقد الآلوسي ما نصه: «وقال غيره: استدل سبحانه وتعالى على المعاد الجسماني بضروب ... الخ فكلام السيوطي ظاهر بأنه لا يزال في نقل كلام ابن أبي الأصبع، إلى قوله: «وقال غيره يعني غير ابن أبي الأصبع».

جـ ــ إن الكلام الذي نقله السيوطي في الإتقان موجود في كتاب (بدائع القرآن) لابن أبى الأصبع المتوفي سنة ٦٥٤هـ وقد نقله عنه السيوطي حرفياً أنظر بدائع القرآن ص ٣٧ ــ ٣٩ مطبعة الرسالة عام ١٣٧٧هـ ١٩٥٧م بتحقيق الدكتور حفني شرف، فتأمل هذا والعلم عند الله تعالى.

٢ ــ قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[1] .

قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي وقتادة جاء أُبي بن خلف لعنه الله

---

(١) سورة يس ٧٨ ــ ٧٩.

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده عظم رميم وهو يفته و يذروه في الهواء وهو يقول يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار» ونزلت هذه الآيات من آخر يس.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : إن العاص بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففتته بيده ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أيحيي هذه الله بعدما ترى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (نعم يميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم) قال: ونزلت الآيات من آخر يس.

وسواء كانت هذه الآيات قد نزلت في أُبي بن خلف أو العاص أو فيهما فهي عامة في كل من أنكر البعث، ذكره ابن كثير[١] .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في قول الله تعالى حكاية عن منكر البعث (من يحيي العظام وهي رميم) قال إنه قياس حذفت إحدى مقامتيه لظهورها والأخرى سالبة كلية قرن معها دليها وهو المثل المضروب الذي ذكره بقوله: (وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم) وهذا الاستفهام إنكار متضمن للنفي أي لا أحد يحيي العظام وهي رميم فإن كونها رميماً يمنع عنده إحياءها لمصيرها إلى حال اليبس والبرودة المنافية للحياة التي مبناها على الحرارة والرطوبة ولتفرق أجزائها واختلاطها بغيرها ولنحو ذلك من الشبهات.

والتقدير : هذه العظام رميم ولا أحد يحيي العظام وهي رميم فلا أحد يحييها، ولكن هذه السّالبة كاذبة ومضمونها امتناع الإحياء، فبين سبحانه إمكانه من وجوه ببيان إمكان ما هو أبعد من ذلك وقدرته عليه فقال : (يحييها الذي أنشاها أول مرة) وقد أنشأها من التراب، ثم قال (وهو بكل خلق عليم) ليبين علمه بما تفرق من الأجزاء أو استحال[٢] .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٨١.

(٢) دره تعارض العقل والنقل ج ١ ص ٣٣ مطبعة دار الكتب ١٩٧١.

٣ ــ قوله تعالى: (وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا)[١] .

إن شبهات المنكرين للبعث تكاد تكون متجانسة لأنها تدور حول استبعاد جمع الأجزاء بعد تفرقها وإعادة الحياة إليها بعد فنائها وهذه الشبه لا تكون إلا بالقدح فى كمال علم الله المحيط بكل شيء وكمال قدرته على كل شيء، وقد قام البرهان على كمال العلم والقدرة لله تعالى، فلا وجه للاستبعاد والاستغراب بعد ذلك، وفي قوله تعالى: (قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم) يعني به أنكم مهما تفرقتم وعلى أية حالة كنتم فالله قادر على بعثكم وإعادتكم حتى لو تحولتم إلى حجارة أو حديد فالله قادر على إعادة الحياة إليكم مرة أخرى مع أن المنافاة بين الحجرية والحديدبة وبين قبول الحياة أشد من المنافاة بين العظمة وبين قبول الحياة وذلك أن العظم قد كان جزءاً من بدن الحي أما الحجارة والحديد فما كانا البتة موصوفين بالحياة.

وفي قوله : (فسيقولن من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة) استدلال بالنشأة الأولى على الثانية وهذا هو الشاهد من الآية، أما قولهم (متى هو؟) فهو سؤال فاسد كما ذكره الرازي لأنهم حكموا بامتناع الحشر والنشر بناء على الشبهة التي حكيناها ثم إن الله تعالى بين بالبرهان الباهر كونه ممكناً في نفسه فقولهم متى هو؟ كلام لا تعلق له بالبحث الأول فإنه متى ثبت بالدليل العقلي كونه ممكن الوجود في نفسه وجب الاعتراف بإمكانه فأما أنه متى يوجد فذاك لا يمكن إثباته من طريق العقل بل إنما يمكن إثباته بالدلائل السمعية فإن أخبر الله تعالى عن ذلك الوقت المعين عرف وإلا فلا سبيل إلى معرفته[٢] .

---

(١) سورة الإسراء ٤٩ ــ ٥١.
(٢) انظر الفخر الرازي ج ٢٠ ص ٢٢٦.

٤ ــ قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾[1] في هذه الآية استدلال على البعث بالقياس الأولوي ، وفي قوله (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) ضرب مثل لأنه لا يوجد بالنسبة لله تعالى شيء هو أسهل وشيء هو أصعب وإنما المقدورات عندنا نحن متفاوتة في العسر واليسر باختلاف القدرة التي تزيد وتنقص في حقنا، ولما كان إيجاد شيء لا من شيء مستحيلاً منا، وإيجاد شيء من شيء ممكناً استعارته كلمة أفعل، وضرب ذلك مثلاً ولما استحال في حقه العجز والضعف عن إيجاد شيء لا من شيء قال: (وله المثل الأعلى) وذلك مطرد في سائر صفاته سبحانه من العلم والقدرة والحياة والرحمة والرضى والغضب، وكل صفة وصف بها الإنسان من ذلك فإن الله تعالى من ذلك ما يليق بجلاله وعظمته وللمخلوق ما يليق بعجزه وضعفه.

٥ ــ قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾[2] .

بهذا المنطق الصحيح والبرهان القاطع يرد القرآن الكريم على ذلك المنكر ويجادله في أسلوب هادىء محكم فيلزمه الحجة الواضحة في أقل من نصف سطر، وفي الآية كما ترى استدلال على المعاد بالنشأة الأولى.

ثالثاً : الاستدلال على إمكان البعث بخلق الأكوان، مثل السموات والأرض، فإن خلقها أعظم من خلق الإنسان، ومن الآيات الدالة عليه ما يلي :

١) قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾[3]

---

(١) سورة الروم : ٢٧.

(٢) سورة مريم : ٦٦.

(٣) سورة الإسراء : ٩٨ ــ ٩٩.

٢ ــ قوله تعالى : (أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ)[1] .

٣) وقال تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)[2] .

وجميع الآيات السابقة وما في الآيات أكبر برهان على قدرة الله المطلقة التي لا تقيد بقيود ولا تنتهي عند حدود، فإن تلك الآيات الكونية مما هو معروف ببداهة العقول أن خلقها أعظم من إعادة خلق الإنسان.

رابعاً : الاستدلال على إمكان البعث بخلق النباتات المختلفة : ومن الآيات ما يلي :

١ ــ قوله تعالى : (وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)[3] .

٢ ــ قوله تعالى : (وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ)[4] .

٣ ــ قوله تعالى : (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)[5] .

٤ ــ قوله تعالى : (وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن

---

(١) سورة يس : ٨١.

(٢) سورة الأحقاف : ٣٣.

(٣) سورة الأعراف : ٥٧.

(٤) سورة فاطر : ٩.

(٥) سورة فصلت : ٣٩.

في ذلك لآيات لقوم يعقلون) وقوله تعالى: (وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)[1] .

وفي هذه الآيات السابقة استدلال بتبدل أحوال النباتات من حياة إلى موت فحياة، وسلب خاصية النشوء والنماء في بعض النباتات فتهمد وتتفتت ثم تسقى بالماء فتعود إليها تلك الخاصية فلو كان متسحيلاً إعادة الحياة إلى الإنسان مرة أخرى لما عادت الحياة إلى النباتات المختلفة بعد موتها لأن المشابهة واضحة في القدرة الإلهية في إعادة الحياتين سيرتها الأولى ولهذا لفت القرآن الكريم أنظار المنكرين إلى التبصر في الموجودات الحسية واستنتاج العظات والعبر منها ليعود للنفس إيمانها فتسعد بالطمأنينة والاستقرار، وقد تقدمت المشابهة بين إعادة الحياة إلى النبات بالمطر وإعادة بناء الأجساد وإنباتها بالمطر الذي يجعله الله عند البعث وهو مطر كمني الرجال فتنبت منه الأجساد.

وفي قوله تعالى: (وإنْ تعجبْ فعجبٌ قولهم ... الآية) إشارة إلى أن العجب يكون من إنكارهم لا من البعث، ومعناه : إن كان لك عجب من شيء فمن إنكارهم البعث، فاعجب لأن العجب ما ندر وجوده وخفي سببه وليس البعث مما ندر وهم يشاهدون إحياء الأرض بعد موتها، واكتساء الأشجار بعد عريها وعود النهار بعد زواله والليل بعد ذهابه وإخراج الحي من الميت والميت من الحي، ولا مما خفي سببه فإن الله سبحانه هو الفاعل لذلك والمخترع له والقادر عليه وحكمته إظهار ما استتر عن خلقه من تدبيره، وما النشأة الثانية بأعجب من الأولى[2] .

خامساً : الاستدلال على إمكان البعث بحصول أحد المتضادين، فإن الإحياء بعد الموت لايستنكر من حيث أنه يحصل الضد بعد حصول الضد إلا أن ذلك غير مستنكر في قدرة الله تعالى لأنه لمّا جاز حصول الموت عقيب الحياة فكيف يستبعد حصول

---

(١) سورة الرعد : ٥.

(٢) انظر استخراج الجدال من القرآن الكريم لابن الحنبلي مخطوطة ص ١٤.

الحيـاة مـرة أخرى بعد الموت؟ فإن حكم الضدين واحد قال تعالى مقرراً لهذا المعنى: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾[1] .

سادساً : الاستدلال على البعث والإعادة بإخراج النار من الشجر الأخضر :

١ ـ قال تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾[2]

٢ ـ قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾[3] .

وفي الآيتين السابقتين استدلال بتوليد النار مع حرها و يبسها من الشجر الأخضر مع برده ورطوبته.

قال الفخر الرازي في قوله تعالى : (الذي جعلَ لكُم من الشّجَرِ الأخضَرِ نَاراً .. الآية) «ووجهه هو أن الإنسان مشتمل على جسم يحس به حياة سارية فيه وهي كحرارة جارية فيه، فإن استبعدتم وجود حرارة وحياة فيه فلا تستبعدوه فإن النار في الشجر الأخضر الذي يقطر منه الماء أعجب وأغرب، وأنتم تحضرون حيث منه توقدون وإن استبعدتم خلق جسمه فخلق السموات والأرض أكبر من خلق أنفسكم فلا تستبعدوه فإن الله خلق السموات والأرض»[4] ، وفي هذا عبرة عبظيمة فإن الله تعالى جمع في الشجر الأخضر بين الماء والنار والخشب فلا الماء يطفىء النار ولا النار تحرق الخشب.

وفي قوله تعالى : (أفرأيتمُ النارَ التي تُورونَ ... الآيات) إما أن يراد من شجرة النار الشجرة التي توري النار منها بالزند والزندة كالمرخ والعفار، أو يراد بها الشجرة

---

(١) سورة الواقعة : ٦٠.
(٢) سورة يس : ٨٠.
(٣) سورة الواقعة : ٧١.
(٤) تفسير الرازي ج ٢٦ ص ١١٠.

التي تصلح لإيقاد النار كالحطب فإنها لو لم تكن لم يسهل إيقاد النار، ووجه دلالة النار على البعث أن لنار تكمن في الشجر والحجر ثم تظهر بالقدح وتشب بالنفخ فالحجر والشجر كالقبر والقدح والنفخ كالنفخة في الصور.

وقد تحدث فلاسفة الإسلام عن إمكان البعث وأبرزوا ذلك في دراساتهم النظرية ولكنهم يجدون بغيتهم في القرآن الكريم بأوجز عبارة وأحكم برهان ولا غرابة إذا رأينا الفيلسوف الكندي متأثراً بتلك البراهين في دراسته للتفسير من الناحية النظرية.

فقد تحدث عن الآيات التي في آخر سورة يس كما نقله عنه الأستاذ أبو ريدة حيث قال في تفسير الكندي لهذه الآيات إن فيه يبرز فيلسوفنا الأصول النظرية التي تتضمنها هذه الآيات من جهة ويستخرج النتائج التي تلزم عنها من جهة أخرى، وهي:

١ ــ وجود الشيء من جديد بعد كونه وتحلله السابقين ممكن بدليل مشاهدة وجوده بالفعل مرة لاسيما أن جمع المتفرق أسهل من إيجاده وإبداعه عن عدم وإن كان لا يوجد بالنسبة لله شيء هو أسهل وشيء هو أصعب، هذا الدليل موجود في الآيات في كلمات قليلة: (قُلْ يحييهَا الذي أنشأهَا أولَ مرةَ وهَو بكل خَلْقٍ عليم).

٢ ــ ظهور الشيء من نقيضة كظهور النار من الشجر الأخضر ممكن واقع تحت الحس، وإذن يمكن أن تدب الحياة في الجسد المتحلل الهامد مرة أخرى، وذلك أيضاً على أساس المبدأ الأكبر وهو: أن الشيء يمكن أن يوجد من العدم المطلق بفعل المبدع الحق هذا الدليل موجود في آية (الذي جَعَلَ لكَم منَ الشَجَر الأخضَر ناراً فإذَا أنتمُ منهُ توقدون) وقد انتفع به الأشعري في إمكان البعث.

٣ ــ خلق الإنسان أو إحياؤه بعد الموت أيسر من خلق العالم الأكبر بعد أن لم يكن وهذا هو مضمون آية (أوَليسَ الذي خلقَ السّمواتِ والأرضَ بقادرٍ على أن يَخْلُقَ مثلَهم بلَى وهُو الخلاق العَليمُ).

٤ ــ الخلق والفعل مطلقاً مهما عظم المخلوق لا يحتاج من جانب الله المبدع لا إلى مادة ولا إلى زمان خلافاً لفعل البشر الذي لا يتم إلا في زمان ويحتاج إلى مادة

تكون موضوع الفعل وهذا معنى آية (إنما أمرُهُ إذَا أراد شيْئاً أن يقول له كُنْ فيكُونُ).

وهذه الآية في رأي الكندي إجابة عما في قلوب الكفار من النكير بسبب ظنهم أن الفعل الإلٰهي المتجلي في خلق العالم الكبير يحتاج إلى زمان يناسب عظمته قياساً منهم لفعل الله على فعل البشر، لأن فعل البشر لما هو أعظم يحتاج إلى مدة زمانية أطول فجاءت الآية حاسمة في بيان نوع الفعل الإلٰهي وأنه إبداع بالإرادة الخالقة والقدرة المطلقة لا يحتاج إلى مادة ولا إلى امتداد زماني.

فأي بشر ــ كما يقول الكندي ــ يقدر بفلسفة البشر أن يجمع في قول بقدر حروف هذه الآيات ما جمع الله جل وتعالى إلى رسوله صلّى الله عليه وسلم فيها من إيضاح أن العظام تحيى بعد أن تصير رميماً، وأن قدرته تخلق مثل السموات والأرض، وأن الشيء يكون من نقيضة ، كلت عن ذلك الألسن المنطقية المتحايلة وقصرت عن مثله نهايات البشر وحجبت عنه العقول الجزئية[1] .

سابعاً ــ الاستدلال على إمكان البعث بأن اختلاف الناس في الدنيا لا يرتفع «واختلاف المختلفين في الحق لا يوجب انقلاب الحق في نفسه» فوجب أن يكون هنا معاد ينحسم فيه النزاع ولا يكون ذلك إلا بين يدي الحي القيوم، قال تعالى: (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ)[2] .

وقد أورد السيوطي في الإتقان قول ابن السيد في الآيتين السابقتين «وتقريرهما أن اختلاف المختلفين في الحق لا يوجب انقلاب الحق في نفسه وإنما تختلف الطرق الموصلة إليه، والحق في نفسه واحد فلما ثبت أن ها هنا حقيقة موجودة لا محالة وكان لا سبيل لنا في حياتنا إلى الوقوف عليها وقوفاً يوجب الائتلاف و يرفع عنا الاختلاف إذ كان الاختلاف مركوزاً في فطرنا وكان لا يمكن ارتفاعه وزواله إلا

---

(١) رسائل الكندي ص ٥٧ ــ ٥٨.

(٢) سورة النحل : ٣٨ ــ ٣٩.

بارتفاع هذه الجبلة ونقلها إلى صورة غيرها صح ضرورة أن لنا حياة أخرى غير هذه الحياة فيها يرتفع الخلاف والعناد وهذه هي الحالة التي وعد الله بالمصير إليها فقال: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾[1] أي حقد فقد صار الخلاف الموجود كما ترى أوضح دليل على كون البعث ينكره المنكرون»[2] .

فكل خصومة لابد لها من منتهى في موقف ينقطع فيه الجدال بالباطل و يذهب فيه عنفوان المكابرة والعناد وهذا الشعور الوجداني هو الذي يشعر به كل مظلوم و ينتظر ساعة الفصل العادلة إذ لم يحصل على إنصافه في الدنيا «وعند الله تجتمع الخصوم».

ثامناً ــ الاستدلال على البعث بأن حكمة الله وعدله يقتضيان البعث والجزاء.

فإن الله تعالى لم يخلق الناس عبثاً ولن يتركهم سدى قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[4] ، فعدل الله وحكمته وإحقاقه الحق وإبطاله الباطل وإعطاؤه كلَّ ذي حق حقه وتمييزه بين الخبيث والطيب والمحسن والمسيء كل ذلك يأبى إلا أن يكون هناك يوم آخر بعد نهاية الدنيا ينال فيه كل إنسان جزاءه وما يستحقه من الثواب والعقاب على ما قدم من خير أو شر.

فإننا نرى أناساً يفارقون الدنيا وهم ظالمون لم يُقتص منهم، ونرى أناساً آخرين يفارقون الدنيا مظلومين لم ترد إليهم مظالمهم، ونرى أشراراً في الدنيا منعمين ونرى أخياراً فيها معذبين فإذا ذهب كل إنسان بما فعل إن ظالماً أو مظلوماً محظوظاً أو مهضوماً كان ذلك خدشاً في عظمة الألوهية وعدلها وقضائها فلابد إذن من يوم يحضر

---

(١) الأعراف : ٤٣.

(٢) الأتقان للسيوطي ج ٤ ص ٥٤.

(٣) سورة القيامة : ٣٦.

(٤) المؤمنون : ١١٥.

الجميع فيه بين يدي الله ليقيص من الظالم للمظلوم ولينال كل من المحسن والمسيء جزاءه كما قال تعالى: (وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ)[1] .

وقال تعالى: (أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ)[2] ولهذه المعاني قال بعض الحكماء «ثبت أن الله عز وجل حكيم والحكيم لا ينقض ما بنى إلا لحكمة أتم من حكمة النقض ولا يجوز أن تكون أنقص ولا مماثلة على ما لا يخفى»[3] .

تاسعاً ــ الاستدلال على البعث بحصول اليقظة بعد النوم، فإن النوم أخو الموت واليقظة شبيهة بالحياة بعد الموت.

قال تعالى: (وهو الذي يتوفاكم بالليل و يعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعلمون) ثم ذكر عقبه أمر الموت والبعث فقال تعالى: (وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ)[4] ، وقال تعالى في آية أخرى (ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)[5] .

والمراد منه الاستدلال بحصول هذه الأحوال على صحة البعث والحشر والنشر كما ذكره الرازي وغيره[6] .

---

(١) سورة الأنبياء : ٤٧.

(٢) سورة الجاثية : ٢١.

(٣) استخراج الجدال من القرآن ص ١٤.

(٤) سورة الأنعام : ٦٠ ــ ٦٢.

(٥) سورة الزمر : ٤٢.

(٦) انظر تفسير الرازي ج ١٧ ص ١٨.

هـ ـ الجدال في التشريعات

النسخ ومذهب الأديان فيه :

وقف خصوم القرآن الكريم منه مواقف عدائية متعددة وحاولوا في كل مقام أن ينالوا من قدسيته وأن يطعنوا فيه بكل ما عندهم من وسائل، والله تبارك وتعالى هو صاحب التشريع يشرع لعباده ما يرى لهم فيه مصلحة عاجلة أو آجلة و يربيهم على موائد كرمه فيحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، وإذا كانت التشريعات المنزلة على الرسل عليهم أفضل الصلاة والسلام ترتكز على العقيدة والعبادة والمعاملة فإن العقيدة لا يطرأ عليها تغيير لأنها تقوم على إثبات وجود الخالق وإفراده بالعبادة، ولهذا اتفقت دعوة الرسل جميعاً على هذا المبدأ العظيم وهو مبدأ التوحيد قال تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)[1] وقال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)[2] .

وأما العبادات والمعاملات فهي وإن اتفقت في الأسس العامة التي تستهدف المحافظة على كيان المجتمع وسلامته وربطه برباط التعاون والإخاء، إلا أن مطالب كل أمة تختلف عن مطالب أختها، وما يلائم قوماً في عصر قد لا يلائمهم في عصر آخر ولا شك أن الله تعالى، وسع كل شيء رحمة وعلماً، ولله الأمر والنهي (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)[3] فلا غرابة في أن يرفع تشريع بآخر مراعاة لمصلحة العباد عن علم سابق بالأول والآخر.

---

(١) سورة النحل : ٤٦ (١) سورة النحل : ٣٦.
(٢) سورة الأنبياء : ٢٥.
(٣) سورة الأنبياء : ٢٣.

والنسخ وقع في الشريعة الإسلامية ووقع بها، ولكن اليهود والنصارى لا يريدون هذا فإن النسخ معناه إبدال حكم بحكم أو شريعة بشريعة أخرى، وإذا اعترفوا بهذا لزمهم الإقرار بأن شريعة الإسلام شريعة ختامية ناسخة للشرائع التي قبلها، ولهذا اشتد الجدال والنقاش بين رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وبين اليهود في مسألة النسخ وأنكر اليهود قضية النسخ واعتبروها مطعناً في القرآن الكريم فذهبوا يثيرون الفتن ويقولون: «ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ويقول اليوم قولاً وغداً يرجع عنه[1] ما هذا من شأن الأنبياء وما هذا إلا من كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه وهو كلام يناقض بعضه بعضاً[2]، ولكن القرآن الكريم كان لتلك الشبهات بالمرصاد يفندها ويدحضها بالحجة والبرهان.

وقد بين القرآن الكريم وقوع النسخ بأوضح بيان كما سيأتي في الأدلة السمعية على وقوع النسخ ورد على المنكرين ردوداً مفحمة، ومن هذه الردود قوله تعالى: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[3].

وتقرير هذه المجادلة التي دارت بين رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وبين اليهود أن يقال: أعلن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم دعوته وأنه رسول الله إلى الناس جميعاً، وقد عارضه اليهود بإنكار النسخ في الشرائع، وهم يقصدون بهذه المعارضة حصول أحد مطلبين:

١ ــ إنكار رسالة محمد صلىٰ الله عليه وسلم جملة وتفصيلاً بدعوى أن الشرائع السابقة قائمة وأن النسخ لا يرد على الشرائع فدعواه الرسالة غير صحيحة.

٢ ــ في حالة صحة رسالته وتأييدها بالمعجزات فهي رسالة خاصة بالأميين (العرب) وأما أهل الكتاب فلا تشملهم هذه الرسالة بناء على أن النسخ لا يقع في

---

(١) انظر الفخر الرازي ج ٣ ص ٢٢٦.
(٢) انظر الآلوسي ج ١ ص ٣٥١.
(٣) آل عمران: ٩٤.

الشرائع فشرائعهم لا تزال قائمة وهذا يعني تناقض محمد صلىٰ الله عليه وسلم في كلامه.

وقد أبطل القرآن هذه الشبهة التي أثارها اليهود بنقض أساسها الذي تقوم عليه وهو إنكار النسخ فأثبت وقوع النسخ من واقع توراتهم وقرره كما تنص عليه كتبهم التي بين أيديهم وتقرير هذا أن جميع المطعومات كانت حلالاً لبني إسرائيل قبل نزول التوراة إلا النوع الذي حرمه إسرائيل على نفسه وهو لحوم الإبل وألبانها، وتبعه بنو إسرائيل في تحريم ذلك تأسياً، ثم حرم الله على بني إسرائيل بعض الطيبات بسبب بغيهم، وقد كانت حلالا لهم قبل ذلك، فأنكروا أن يكون ذلك التحريم خاصاً بهم وادعوا أنه كان من عهد الأمم الماضية وأنهم ورثوه عن الأنبياء السابقين.

فتحداهم القرآن بأن يثبتوا ذلك بطريق صحيح (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) فلم يستطيعوا إخراج التوراة لأن ما فيها سيفضحهم و يكشف كذبهم، ولهذا بهتوا وانقلبوا صاغرين.

ولا شك فى أن في تحدي رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم لهم بأن يأتوا بالتوراة فيخرجوا منها دليلا على دعواهم وعجزهم عن ذلك، برهاناً قاطعاً على صدق محمد صلىٰ الله عليه وسلم وهو ذلك الرجل الأمي وهم أهل الكتاب ومع ذلك يتحداهم بما بين أيديهم من الكتاب فهل يعقل أن يكون هذا التحدي صادراً عن عبقرية فكرية أو سحر وكهانة؟ إن هذا لا يعقل أن يصدر إلا عن علم من علام الغيوب الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء وهو الله الواحد القهار، كما أن ثبوت هذا الدليل برهان على وجود النسخ كما سيأتي في الأدلة على جواز النسخ ووقوعه.

وبما أن قضية النسخ من القضايا المهمة التي ظهر الجدل فيها قديماً وحديثاً، واتخذ أعداء الإسلام منها ذريعة للطعن في الشريعة الإسلامية فإنني أريد جلاء هذه الحقيقة ولا يتم ذلك إلا باستعراض بسيط لأدلة النسخ وإيراد شبه المخالفين والرد عليها، وسأحاول جمع هذه الأشياء متوخياً في ذلك الإيجاز والإيضاح، فأقول:

لقد تعرضت مسألة النسخ لموجات هائلة من الحملات الدعائية من أعداء الإسلام

وأوردوا شبهاً وملابسات يكمن فيها الخطر الداهم لتشكيك المسلمين في شمول شريعتهم وقدسية قرآنهم ولكن الله تعالى كتب لهذا القرآن البقاء والسلامة من التناقض والضياع: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[1] .

ومذاهب الأديان في النسخ ثلاثة كما ذكرها الزرقاني في كتابه مناهل العرفان[2] وهي :

١ ــ النسخ جائز عقلاً وواقع سمعاً وعليه إجماع المسلمين قبل أبي مسلم الأصفهاني وكذا إجماع النصارى سابقاً والعيسوية[3] من اليهود.

٢ ــ النسخ ممتنع عقلاً وسمعاً، وعليه النصارى المتأخرون والشمعونية[4] .

٣ ــ النسخ جائز عقلاً ممتنع سمعاً، وعليه العنانية من اليهود، و يعزى هذا القول إلى أبي مسلم الأصفهاني من المسلمين والنقل عنه فيه اضطراب.

أدلة جواز النسخ عقلاً ووقوعه سمعاً :

وسنذكر هنا أدلة الجواز العقلي وأدلة الوقوع السمعي، ثم نورد شبهات المنكر ين ونرد عليها:

أولاً ــ أدلة جواز النسخ عقلاً :

١ ــ ليس هناك محظور في النسخ عقلاً، وكل مالم يترتب عليه محظور كان جائزاً عقلاً، فالنسخ جائز عقلاً.

---

(١) سورة النساء : ٨٢

(٢) انظر مناهل العرفان ج ٢ ص ٨٢.

(٣) العيسوية نسبة إلى أبي عيسى اسحاق بن يعقوب الأصفهاني كان في زمان المنصور وكان يدعى النبوة وأنه رسول المسيح المنتظر ــ ذكره مصطفى زيد في كتابه «النسخ في القرآن» ج ١ ص ٣٧.

(٤) الشمعونية : نسبة إلى شمعون بن يعقوب.

٢ ــ أفعال الله تعالى لا تعلل بالأغراض، فله أن يأمر بالشيء في وقت و ينهي عنه في وقت آخر، وهو تبارك وتعالى أعلم بمصالح عباده.

٣ ــ نلزم المنكرين بأنهم ما داموا يجوزون أن يأمر الشارع عباده بأمر مؤقت ينتهي بانتهاء وقته، و يقولون بوقوعه سمعاً فليجوزوا هذا لأنه لا معنى للنسخ إلا انتهاء الحكم الأول لميقات معلوم عند الله كما أنه لم يكن معلوماً لنا من قبل، ثم علمنا الله إياه بالنسخ وهذا ليس بفارق مؤثر فقول الشارع أول يوم من رمضان مثلاً صوموا إلى نهاية هذا الشهر، مساوٍ لأن يقول يومئذ «صوموا» من غير تقييد بغاية حتى إذا ما انتهى شهر رمضان قال أول يوم من شوال «أفطروا» وهذا بلا شك نسخ.

وقد جوز منكرو النسخ المثال الأول فليجوزوا هذا المثال الثاني لأنه مساوٍ له والمتساو يان يجب أن يتحد حكمهما وإلا لما كانا متساو يين.

٤ ــ لو لم يكن النسخ جائزاً عقلاً وواقعاً وسمعاً، لما ثبتت رسالة سيدنا محمد صلىٰ الله عليه وسلم إلى الناس كافة والتي ثبتت بالبراهين القاطعة، فالنسخ إذن جائز عقلاً، وواقع سمعاً.

إذن فالشرائع السابقة ليست باقية بل هي منسوخة بهذه الشر يعة الختامية، وإذن فالنسخ جائز وواقع.

أما ملازمة هذا الدليل فنبرهن عليها بأن النسخ لو لم يكن جائزاً عقلاً وواقعاً سمعا لكانت الشرائع الأول باقية ولو كانت باقية ما ثبتت رسالته صلىٰ الله عليه وسلم إلى الناس كافة.

٥ ــ لا يمتنع أن يأمر الله المكلف بالفعل في زمان ما لعلمه بمصلحته فيه و ينهاه عنه في زمان آخر لعلمه بمصلحته فيه، كما يفعل الطبيب بالمر يض حيث يأمره باستعمال دواء خاص في بعض الأزمنة و ينهاه عنه في زمن آخر بسبب اختلاف مصلحته عند اختلاف مزاجه.

٦ ــ جميع أدلة الوقوع السمعي تفيد أن الوقوع يستلزم الجواز وز يادة.

الثاني ــ أدلة وقوع النسخ سمعاً، وهي نوعان كما ذكرها الزرقاني[1] .

النوع الأول: تقوم به الحجة على منكري النسخ من اليهود والنصارى من غير توقف على إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لهم، وهي الأدلة الواردة في كتب اليهود والنصارى.

ونحن إذ نورد هذه الأدلة من كتبهم لا نعتقد أنها كما أنزلت بل يحتمل أن يكون فيها تغيير وتبديل ولكننا نقيم عليهم الحجة بما بين أيديهم من التوراة والإنجيل، من هذه الأدلة ما يلي :

١ ــ جاء في السفر الأول من التوراة أن الله تعالى قال لنوح عند خروجه من السفينة (إني جعلت لك كل دابة حية مأكلا ولذريتك وأطلقت ذلك لكم كنبات العشب ما خلا الدم فلا تأكلوه) وقد حرم كثيراً من الدواب على من بعده من أرباب الشرائع وهو عين النسخ.

٢ ــ جاء في التوراة[2] أن الله تعالى أمر آدم أن يزوج بناته من بنيه وورد أنه كان يولد له في كل بطن من البطون ذكر وأنثى فكان يزوج توأمة هذا للآخر ويزوج توأمة الآخر لهذا، إقامة لاختلاف البطون مقام اختلاف الآباء والأمهات والأنساب، ثم حرم الله ذلك بإجماع المتدينين من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم.

٣ ــ أن الله تعالى أمر إبراهيم بذبح ولده ثم قال الله له لا تذبحه[3] وقد أقر منكرو النسخ بذلك.

٤ ــ أن عمل الدنيا كان مباحاً يوم السبت ومنه الاصطياد، ثم حرم الله الاصطياد على اليهود باعترافهم[4] .

---

(١) انظر مناهل العرفان جـ ٢ ص٨٦.

(٢) انظر الآية : ٣ في الاصحاح ٢ من سفر التكوين.

(٣) سفر التكوين للاصحاح ٢٢الآيتين ١ ــ ٢.

(٤) سفر الخروج للاصحاح ١٦ الآيتين ٢٥ ــ ٢٦.

٥ ـ أن الله أمر بني إسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم العجل ثم أمرهم برفع السيف عنهم[١] .

وقد أشار القرآن إلى ذلك فقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[٢] .

٦ ـ أن الجمع بين الأختين كان مباحاً في شريعة يعقوب ثم حرم في شريعة موسى عليهما الصلاة والسلام[٣] .

٧ ـ أن الطلاق في الأناجيل الحالية محرّم إلا إذا ثبت الزنى على الزوجة. مع أنه كان مشروعاً في شريعة موسى عليه السلام.

٨ ـ أنهم نقلوا عن عيسى في إنجيل (متى) أنه قال: (لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة).

فهذا يدل على أن رسالة عيسى رسالة محلية خاصة بالإسرائيليين، ثم نقلوا عن عيسى نفسه في إنجيل (مرقس) أنه قال: (اذهبوا إلى العالم أجمع وأكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها).

فإذا أحسنا النية بالإنجيليين، كان لا مناص لنا من القول بنسخ النص الأول بالثاني، وإلا فإن النصين يتناقضان و يتساقطان و يسقط بسقوطهما الإنجيلان.

٩ ـ الختان كان فريضة في دين إبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم ولكن الحوار يين جاءوا بعد رفع عيسى فنهوا عن الختان كما ثبت ذلك في رسائل الحوار يين، فإما أن يكون هذا نسخاً وإما أن يكون افتراء وكذباً لم يؤثر عن عيسى كلمة واحدة تدل على نسخ الختان.

---

(١) انظر تفسير القرطبي ج ٢ ص ٦٣.

(٢) سورة البقرة : آية ٥٤.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٨٢.

١٠ ــ أن أكل لحم الخنزير محرم في اليهودية ومضى عهد عيسى دون أن يعرف عنه ما يدل على إباحته ولكن الحواريين جاءوا بعد عروج عيسى أيضاً فأباحوا لحم الخنزير على زعم المسيحيين فإما أن يكون هذا نسخاً وإما أن يكون افتراء وكذباً نحو ماسبق[١] .

النوع الثاني من الأدلة السمعية : وتقوم به الحجة على من آمن بنبوة محمد صلىٰ الله عليه وسلم كأبي مسلم من المسلمين والعيسوية من اليهود فإنهم يعترفون برسالة محمد صلىٰ الله عليه وسلم، ولكنهم يقولون إنها خاصة بالعرب.

وهؤلاء تلزمهم بأنهم متى سلموا برسالته صلىٰ الله عليه وسلم وجب عليهم الإيمان والتصديق في كل ما جاء به من عموم الدعوة والنسخ الوارد في الكتاب والسنة، ومن الأدلة ما يلي:

١ ــ قوله تعالى : (مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)[٢] .

فهذه الآية صريحة في وقوع النسخ، والنسخ لغة : الإبطال والنقل والإزالة وفي الاصطلاح الشرعي: «رفع الحكم الشرعي متراخ عنه».

ومعنى نسخ الآية في قوله تعالى : (مانسخ من آية) رفع حكمها مع بقائها في نظم القرآن، يعني نسخ الحكم دون التلاوة.

ومعنى إنسائها في قوله تعالى : (نُنْسِهَا) رفع الآية من نظم القرآن، يعني حكماً وتلاوة، وسمي رفع الآية من القرآن جملة إنساء، لأن شأن ما لا يبقى في النظم أن ينساه الناس لقلة جريانه على الألسنة بالتلاوة والاحتيجاج به.

ويصح إبقاء الإنسان على حقيقته وهو إذهاب الآية من القلوب وإزالتها من

---

(١) انظر مناهل العرفان ج ٢ ص ٨٧ ــ ٨٨ ملخصاً.

(٢) سورة البقرة : ١٠٦.

المحافظة بعد أن يقضي الله بنسخها لأن إنساء الناس آية لم تنسخ إضاعة لشيء من القرآن والله تعالى يقول: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[1] .

وفي قوله: (نأت بخير منها أو مثلها) حكماً كان ذلك أو عدمه وحياً مثلاً أو غيره، والخيريّة أعم من أن تكون في النفع فقط أو في الثواب فقط أو كليهما والمثلية خاصة بالثواب كما ذكره الآلوسي في تفسيره[2] .

وترجع الخيرية والمماثلة إلى ثواب العمل بها فقد يكون ثواب العمل بالناسخة أوفر من ثواب العمل بالمنسوخة قبل نسخها وقد يكون مماثلاً له وإن كانت كل واحدة من الآيتين الناسخة والمنسوخة بالنظر إلى الوقت المقدر للعمل بها أقوم على المصلحة من الأخرى.

٢ ــ قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) وقوله تعالى: (لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)[3] .

في هاتين الآيتين دليل على أن الله ينسخ ما يرى المصلحة في نسخه ويثبت بدله ما يرى المصلحة في إثباته مراعاة لمصالح عباده وما تقتضيه حكمته تعالى من التدرج في التشريع والتنويع في أخبار المكلفين إظهاراً لشرف الممتثلين الطائعين، وقد استدل بهذه الآية الروافض على جواز البداء على الله تعالى، وهو الظهور بعد الخفاء وسيأتي الرد عليهم قريباً.

٣) قوله : (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)[4] .

---

(١) سورة الحجر : ٩.

(٢) الآلوسي ج ١ ص ٣٥٣

(٣) سورة الرعد ٣٨ ــ ٣٩.

(٤) النحل : ١٠١.

قال الزمخشري : «تبديل الآية مكان الآية : هو النسخ، والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لأنها مصالح وما كان مصلحة أمس يجوز أن يكون مفسدة اليوم وخلافه مصلحة والله تعالى عالم بالمصالح والمفاسد فيثبت ما يشاء و يسخ ما يشاء بحكمته[1] .

وفي قولهم: (إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ) يريدون بذلك إثارة الشبهة بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم متقول على الله حيث يأمر أصحابه بأمر ثم يبدو له أمر آخر فينهى عن الأول، وليس الأمر كما قالوا، بل الحق أن أكثرهم لا يعلمون كلمة الأحكام ولا يميزون الخطأ من الصواب، قال الزمخشري: «وكانوا يقولون: إن محمداً يسخر من أصحابه يأمرهم اليوم بأمر و ينهاهم عنه غداً فيأتيهم بما هو أهون، ولقد افتروا فقد كان ينسخ الأشق بالأهون والأهون بالأشق، لأن الغرض المصلحة لا الهوان والمشقة»[2] .

والزمخشري يقصد بذلك أن النسخ إلى بدل يكون على إحدى هذه الصور التي ذكرها كنسخ الحكم ببدل أخف منه ومن ذلك نسخ تحريم الأكل والشرب والجماع بعد النوم في ليل رمضان بإباحته في ذلك بقوله تعالى: (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ)[3] والنسخ إلى بدل أثقل كنسخ حد الزنى في فجر الإسلام حيث كان لا يتجاوز التعنيف والحبس في البيوت، ثم نسخ ذلك بآية الرجم والجلد، والنسخ إلى بدل مساو كنسخ التوجه إلى بيت المقدس بوجوب التوجيه إلى الكعبة.

٤ ــ قوله تعالى: (فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ)[4] فالآيات السابقة تدل دلالة صريحة على وقوع النسخ وهي في الوقت نفسه ترد على الشبهات التي أثارها المغرضون وأرادوا بها إثارة الفتن والطعن في شريعة الإسلام.

---

(١) الكشاف ج ٢ ص ٤٢٨.

(٢) الكشاف للزمخشري ج ٢ ص ٤٢٨.

(٣) سورة البقرة : ١٨٧.

(٤) سورة النساء : ١٦٠.

٥ ــ إجماع سلف الأمة على وقوع النسخ في الشريعة الإسلامية كما وقع في الشرائع السابقة.

٦ ــ يوجد في القرآن آيات كثيرة نسخت أحكامها بطريق صحيح وعلى هذا فإن الآية الواحدة مع ناسخها تعتبر دليلاً كاملاً على وقوع النسخ.

٧ ــ فهم الصحابة رضوان الله تعالى عليهم حقيقة النسخ وأنكروا على من له أدنى شبهة في هذا، ففي صحيح البخاري[١] وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال عمر رضي الله عنه (أقرؤنا أُبَيّ وأقضانا علي، وإنا لندع من قول أُبَيّ وذلك أن أُبياً يقول لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، وقد قال الله تعالى: (ما ننسخ من آية أو ننسها).

النسخ واقع في جميع الشرائع :

وقع النسخ في جميع الشرائع السماوية بالنسبة إلى كل شريعة مع الأخرى كما وقع في الشريعة الواحدة، فمثلاً شريعة موسى عليه السلام نسخت أحكاماً في شرائع سابقة كما في نسخ حل زواج أبناء آدم من بناته حيث كان حلالاً، فقد روى الطبراني عن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان لا يولد لآدم غلام إلا ولدت معه جارية فكان يزوج توأمة هذا للآخر وتوأمة الآخر لهذا)[٢] .

وقد أجمعت الشرائع بعد ذلك على تحريم زواج الأخ من أخته شقيقة كانت أو لأب أو لأم، توأمة لأخيه الآخر أولا[٣] .

كما أن شريعة عيسى عليه السلام نسخت أحكاماً في شريعة موسى ومنها أن الطلاق كان مشروعاً في شريعة موسى فحرمته إلا إذا ثبت الزنى على الزوجة[٤] .

---

(١) صحيح البخاري ج ٦ ص ٢٣ ــ ٢٤ تفسيري.

(٢) فواتح البحوث ج ٢ ص ٥٥.

(٣) انظر الآية : ٣ في الاصحاح ــ ٤ ــ من سفر التكوين :

(٤) انظر انجيل متى : الاصحاح ٥ ــ الآيتين : ٣١ ــ ٣٢.

وشريعة الإسلام نسخت كثيراً مما جاء به موسى وعيسى ولكن مهما يكن من اختلاف الشرائع السماوية فيما بينها فهي متحدة في جملة مراميها الخلقية وتوحيد الله عز وجل ولا تنافر بينها بالنسبة لأصلها الكلي وهو التوحيد لإجماعها جميعاً على ما هو من مكارم الأخلاق وفضائل الناس وهي تهدف إلى إيجاد جماعة فاضلة على اختلاف في طرق إصلاح وتنشئة هذه الجماعات لاختلاف البيئات، ولذلك قال تعالى :(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب).

فهذه الشرائع السماوية وإن اختلفت في تفاصيل الأحكام وفي طريق إصلاح الجماعات فهي متفقة في لبها متوافقة في أصولها، ونسخ بعضها لبعض إنما هو فيما يتعلق بتربية الناس وإصلاح الجماعات فلكل مجتمع سبل هدايته وأخذه إلى صراط الله المستقيم.

وقد وقع النسخ في بعض أحكام الشريعة ببعض وكانت تلك الأحكام المنسوخة مناسبة لأزمانها ملائمة في أوقاتها حتى إذا زال ما يقضي وجودها جاءت الأحكام المحكمة فنسخت تلك الأحكام المؤقتة.

وتركنا النبي صلىٰ الله عليه وسلم على المحكم من شريعته المقرر الدائم من مناهجه فلا نسخ بعد النبي صلىٰ الله عليه وسلم لأنه ما جاء حكم مؤقت إلا بين النبي صلىٰ الله عليه وسلم المحكم الذي ينسخه والأمر المقرر الثابت الذي يكون في عنق الأجيال إلى يوم القيامة.

كما وقع النسخ بالشريعة الإسلامية لسائر الشرائع قبلها لأنها الشريعة الختامية المتضمنة لجميع الحلول المستقيمة لمشكلات البشرية حيث جاءت جامعة شاملة لمطالب الحياة كلها، فكانت كلية في أكثر أحكامها المتعلقة بشئون الاجتماع وسبل الهداية وكانت مخاطبة لكل الأجيال اللاحقة صالحة لكل زمان ومكان.

وقد أجمع الصحابة والسلف عموماً على نسخ شريعة محمد صلىٰ الله عليه وسلم

لسائر الشرائع السابقة في جملتها[1] ، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [2] .

والرد عليها بعد إثبات الأدلة العقلية والنقلية على جواز النسخ ووقوعه نرجع إلى تفنيد شبهات المخالفين والرد عليها، وقد أردت أن أفرد فرق اليهود كل فرقة على حدة ثم النصارى ولكن أقوال هذه الفرق متداخلة فرأيت أن أذكر شبهة كل فرقة من اليهود والنصارى مع الرد عليها مباشرة وفيما يلي ذكر هذه الفرق.

١ ــ العيسوية : وأهل هذه الفرقة يُقرّون بجواز النسخ عقلاً ووقوعه سمعاً ولكنهم يخالفون المسلمين في تعدي النسخ من شريعة لأخرى فيقولون إن النسخ يقع في الشريعة الواحدة ولا يتعدى لشريعة أخرى، وهم يقصدون بهذا أن شريعة محمد صلىٰ الله عليه وسلم لم تنسخ شريعتهم لأن رسالة محمد صلىٰ الله عليه وسلم في زعمهم خاصة بالعرب، والعيسوية لا يربطون بين النسخ والبداء من قريب ولا من بعيد[3] ولكن جداول فرق اليهود والنصارى تنصب في مجمع واحد هو عدم نسخ شريعة الإسلام لشرائعهم إذ لو اعترفوا بالنسخ لشرائعهم لزمهم اتباع دين الحق الذي هو دين الإسلام أو الانسلاخ من الأديان السماوية، وهم يريدون أن يتمسحوا بشبهات ولو كانت في نظرهم باطلة لكي يحسدوا نبي الهدي والرحمة عموم الرسالة وشرف السيادة (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون).

أما شبهة العيسوية فهي كما يلي: يقولون إنه لا سبيل إلى إنكار نبوة محمد صلىٰ الله عليه وسلم لأنه مؤيد بالمعجزات ولأن التوراة بشرت بمجيئه لكن شريعته للعرب خاصة ولا سبيل إلى القول بعموم رسالته لأن ذلك يؤدي إلى نسخ رسالة بني إسرائيل وهي مؤيدة في زعمهم بدليل ما جاء في التوراة من مثل (هذه شريعة مؤبدة عليكم ما دامت السموات والأرض) وعلى هذا فإن دعواهم مقصورة على منع انتساخ شريعة

---

(١) انظر مناهل العرفان ج ٢ ص ٨٩.

(٢) سورة آل عمران : ٨٥.

(٣) انظر النسخ في القرآن الكريم للدكتور مصطفى زيد ج ١ ص ٢٩.

موسى بشريعة محمد صلىٰ الله عليه وسلم كما يفهم من اقتصارهم على هذا أنهم يجوزون أن تتناسخ الشرائع سمعاً فيما عدا هذه الصورة، و يرد عليها بما يلي:

١ ــ أنهم قد اعتمدوا في دليلهم على دليل الشمعونية والعنانية الذي زعموه، وهو تأبيد شريعتهم، وسيأتي الرد عليهم جميعاً عند ذكر شبهة الشمعونية والعنانية وتزييف دعاواهم إن شاء الله.

٢ ــ أن هذا الخبر الذي نقلوه في التوراة لايصلح حجة لأنه من وضع ابن الراوندي[١] دسه على التوراة ليضل بها اليهود عن نسخ القرآن للتوراة كيداً للإسلام والمسلمين.

٣ ــ أن اعترافهم بأن محمداً رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أيده الله بالمعجزات وجاءت البشارة به في التوراة وذلك ملزم لهم بأن يصدقوه في كل ما جاء به ومن ذلك عموم رسالته ونسخها للشرائع قبلها حتى شريعة موسى الذي قال فيه رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: (لو كان أخي موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي) أما كونهم يؤمنون برسالته ثم لا يصدقونه في كل ما جاء به فهذا تناقض منهم ومكابرة للحق.

٢ ــ النصارى : النصارى الأولون يقولون بالنسخ عقلاً وسمعاً ولكنهم كما سبق متفقون على عدم نسخ شريعة الإسلام لشرائعهم وإن كان النسخ يقع في الشريعة الواحدة، ولكن النصارى في هذا العصر قد ظهروا بمظهر جديد فهم ينكرون جواز النسخ عقلاً ووقوعه سمعاً ليصلوا من هذا الإنكار إلى بقاء شريعتهم بجانب شريعة الإسلام حيث قالوا لا يمكن أن تنسخ شريعة بشريعة أخرى، وشبهتهم في هذا أنهم يقولون إن المسيح عليه السلام قال: (السموات والأرض تزولان وكلامي لا يزول) وهذا يدل على امتناع النسخ سمعاً.

ونرد على هذه الشبهة بما يلي :

---

(١) هو أحمد ابن يحيى ابن اسحاق ــ من سكان بغداد فيلسوف جاهر بالالحام بعد أن كان من متكلمي المعتزلة، كما ذكره الدكتور زيد في كتابه «النسخ في القرآن ج ١ ص ٤١».

١ ـــ دعواهم أن الإنجيل الذي بين أيديهم هو الذي نزل على عيسى دعوى من دون دليل بل الأدلة متوافرة على أنها حرفت وبدلت.

٢ ـــ أن هذا الكلام لا يتعرض للنسخ بل هو تأكيد وتأييد أن تنبؤات المسيح عليه السلام ستقع لا محالة حيث أنه كان يحدث أصحابه عن أمور مستقبلة فأتى بهذه الكلمة التي يتشبثون بها وهي: (السماء والأرض تزولان وكلامي لايزول)، بل قد ورد في أناجيلهم ما يفيد النسخ كقوله لأصحابه كما جاء في إنجيل متى[١] : (إلى طريق أمم لا تمضوا ومدينة للسامرين لا تدخلوا بل اذهبوا بالجري إلى خراف بيت إسرائيل الضالة).

وهذا اعتراف بخصوص رسالته ببني إسرائيل ثم قال مرة أخرى كما جاء في إنجيل مرقس[٢] : (اذهبوا إلى العالم أجمع وأكرزوا[٣] بالإنجيل للخليقة) فالقول الثاني ناسخ للأول على فرض ثبوت هذه النصوص.

٣ ـــ فوق هذا وذاك لو سلم لهم النص وصحت هذه الجملة فإنها لا تدل على امتناع النسخ مطلقاً، بل تفيد عموم عدم النسخ في شريعة عيسى فقط.

ثالثاً ـــ الشمعونية : هذه الطائفة من أخبث طوائف اليهود وأشدهم حقداً على الإسلام وأهله، ولهذا نراهم يتحمسون لإبطال النسخ في الشرائع و يتلمسون له الشبه علماً أن إنكارهم للنسخ في ذاته ليس هو منتهى قصدهم ولا غاية مرامهم إنما يقصدون إنكار رسالة محمد صلى الله عليه وسلم جملة وتفصيلا إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا فإن عجزوا عن إدراك ذلك فلا أقل من أن ينفوا عموم رسالته ليبرهنوا على أنهم غير مطالبين بتصديقه واتباع ما جاء به ، وقد أنكروا جواز النسخ عقلاً كما

---

(١) الاصحاح ١٥ الآية ٢٤.
(٢) الاصحاح ٣ الآية ١٠ في انجيل مرقس.
(٣) لعله يقصد بهذه الكلمة الوعظ والهداية.

أنكروا وقوعه سمعاً وهذا أخطر المذاهب في هذا المقام لأن إنكار الجواز العقلي يستلزم إنكار الوقوع السمعي إذ لا تعارض بين العقل الصريح والنقل الصحيح.

أما شبهة الشمعونية ومن سار على منهجهم من المنكرين لجواز النسخ عقلاً، فلهم شبهات أربع :

١ ـ قالوا لو جاز النسخ لكان ذلك لحكمة ظهرت لله تعالى وكانت خفية عليه، أو كان لغير حكمة وكلاهما محال على الله.

فالأول مستلزم للبداء وهو الظهور بعد الخفاء، والثاني مستلزم تجويز العبث، والبداء والعبث محالان على الله تعالى.

ويرد عليهم : أن نسخ الله لما شاء مبني على حكمة كانت معلومة له أولاً ومصالح العباد تتجدد بتجدد الأزمان فالنسخ كان لحكمة أيضاً ولا يخلو الحكم الثاني من حكمة جديدة غير الحكمة الأولى وكلها معلومة لله تعالى فلا يلزم فيه بداء ولا عبث وسيأتي الرد الحاسم على شبهة البداء في بحث البداء إن شاء الله.

٢ ـ قالوا : يلزم من النسخ أحد باطلين :

١) جهله تعالى.

٢) تحصيل الحاصل.

فالجهل أن يقال : إمّا أن يكون قد علم الحكم الأول المنسوخ مؤبداً أو علمه مؤقتاً، فإن علمه مؤبداً ثم نسخه فقد انقلب علمه جهلاً والجهل محال على الله وإن كان قد علمه مؤقتاً ثم نسخه بعد المدة المحددة يكون تحصيلا للحاصل لأن الحكم يرتفع بطبيعته عند انتهاء وقته وتحصيل الحاصل باطل.

ويرد عليهم : بأنه قد سبق في علمه تعالى أن الحكم المنسوخ مؤقت لا مؤبد، وعلم أيضاً أن توقيته إنما هو بورود ناسخ ينسخه فورود الناسخ محقق لما في علم الله تعالى لا مخالف له شأنه تعالى في الأسباب ومسبباتها.

والنسخ بيان بالنسبة لله تعالى، ورفع بالنسبة إلينا.

٣ ــ قالو : لو جاز النسخ لزم أحد باطلين هما :

١ ــ تحصيل الحاصل.

٢ ــ ما هو في معناه.

وبيان ذلك أن المنسوخ إما يكون مغيّاً بغاية ينتهي عندها أو يكون مؤبداً.

فالمغيّا ينتهي بمجرد وجود الغاية فلا لزوم للنسخ وإلا لزم تحصيل الحاصل.

أما المؤبد : فإن جاء بنسخه بالرغم من تأييده لزم من ذلك[١] أشياء :

١ ــ التناقض.

٢ ــ تعذر إفادة التأبيد من الله تعالى للناس لاحتمال إبطال النسخ لكل تأبيد.

٣ ــ استلزام جواز النسخ للشريعة الإسلامية بغيرها.

ويرد عليهم بما يلي :

أن حصر المنسوخ في المؤبد والمؤقت غير صحيح لأن المنسوخ قد يكون مطلقاً منهما كليهما، وحتى الحكم المؤبد يمكن نسخه فهو غير ممتنع وما ذكروه منقوض بما يلي:

١ ــ لا تناقض بينهما لأن الخطابات الشرعية مقيدة من أول الأمر بأن لا يرد ناسخ كما أنها مقيدة بأهلية المكلف للتكليف وأن لا يطرأ عليه جنون أو غفلة أو موت وإذن مجيء الناسخ لايفضي إلى التناقض بينه وبين المنسوخ بحال.

٢ ــ أما تعذر فهم الناس التأبيد من الله فغير صحيح أيضاً لأن التأبيد يفهمه

---

(١) انظر مناهل العرفان ج ٢ ص ٩٥.

الناس من مجرد الخطابات الشرعية لأن الأصل بقاء الحكم الأول وطروّ الناسخ احتمال مرجوح فيعمل بالأقوى.

٣ ــ جواز نسخ الشريعة الإسلامية جواز عقلي لا شرعي وهو محال شرعي، ولا مانع من أن يكون المحال الشرعي جائز عقلاً، وإنما منعنا منه شرعاً لورود خبر الصادق بذلك وهو قوله تعالى: (وخاتم النبيين) وقوله صلى الله عليه وسلم: (إلا أنه لا نبي بعدي) والخلف في خبر الصادق محال.

٤ ــ قالوا الأمر بالشيء يقتضي أنه حسن والنهي عنه يقتضي أنه قبيح فالنسخ إذن يقتضي اجتماع الضدين.

و يرد عليهم : أن الحسن والقبيح ليست من صفات الفعل الذاتية وإنما هو حسن ما دام أمر الله متعلقاً به، فإذا نهى عنه أصبح قبيحاً فلا اجتماع للضدين علي هذا لأن الحسن والقبيح يختلفان باختلاف الأحوال والأوقات والأشخاص فهنا الوقتان مختلفان فلم يجتمع الحسن والقبح في وقت واحد على فعل واحد.

شبهات المنكرين لوقوعه سمعاً :

أ ــ الشمعونية والعنانية : وتتفق هاتان الطائفتان في نفيهما لوقوع النسخ سمعاً وشبهاتها مايلي :

قالوا : إن التوراة التي بأيديهم منقولة بالتواتر وجاء فيها: (هذه شريعة مؤبدة ما دامت السموات والأرض) وجاء فيها: (إلزموا يوم السبت أبداً) وذلك يفيد امتناع النسخ لأن نسخ شيء من التوراة إبطال لما هو عند الله تعالى وهو غير جائز في نظرهم.

و يرد عليهم بوجوه خمسة :

١ ــ إن ثبتت دعواهم فهي امتناع نسخ شريعة موسى عليه السلام بشريعة أخرى.

أما تناسخ الشرائع سواها فلا تدل هذه الشبهة على امتناعه، أما النسخ من حيث هو فقد وقع بشريعته للشرائع قبله، وجاء في نصوص التوراة النسخ كتحريم كثير من الحيوان على بني إسرائيل بعد حله لهم، قال تعالى في أخباره عنهم: (كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)[1] وقال تعالى: (وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ)[2] .

٢ ــ لا يسلم لهم أن التوراة التي بأيديهم منقولة بشكل متواتر سليم بل الأدلة متضافرة على أن التوراة الصحيحة لم يعد لها وجود، يدل على ذلك اختلاف الأحكام والأخبار الواردة في نسخ التوراة بصورة متناقضة كالزيادة في عمر الدنيا ألف سنة في التوراة التي بين أيدي السامريين على ما جاء في نسخة العنانيين، ونسخة النصارى تزيد ألف وثلاثمائة سنة[3] .

وكذلك مخالفتها للتاريخ ففي بعض النسخ أن نوحاً أدرك آباءه إلى آدم وأنه أدرك من عهد آدم نحو مائتي سنة وفي نسخة أخرى، أن نوحاً أدرك من عمر إبراهيم ثمانياً وخمسين سنة وكل هذا باطل تاريخياً.

وقد ذكر الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء إن المدة بين خلق آدم وولادة نوح ١٠٥٦ سنة (ألف سنة وست وخمسون سنة)، وقد حددت التوراة عمر آدم عندما توفي بـ ٩٣٠ عاماً فقد توفي آدم إذن قبل أن يولد نوح بـ ١٢٦ عاماً[4] . وهكذا نرى التناقض بين نصوص التوراة.

---

(١) سورة آل عمران : ٩٣.

(٢) سورة الأنعام : ١٤٦.

(٣) انظر مناهل العرفان للزرقاني ج ٢ ص ٩٩.

(٤) قصص الأنبياء ص ٣٠.

ومنها أنهم ذكروا أباطيل ومفتريات على الأنبياء يمجها الطبع والذوق كزعمهم أن لوطاً شرب الخمر حتى ثمل وزنى بابنتيه[١] .

ومنها قولهم : إن هاون هو الذي اتخذ العجل لبني إسرائيل ودعاهم إلى عبادته من دون الله.

ومنها قولهم : إن الله ندم على إرسال الطوفان إلى العالم، وأنه بكى حتى دمعت عيناه، وإن يعقوب صارع الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ومما يدل على فساد دعوى بقاء التوراة ما ثبت تاريخياً أنهم ارتدوا عن الدين مرات عديدة وعبدوا الأصنام وقتلوا الأنبياء فأي عدالة أو ثقة فيهم بعد هذا؟

٣ ــ لو كانت التوراة متواترة لحاجوا بها أفضل الرسل محمداً صلىٰ الله عليه وسلم بل كانوا يتهربون من ذلك مع دعوة الرسول صلىٰ الله عليه وسلم المسلمين إلى الإيمان بها.

٤ ــ وردت بعض الأحكام بشكل تأبيد في التوراة ومع ذلك فاليهود مجمعون على نسخها، ومن ذلك ما جاء في البقرة التي أمروا بذبحها (هذه سنة لكم أبداً)[٢] ، وما جاء في القربان (قربوا كل يوم خروفاً قرباناً دائماً).

٥ ــ الأحكام المؤبدة لفظاً يجوز نسخها على الصحيح، وشبهة التناقض تندفع بأن التأبيد مشروط بعدم ورود ناسخ.

٢ ــ شبهة أبي مسلم الأصفهاني :

نقلت الروايات عن أبي مسلم أقوالا مضطربة.

فمن قائل أنه ينكر وقوع النسخ في شريعة واحدة.

---

(١) سفر التكوين الاصحاح ١٩ الآيات ٣٠ ــ ٣٨.

(٢) انظر مناهل العرفان للزرقاني ج ٢ ص ١٠٠.

ومن قائل أنه ينكر وقوع النسخ في القرآن خاصة.

ولعل أقرب الأقوال إليه الأخير وأبعدها عنه الأول، و بعضهم يقول : إنه لاينكر معنى النسخ وإنما يسميه تخصيصاً ومنهم التاج السبكي، قال إن أبا مسلم لا ينكر وقوع المعنى الذي نسميه نحن نسخاً ولكنه يتحاشى أن يسميه باسمه و يسميه تخصيصاً[1] .

واحتج أبو مسلم لشبهته بقوله تعالى: (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) على معنى أن أحكامه لا تبطل أبداً، ويحمل آيات النسخ على التخصيص[2]

و يرد على أبي مسلم بأمور أربعة :

١ ــ إن كان يقصد بمعنى الباطل هو متروك العمل به مع بقاء قرآنيته فإن الآية عندئذ تفيد امتناع نوع خاص من النسخ وهو نسخ الحكم دون التلاوة.

٢ ــ معنى الباطل في الآية هو ما خالف الحق، فالقرآن عقائده وأحكامه وأخباره كلها حق لا يأتيه الباطل.

كما يرد عليه بأن معنى الآية أن القرآن لم يتقدمه ما يبطله من الكتب ولا يأتي بعده ما يبطله من الشرائع[3] .

٣ ــ على فرض أن خلاف أبي مسلم لفظي مع أهل السنة فقد أساء الأدب مع الله تعالى في تحمسه لرأي قائم علي تحاشي لفظ اختاره الله سبحانه وتعالى ودافع عن معناه في قوله تعالى: (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها).

---

(١) مناهل العرفان للزرقاني ج ٢ ص ١٠١.
(٢) انظر الوجيز اهل العامر.
(٣) انظر الوجيز لمناع القطان ص ٢٩.

٤ ـ على فرض إقراره معنى النسخ وتسميته تخصيصاً فقد فصل القول في الفروق بين النسخ والتخصيص.

وهكذا ينبغي أن نفهم أن الآية التي استدل بها أبو مسلم على عدم النسخ لا حجة له فيها بل تفسيرها على رأي أهل السنة يجعلها إلى إثبات النسخ أقرب، لأن النسخ تصرف إلٰهي تقتضيه الحكمة وترتبط به المصلحة.

بداء اليهود والروافض والرد عليه :

البداء : يطلق في اللغة على معنيين متقاربين :

١ ـ الظهور بعد الخفاء ومنه قوله تعالى : (وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ)، (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟)[1] ، وقوله تعالى : (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟)[2] .

٢ ـ نشأة رأي جديد لم يكن موجوداً كقوله تعالى: (ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ)[3] .

والقائلون بالبداء : يقصدون القول الثاني وكلا المعنيين محالان على الله تعالى عقلا وشرعاً لما فيها من سبق الجهل تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، والذين يقولون باستلزام النسخ للبداء هم:

اليهود : وهم ينكرون النسخ لأنه يستلزم البداء في زعمهم وهو الظهور بعد الخلفاء وهم يعنون بذلك أن النسخ إما يكون لحكمة ظهرت ولم تكن ظاهرة من قبل هذا يستلزم البداء وسبق الجهل وهو محال على الله تعالى، وإما أن يكون النسخ لغير حكمة وهذا عبث محال عليه تعالي، واستدلالهم هذا فاسد، لأن كلاً من حكمة

---

(١) سورة الزمر : ٤٧ ـ ٤٨.
(٢) سورة الجاثية : ٣٣.
(٣) سورة يوسف : ٣٥.

الناسخ وحكمة المنسوخ معلومة لله تعالى من قبل فلم يتجدد علمه بها، وأصحاب هذا القول من فرق اليهود الشمعونية قبحهم الله.

الروافض : قالوا النسخ مستلزم للبداء وبما أنه وقع النسخ إذن فالبداء جائز على الله تعالى، وتمسك الروافض بأمرين :

١ ـ بقوله تعالى : (يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ...الآية)(١) على معنى أنه يظهر له المحو والإثبات وأن علم الله يتبدل نتيجة لما يبدو لله، وذلك إغراق في الضلال وتحريف للقرآن فإن معنى الآية: ينسخ الله ما يستصوب نسخه ويثبت بدله ما يرى المصلحة في إثباته، وعلمه تعالى لا يتغير ولا يتبدل إنما التغير في المعلوم لافي العلم بدليل قوله تعالى: (وعنده أم الكتاب) أي المرجع الثابت الذي لا محو فيه ولا إثبات وإنما يقع المحو والإثبات على وفقه، فيمحو مرضاً ويثبت صحة ويمحو فقراً ويثبت غنى ... الخ.

وخلاصة هذا التوجيه أن النسخ تغيير في المخلوق لا في الخالق، وتبديل في المعلوم لافي العلم وكشف لنا وبيان عما سبق به علم الله القديم المحيط بكل شيء.

٢ ـ تمسكوا بأقوال نسبوها إلى أئمة طاهرين بريئين من هذه المفتريات وهي :

أ ـ قولهم عن علي رضى الله عنه «لولا البداء لحدثتكم بما هو كائن إلى يوم القيامة».

ب ـ قولهم عن جعفر الصادق «ما بدا لله تعالى في شيء كما بدا له في إسماعيل».

جـ ـ قولهم عن موسى بن جعفر «البداء ديننا ودين آبائنا في الجاهلية» وقد ذكر

---

(١) سورة الرعد : ٣٩.

هذه الآثار المكذوبة الزرقاني في كتابه «مناهل العرفان»[1] وبين ما تنطوي عليه من الكذب والافتراء.

وندفع هذه الأقوال بأنها مفتريات وأكاذيب على هؤلاء الأئمة الطاهرين. وكان أول من حاك شباكها المختار الثقفي[2] الكذاب الذي كان ينتحل لنفسه العصمة وعلم الغيب فإذا ما افتضح أمره وكذبته الأيام قال: «إن الله وعدني ذلك غير أنه بداله» فإذا أوجس في نفسه خيفة أن ينتقموا منه على هذا الكذب الشنيع نسب تلك الكفريات إلى أعلام بيت النبوة وهم منها براء.

ومما تقدم نعلم أن اليهود والروافض قد اجتمعوا على هذه الضلالة وهي استلزام النسخ للبداء ولكنهم على طرفي نقيض في تجويز ذلك على الله تعالى فاليهود يمنعونه، والروافض قبحهم الله فلزم اليهود على ذلك إنكار تبدل الشرائع.

ولزم الروافض على ذلك وصف الله تعالى بالجهل، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

الفرق بين النسخ والبداء : وبمعرفة الفرق بين النسخ والبداء ينكشف الغطاء ويزول الإشكال لمن اهتدى بهدي الكتاب والسنة فنقول في الفرق بينهما.

إن البداء هو الظهور بعد الخفاء وهو مستلزم سبق الجهل، أما النسخ فهو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي عن علم سابق بالأول والآخر.

فما المانع أن يعلم الله تعالى في الأزل استلزام الأمر بفعل من الأفعال للمصلحة في وقت معين، واستلزام نسخه للمصلحة في وقت آخر؟ فإذا نسخه في الوقت الذي

---

(١) ج ٢ ص ٧٩.

(٢) الكذاب الثقفي هو المختار بن أبي عبيد بن مسعود، أبو اسحاق كان مع علي رضي الله عنه بالعراق وانتقم فيما بعد من قتلة الحسين حينما خرج على والي الكوفة غير أنه انحرف بعد ذلك فادعى أنه يوحى إليه، وأجاز البداء على الله، وكانت نهايته أن قاتله مصعب بن الزبير حتى قتله ومن معه، والمختار لم يفتر إلا على علي بن أبي طالب أما جعفر وموسى فالفرية جاءت من أتباعه لأنه لم يدركها: أنظر النسخ في القرآن للدكتور مصطفى زيد ج ١ ص ٢٥ ــ ٢٦.

علم نسخه فيه فلا يلزم من ذلك أن يكون قد ظهر له ما كان خفياً عنه ولا أمر بما فيه مفسدة ولا نهي عما فيه مصلحة، وذلك كإباحة الأكل في الليل من رمضان وتحريمه في نهاره.

هذه أهم النقاط التي دار الجدال حولها بين مثبتي النسخ ومنكريه، وإنما فصلنا القول في النسخ لكونه من القضايا التي يحتدم فيها الجدال كثيراً بين مختلف الطوائف وقد عرفنا شبهات المنكرين للنسخ بما فيهم اليهود وكيف يرد عليها بالأدلة العقلية والنقلية، فالنسخ حقيقة واقعة ومن أصدق من الله قيلا إذ يقول تعالى: (مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[1] .

ولقد حاول اليهود إيقاع الشبه والتخلص من الإلزام الذي وقعوا فيه خلال جدالهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونذكر من الشبهات التي جادلوا فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم شبهتين :

الشبهة الأولى : أنه عندما نزل قوله تعالى: (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)[2] قال اليهود: لسنا أول من حرمت عليهم هذه المطاعم ولم تحرم علينا عقاباً لنا أو لظلمنا بل هي كانت محرمة على إبراهيم ومن أتى قبله وبعده من الأنبياء.

الشبهة الثانية : أنهم قالوا عندما تحولت القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام: يا محمد، إن بيت المقدس أفضل من الكعبة وأحق بالاستقبال لأنه وضع قبلها وهو أرض المحشر وجميع الأنبياء من ذرية اسحاق كانوا يعظمونه ويصلون إليه وقد وعد الله تعالى إبراهيم أن تكون البركة في نسل ولده إسحاق فلو كنت على ما كانوا عليه لعظمت ما عظموا ولبقيت على استقباله أبداً دون أن تتحول إلى المسجد الحرام فإن في تحولك إليه مخالفة لقبلة الأنبياء من قبلك.

---

(١) سورة البقرة : ١٠٦.
(٢) سورة الأنعام : ١٤٦.

وقد أصدر القرآن الكريم حكمه الفاصل في الرد على هاتين الشبهتين وتزييف ما اشتملتا عليه من مغالطات ومكابرات فقال تعالى في الرد على الشبهة الأولى[1] :

(كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ)[2] .

ومعنى الآية : أن كل أنواع الأطعمة كانت حلالاً لبني إسرائيل قبل نزول التوراة إلا الطعام الذي حرمه إسرائيل على نفسه كما تقدم.

واعلم أن هذه الآية يمكن أن تفسر على وجوه ثلاثة كلها حسن مستقيم كما ذكرها الرازي في تفسيره وهي :

الوجه الأول : أن اليهود كانوا يعولون في إنكار شرع محمد صلى الله عليه وسلم على إنكار النسخ فأبطل الله عليهم ذلك بأن كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه، فذاك الذي حرمه على نفسه كان حلالاً ثم صار حراماً عليه وعلى أولاده فقد حصل النسخ وبطل قولكم: النسخ غير جائز، ثم إن اليهود لما توجه عليهم هذا السؤال أنكروا أن تكون حرمة ذلك الطعام الذي حرم الله بسبب أن إسرائيل حرمه على نفسه بل زعموا أن ذلك كان حراماً من لدن آدم عليه السلام إلى هذا الزمان فعند هذا طلب الرسول عليه السلام منهم أن يحضروا التوراة فإن التوراة ناطقة بأن بعض أنواع الطعام إنما حرم بسبب أن إسرائيل حرمه على نفسه فخافوا من الفضيحة وامتنعوا من إحضار التوراة فحصل عند ذلك أمور كثيرة تقوي دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، أحد هذه الأمور أن هذا السؤال قد توجه عليهم في إنكار النسخ وهو لازم لا محيص عنه.

---

(١) انظر بنو إسرائيل في القرآن والسنة للدكتور طنطاوي ج ١ ص ٢٢٥.

(٢) سورة آل عمران : ٩٣ ــ ٩٥.

ثانيها : أنه ظهر للناس كذبهم وأنهم ينسبون إلى التوراة ما ليس فيها تارة ويمتنعون عن الإقرار بما هو فيها تارة أخرى.

ثالثها : أن الرسول صلىٰ الله عليه وسلم كان رجلاً أمياً لا يقرأ ولا يكتب فامتنع من أن يعرف هذه المسألة الغامضة من علوم التوراة إلا بخبر السماء فهذا وجه حسن علمى في تفسير الآية وبيان النظم.

الوجه الثاني : أن ليهود قالوا لرسول الله صلىٰ الله عليه وسلم إنك تدعي أنك على ملة إبراهيم فلو كان الأمر كذلك فكيف تأكل لحوم الإبل وألبانها مع أن ذلك كان حراماً في دين إبراهيم فجعلوا هذا الكلام شبهة طاعنة في صحة دعواه فأجاب النبي صلىٰ الله عليه وسلم عن هذه الشبهة بأن قال: ذلك حلالاً لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام إلا أن يعقوب حرمه على نفسه بسبب من الأسباب وبقيت تلك الحرمة في أولاده فأنكر اليهود ذلك فأمرهم الرسول صلىٰ الله عليه وسلم بإحضار التوراة وطالبهم بأن يستخرجوا منها آية واحدة تدل على أن لحوم الإبل وألبانها كانت محرمة على إبراهيم عليه السلام.

الوجه الثالث : أنه لما أنزل قوله تعالى: (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون) وكذا عندما أنزل قوله تعالى: (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) فدلت هذه الآية على أنه تعالى إنما حرم على اليهود هذه الأشياء جزاء لهم على بغيهم ظلمهم وقبيح فعلهم وأنه لم يكن شيء من الطعام حراماً غير الطعام الواحد الذي حرمه إسرائيل على نفسه، نعم لقد شق ذلك على اليهود من وجهين:

١) أحدهما : أن ذلك يدل على أن تلك الأشياء حرمت بعد أن كانت مباحة وذلك يقتضي وقوع النسخ وهم ينكرون.

٢) الثاني : أن ذلك يدل على أنهم كانوا موصوفين بقبائح الأفعال فلما حق عليهم ذلك من هذين الوجهين أنكروا كون حرمة هذه الأشياء متجددة بل زعموا أنها

كانت محرمة أبداً فطالبهم النبي صلى الله عليه وسلم بآية من التوراة تدل على صحة قولهم فعجزوا عنه فافتضحوا[١] .

أما الرد على الشبهة الثانية، وهي زعمهم أن بيت المقدس وضع قبل الكعبة وأنه أفضل منها، فقد رد الله على تلك الشبهة بقوله تعالى: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)[٢] .

فهذه الآية نص صريح في كون البيت الحرام أول بيت وضع للعبادة في الأرض، وأن وجوده كان قبل بيت المقدس، و يدل على هذا ما ورد في الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال: (قلت يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول قال المسجد الحرام قلت ثم أي قال المسجد الأقصى قلت كم كان بينهما قال أربعون ثم قال حيثما أدركتك الصلاة فصل والأرض لك مسجد)[٣] .

وقد روى ابن كثير في تفسيره عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى: (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة) قال كانت البيوت قبلة ولكنه أول بيت وضع لعبادة الله، ثم قال ابن كثير: وزعم السدي أنه أول بيت وضع على وجه الأرض مطلقاً، والصحيح قول علي رضي الله عنه، فأما الحديث الذي رواه البيهقي في بناء الكعبة في كتابه دلائل النبوة من طريق ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً: «بعث الله جبريل إلى آدم وحواء فأمرهما ببناء الكعبة فبناه آدم ثم أمر بالطواف به وقيل له أنت أول الناس وهذا أول بيت وضع للناس فإنه كما ترى من مفردات ابن لهيعة وهو ضعيف، والأشبه والله أعلم أن

---

(١) الفخر الرازي ج ٨ ص ١٤٥ ـ ١٤٦.
(٢) سورة آل عمران : ٩٦ ـ ٩٧.
(٣) صحيح البخاري كتاب بدء الخلق ج ٤ ص ١٩٧.

يكون هذا موقوفاً على عبد الله بن عمرو و يكون من الزاملتين اللتين أصابهما يوم اليرموك من كلام أهل الكتاب»[1] .

والآية صريحة في كونه أول بيت وضع للناس وبينت السنة الصحيحة تقدمه في البناء على بيت المقدس فثبت بهذا كذب اليهود في دعواهم بأن المسجد الأقصى أفضل من المسجد الحرام وأن في تحول الرسول صلىٰ الله عليه وسلم إلى الكعبة في صلاته مخالفة للأنبياء قبله ولمزيد الإيضاح انظر الفصل الآتي.

جدال اليهود :

يجدر بنا هنا أن نبدأ بموضوع تحويل القبلة لأنه من الأمور التي اشتد فيها الجدال بين النبي صلىٰ الله عليه وسلم وبين اليهود وقد أثير الجدل والنقاش حول تحويل القبلة وروجت الأباطيل والشبهات من اليهود والمنافقين والمشركين.

فقال اليهود إن القبلة الأولى، وهي بيت المقدس، إن كانت على حق فقد تركتم أيها المسلمون الحق وإن كانت على باطل فعبادتكم السابقة باطلة ولو كان محمد صلىٰ الله عليه وسلم نبياً حقاً ما ترك قبلة الأنبياء وتحول إلى غيرها وما فعل اليوم شيئاً وخالفه غداً.

أما المنافقون، فقد قاموا بدور التشكيك أيضاً وكان يحصل منهم ذلك عند خلوهم باليهود أو بالمشركين ومما قالوه: «ما بال المسلمين كانوا على قبلة ثم تركوها».

أما المشركون فوقفهم العدائي لدعوة الرسول صلىٰ الله عليه وسلم منذ فجر الدعوة معروف وكان أهل الكتاب يذكون الشبهات في نفوس المشركين و يقولون لهم إن محمداً قد اتبع قبلتهم (بيت المقدس) وأنه عما قريب سيتبع ملتهم واعتبروا استقبال بيت المقدس نوعاً من اقتباس الهدى منهم فلما أمر صلىٰ الله عليه وسلم بالتحول إلى

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٨٣.

بيت الله الحرام قال المشركون إن محمداً قد تحير في دينه و يوشك أن يرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا[1] .

ومسألة تحويل القبلة كان لها أثر عظيم في نفوس المخالفين والشاكين المترددين وكل من لا يرى أن لله تعالى أن يأمر عباده بما يشاء و يشرع لهم من الشرائع ما يريد مما يرى فيه مصلحة لهم في العاجل والآجل وهذا ما بينه الله تعالى بقوله: (وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ)[2] .

والمعنى أن التحويل كان ابتلاء واختباراً ليظهر حال من يتبع رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم و يطيعه و يستقبل معه حيثما توجه و يظهر حال من خالفه وعصاه مرتداً عن دينه وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس إلا على الذين هدى الله قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول صلىٰ الله عليه وسلم وأن كل ما جاء به هو الحق الذي لا مرية فيه.

أما استقبال بيت المقدس فقد اختلف العلماء هل شرع ذلك في مكة أو في المدينة بعد الهجرة وهل كان ذلك الاستقبال لبيت المقدس بوحي من الله أو باجتهاد من الرسول صلىٰ الله عليه وسلم وإليك البيان :

(أ) فرضت الصلاة على النبي صلىٰ الله عليه وسلم في مكة ليلة الإسراء والمعراج كما في الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: (فرضت الصلاة على النبي صلىٰ الله عليه وسلم ليلة أسرى به خمسين ثم نقصت حتى جعلت خمساً ثم نودي يا محمد إنه لا يبدل القول لدي وإن لك بهذه الخمس خمسين) رواه أحمد والنسائي[3] والترمذي وصححه.

وعندما فرضت الصلاة على رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم استقبل القبلة، فقد

---

(١) انظر القرطبي ج ٢ ص ١٦٩ ــ ١٧٠

(٢) البقرة : ١٤٣.

(٣) انظر سنن النسائي ج ١ ص ١٨١ ــ ١٨٢.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم كان يستقبل بيت المقدس وهو بمكة، ولكنه لم يكن يستدبر الكعبة بل كان يجعلها بينه وبين بيت المقدس وذلك بأن يقف بين الركنين الأسود واليماني.

وقد ذكر ابن كثير أن هذا قول الجمهور حيث قال في استقبال القبلة ما نصه: «وقد جاء في هذا الباب أحاديث كثيرة، وحاصل الأمر أنه قد كان رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس، فكان بمكة يصلي بين الركنين فتكون بين يديه الكعبة وهو يستقبل صخرة بيت المقدس فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس، قاله ابن عباس والجمهور»(١) .

وقال البعض الآخر من العلماء أول ما فرضت الصلاة عليه إلى الكعبة ولم يزل يصلي إليها طول مقامه بمكة على ما كانت عليه صلاة إبراهيم وإسماعيل فلما قدم المدينة صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً على الخلاف، ثم صرفه الله إلى الكعبة، ذكره القرطبي في تفسيره(٢) .

ولعل هذا أقرب من حيث الحكمة، لأن المسجد الحرام هو قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام، ولأنه صلىٰ الله عليه وسلم عربي وظهر من قوم عرب ولا شك في أن اعتزازهم بالمسجد الحرام أشد من اعتزازهم بأي مسجد آخر فيما إذا كان لهم الاختيار، ومهما يكن من اختلاف بين العلماء في الجهة التي كان النبي صلىٰ الله عليه وسلم يستقبلها في صلاته وهو بمكة، فإن الأمر الذي لا خلاف فيه أنه صلىٰ الله عليه وسلم بعد الهجرة إلى المدينة لم يستقبل سوى بيت المقدس، حتى أمر باستقبال بيت الله الحرام بعد ذلك.

وقد أخرج البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٨٩.

(٢) القرطبي ج ٢ ص ١٥٠.

الله صلى الله عليه وسلم كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده أو قال أخواله من الأنصار وإنه استقبل بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وأنه صلى أول صلاة صلاها العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن صلى معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت، وكان اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قبل بيت المقدس، وكذا أهل الكتاب، فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك[1] .

(ب) آراء العلماء في استقبال بيت المقدس ذكر القرطبي في تفسيره ثلاثة أقوال لأهل العلم :

١) قال الحسن وعكرمة وأبو العالية كان ذلك منه عن رأي واجتهاد.

٢) أنه كان مخيراً بينه وبين الكعبة فاختار القدس طمعاً في إيمان اليهود واستمالتهم قاله الطبري، وقال الزجاج امتحاناً للمشركين لأنهم ألفوا الكعبة.

٣) وهو الذي عليه الجمهور قول ابن عباس وغيره وجب عليه استقباله بأمر الله تعالى ووحيه لا محالة ثم نسخ الله ذلك وأمره الله أن يستقبل بصلاته الكعبة واستدلوا بقوله تعالى: (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه)[2] .

وهذا القول الثالث هو الذي يعول عليه لأنه أحرى بالدليل فإن قوله تعالى: (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها) يدل على جعلها قبلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم مدة من الزمن وهذا يعني أن الله أمر بذلك لأن استقبال القبلة أمر تعبدي ولا يثبت إلا بدليل شرعي، ثم قوله تعالى: (فلنولينك قبلة ترضاها) يدل أيضاً على أنه صلى الله عليه وسلم كان مأموراً باستقبال بيت المقدس ولا يستطيع مخالفة أمر الله في ذلك

---

(١) صحيح البخاري باب الصلاة من الايمان ج ١ ص ١٧ ــ ١٨.

(٢) القرطبي ج ٢ ص ١٥٠.

مع رغبته في استقبال بيت الله الحرام لما يسمع من اليهود من العناد واللجاجة وإثارة الشبهات بين الناس بقولهم محمد يقتبس الهدى من آثار أهل الكتاب حتى أنه يستقبل قبلتهم وقد مهد القرآن الكريم لتحويل القبلة بأمور منها:

١) قوله تعالى : (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها) فقد بين القرآن الكريم ما سيقوله هؤلاء السفهاء عند تحويل القبلة، وإنما أخبر الله به رسوله صلى الله عليه وسلم ليكون على علم مسبق بما سيقوله أعداؤه حتى لا يشتد عليه ما يصدر منهم من إنكار وتكذيب وليكون على بصيرة من تلك الشبهات التي ستثار عند التحويل.

وقد ذكر الزمخشري في الكشاف فائدة إخبار رسوله صلى الله عليه وسلم بقولهم قبل وقوعه فقال: «فائدته أن مفاجأة المكروه أشد والعلم به قبل وقوعه أبعد من الاضطراب إذا وقع لما يتقدمه من توطين النفس وأن الجواب العتيد قبل الحاجة إليه أقطع للخصم وأرد لشغبه، وقبل الرمي يراشَ السهم[١] ، أما المراد بالسفهاء هنا فقيل مشركو العرب وقيل اليهود وقيل المنافقون والآية عامة في هؤلاء كلهم كما ذكره ابن كثير»[٢] .

وسماهم الله سفهاء لأنهم سفهوا الحق وجحدوه وأنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم مع علمهم بصدقه في رسالته.

وقد ورد في صحيح البخاري ما يدل على أن المراد بالسفهاء المذكورين في الآية اليهود قال البخاري: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يوجه إلى الكعبة فأنزل الله تعالى: (قد نرى تقلب وجهك في السماء) فتوجه نحو الكعبة، وقال السفهاء من الناس وهم اليهود ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها[٣] ولكن الله

---

(١) الكشاف ج ١ ص ٣١٧.
(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٨٩.
(٣) صحيح البخاري ج ١ ص ١٠٤ ــ ١٠٥.

ذكر عن المنافقين إنهم هم السفاء فقال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ)[1] .

وحمل الآية على العموم أولى لأن كلا من الأصناف الثلاثة يصدق عليهم أنهم سفهاء والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ولكن يدخل اليهود في هذا دخولاً أولياً لصحة الحديث في كونهم السفهاء المذكورين في الآية.

٢) قوله تعالى: (قل لله المشرق والمغرب) ففي أي مكان توجه المصلي فثم وجه الله ولله تعالى أن يأمر عباده بأن يستقبلوا أي جهة تقتضيها حكمته وإرادته.

٣) قوله تعالى: (وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ)[2] وفي هذا إشارة إلى أن المصلحة في التوجه إلى بيت المقدس قد انتهت وأن الاستمرار على ذلك لن يكبح جماح نفوس لم تصطبغ بهداية الله وتوفيقه فإن هؤلاء لا يبحثون عن الحق والحقيقة وإنما يريدون المكابرة والعناد وإثارة الشبه.

٤) قوله تعالى: (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا)[3] فقد ذكر الله تعالى أنه جعل البيت مثابة ومرجعاً للحجاج والعمار يتفرقون عنه ثم يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار، وجعله أيضاً حرماً آمناً لهم و يتخطف الناس من حولهم.

٥) قوله تعالى: (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)[4] .

فقد أخبر سبحانه وتعالى أنه عهد ببناء بيته الحرام إلى نبيين كريمين هما: إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام وأمرهما بتطهيره من كل رجس للطائفين والقائمين والركع السجود.

---

(١) سورة البقرة : ١٣.

(٢) سورة البقرة : ١٢٠.

(٣) سورة البقرة : ١٢٥.

(٤) سورة البقرة : ١٢٧.

من هذا العرض للآيات التي وردت قبيل تحويل القبلة ومهدت لذلك تبين لنا أوجه الحكمة في هذا التحويل إلى بيت الله الحرام وأنه جدير بأن يكون قبلة للناس في مشارق الأرض ومغاربها على مرّ السنين وتعاقب الأجيال وأن اليهود لم يكن إعراضهم عن الحق لشبهة في نفوسهم يعوزها الدليل وإنما كان إعراضهم عناداً ومكابرة وكلاهما يعمى و يصم عن قبول الحق واتباعه.

و بعد أن مهد القرآن الكريم لتحويل القبلة بما يطمئن النفوس و يثبت الإيمان في القلوب و يرسي دعائمه في الأفئدة لتقبل هذا الأمر العظيم جاء أمر التحويل فقال تعالى: (قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ)[1] .

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: «قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: كان أول ما نسخ من القرآن القبلة وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود فأمره أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة عشر شهراً وكان يحب قبلة إبراهيم فكان يدعو الله و ينظر إلى السماء فأنزل الله تعالى: (قد نرى تقلب وجهك في السماء) إلى قوله: (فولوا وجوهكم شطره) فارتابت من ذلك اليهود وقالوا: (ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها) فأنزل الله تعالى: (قل لله المشرق والمغرب) (فأينما تولوا فثم وجه الله) وقوله تعالى: (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه)[2] .

وفي قوله تعالى: (وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) تشريع عام للأمة الإسلامية بأن تستقبل بيت الله الحرام حيثما كانت، وأينما وجدت في بر أو بحر.

وقد جاءت هذه الجملة موجهة إلى الأمة قاطبة لدفع توهم أن الخطاب في

---

(١) سورة البقرة : ١٤٤.
(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٩٢.

الأولى خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم، ولأنه لما كان تحويل القبلة أمراً له شأنه ومنزلته خصهم الله بخطاب مفرد ليكون ذلك أبلغ وآكد.

وقد كرر الله الأمر بالتوجه إلى الكعبة ثلاث مرات :

١) قوله تعالى : (قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ)[١] .

٢) قوله تعالى : (وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)[٢] .

٣) قوله تعالى : (وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)[٣] .

وقد اختلف العلماء في حكمة هذا التكرار للأمر ثلاث مرات وأورد ابن كثير في حكمته أقوالاً لأهل العلم هي :

١ ــ قيل كان للتأكيد لأنه أول ناسخ وقع في الإسلام على ما نص عليه ابن عباس وغيره.

٢ ــ قيل بل هو منزل على أحوال، فالأمر الأول هو مشاهد الكعبة والثاني لمن هو في مكة غائباً عنها، والثالث لمن هو في بقية البلدان هكذا وجهه فخر الدين الرازي[٤] .

---

(١) سورة البقرة : ١٤٤.

(٢) سورة البقرة : ١٤٩

(٣) سورة البقرة : ١٥٠

(٤) انظر تفسير الرازي ج ٤ ص ١٥٤.

وقال القرطبي الأول لمن هو بمكة والثاني لمن هو في بقية الأمصار والثالث لمن خرج في الأسفار، ورجح هذا الجواب القرطبي[1] .

٣ ـ وقيل إنما ذكر لتعلقه بما قبله أو بعده من السياق فقال أولا: (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها) إلى قوله (وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون) فذكر في هذا المقام إجابته إلى طلبه وأمره بالقبلة التي كان يود التوجه إليها و يرضاها، وقال تعالى: (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون) فذكر أنه الحق من الله وارتقاؤه المقام الأول حيث كان موافقاً لرضا الرسول صلىٰ الله عليه وسلم فبين أنه الحق أيضاً من الله يحبه و يرتضيه.

وذكر في الأمر الثالث حكمة قطع حجة المخالف من اليهود الذين كانوا يتحججون باستقبال الرسول إلى قبلتهم وقد كانوا يعلمون بما في كتبهم إنه سيصرف إلى قبلة إبراهيم عليه السلام إلى الكعبة وكذلك مشركو العرب انقطعت حجتهم لما صرف الرسول صلىٰ الله عليه وسلم عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم التي هي أشرف، وقد كانوا يعظمون الكعبة وأعجبهم استقبال الرسول صلىٰ الله عليه وسلم إليها[2] .

هذه لمحة سريعة عن جدال اليهود ومن لف لفهم من المنافقين والمشركين في تحو يل القبلة، ولم نتعرض لشرح الآيات بالتفصيل واستنباط الأحكام الشرعية منها، لأن ذلك يطول شرحه ويخرجنا عن حد الاختصار، وإنما أخذنا العبر الظاهرة في تحو يل القبلة وما له علاقة بالجدل.

و بالجملة، فتحو يل القبلة إلى بيت المقدس كان فيه مصالح وحكم ومنها تمييز من اتبع الرسول صلىٰ الله عليه وسلم وهو بمكة ممن أقام على تكذيبه فإن ذلك الامتياز ما كان ليظهر جلياً إلا بهذا العمل، ولما انتقل صلىٰ الله عليه وسلم إلى

---

(١) انظر تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٦٨.

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٩٥.

المدينة تغيرت المصلحة فاقتضت الحكمة تحويل القبلة إلى الكعبة، وقد تقدم قول الله تعالى: (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه).

وقال في شأن التحويل إلى بيت الله الحرام: (لئلاً يكون للناس عليكم حجة) يعني أن الشبه التي أثارها المخالفون تزول بسبب هذا التحويل.

وقد اقترن بالأمر الثالث بالتوجه إلى المسجد الحرام ثلاث حكم :

١ ــ قوله تعالى: (لئلا يكون للناس عليكم حجة) وهم اليهود ومن انتهج طريقهم.

٢ ــ قوله تعالى : (ولأتم نعمتي عليكم) أي ولوا وجوهكم شطر المسجد الحرام لئلا يكون للناس عليكم حجة ولتكون قبلتكم مستقلة عن قبلة اليهود وغيرهم فقوله: (ولأتم نعمتي عليكم) معطوفة على قوله تعالى: (لئلا يكون للناس عليكم).

٣ ــ قوله تعالى : (ولعلكم تهتدون) أي ولكي ترشدوا للصواب في كل أموركم فما ضلت عنه الأمم من الحق هديناكم إليه وخصصناكم به ولهذا كانت أمتكم خير أمة أخرجت للناس.

وبذلك تكون الآيات الكريمة التي نزلت في شأن تحويل القبلة إلى المسجد الحرام قد ثبتت المؤمنين ودحضت كل شبهة أوردها اليهود وغيرهم في هذه المسألة

جدال المشركين : ونورد منه النماذج الآتية :

جدالهم في مسألة الذبائح :

اهتم القرآن الكريم بتبيان ضلالات مشركي العرب التي كانوا عليها، ومسألة الذبائح من المسائل التي أولاها القرآن الكريم مزيداً من العناية والتفصيل.

وحكمة الاهتمام بهذه المسألة وقرنها بمسائل العقائد هي أن مشركي العرب وغيرهم

من أهل الأهواء والملل جعلوا الذبائح من أمور العبادات بل نظموها في سلك أصول الدين والاعتقادات فصاروا يتعبدون بذبح الذبائح لآلهتهم ومن قدسوا من رجال دينهم ويهلون لهم بها، وجملة القول أن مسألة الذبائح من مسائل العبادات التي كان يتقرب بها إلى الله عز وجل، ثم صاروا في عهد الوثنية يتقربون بها إلى غير الله تعالى وذلك شرك صريح وهذا هو الوجه لذكرها في هذه السورة بين مسائل الكفر والإيمان والشرك والتوحيد»[1] . وقد ورد الوعيد الشديد لمن تقرب بالذبائح لغير الله كالأصنام والأوثان أو ذكر عليها اسم غير الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لعن الله من ذبح لغير الله) رواه مسلم و يقصد به الذبح لمعبوداتهم من دون الله أو الإهلال باسم الأصنام عند الذبح.

وبلغ من عناية الإسلام بسد الذرائع الموصلة إلى الشرك إلى منع الذبح في المواضع التي كانت تعبد فيها الأوثان أو تقام فيها أعياد الجاهلية و يدل على هذا ما روي عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال: (نذر رجل أن ينحر إبلا «ببوانة» فسأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟ قالوا لا قال: فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قالوا لا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوف بنذرك فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم» رواه أبو داود[2] وإسناده على شرط البخاري ومسلم. والجدل في مسألة الذبائح يتركز على شيئين هما :

١ ــ حكم الذبح لغير الله.

٢ ــ حكم الأكل مما أهل به لغير الله.

١ ــ أما حكم الذبح : فقد أصبح قربة يقصد بها تعظيم المذبوح له ودرج المجوس والوثنيون على هذا فكانوا يعظمون معبوداتهم من دون الله فالمجوس يذبحون للنار

---

(١) انظر تفسير المنار ج ٨ ص ١٨.

(٢) انظر مختصر سنن أبي داود للحافظ المنذري ج ٤ ٣٨٢.

لأنهم كانوا يعبدونها من دون الله والوثنيون يذبحون لأصنامهم و يتوسلون إليها بالقرابين التي يذبحونها.

ولما كان الذبح قربة ووسيلة صار نوعاً من أنواع العبادة التي يجب أن تصرف لله تعالى فمن صرف شيئاً منها لغير الله فقد وقع في الشرك، فإن الله تعالى قرن بين الصلاة والذبح في آيتين من القرآن الكريم وأمر الله تعالى فيهما رسوله صلى الله عليه وسلم أن يصرف هذه الأشياء لله تعالى فقال تعالى: (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)[1] وقال تعالى: (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)[2] والنسك جمع نسيكة وهي الذبيحة، قاله مجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وغيرهم كما ذكره القرطبي[3] ، والنحر، هو نحر البُدن ونحوها كما قاله ابن عباس وعطاء ومجاهد وعكرمة والحسن كما نقله عنهم ابن كثير في تفسيره وقال إنه هو القول الصحيح[4] .

وقد قرن الله بين الصلاة والنحر لأن الصلاة أجل العبادات البدنية والنحر أجل العبادات المالية.

أما وجه الدلالة من الآيتين على أن الذبح لغير الله شرك، فيؤخذ من قوله تعالى في الآية الأولى (لا شريك له).

وفي الآية الثانية، أمر بأن يكون النحر لله تعالى والمعروف أن مشركي العرب يذبحون للأوثان التي يعبدونها من دون الله. فمفهوم المخالفة من الأمر في قوله: (فصل لربك وانحر) أن الذبح لغير الله ضرب من شرك الجاهلية، والمشركون كانوا يجادلون رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في أمر هذه الذبائح و يدعون أنهم ما ذبحوا تلك الذبائح لهذه الأوثان وعبدوها إلا لتقربهم إلى الله زلفى.

---

(١) سورة الأنعام : ١٦٢ ــ ١٦٣.

(٢) سورة الكوثر : ٢.

(٣) انظر تفسير القرطبي ج ٧ ص ١٥٢.

(٤) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥٥٨ ــ ٥٥٩.

وكان شياطين الإنس والجن يقفون وراء هذه الحركة الوثنية يدفعونها دفعاً للعمل والنشاط في هذه الأعمال الوثنية ويهمسون في آذان المشركين بالشبه والاعتراضات التي يواجهون بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[1] .

وسواء كان هؤلاء الموحون شياطين الإنس من اليهود أو من فارس ومن بها من المجوس أو من شياطين الجن فإن الآية تدل على أن طاعة هؤلاء المشركين والتأثر بما يدعون إليه من الذبح لغير الله أو أكل الميتة يكون شركاً لأنه شرك في التحليل والتحريم الذي اختص الله به، وشرك في العمل والاعتقاد بالذبح للأوثان تقرباً وعبادة كما يدل عليه قوله: (وإن أطعتموهم إنكم لمشركون).

٢ ــ أما حكم الأكل مما أهل به لغير الله، فقد عده القرآن الكريم من المحرمات، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2] ، والشاهد من الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾.

وقال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾[3] .

والشاهد من الآية قوله تعالى: (وما أهل لغير الله به)إلى قوله: (وما ذبح على النصب).

والنصب : حجر كان ينصب فيعبد، ويقال هو النّصب وهو حجر ينصب بين

---

(١) سورة الأنعام : ١٢١.

(٢) سورة البقرة : ١٧٣.

(٣) سورة المائدة : ٣.

يدي الصنم عليه دماء الذبائح: قاله ابن فارس(١) والذي ذبح على النصب هو في الحقيقة مما أهل لغير الله به وإنما خص بالذكر زيادة في النهي لأن أغلب المشركين على ذلك.

قال ابن عطية : «ما ذبح على النصب جزء مما أهل به لغير الله ولكن خص بالذكر بعد جنسه لشهرة أمره ولشرف الموضع وتعظيم النفوس له» كما نقله القرطبي عنه(٢) .

والإهلال : رفع الصوت، يقال أهل فلان بالحج والعمرة إذا رفع صوته بالتلبية له، ومنه استهل الصبي إذا صرخ عند الولادة قال النابغة :

أو درة صدفية غوّاصها بَهِجٌ متى يَرَهَا يهلُّ ويسجُدُ

وكانوا يذبحون لأصنامهم فيرفعون صوتهم بقولهم باسم اللآت أو باسم العزى.

وحكم تحريم أكل هذا أنه من عبادة غير الله تعالى، فالأكل مشاركة لأهله فيه ومشايعة لهم عليه وهو مما يجب إنكاره لا إقراره ورفع الصوت ليس علة التحريم ولا شرطاً له بل هو لبيان الواقع، وإنما سبب التحريم ما ذكرناه من كونه من عبادة غير الله تعالى، ويدخل فيما أهل به لغير الله ما ذكر عند ذبحه اسم نبي من الأنبياء أو ولي من الأولياء كما يفعله بعض أهل الكتاب وجهلة المسلمين(٣) .

«ولا خلاف بين العلماء أن ما ذبحه المجوسي لناره والوثني لوثنه لا يؤكل، ولا تؤكل ذبيحتهما عند مالك والشافعي وغيرهما، وإن لم يذبحا لناره ووثنه، وأجازهما ابن

---

(١) انظر مقاييس اللغة ج ٥ ص ٤٣٤.
(٢) انظر تفسير القرطبي ج ٦ ص ٥٧.
(٣) انظر تفسير المنار ج ٦ ص ١٣٧.

المسيب وأبو ثور إذا ذبح لمسلم بأمره»[1] ، واعلم أن الذبيحة للأصنام والأوثان ولو حصل ذلك ممن يدعي الإسلام وذكر اسم الله عليها فإنها مما أهل به لغير الله لأنها ذبحت للصنم والوثن تقرباً إليه فصارت بهذا ذبيحة مشرك فإن التسمية اللفظية لاغية والعبرة بالإهلال الحقيقي بما انطوى عليه من قصد التقرب به لغير الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قول الله تعالى: (وما أهل به لغير الله) ظاهره أنه ما ذبح لغير الله مثل أن يقول هذا ذبيحة لكذا وإذا كان هذا هو المقصود فسواء ألفظ به أم لم يلفظ، وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبح للحم وقال فيه باسم المسيح أو نحوه، كما أن ما ذبحناه متقربين به إلى الله كان أزكى وأعظم مما ذبحناه للحم وقلنا عليه بسم الله، فإذا حرم ما قيل فيه باسم المسيح أو الزهرة فلأن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح أو الزهرة أو قصد به ذلك أولى، وهذا يبين لك ضعف قول من حرم ما ذبح باسم غير الله، ولم يحرم ما ذبح لغير الله كما قاله طائفة من أصحابنا وغيرهم، بل لو قيل العكس لكان أوجه فإن العبادة لغير الله أعظم كفراً من الاستعانة بغير الله، وعلى هذا فلو ذبح لغير الله متقرباً إليه يحرم، وإن قال فيه باسم الله كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة الذين يتقربون إلى الكواكب بالذبح والبخور ونحو ذلك، وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال لكن يجتمع في الذبيحة مانعان: «الأول: «أنه مما أهل به لغير الله، والثاني: أنها ذبيحة مرتد». ومن هذا الباب ما يفعله الجاهلون بمكة وغيرها من الذبح للجن، ولهذا روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن ذبائح الجن، و يدل على المسألة ما قدمناه من أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الذبائح في مواضع الأصنام ومواضع أعياد الكفار»[2] .

الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح :

إن كان الذابح مجوسياً أو وثنياً لم يحل أكل ذبيحته مطلقاً، وإن كان مسلماً أو

---

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٢٣.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ص ٢٥٩.

من أهل الكتاب فلا يخلو الأمر عند الذبح إمّا أن يذكر على الذبيحة اسم غير الله فلا يحل أكلها كما تقدم، وإمّا أن يذكر عليها اسم الله تعالى فإنها تؤكل كما قال تعالى: (فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ)[1] .

وإما أن لا يذكر عليها اسم الله تعالى ولا اسم غيره، فللعلماء في متروك التسمية ثلاثة أقوال مشهورة وهي :

القول الأول : إنها لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة سواء أترك التسمية عمداً، أم تركها نسياناً، وهو مروى عن ابن عمر ونافع مولاه وعامر الشعبي ومحمد بن سيرين ورواية عن مالك ورواية عن الإمام أحمد، واحتجوا لمذهبهم بقوله تعالى: (وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ)[2] .

وبقوله في آية الصيد: (فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ)[3] .

وبما ثبت في الصحيحين من حديث رافع بن خديج عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه).

القول الثاني : أن التسمية ليست شرطاً في الذبح بل هي مستحبة فإن تركت عمداً أو نسياناً لم يضر إذا كان الذابح أهلا للذبح، وهذا مذهب الإمام الشافعي رحمه الله وجميع أصحابه ورواية عن الإمام أحمد نقلها عنه حنبل، وهو رواية عن الإمام مالك وحكي عن ابن عباس وأبي هريرة وعطاء بن أبي رياح، وحمل الشافعي الآية الكريمة (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) على ما ذبح لغير الله كقوله تعالى: (أو فِسْقاً أُهِلّ لغيرِ الله به) وقال ابن جريج عن عطاء (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) قال نهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش للأوثان وينهى عن ذبائح المجوس قال ابن كثير: وهذا المسلك الذي طرقه الإمام الشافعي قوي، وقال

---

(١) سورة الأنعام : ١١٨.
(٢) سورة الأنعام : ١٢١.
(٣) سورة المائدة : ٤.

الإمام الرازي في تفسيره نقلاً عن الشافعي ما نصه: «وقال الشافعي رحمه الله تعالى هذا النهي مخصوص بما إذا ذبح على اسم النصب و يدل عليه وجوه:

أحدها : قوله تعالى : (وإنهٔ لِفَسْقٌ) وأجمع المسلمون على أنه لا يفسق آكل ذبيحة المسلم الذي ترك التسمية.

ثانيها : قوله تعالى: (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم) وهذه المناظرة إنما كانت في مسألة الميتة، وروي أن أناساً من المشركين قالوا للمسلمين ما يقتله الصقر والكلب تأكلونه وما يقتله الله فلا تأكلونه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم قالوا: تأكلون ما تقتلونه ولا تأكلون ما يقتله الله فهذه المناظرة مخصوصة بأكل الميتة.

ثالثها : قوله تعالى :(وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) وهذا مخصوص بما ذبح على النصب، يعني لو رضيتم بهذه الذبيحة التي ذبحت على اسم إلهية الأوثان فقد رضيتم بإلاهيتها وذلك يوجب الشرك.

قال الشافعي رحمه الله تعالى : «فأول الآية وإن كان عاماً بحسب الصيغة إلا أن آخرها لما حصلت فيه هذه القيود الثلاثه علمنا أن المراد من ذلك العموم هو هذا الخصوص ومما يؤكد هذا المعنى هو أنه تعالى قال: (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) فقد صار هذا النهي مخصوصاً بما إذا كان هذا الأمر فسقاً ثم طلبنا في كتاب الله تعالى أنه متى يصير فسقاً؟ فرأينا هذا الفسق مفسراً في آية أخرى وهو قوله: (قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به) فصار الفسق في هذه الآية مفسراً بما أهل به لغير الله وإذا كان قوله: (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) مخصوصاً بما أهل به بغير الله»[1] .

القول الثالث : التفريق بين ترك التسمية عمداً أو نسياناً فإن تركها الذابح

---

(١) انظر الفخر الرازي ج ١٣ ص ١٦٨ — ١٦٩.

ناسياً لم يضر وإن تركها عامداً لم تحل وهذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه، وهو محكي عن علي بن أبي طالب وابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء وطاووس والحسن البصري وجماعة من أهل العلم، قال ابن جرير الطبري رحمه الله: «من حرم ذبيحة الناسي فقد خرج من قول جميع الحجة، وخالف الخبر الثابت عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم في ذلك»(١) ، يعني ما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبوالعباس الأصم حدثنا أبو أمية الطرسوسي، حدثنا محمد بن يزيد، حدثنا معقل بن عبيد الله عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس، عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال: (المسلم يكفيه اسمه إن نسي أن يسمي حين يذبح فليذكر اسم الله وليأكل» وهذا الحديث رفعه خطأ، أخطأ فيه معقل بن عبيد الله الجزري فإنه وإن كان من رجال مسلم إلا أن سعيد ابن منصور وعبد الله بن الزبير الحميدي روياه عن سفيان بن عيينة عن عمرو عن أبي الشعثاء عن عكرمة عن ابن عباس من قوله: فزادا في إسناده أبا الشعثاء ووثقاه وهذا أصح، نص عليه البيهقي وغيره من الحفاظ)(٢) .

وفي نظري أن مثل هذا الحديث له حكم الرفع لأنه حكم بالتحليل في مقابل نص دال على التحريم ولا يثبت هذا إلا عن صاحب الرسالة صلىٰ الله عليه وسلم.

وقد نقل ابن جرير وغيره عن الشعبي ومحمد بن سيرين أنهما كرها متروك التسمية نسياناً، والسلف يطلقون الكراهية على التحريم كثيراً، وهذا لا يتفق مع ماذكره ابن جرير قبل هذا من قول «من حرم ذبيحة الناسي فقد خرج من قول جميع الحجة».

إلا أن قاعدة ابن جرير أنه لا يعتبر قول الواحد والاثنين مخالفاً لقول الجمهور

---

(١) انظر تفسير الطبري ج ١٢ ص ٨٥.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٧٠.

فيعده إجماعاً، هكذا قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في توجيه قولي ابن جرير الطبري[١].

وإذا نظرنا إلى هذه الأقوال في متروك التسمية من الذبائح رأينا أن أحوطها وأبعدها عن الريبة.. هو القول الثالث. وهو أنه لايحل متروك التسمية عمداً فأما نسيان التسمية فإنه لا يؤاخذ عليه لأنه ليس في مقدوره، ونصوص الشريعة تدل في الجملة على رفع الحرج بالنسيان كما حكى الله تعالى بقوله: (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا)، وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (قال الله نعم)، وعن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (قال الله قد فعلت)[٢].

أما الرأي الثاني: فهو أعمقها مأخذاً وأدقها نظراً، وهو مذهب الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في أن متروك التسمية عمداً أو نسياناً لايحرم إذا كان الذابح ممن يصح منه الذبح، فأما قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾[٣].

فإن الآيات تناقش مشكلة ظاهرة في المجتمع الوثني «ولعل بعض المؤمنين كانوا يأكلون مما يذبح المشركون على النصب ويهلون به لغير الله قبل نزول هذه الآيات بل مثل هذا من الأمور المعتادة التي لا يتركها أكثر الناس إلا بعد التصريح بتحريمها عليهم، وإنما يتفطن لقبحها خواص أهل البصيرة فيتنزهون عنها قبل أن تحرم عليهم وهذا[٤] تحريم الخمر جاء على مراحل ثلاث فلم ينته عنه بعض المسلمين حتى نزلت الآية المصرحة بتحريمه.

---

(١) انظر ابن كثير ج ٢ ص ١٧٠.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٤٣.

(٣) سورة الأنعام: ١١٨ ــ ١١٩.

(٤) انظر تفسير المنار ج ٨ ص ١٩.

فإذا نظرنا للآيات الثلاث وجدنا الآية الأولى قد مهدت لما بعدها بأنه ينبغي للمسلمين أن يقتصروا في أكل الذبائح على ما ذكر عليه اسم الله دون غيره مما أهل به لغير الله.

ثم جاءت الآية الثانية تنكر عليهم أيّ تردد في قبول حكم الله تعالى القاضي بالكف عن أكل ما ذبح لغير الله، ثم جاءت الآية الثالثة مصرحة بالنهي عن أكل مالم يذكر عليه اسم الله ووصفته الآية بأنه فسق فإذا ضممنا هذه الآية إلى قوله تعالى: (قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً) إلى قوله: (أو فسقاً أهل لغير الله به) وجدنا أن المراد بالنهي عن أكل مالم يذكر عليه اسم الله مختص بما أهل به لغير الله كما تقدم فيما نقله الرازي عن الشافعي.

ولاشك أن التسمية على الذبائح مشروعة وقد ذكرت في سبع آيات من القرآن الكريم، وأقل ما تكون التسمية عند الذبح سنة، ولا يترك التسمية عمداً إلا من زهد في الخير وفي اتباع السنة المطهرة.

والذي تميل إليه النفس وتقتضيه حرية البحث هو عدم الأكل من ذبيحة من ترك التسمية عمداً في حالة الضرورة، والعلم عند الله تعالى.

جدالهم في أكل الميتة :

الميتة : ما فارقته الروح من غير ذكاة مما يذبح، وماليس بمأكول فذكاته كموته كالسباع وغيرها ذكره القرطبي[1] ، وقد ورد تحريم الميتة في مواضع متعددة من القرآن، قال تعالى: (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ)[2] وقال تعالى (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ .. الآية)[3]

---

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢١٧.

(٢) سورة البقرة : ١٧٣.

(٣) المائدة : ٤.

وقال تعالى : (قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا)[1]

إذا عرفنا الحكم الشرعي القاضي بتحريم أكل الميتة فما هي الحكمة في تحريمها؟

والحكمة في تحريم أكل الميتة، هي لما في الطباع السليمة من استقذارها ولما يتوقع من ضررها، فإنها إما أن تكون ماتت بمرض سابق أو بعلة عارضة وكلاهما لا يؤمن ضرره، لأن المرض قد يكون معدياً، والموت الفجائي يقتضي بقاء بعض الأشياء الضارة في الجسم كالغازات التي تؤدي إلى التسمّم.

قال صاحب المنار: «والمشهور عند علمائنا أن سبب ضرر الميتة احتباس الرطوبات فيها»[2] ، ومهما يكن فالشرع ما حرم شيئاً على الأمة إلا وفيه ضرر في العاجل أو الآجل سواء أعرف الناس وجه الحكمة في ذلك أم لم يعرفوها.

أما الجدال في أكل الميتة : فقد جادل المشركون في ذلك بوحي من شياطين الإنس أو شياطين الجن أو هما معاً ودعوى المشركين تتركز في أن ما ذبحه الإنسان لاعلاقة لله به في تحليل أو تحريم، وأن ما مات حتف أنفه فقد تولى الله تذكيته، وقد أثاروا هذه الشبهة ليتخذوها ذريعة لأنفسهم للبقاء على أكل الميتة وليشككوا المسلمين فيما جاء به رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم.

وكان يقف وراء جدال المشركين أعوانهم من اليهود ومجوس فارس، فقد روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال خاصمت اليهود النبي صلىٰ الله عليه وسلم فقالوا نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله؟ فأنزل الله (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق)، هكذا رواه مرسلاً ورواه أبو داود متصلا عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال جاء اليهود إلى النبي صلىٰ الله عليه وسلم فقالوا نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله؟ الخ.

---

(١) سورة الأنعام : ١٤٥.

(٢) تفسير المنار ج ٦ ص ١٣٤.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله بعد إيراده هذا الحديث : «وهذا فيه نظر من وجوه ثلاثة :

أحدها : أن اليهود لا يرون إباحة الميتة حتى يجادلوا.

الثاني : أن الآية من الأنعام وهي مكية.

الثالث : أن هذا الحديث رواه الترمذي عن محمد بن موسى الجرسي عن زياد ابن عبد الله البكائي عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ورواه الترمذي بلفظ: «أتى ناس النبي صلى الله عليه وسلم فذكره وقال حسن غريب»».

وقال الطبراني.. عن ابن عباس قال لما نزلت (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمداً وقولوا له فما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال، وما ذبح الله عز وجل بشمشير من ذهب ــ يعني الميتة ــ فهو حرام فنزلت هذه الآية (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) أي وإن الشياطين من فارس ليوحون إلى أوليائهم من قريش، وقد رواه ابن جرير من طرق متعددة عن ابن عباس وليس فيه ذكر اليهود.

قال ابن كثير وهذا هو المحفوظ لأن الآية مكية واليهود لا يبيحون الميتة قال ابن جريج قال عمرو بن دينار عن عكرمة أن مشركي قريش كاتبوا فارس على الروم، وكاتبتهم فارس فكتبت فارس إليهم أن محمداً وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله فما ذبح الله بسكين من ذهب فلا يأكلونه وما ذبحوه هم يأكلونه فكتب بذلك المشركون إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء فأنزل الله: (وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون)[1] .

فالمجادلون يدّعون بأن الله تعالى يتولى ذبح الميتة بسكينة من ذهب، أو بشمشير

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٧١ ملخصاً بتصرف.

من ذهب، وهل يريدون أن الله تعالى يتولى ذلك الذبح بنفسه أو يرسل ملائكة؟ وليس الغريب في صدور مثل هذه الشبهات السخيفة من المجوس أو اليهود بقصد الاعتراض على رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وإفساد المسلمين، ولكن الغريب أن تقبل مثل هذه الشبهات عقول تدرك الواقع المحسوس وتميز بين الحق والباطل.

وفي نظري أنهم لا يعتقدون بصحة ذلك ولكنهم يتلمسون الشبه والملابسات فيعتبرونها من الحرب الدعائية ضد رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فيما يدعو إليه من خير ورشاد وما يبلغه من رسالة الله تعالى إلى الناس كافة، ومثل هذه الشبهة يقال في الرد عليها ما يلي:

قولهم ما أماته الله أو ذبحه، إن كانوا يقصدون به ما قدر الله عليه قضاء وقدراً أن يموت، فكل شيء سواء ما ذبحه الإنسان أو مات حتف أنفه فهو بقضاء الله وقدره.

وإن كانوا يقصدون بما أماته الله ما مات بأسباب غير الذبح سواء أكان للإنسان فيها سبب أم لا، فازهاق النفس حاصل في الذبح وفي غيره «تعددت الأسباب والموت واحدُ»[1] فليس هناك فارق مؤثر في إزهاق النفس الحيوانية من حيث هو إزهاق وبين كونه بالذبح أو بغيره، ثم جاء الشرع فبين لنا ضرراً في الميتة التي لم نذكها بالذبح فتعين التزام إزهاق النفس الحيوانيّة بالذبح دون غيره إذ لا يزول الضرر إلا بهذا وقد شرع الله لعباده ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم وهو أعلم بمصالح عباده، فتحريم أكل الميتة نهى عنه الشارع لما فيه من الضرر لا لكونه إزهاق بغير الذبح. وإن كانوا يقصدون بأن الله يتولى تذكية الميتة بأي وسيلة من الوسائل فهذا أمر غيبي لا يثبت إلا بطريق الوحي أو المشاهدة الحسية العيانية، أما المشاهدة فهي منتفية ضرورة، وأما الوحي فإنما ينزل على الرسول وهم لم يدعوا الرسالة، بقي وحي آخر وهو وحي الشيطان الذي في إمكانهم أن يتلقوا عنه هذه الشبهات حول الذبائح والميتة وغيرها.

---

(١) هذا عجز بيت شعري لابن نباتة، والبيت :

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

ومن الطرائف ما روي عن أبي زميل قال كنت قاعداً عند ابن عباس وحج المختار ابن أبي عبيد فجاءه رجل فقال يا ابن عباس زعم أبو اسحاق أنه أوحى إليه الليلة فقال ابن عباس صدق فنفرت وقلت يقول ابن عباس صدق، فقال ابن عباس هما وحيان وحي الله ووحي الشيطان فوحي الله إلى محمد صلىٰ الله عليه وسلم ووحي الشيطان إلى أوليائه ثم قرأ: (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم)[1] وبعد، فهذه الشبهات في غاية الفساد وقد بيّن الله تعالى منشأ هذه الشبهات وهو حب الجدل بالباطل ومعارضة الرسول صلىٰ الله عليه وسلم فيما جاء به من عند الله من تشريع، وقد حذر الله المسلمين من الإصغاء إلى شبه هؤلاء المشركين وأعوانهم وبين أن طاعتهم في التحليل والتحريم ضرب من الشرك فقال تعالى: (وإن أطعتموهم إنكم لمشركون).

وفي قوله: (وان أطعتموهم) يعني في استحلال الميتة (إنكم لمشركون) قال الزجاج: فيه دليل على أنَّ كل من أحل شيئاً مما حرم الله أو حرم شيئاً مما أحل الله تعالى فهو مشرك وإنما سمي مشركاً لأنه أثبت حاكماً سوى الله تعالى وهذا هو الشرك[2] ، ويشهد لهذا قوله تعالى: (إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله... الآية). فقد روى الترمذي وغيره في تفسير هذه الآية عن عدي بن حاتم أنه قال يارسول الله ما عبدوهم فقال: «بلى إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم».

ومن الآيتين السابقتين وهذا الحديث نعلم أنه لا حاكمية إلا لله وحده وأن إقامة شريعة الله في أرضه هي الركيزة الأولى لسعادة البشرية وعزة المسلمين ووحدتهم:

جدالهم في التحليل والتحريم :

لقد حكى القرآن الكريم نماذج من جهالات المشركين وبين ما تنطوي عليه من

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٧٠ ــ ١٧١.

(٢) انظر الفخر الرازي ج ١٣ ص ١٧٠.

أقوال سخيفة وأفكار متشتتة مما يدل على ضعف العقول وسذاجة الطبع عند كثير منهم، وسنذكر على سبيل المثال النماذج الآتية :

١ ــ قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾[1] .

وهذه الآية تدل على أنهم فرضوا في أموالهم نصيبين : نصيباً لله تعالى، ونصيباً لشركائهم. وقد يقال كيف نسب الله إليهم الكذب في قولهم: (هذا لله) ومعلوم أن جميع الأشياء لله تعالى، والجواب أن إفرازهم النصيبين نصيباً لله ونصيباً للشيطان هو الكذب، ذكره الرازي[2] .

وسميت الأوثان شركاء لهم لأنهم جعلوا لها نصيباً من أموالهم ينفقونها عليها، وقد بين الله تعالى نوعاً من التلاعب بهذه الأنصباء التي فرضوها في أموالهم وأنهم يحرصون على الوفاء والرعاية لأنصباء الأوثان أكثر مما يحرصون على رعاية وتنمية أنصباء الله التي جعلوها له مما يدل على اهتمامهم بما في جانب الله تعالى وأنهم يتوجهون بالرغبة والرهبة لتلك الأوثان أكثر مما يتوجهون بها إلى الله تعالى وهذا غاية الجهل والضلال وعمى البصيرة عن منهج الحق والصواب، وهذا ما عناه الله تعالى بقوله: (فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون).

وقد ذكر العلماء في تفسير هذه الآية وجوهاً بعضها قريب من بعض ونذكر منها ماروي عن ابن عباس رضي الله عنه كما نقله عنه الحافظ ابن كثير في تفسيره حيث قال: «قال علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس إنه قال في تفسير هذه الآية إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه وإن

---

(١) سورة الأنعام : ١٣٦.

(٢) انظر تفسير الرازي ج ٢ ص ٢٠٤.

سقط منه شيء فيما للصمد ردوه إلى ما جعلوه للوثن وان سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن فسقى شيئاً جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن وإن سقط شيء من الحرث والثمر الذي جعلوه لله فاختلط بالذي جعلوه للوثن قالوا هذا فقير ولم يردوه إلى ما جعلوه لله وإن سبقهم الماء الذي جعلوه لله فَسَقَى ما سمي للوثن تركوه للوثن وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام فيجعلونه للأوثان و يزعمون أنهم يحرمونه قربة لله فقال الله تعالى: (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً.. الآية) وهكذا قال مجاهد وقتادة والسدي وغير واحد»[1] .

وفي قوله تعالى : (ساء ما يحكمون) ذم لهم على هذه الأحكام الجائرة الضالة.

ومن أنواع هذه الإساءة ما يلي :

(أ) أنهم رجحوا جانب الأصنام في الرعاية والحفظ على جانب الله تعالى.
(ب) أنهم جعلوا بعض النصيب لله وجعلوا بعضه لغيره مع أنه تعالى الخالق للجميع.
(جـ) أن ذلك الحكم أحدثوه من عند أنفسهم ولم يشهد بصحته عقل ولا شرع فتبين بهذا فساد تلك الأعمال الجاهلية التي أبدلنا الله تعالى عنها بأحكام الإسلام العادية.

٢ ــ قال تعالى: وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)[2].

هذا هو النموذج الثاني من جهالة المشركين وأحكامهم الفاسدة.

«وكذلك» عطف على قوله: (وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ)[3] أي كما فعلوا ذاك فكذلك زين لكثير منهم شركاؤهم قتل الأولاد.

والمعنى : أن جعلهم لله نصيباً وللشركاء نصيباً نهاية في الجهل بمعرفة الخالق

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٧٩.
(٢) سورة الأنعام : ١٣٧.
(٣) سورة الأنعام : ١٣٥ .

المنعم، وإقدامهم على قتل أولادهم نهاية في الجهالة والضلالة وذلك يفيد التنبيه على أن أحكام هؤلاء وأحوالهم يشاكل بعضها بعضاً في الركاكة والخساسة.

وقد كان من أهل الجاهلية من يدفنون أولادهم أحياء خوفاً من الفقر أو من التزويج وهو المراد من هذه الآية، واختلفوا في المراد بالشركاء فقال مجاهد شركاؤهم شياطينهم أمروهم بأن يئدوا أولادهم خشية العيلة.

وقد أشار الله تعالى إلى هذه الظاهرة في المجتمع الجاهلي وحذر من قتل الأولاد خشية الإملاق وهو الفقر، فقال الله تعالى: (وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)[1] ، وقال تعالى:(وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا)[2] .

وسميت الشياطين شركاء، لأنهم أطاعوهم في معصية الله تعالى.

قال الكلبي : كان لآلهتهم سدنة وخدام وهم الذين كانوا يزينون للكفار قتل أولادهم وهذا يتناول البنات خوفاً من الفقر والعار كما قد يتناول الذكور في النذور كالذي نذره عبد المطلب أن لو رزقه الله عشرة أبناء يحمونه ليذبحن أحدهم للآلهة فرزقه الله عشرة أبناء فاستقسم بالقداح عند هبل فخرج القدح على ابنه عبد الله والقصة مشهورة عن ابن اسحاق كما نقلها عنه الحافظ ابن كثير في السيرة النبوية[3] ، وعلى هذا القول فالشركاء هم السدنة وسموا شركاء كما سميت الشياطين شركاء في قول مجاهد المتقدم.

ثم قال تعالى : (ليردوهم) والإرداء في اللغة الإهلاك، وفي القرآن : (إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ)[4] .

---

(١) سورة الأنعام : ١٥١.
(٢) سورة الاسراء : ٣١.
(٣) انظر السيرة النبوية للحافظ بن كثير ج ١ ص ١٧٤ ـ ١٧٦.
(٤) سورة الصافات : ٥٦.

قال ابن عباس ليردوهم في النار، واللام ها هنا محمولة على لام العاقبة كما في قوله تعالى: (فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا)[1] .

(وليلبسوا عليهم دينهم) أي يخلطوه لأنهم كانوا على دين اسماعيل فهذا الذي أتاهم بهذه الأوضاع الفاسدة أراد أن يزايلهم عن ذلك الدين الحق[2] .

قوله تعالى : (ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون) إعلم أن مبحث المشيئة والإرادة من المباحث التي كثر فيها الجدل قديماً وحديثاً، وهي من المسائل الجدلية المهمة التي جرت بين أهل السنة والمعتزلة وأصحاب الأهواء والبدع.

ومنشأ هذا النزاع هو الاستدلال بمشيئة الله وإرادته الكونية على المحبة والرضى بذلك الأمر الذي قضاه الله وقدره قضاء كونياً عاماً كما سيأتي إن شاء الله الكلام على هذه المسألة عند قوله تعالى: (سيقول الذين اشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء).

٣ ــ قال تعالى : (وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ)[3] .

وهذا نموذج ثالث من ضلالات المشركين وأحكامهم الفاسدة حيث وزعوا أموالهم إلى أنواع ثلاثة :

(١) النوع الأول : الحرث والأنعام التي عينوها لآلهتهم، وهذه محجورة أي (ممنوعة) إلا لم يشاؤن و يعنون خدم الأوثان والرجال دون النساء.

(٢) النوع الثاني : أنعام حرمت ظهورها من الحمل عليها، وهي البَحيرة والسائبة

---

(١) سورة القصص : ٨.

(٢) انظر الفخر الرازي ج ٣ ص ٢٠٥ ــ ٢٠٦.

(٣) سورة الأنعام : ١٣٨.

والوصيلة والحامي كما قال السدي : وهي التي قال الله تعالى عنها: (مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)[١] .

وقد ورد في المراد بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي آثار كثيرة.

أما البحيرة والسائبة : فقد روي البخاري في صحيحه عن سعيد بن المسيب قال: «البحيرة التي يمنع درّها للطواغيت ولا يحلبها أحد من الناس، والسائبة التي كانوا يسيبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شيء قال: وقال أبو هريرة قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: (رأيت عمرو بن عامر بن لحيّ الخزاعي يجر قصبه في النار وكان أول من سيب السوائب)[٢] .

والوصيلة : الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل ثم تثني بعد بأنثى، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر.

والحامي : فحل الإبل يضرب الضراب المعدود فإذا قضى ضرابه ودّعوه للطواغيت وأعفوه عن الحمل فلم يحمل عليه شيء وسموه الحامي.

وهذه الخرافات الجاهلية من وضع عمرو بن لحى بن قمعة أحد رؤساء خزاعة الذين ولوا البيت بعد جرهم وكان أول من غير دين إبراهيم الخليل فأدخل الأصنام إلى الحجاز ودعا الرعاع من الناس إلى عبادتها والتقرب بها وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها»[٣] .

(٣) النوع الثالث : أنعام لا يذكرون اسم الله عليها في الذبح وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام، وقيل لا يحجون عليها ولا يلبون على ظهورها[٤] .

---

(١) سورة المائدة : ١٠٣.

(٢) صحيح البخاري ج ٤ ص ٢٢٤.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٠٧.

(٤) انظر تفسير الرازي ج ١٣ ص ٢٠٧.

وهذا التحريم والتحليل الذي ابتدعوه في الأنعام والحرث إنما كان من خرافة الجاهلية ووحي الشيطان، ولهذا أنكر الله عليهم ذلك أشد إنكار فقال تعالى: (قُلْ أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون).

٤ ـ قال الله تعالى : (وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم)[1] .

وهذا نموذج رابع من مفتريات المشركين، والذي في بطون الأنعام قيل هو اللبن كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: (وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا) قال هو اللبن كانوا يحرمونه على أناثهم و يشربه ذكرانهم وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه وكان للرجال دون النساء وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء فنهى الله عن ذلك[2] .

وقيل هي أجنة البحائر والسوائب وما ولد منها حياً فهو خالص للذكور لا تأكل منه الإناث وما ولد ميتاً اشترك فيه الذكور والإناث ذكره الرازي[3] .

وكيفما كان هذا التحريم فإنه يعطينا صورة حقيقية عن اضطهاد المرأة في الجاهلية وحرمانها من كثير من الحقوق وقد جاء الإسلام فحرر المرأة من عبودية الجاهلية الهوجاء ورفع عنها الظلم وفرض لها الحقوق المشروعة في حدود نظامه العادل.

وفي قوله تعالى : (سيجزيهم وصفهم) إشارة إلى أن تلك الأوصاف التي وصفوها بالتحليل والتحريم خرافة جاهلية كما قال تعالى: (وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ)[4] .

---

(١) سورة الأنعام : ١٣٩.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٨٠

(٣) الرازي ج ١٣ ص ٢٠٨.

(٤) سورة النحل : ١١٦.

تلك نماذج أربعة من مسائل التحليل والتحريم التي ابتدعها المشركون من عند أنفسهم وقد تصدى القرآن لتلك المفتريات والخرافات الضالة وأبطلها بمنطق الحجة والبرهان فحكم أولاً عليهم بالخسران وذمهم بأمور متعددة كما في قوله تعالى: (قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ)[1] .

وفي هذه الآية حكم على هؤلاء المشركين بالخسران في الدنيا والآخرة لأن الآيات السابقة تحدثت عن قتلهم أولادهم وتحريمهم ما رزقهم الله من الطيبات، والخسران في الدنيا بقتلهم أولادهم وحرمانهم نعمة الولد وتضييقهم على أنفسهم بتحريم بعض الأشياء التي حرموها دون إذن من الله تعالى بذلك.

وقد وصمهم الله تعالى في هذه الآية بسبع رذائل :

١ ــ الخسران ٢ ــ السفاهة ٣ ــ عدم العلم المستلزم للجهل ٤ ــ تحريم مارزقهم الله ٥ ــ الافتراء على الله ٦ ــ الضلال ٧ ــ عدم الاهتداء، وكل واحد من هذه الأمور السبعة سبب تام في توجيه الذم إليهم.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم) إلى قوله: (قد ضلوا وما كانوا مهتدين)[2] .

لقد أعلن القرآن ضلالهم المطلق في هذه التصورات والمزاعم التي ينسبونها إلى الله بغير علم.

ثم لفت القرآن الكريم أنظارهم إلى أن الله تعالى هو الذي أنشأ لهم هذه الأموال التي يتصرفون فيها هذه التصرفات، هو الذي أنشأ لهم جنات معروشات وغير

---

(١) سورة الأنعام : ١٤٠

(٢) صحيح البخاري كتاب المناقب ج ٤ ص ٢٢٤.

معروشات، وهو الذي خلق لهم هذه الأنعام والذي يرزق هو وحده الذي يملك، وهو وحده الذي يشرع للناس فيما رزقهم من هذه الأموال وفي هذه اللفتة استخدم حشداً من المؤثرات الموحية من مشاهد الزرع والثمار والجنات المعروشات وغير المعروشات ومن نعمة الله عليهم في الأنعام التي جعل بعضها حمولة لهم يركب ويحمل، وبعضها فرشا يؤكل لحمه و يفرش جلده وصوفه وشعره.. كما استخدم ذكر العداء المتأصل بين آدم والشيطان فكيف يتبعون خطوات الشيطان وكيف يستمعون لوسوسته وهو العدو المبين.

فقال تعالى : (وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)(١) .

ثم استعرض بالتفصيل بعد ذلك سخافة تصوراتهم فيما يختص بالأنعام وخلوها من كل منطق وألقى الأضواء على ظلمات التصورات حتى أنها لتبدو تافهة مهلهة متهافتة.

لقد ناقشهم القرآن بحصر الأوصاف التي يمكن أن تكون علة للتحريم، وهذا الحصر المنطقي يجعلهم في دائرة ضيقة لا يخرجون عنها إلا إذا ركبوا رؤوسهم بالمكابرة والعناد والتهرب من كل منطق تشهد بصحته العقول.

وقد اشتملت الآيات التالية على حصر منطقي لمصادر العلم الثلاثة وهي :

(١) الحصر عن طريق العقل المنطقي.

(٢) النقل الصحيح عن الوحي الإلهي.

(٣) دليل الحضور والشهادة الحسية.

فقال تعالى: (ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ

---

(١) سورة الأنعام : ١٤١ ــ ١٤٢.

أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)[1].

فكأن الآية الكريمة تطالبهم بإثبات دعواهم في التحليل والتحريم بإحدى هذه الطرق الثلاث التي هي مصادر العلم ولكنهم عجزوا عن إثبات ذلك ولما عجزوا قالوا كذا أمر الله فقال تعالى: (فمن أظلم ممن افترى على الله الكذب ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين).

وحصر الأوصاف التي وردت في الآية : أنه إن كانت علة التحريم الذكورة فكل ذكر حرام وإن كانت علة التحريم الأنوثة فكل أنثى حرام، وإن كانت علة التحريم اشتمال الرحم على الحمل فكل مولود حرام ذكراً كان أو أنثى.

فإذا لم تكن العلة فيما تقدم فهل كان عندهم علم من جهة الله تعالى جاءت به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يدل على أن الله حرم شيئاً مما ذكر، فإن لم يكن عندهم علم فهل كانوا حاضرين مشاهدين إذ وصاهم الله بهذا التحريم أي ألزمهم به إما بأن يبعث رسولاً يخبرهم به وإما أن يشاهدوا الله تعالى ويسمعوا كلامه، والأول مناف لما هم عليه لأنهم لا يؤمنون برسول فتتعين المشاهدة والسماع وهذا محال، فثبت بهذا كذبهم وافتراءهم على الله تعالى.

ثم يقرر صاحب التشريع ما هو محرم فعلا من المطاعم سواء ما حرم على المسلمين وما حرم على اليهود خاصة وأحل للمسلمين فقال تعالى: (قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ

---

(١) سورة الأنعام : ١٤٣ ــ ١٤٤.

بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ)[١] .

ثم يأتي السياق القرآني لتبيان ماهم عليه من جاهلية وما سيحتجون به على إقامتهم على الشرك بالله وتحريم ما أحل الله، إنهم يحيلون هذه التبعات على إرادة الله ومشيئته فيقولون: (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) فيقرر القرآن أن هذه المقالة هي مقالة كل كافر مكذب من قبل وقد قالها المكذبون حتى جاءهم بأس الله (كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا).

فالشرك كالتحريم من دون شرع الله كلاهما سمة المكذبين بآيات الله تعالى، وقد بين الله تعالى تلك المقالة التي يريدون بها التخلص من تبعات أعمالهم الجاهلية ورفع الملامة عنهم فقال تعالى: (سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)[٢]

إن دعوى هؤلاء المشركين مبنية على مقدمتين ونتيجة، وحاصل دعواهم: أن مايرتكبونه من الشرك والتحريم وغيرهما تعلقت به مشيئة الله تعالى وإرادته وكل ماتعلقت به مشيئة الله وإرادته فهو مشروع ومرضى عنده عز وجل.

فينتج أن ما يرتكبونه من الشرك والتحريم مشروع ومرضي عند الله تعالى، والمقدمة الأولى لا تكذيب فيها نفسها بل هي متضمنة لتصديق ما تطابق فيه العقل والشرع من كون كل كائن بمشيئة الله تعالى، وامتناع أن يجري في ملكه خلاف مايشاء.

---

(١) سورة الأنعام : ١٤٥ — ١٤٧.

(٢) سورة الأنعام : ١٤٨ — ١٥٠.

فنشأ التكذيب هو المقدمة الثانية، لأن الرسل عليهم الصلاة والسلام يدعونهم إلى التوحيد ويقولن لهم: إن الله لا يرضى لعباده الكفر ديناً ولا يأمر بالفحشاء فيكون قولهم: إن ما نرتكبه مشروع ومرضي عنده تعالى تكذيباً لهذا القول، وحيث كان فساد هذه الحجة باعتبار المقدمة الثانية تعين أنها ليست بصادقة وحينئذ يصدق نقيضها وهو أنه ليس كل ما تعلقت به المشيئة والإرادة مشروع ومرضي عنده سبحانه بناء على أن الإرادة لا تساوق الأمر والرضا على ما هو مذهب أهل السنة، فإذا تدبرت الآية الكريمة وجدتها ترد على طائفتين في طرفي نقيض فصدر الآية دافع في صدور الجبرية وعجزها معجز للمعتزلة، إذ صدر الآية مثبت أن للعبد اختياراً وقدرة على وجه يقطع حجته وعذره في المخالفة والعصيان، وعجز الآية مثبت نفوذ مشيئة الله تعالى في العبد وإن جميع أفعاله على وفق المشيئة الإلٰهية وبذلك تقوم الحجة البالغة لأهل السنة على مخالفيهم من الجبرية والمعتزلة[١] .

وبالجملة، فلا عذر بمشيئة الله لأحد في أعمال الكفر والمعاصي لأنه تعالى لم يشأ أن تكون أفعالهم اضطرارية بل خلقهم بمشيئته يفعلون ما يفعلون باختيارهم دون إكراه ولم يكلفهم مالا يطيقون.

لقد رأينا في الآيات السابقة مزاعم المشركين وشبهاتهم ورأيناها تتهافت أمام حجج القرآن وبراهينه، إنها معركة جدلية بين الكفر والإيمان بين دعاة الرحٰمن ودعاة الشيطان، إنها مناقشة تنتهي إلى موقف الإشهاد والمفاصلة.

لقد بدأ الشوط بعرض مسائل التحليل والتحريم التي ابتدعها المشركون من عند أنفسهم ثم ناقشها القرآن وزيفها بمنطق الحجة والبرهان، وفي نهاية الشوط دعاهم القرآن ليبين لهم ما حرم الله عليهم حقاً فإذا هي جملة من المبادىء الأساسية للحياة الاجتماعية في مقدمتها توحيد الله تعالى وبعضها أوامر وتكاليف ولكن التحريمات أغلب فجعلها عنواناً للكل.

---

(١) انظر تفسير الألوسي ج ٨ ص ٥٠ ــ ٥٢.

لقد نهى الله عن الشرك وأمر بالإحسان للوالدين ونهى عن قتل الأولاد خشية الفقر مع طمأنينتهم على الرزق ونهى عن القرب من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ونهى عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ونهى عن مس مال اليتيم الا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأمر بايفاء الكيل والميزان بالقسط وأمر بالعدل في القول في الشهادة والحكم ولو كان ذا قربى، وأمر بالوفاء بعهد الله كله وجعل هذا جميعه وصية من الله كررها عقب كل جملة من الأوامر والنواهي.

ثم ختم ذلك السياق الذي تضمن قاعدة العقيدة ومبادىء الشريعة بتبيان أن ذلك هو صراطه المستقيم وأن عليهم أن يلتزموا نهجه وأن يبتعدوا عن كل طريق معوج يفضي إلى موارد العطب والهلاك.

واستمع لتلك المبادىء الأساسية التي تحفظ الدين والنفس والمال والعرض والولد، كما بينها الله تعالى بقوله: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[1] .

قال ابن مسعود رضي الله عنه من أراد أن ينظر إلى وصية محمد صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالى: (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً) إلى قوله: (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه)[2] رواه الترمذي وحسنه وابن المنذر وابن أبي حاتم.

---

(١) سورة الأنعام : ١٥١ ــ ١٥٣.

(٢) انظر سنن الترمذي ج ٤ ص ٣٢٩.

ونكتفي بهذا القدر من الحديث عن الجدال في التشريعات، وفيما يلي أهم النقاط الرئيسية التي أشتمل عليها هذا الفصل.

١ ــ أن اليهود منذ فجر الإسلام وهم يعملون لإثارة الفتن بين المسلمين وتشكيكهم فيما جاء به رسول الإسلام صلىٰ الله عليه وسلم من شريعة ختامية ودين عالمي وما إنكارهم للنسخ في الشرائع السماوية إلا وسيلة للطعن في هذا القرآن الكريم حيث قالوا: «ألا ترون إلى محمد يأمر بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ويقول اليوم قولا وغداً يرجع عنه».

وبهذا نعرف جذور العداوة المستحكمة في نفوس الصهاينة لكل ما له صلة بالإسلام والمسلمين.

٢ ــ أن النسخ وقع في شريعة الإسلام ووقع بها وقد قامت البراهين العقلية والنقلية على ذلك.

٣ ــ إخفاء اليهود للحقائق العلمية التي في التوراة ومحاولتهم قلب ميزان الحقائق في قضايا كثيرة، ومنها قضايا التحليل والتحريم، فإن الله تعالى عندما أخبر أنه حرم على اليهود بعض المطاعم بسبب بغيهم وظلمهم وقد كانت حلالاً لهم قبل ذلك عندما أخبر تعالى بذلك أنكر اليهود أن يكون ذلك التحريم بسبب بغيهم وعدوانهم بل إن تلك المطاعم كانت محرمة على الأنبياء السابقين وأممهم، فأفحمهم القرآن وكشف حقيقة أمرهم إذ قال: (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) والعبرة أن هذا التحدي يأتي من رجل أمي فيخبرهم بما بين أيديهم من التوراة وما فيها من حقائق علمية أرادوا إخفاءها مما يبرهن على أن هذا القرآن من لدن حكيم خبير.

٤ ــ أن التوجه بالصلاة إلى بيت المقدس شرع لحكمة، ثم نسخ ذلك بالتوجه إلى بيت الله الحرام لحكمة تقتضيها إرادة الله تعالى بجعل بيته الحرام مثابة للناس وأمناً، واستقر التشريع على جعل بيت الله الحرام قبلة للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها (وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) وما دام لله تعالى المشرق والمغرب فله أن يأمر عباده بما يشاء ويشرع لهم ما يريد (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون).

٥ ــ اعتنى الإسلام بتركيز العقيدة الإسلامية في نفوس أبنائه وبين أن الله تعالى هو المستحق للعبادة والتعظيم فعالج الإسلام مشكلة ظاهرة في المجتمع الوثني وهي مسألة الذبائح التي كانت تذبح للأصنام والأوثان فجعل الذبائح على وجه القربة عبادة لا يجوز صرفها لغير الله تعالى ولهذا حرم أكل «ما أهل لغير الله به».

٦ ــ أن الذي خلق العباد ورزقهم من الطيبات هو الذي يملك حق التشريع كقضايا التحليل والتحريم،إذ هي من أخص صفات الألوهية فقيام فئة من الناس بالتحليل والتحريم دون إذن من الله منازعة للخالق في إلٰهيته (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون)[1] .

وبهذا يتبين أن الحاكمية لله وحده وأن الدين لا يفصل بين العقيدة والعبادة والشريعة، فكلها يجب أن تستمد من وحي الله فالتفريق بين العقيدة والعبادة والشريعة كالتفريق بين الدين والدولة، وكلها أفكار وآراء تحمل في طياتها معاول لهدم قواعد الإسلام وزلزلة كيانه.

وحاجة المسلمين اليوم أشد ما تكون إلى الرجوع إلى الإسلام من جديد وتحكيم شريعة الله وإحلالها محل القوانين الوضعية التي صنعها البشر.

إن من مقاصد الإسلام حل مشكلات البشر عند النزاع واختلاف الأهواء والنزعات، فيرجعون إلى ميزان عدل لا تؤثر فيه العواطف أو المحسوبيات، هذا الميزان هو صراط الله المستقيم، الذي لا تزيغ به القلوب ولا تضل فيه الأفهام (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم).

(١) سورة النحل : ١١٦.

و ـ الجدال في موضوعات مختلفة

أردنا في هذا الفصل أن نجمع نماذج من الجدل الذي حكاه القرآن الكريم في موضوعات متفرقة نوجزها فيما يلي :

جدال ابني آدم :

قال الله تعالى : (وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ)[1] .

هذه القصة تقدم نموذجاً لطبيعة الشر والعدوان الصارخ الذي لا مسوغ له، كما تقدم نموذجاً لطبيعة الخير والسماحة والطيبة والوداعة، وتوقفها جميعاً وجهاً لوجه.

وترسم الجريمة المنكرة التي يرتكبها الشر والعدوان الذي يثير الضمير و يثير الشعور بالحاجة إلى شر يعة نافذة بالقصاص العادل تردع الشر ير المعتدي عن الاعتداء وتكفه عن الإقدام على الجريمة فإذا ارتكبها على الرغم من ذلك وجد الجزاء العادل المكافيء للفعلة المنكرة.

كما تصون النموذج الطيب الخير من الناس وتحفظ حرمة دمه فمثل هذه النفوس يجب أن تعيش وأن تصان وأن تأمن في ظل شر يعة عادلة رادعة، وأشهر الآثار

---

(١) سورة المائدة : آية ٢٧ ــ ٣١.

الواردة في هذه القصة أن ابني آدم هما «هابيل وقابيل» وفي سبب وقوع المنازعة بينهما قولان.

أحدهما :

أن هابيل كان صاحب غنم وقابيل كان صاحب زرع فقرب كل واحد منهما قرباناً فطلب هابيل أحسن شاة كانت في غنمه وجعلها قرباناً، وطلب قابيل شر حنطة في زرعه فجعلها قرباناً ثم تقرب كل واحد بقربانه إلى الله فنزلت نار من السماء فاحتملت قربان هابيل ولم تحمل قربان قابيل فعلم قابيل أن الله تعالى قبل قربان أخيه ولم يقبل قربانه فحسده فقتله.

ثانيها :

ما روي أن آدم عليه السلام كان يولد له في كل بطن غلام وجارية.وكان يزوج البنت من بطن بالغلام من بطن آخر فولد له قابيل وتوأمته وبعدهما هابيل وتوأمته، وكانت توأمة قابيل أحسن الناس وجهاً فأراد آدم أن يزوجها من هابيل فأبى قابيل ذلك وقال أنا أحق بها وهابيل أحق بأخته فقال آدم عليه السلام لهما قربا قرباناً فأيكما قبل قربانه زوجتها منه فقبل الله قربان هابيل بأن أنزل ناراً من السماء فأخذت قربانه، فحسد قابيل أخاه هابيل على ذلك فقتله[1] ، فوقعت بذلك العدوان مأساة رهيبة إذ وقع هابيل ضحية لنزوة من نزوات النفس الجامحة وفريسة لداء الحمق والجهالة.

إن الغريزة الإنسانية قوامها الحرص والطمع فمن كبح جماح شهوته، وكسر حدة سطوته وجعل لعقله سلطاناً على هواه، فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم في الدنيا والآخرة.

وأما من سار وراء شهواته، وأطلق لعقله زمام هواه فهو من الأخسرين أعمالا

---

(١) انظر تفسير الفخر الرازي ج ١١ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً) وذلك محك الطبيعة الإنسانية وممتحن النفس البشرية في هذه الأرض.

بدأ الجدال من قابيل بالتهديد والوعيد «لأقتلنك» وفي الكلام حذف، فكأن هابيل قال ولم تقتلني؟ قال لأن قربانك صار مقبولاً، فقال هابيل وما ذنبي؟ (إنّما يتقبّلُ الله من المتّقِيْنَ).

ثم استمر هابيل في توجية النصيحة الخالصة لأخيه والموعظة الحسنة والتخويف من عاقبة الأمر حيث قال: (لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين).

ولكن تلك النصيحة لم تكن مجدية أمام ذلك الحقد المتقد في صدر قابيل ولم يكن مبعث الحنو والرحمة والعطف ليهديء من ثورة ذلك البركان الثائر ولم تكن مخافة الله ولا رعاية حقوق الأبوين رادعة لتلك النفس التي كانت أول من أجرم على ظهر البسيطة من الناس ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: (لا تقتل النفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل) رواه البخاري[١] ومسلم وغيرهما.

روي أن قابيل صبر حتى نام هابيل فضرب رأسه بحجر كبير فقتله[٢] ، وبعد تلك الجريمة الشنعاء فكر قابيل في أمر أخيه ماذا يصنع فيه، ثم حمله في جراب على ظهره وظل مضطرباً حائراً قلق النفس ملتاع الفؤاد.

وتغيرت جثة ذلك المقتول ولم يدر قابيل كيف السبيل «وهنا لابد من أن تهبط رحمة الله رعاية لحق تلك الجثة الطاهرة وسنا لدستور الخليقة وإبقاء على كرامة آدم وولديه، وهنا كذلك لابد من أن يتلقى قابيل درساً قاسياً، فليس بأهل لوحي الله ولا لإلهام الله، بل لابد من أن يكون تلميذاً للغراب، يتضاءل فهمه أمام حنكة ذلك

---

(١) صحيح البخاري ج ٤ ص ١٦٢ باب خلق آدم .
(٢) انظر الفخر الرازي ج ١١ ص ٢٠٦.

الحيوان الأسود الضعيف، وتفنى شخصيته بعد ذلك الدرس المؤلم الذي تلقاه ذليلاً صغير النفس معذب الفؤاد.

بعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه، ثم حفر له بمنقاره ووارى جثته تحت التراب، وهنا استشعر الندم والحسرة فقال: (يا و يلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي).

إن في هذه القصة لموعظة وذكرى فالنفس الكريمة المؤمنة ترضى بما قسم الله لها ولا تحسد الغير أي فضل وهبه الله لذلك الغير ولكن عليها أن تعمل وتبذل الأسباب لتحصيل الرزق والفضيلة دون أن تطفح بما يسيء للغير أو يسبب الشقاوة في الدنيا والآخرة فالحسد داء قاتل والعاقل يتجنب أسباب الشر وموارد العطف والهلاك.

جدال إبراهيم عليه السلام في قوم لوط :

قال الله تعالى: (فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ)[1] .

وقد بين الله هذه المجادلة في سورة العنكبوت فقال تعالى: (وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ)[2] .

لقد حكى القرآن الكريم جدال إبراهيم عليه السلام في قوم لوط و بين النفس العالية الكريمة التي يحملها إبراهيم عليه السلام، تلك النفس الطاهرة المخلصة التي لا تضمر شراً ولا تنوي مكروهاً لأحد حتى مع السيئين الفاسقين بل ترجو لهم الهداية

(١) سورة هود : آية ٧٤ ــ ٧٦.
(٢) سورة العنكبوت : آية ٣١ ــ ٣٢.

وترغب لهم في المثوبة والإنابة، وإن قصة إبراهيم هذه لمن محاسن القصص واستمع لثناء الله تعالى على إبراهيم عليه السلام حيث يقول تعالى: (إن إبراهيم لحليم أواه منيب).

أما هذه المجادلة التي وقعت بشأن قوم لوط عليه السلام، فإن الملائكة مروا على إبراهيم عليه السلام وهم في طريقهم إلى قرية لوط، وحملوا معهم البشرى لإبراهيم فأكرمهم إبراهيم عليه السلام وجاء لهم بعجل حنيذ فلما رآهم لا يأكلون من ذلك الطعام الذي قدمه لهم ضيافة استوحش منهم فطمأنوه بأنهم مرسلون لإهلاك قوم لوط بسبب فاحشتهم، فلما زال عن إبراهيم عليه السلام الخوف وحصل له السرور بسبب مجيء البشرى بحصول الولد أخذ يجادل في قوم لوط، وآعلم أن هذه المجادلة سواء أكانت مع الله تعالى أو مع الملائكة، لا تدل على ذم إبراهيم عليه السلام كما ظنه بعض الناس وقد أثار بعضهم شبهاً حول هذه المجادلة وقال إن فيها جرأة وسوء أدب مع الله تعالى ومع من أرسلهم لتنفيذ أمره في القوم الفاسقين.

والدليل على عدم ذم إبراهيم في مجادلته أن الله تعالى مدحه وأثنى عليه عقب هذه الآية فقال: (إن إبراهيم لحليم أواه منيب)، ولو كان هذا الجدل من الذنوب لما ذكر عقبه ما يدل على المدح العظيم لإبراهيم، وقد ذكر الحافظ ابن كثير رحمه الله عن سعيد بن جبير أنه قال في الآية: «لما جاء جبريل ومن معه قالوا له: «إنا مهلكو أهل هذه القرية) قال لهم: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا، قال: أفتهلكون قرية فيها مئتا مؤمن؟ قالوا: لا، قال: أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمناً؟ قالوا: لا، قال: ثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ خمسة قالوا: لا، قال أرأيتكم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟، قالوا: لا، فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك: (إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته... الآية) فسكت عنهم واطمأنت نفسه»[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٥٢.

وعلى هذا تكون مجادلة إبراهيم عليه السلام في قوم لوط بسبب مقام لوط بينهم شفقة عليه وخشية أن يعمه الهلاك معهم.

ويحتمل أن يكون إبراهيم عليه السلام كان يميل إلى أن تلحقهم رحمة الله بتأجيل العذاب عنهم رجاء أنهم ربما أقدموا على الإيمان والتوبة عن المعاصي.

وربما وقعت تلك المجادلات بسبب أن إبراهيم كان يقول إن أمر الله ورد بإيصال العذاب، ومطلق الأمر لا يوجب الفور بل يقبل التراخي فاصبروا مدة أخرى، والملائكة كانوا يقولون إن مطلق الأمر يقبل الفور وقد حصلت هناك قرائن دالة على الفور ثم أخذ كل واحد منهم يقرر مذهبه بالوجوه المعلومة فحصلت المجادلة بهذا السبب «ذكره الرازي وقال: «وهذا الوجه هو المعتمد»»[1] ، وحاصل جدال إبراهيم عليه السلام للملائكة أنه يقول: إن أهلكتم القرية وفيها أحد من المؤمنين أهلكتم ذلك المؤمن بغير ذنب فأجابوه عن هذا بقولهم (نحن أعلم بمن فيها).

ولقد أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يعرض عن جدال لا جدوى منه في قوم سبق فيهم أمر الله وحق عليهم عذاب غير مردود.

الجدال بين موسى والخضر عليهما السلام :

قال الله تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا) إلى قوله: (فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ

(١) انظر الفخر الرازي ج ١٨ ص ٣٠.

أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا)
إلى قوله: (وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً[1]) .

قال جمهور العلماء وأهل التاريخ إن موسى في قوله تعالى: (وإذ قال موسى لفتاه)، هو موسى بن عمران المذكور في القرآن المبعوث إلى فرعون وقومه ورسول بني إسرائيل، وقيل هو موسى بن منشأ بن يوسف بن يعقوب وكان نبياً قبل موسى بن عمران وقد ردّ هذا القول ابن عباس كما في صحيح البخاري عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس إن نوفا البكالي زعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى نبي بني إسرائيل إنما هو موسى آخر فقال كذب عدو الله[2] .

والعبد الذي ذكر الله تعالى بقوله: (فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً) هو الخضر عليه السلام في قول جمهور العلماء كما قاله القرطبي[3] .

وهو الذي تؤيده الأحاديث الصحيحة، ومنها ما ورد في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه تمارى هو والحر بن قيس الفزاري في صاحب موسى، فقال ابن عباس هو خضر، فمر بهما أبي بن كعب فدعاه ابن عباس فقال إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقياه، هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر شأنه قال نعم، سمعت رسول الله صلى

---

(١) سورة الكهف : آية ٦٠ — ٨٢.
(٢) صحيح البخاري ج ٤ ص ١٨٨.
(٣) انظر تفسير القرطبي ج ١١ ص ١٦.

الله عليه وسلم يقول: بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل جاءه رجل فقال هل تعلم أحداً أعلم منك قال لا فأوحى الله إلى موسى بل عبدنا خضر فسأل موسى السبيل إليه فجعل الحوت آية وقيل له إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه، فكان يتبع الحوت في البحر فقال لموسى فتاه أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره فقال موسى ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً فوجدا خضرا فكان من شأنهما الذي قص الله في كتابه)[1] .

فهذا الحديث الصحيح يدل على مواضيع متعددة منها :

١ ــ أن صاحب موسى هو الخضر عليهما السلام.

٢ ــ أن سبب القصة هو ادعاء موسى عليه السلام العلم لنفسه وقد وردت القصة في الصحيحين كاملة ومنها: «أن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم؟ فقال أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فقال له : بلى لي عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك»[2] .

وقد يظن أن في تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل من موسى وليس الأمر كذلك فقد يشذ عن الفاضل ما يعلمه المفضول والفضل لمن فضله الله فالخضر إن كان ولياً فموسى أفضل منه لأنه نبي والنبي أفضل من الولي، وإن كان الخضر نبياً فموسى أفضل منه بالرسالة.

ثم إن الخضر لم يكن محيطاً بما عند موسى من العلم فكل منهما عنده من علم الله مالا يعلمه الآخر كما في الحديث الصحيح أن موسى قال للخضر «أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً قال يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه»[3] .

---

(١) صحيح البخاري ج ٤ ص ١٨٧ ــ ١٨٨.
(٢) صحيح البخاري ج ٤ ص ١٨٨.
(٣) صحيح البخاري ج ٤ ص ١٨٩.

وموسى عليه السلام صاحب شريعة تنهَى عن المنكر وعن مقابلة الإحسان بالإساءة وتنهى عن قتل النفس من دون مسوغات شرعية، كما أن إكرام الضيوف من شريعة الأنبياء وعندما يتنصل المجتمع من هذه الظاهرة الأخلاقية الكريمة عند قدوم الضيوف إليه فإن لهؤلاء الضيوف أن لا يقدموا أي خدمات لذلك المجتمع اللئيم إلا بتبادل المصالح بين الطرفين.

وهذا الذي تفطن له الخضر عليه السلام عندما قال لموسى (إنك لن تستطيع معي صبراً) أي إنك يا موسى لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمي لأن الظواهر التي هي علمك لا تعطيه، وكيف تصبر على ما تراه خطأ ولم تخبر بوجه الحكمة فيه (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً) والأنبياء لا يقرون على منكر ولا يجوز لهم ذلك، أي لا يسعك السكوت جرياً على عادتك وحكمك.

وملخص القصة :

أن الخضر قال لموسى إنك لن تستطيع معي صبراً ولو أنك صحبتني فإنك سترى ظواهر عجيبة وأموراً غريبة وسترى أموراً منكرة في ظاهرها وإن كانت حقاً في باطنها ولكنك بما ركب الله في البشر من الجنوح إلى البحث والجدال سوف لا تسكت عن الاعتراض.

فقال له موسى وكان حريصاً على العلم تواقاً إلى المعرفة (ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً) فاشترط عليه الخضر أن يأخذ نفسه بالصبر والحزم ولا يبتدره بسؤال ولا يثير أمامه أي اعتراض حتى ينقضي الشوط وتنتهي الرحلة، فقبل موسى الشرط وسارا على الساحل حتى لحا سفينة في البحر فطلبا من أهلها حملهما إلى حيث يذهبون فلما رأوا السماحة في وجههما بالغوا في إكرامهما وحملوهما بغير نول (أجرة) وبينما هما في السفينة، أخذ الخضر لوحين من خشب السفينة فخلعهما فهال موسى عليه السلام هذا الأمر وهو الرسول الذي أرسل هداية للناس ورد عادية الظلم عنهم أن يقابل صنيعهم بالإساءة وجميلهم بالنكران وخشى عليهم الغرق، فقال أتعمد إلى قوم أكرموا وفادتنا وأحسنوا لقاءنا فتخرق سفينتهم وتحاول إغراقهم (لقد جئت شيئاً إمراً) أي عظيماً، فالتفت إليه الخضر وما زاد على أن ذكره بشرطه وقال: (ألم

أقل إنك لن تستطيع معي صبراً) فأدرك موسى خطأه وقال لا تؤاخذني بما نسيت ولا تحرمني شرف الصحبة والمرافقة.

ثم غادرا السفينة فوجدا غلاماً يلعب مع لداته من الأطفال فأخذه الخضر بعيداً ثم أضجعه وقتله ففزع موسى من هذا القتل وكبر عنده ذلك الإثم، إذ رأى غلاماً قد يكون وحيد أهله ورجاء والديه يقتل في غير قود على يد إمام عالم كريم وإمام جليل فقال له (أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً).

فالتفت إليه الخضر وقال: (ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً) وهنا استحيى موسى وأدرك أنه قد أثقل على هذا العبد الصالح وكان خليقاً به أن يمسك لسانه عن الجدل حتى يفصح له بعد عما خفي من أمره فقال: (إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً) ثم انطلقا على هذا الشرط حتى أدركهما الطوى ونالهما النصب فصادفا قرية في طريقهما فدخلاها طمعاً في زاد يعينهما على السير ولكن أهلها كانوا لئاماً فأبوا أن يضيّفوهما فلم يجدا عندهم مأوى ولا طعاماً فخرجا جائعين، وقبل أن يجاوزا القرية وجدا جداراً يتداعى للسقوط فأقامه الخضر وأصلح من شأنه فقال له موسى عجباً أتجازي هؤلاء اللئام الذين أساءوا اللقاء بهذا الإحسان، لو شئت لاتخذت على عملك هذا أجراً نسد به حاجتنا قال الخضر: وقد عرف أن موسى لا يستطيع بعد الآن صبراً (هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً)، أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فيصيبون منها رزقاً يعينهم على الكسب ويقطعون مفازة الحياة ولكن ملكاً ظالماً كان يتبع كل سفينة صالحة فيأخذها من أهلها غصباً فأردت أن أعيبها رفقاً بهم ورحمة حتى إذا شاهدها ملكهم تركها لعيبها فهذا عمل إن كان في ظاهره الفساد ففي باطنه الرحمة.

وقد أخذ العلماء من فقه هذه القصة جواز ارتكاب أخف الضررين عند الضرورة فإن إيجاد العيب في السفينة أخف ضرراً على هؤلاء المساكين من سلبها منهم بالكلية على يد ذلك الظالم العنيد.

أما الغلام، فكان فاسقاً وكان أبواه مؤمنين وبما فطر الله الآباء على حب الأبناء

والدفاع عنهم بالحق أو الباطل خشيت أن يحملها هذا على التعصب والميل له فينتهيا إلى الطغيان والكفر، فقتلته حفظاً لدينها، ورجاء أن يرزقهما الله خيراً منه زكاة وأقرب رحما.

وأما الجدار، فقد علمت من الله أن تحته كنزاً ليتيمين صغيرين، تحدرا من رجل صالح كريم فأردت أن أحمي هذا الجدار حتى يشتد أزرهما فيستخرجا كنزهما، وما فعلت هذا بعلمي وأمري، ولكنه وحي من الله وأمر منه ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً[1] ، هذا ملخص القصة والجدال الذي دار بين موسى والخضر عليهما السلام، وقد اشتملت على آداب رفيعة وفضائل متعددة، وفيها دعوة لطلب العلم والاستزاد منه وآداب للعالم والمتعلم مما لا يتسع ذكره في هذا المقام.

جدال بين فقير صابر وغني كافر :

قال الله تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾[2] .

---

(١) انظر قصص القرآن ص ١٥٨ ــ ١٦١.

(٢) سورة الكهف : آية ٣٢ ــ ٤٣.

هذه القصة تأتي بعد مطلب تقدم به أشراف قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أن يجلس معهم وحده ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود وليفرد أولئك بمجلس على حدة فنهاه الله عن ذلك وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء فقال تعالى : (وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ)[1] .

ثم ضرب الله مثلاً لهؤلاء المشركين المستكبرين وهؤلاء المؤمنين المستضعفين برجلين جعل الله لأحدهما جنتين وأفاض عليه من مظاهر الرزق الشيء الكثير فاغْتَرَّ بما وهبه الله وجحد نعمة الله عليه واستكبر على صاحبه وطغى وكفر.

وملخص القصة كما ذكرها بعض المفسرين : أن أخوين من بني إسرائيل هما يهوذا وقطروس، وكان يهوذا مؤمناً بربه عارفاً بمقدار نفسه عزف عن الدنيا ومظاهر زينتها ورغب في الآخرة، وقطروس نشأ كافراً شحيحاً جاف الطبع فلما مات أبوهما اقتسما تركته وذهب كل منهما بماله فأما يهوذا فقد توجه إلى الله قائلاً يارب إني سأخرج عن مالي مرضاتك وسأبذله في طاعتك شكراً لنعمائك وطمعاً في جنتك، وانطلقت كفاه بالإنفاق في وجوه الخير حتى نفد ماله ولكنه بقي مرتاح الفؤاد قانعاً بالكفاف راضياً بالقليل من الزاد.

أما قطروس فإنه تسلم ماله فوضع دونه الإغلاق والمفاتيح ثم حرم السائل وأصم أذنيه عن أنة الفقير، ثم اتخذ له حائطين وأنفق فيهما أيام عمره فامتدت عروشهما وأورق ظلهما، ثم بسط الله في رزقه وبارك في ثمره وظل يتقلب في تلك النعمة وكان خليقاً به أن يشكر الله الذي وهب له تلك النعمة فيؤمن به ويحمده ولكنه لم يزدد على نعمة الله إلا كفراً وطغياناً، ومر عليه أخوه في حالة المسكنة والفقر فتطاول

---

(١) سورة الكهف : آية ٢٨ ـ ٣١.

عليه وافتخر بما لديه من المال والبنين وقال: (أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً) وأخذ بيده وأدخله الجنة وقال له: (ما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً) تلك أماني هذا الكافر الجاحد لفضل الله عليه، يقول هذه النعمة التي اكتسبتها لجدارتي بها وفضلي عليك، والبعث والجزاء في الآخرة خرافة وعلى فرض حصول ذلك فسوف أكون أحسن حالاً منك في الآخرة مثلما أنا في هذه الدنيا بالمال والولد ومظاهر النعمة (قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً لكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً) صراع بين الحق والباطل بين شكر المنعم على نعمائه وبين كفران النعمة والإحسان.

ثم بيَّن له وجه الفضيلة في شكر المنعم على نعمائه وعدم الاغترار بهذه المظاهر المتقلبة في الدنيا فقد تكون استدراجاً، فقال له: (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لاقوة إلا بالله إن ترني أنا أقل منك مالاً وولداً فعسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً).

يقول إن الغنى ليس بكثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس فأنا قانع أن أجد الكفاف وأن أكون آمناً في سربي من سلطان ما بيني وبين الناس ولأن أجوع يوماً فأدعوا الله وأشبع يوماً فأحمده خير لي من هذا المال الذي قد يبطرني كما أبطرك وعسى أن يكون ما أنفقت من مالي على الفقراء قد أعد الله لي به جنة خيراً من جنتك ونعيماً خيراً من نعيمك فأنا غني بما أجد من القناعة عما في أيدي الناس. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول: (ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس).

ورحم الله الإمام الشافعي حيث قال :

غني بلا مال عن الناس كلهم ... وليس الغنى إلا عن الشيء لابه
إذا ظالم يستحسن الظلم مذهبا ... ولج عتوا في قبيح اكتسابه
فكله إلى صرف الليالي فإنها ... ستبدي له ما لم يكن في حسابه

فكم قد رأينا ظالماً متمردا　　يرى النجم تيها تحت ظل ركابه
فعما قليل وهو في غفلاته　　أناخت صروف الحادثات ببابه
فأصبح لا مال ولا جاه يرتجى　　ولا حسنات تلتقي في كتابه
وجوزي بالأمر الذي كان فاعلا　　وصب عليه الله سوط عذابه[1]

فرغ يهوذا من نصيحته لأخيه بعد محاولة شديدة ومصارعة بين الحق والباطل وترك أخاه يسرح ويمرح في تلك الحدائق المثمرة والأشجار الوارفة الظلال.

وأصبح قطروس يوما وذهب كعادته إلى جنته فما راعه إلا أن رآها أطلالاً بالية ورسوماً عافية ونباتاً مصوّحاً وعروشاً محطمة، فخارت قواه وأخذ يقلب كفيه حسرة على ما أنفق فيها و يقول: (يا ليتني لم أشرك بربي أحداً).

هذه نهاية الظلم والطغيان والاغترار بمظاهر الحياة الدنيا وزخرفها قصة تطمئن قلوب المؤمنين الراغبين فيما عند الله في الدار الآخرة وتصدع قلوب المستكبرين الجاحدين لنعمة المنعم صاحب الفضل والعطاء وواهب النعم الظاهرة والباطنة.

جدال مؤمن آل فرعون مع قومه :

قال الله تعالى: (وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ).[2]

---

(١) ديوان الشافعي : ص ١٧.
(٢) غافر آية ٢٨.

إلى قوله: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾[1] .

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون، قال السدي: كان ابن عم فرعون ويقال إنه الذي نجا مع موسى عليه السلام واختاره بن جرير ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً، لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه وكف عن قتل موسى عليه السلام ولو كان إسرائيليا لأوشك أن يعاجل بالعقوبة لأنه منهم هكذا نقله ابن كثير في تفسيره[2] .

وسبب هذا الجدال أن فرعون عندما أصلاه موسى نار الحجج والبراهين لم يبق عند فرعون ما يدفع به تلك الحجج ويقاوم به تلك البراهين المتوالية فشعر بالخطر ودب في نفسه الرعب وقال: ﴿ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾[3] .

وبينا فرعون مع قومه في أخذ ورد يقلبون أوجه الرأي ويجيلون الفكر في الإقدام على جريمة القتل بينما هم على ذلك إذ دفعت المروءة والشجاعة رجلاً أنار الله بصيرته وكشف له سبيل الرشد والإيمان فدافع عن موسى أشد الدفاع وناضل عنه وجادل وبين لهم سوء أمرهم وعاقبة تدبيرهم وفند حججهم وزيف ضلالهم.

لقد سلك في خطابه لفرعون وملئه مسالك شتى ومشى إلى قلوبهم بالنصيحة يثير حساسيتها بالتخويف والإقناع، إنها جولة عظيمة جالها ذلك الرجل المؤمن مع المتآمرين من فرعون وملئه، وإنه منطق الفطرة المؤمنة في حذر ومهارة وقوة.

يبدؤهم بتفظيع ما هم مقدمون عليه (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله) فهل هذه الكلمة البريئة المتعلقة باعتقاد قلب واقتناع نفس تستحق القتل.

---

(١) سورة غافر : آية ٤٤.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٧٧.

(٣) سورة غافر : آية ٢٦.

ثم يخطو بهم خطوة أخرى فالذي يقول هذه الكلمة البريئة (رَبِيَ الله) يقولها ومعه حجته وفي يده برهانه (وقَدْ جَاءكَمْ بالبيّنَاتِ من رَبكُمْ) يشير إلى تلك الآيات التي عرضها موسى عليه السلام ورأوها، وهم فيما بينهم بعيداً عن الجماهير يصعب أن يماروا فيها.

ثم يفرض لهم أسوأ الفروض ويقف معهم موقف المنصف أمام القضية تمشياً مع أقصى فرض يمكن أن يتخذوه (وإن يَكُ كَاذِباً فَعليْهِ كَذِبُهُ) وهو يحمل تبعة عمله ويلقي جزاءه وليس هذا بمسوغ لهم أن يقتلوه على أية حال.

وهناك الاحتمال الآخر وهو أن يكون صادقاً فيحسن الاحتياط لهذا الاحتمال وعدم التعرض لنتائجه (وإنْ يكُ صادِقاً يصِبْكُمْ بعضُ الذِي يعدُكُمْ) وأصابتهم ببعض الذي يعدهم هو كذلك أقل احتمال في القضية فهو لا يطلب إليهم أكثر منه وهذا منتهى الإنصاف في الجدل والإفحام.

وإنما سلك معهم هذا المنهج في الاحتجاج «على طريقة التقسيم فقال: لا يخلو من أن يكون كاذباً أو صادقاً».

قال صاحب الكشف «فإن قلت لم قال: (بعض الذي بعدكم) وهو نبي صادق لا بد لما يعدهم أن يصيبهم كله لا بعضه؟ قلت: لأنه احتاج في مقاولة خصوم موسى ومناكريه إلى أن يلاوصهم ويداريهم ويسلك معهم طريق الإنصاف في القول ويأتيهم من جهة المناصحة فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله وأدخل في تصديقهم له وقبوله منه فقال: (وإنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الذِي يَعدُكُمْ) وهو كلام المنصف في مقاله غير المشتط فيه ليسمعوا منه ولا يردوا عليه»[1] .

ثم هددهم من طرف خفي وهو يقول كلاماً ينطبق على موسى كما ينطبق عليهم (إن الله لا يَهدِي مَنْ هو مسرفٌ كَذّابٌ) فإذا كان موسى فإن الله لا يهديه ولا يوفقه

---

(١) الكشاف للزمخشري ج ٣ ص ٤٢٤ ــ ٤٢٥.

فدعوه له يلاقي منه جزاءه واحذروا أن تكونوا أنتم الذين تكذبون على موسى وربه وتسرفون فيصيبكم هذا المآل.

قيل إن هذا «احتجاج آخر ذو وجهين، أحدهما: أنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله إلى البينات ولا أيده بالمعجزات، وثانيهما: أنه إذا كان كذلك خذله الله وأهلكه فلا حاجة لكم إلى قتله»[١] .

ثم ذكرهم هذا الرجل المؤمن ببأس الله وانتقامه من الضالين المكذبين ولكن القوم على الرغم من قوة عارضته وحسن مجادلته قاوموه ليلجئوه إلى صفهم ورأيهم فقال: (و يقَوْمِ مالي أدعوُكُمْ إلى النجاةِ وتدعونَني إلى النّار) الخ الآيات.

وفي نهاية الشوط ضاق القوم ذرعاً بهذا الرجل الذي فاجأهم برأيه وسفه أحلامهم بهديه فناوؤه وهموا به ليقتلوه (فوقاهُ اللهُ سيئاتِ ما مكَرُوا وحاقَ بآلِ فرعونَ سُوء العذَابِ).

جدال اليهود والنصارى في إبراهيم عليه السلام :

قال الله تعالى : (يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ)[٢] .

سبب نزول الآيات السابقة : كما نقله الحافظ ابن كثير عن محمد ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول

---

(١) فتح القدير للشوكاني ج ٤ ص ٤٨٩.

(٢) سورة آل عمران : آية ٦٥ ــ ٦٨.

الله صلىٰ الله عليه وسلم فتنازعوا عنده فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله تعالى :(يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم... الآية)[1] .

وسواء أكانت هذه مناسبة نزول الآية أم لم تكن فالظاهر من نصها أنها نزلت رداً على ادعاءات لأهل الكتاب وحجاج مع النبي صلىٰ الله عليه وسلم أو مع بعضهم البعض في حضرة الرسول صلىٰ الله عليه وسلم والهدف من هذه الادعاءات هو احتكار عهد الله مع إبراهيم عليه السلام، أن يجعل في بيته النبوة، واحتكار الهداية والفضل كذلك، ثم وهذا هو الأهم تكذيب دعوى النبي صلىٰ الله عليه وسلم أنه على دين إبراهيم وأن المسلمين هم ورثة الحنيفية الأولى، وتشكيك المسلمين في هذه الحقيقة أو بث الريبة في نفوس بعضهم على الأقل، ومن ثم ندد الله بهم هذا التنديد وكشف مراءهم الذي لا يستند إلى دليل فإبراهيم سابق على التوراة وسابق على الإنجيل فكيف إذن يكون يهودياً؟ أو كيف يكون نصرانياً؟ إنها دعوى مخالفة للعقل، تبدو مخالفتها بمجرد النظرة الأولى إلى التاريخ (يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون).

ثم يمضي في التنديد بهم وإسقاط قيمة ما يدلون به من حجج وكشف تعنتهم وقلة اعتمادهم على منهج منطقي سليم في الجدل والحوار (ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون).

وقد جادلوا في أمر عيسى عليه السلام، كما يبدو أنهم جادلوا في بعض الأحكام التشريعية حين دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم تولوا وهم معرضون، وكان هذا وذاك في دائرة مايعلمون من الأمر، أما أن يجادلوا فيما هو سابق على وجودهم ووجود كتبهم ودياناتهم .. فهو الأمر الذي لا سند له ولو كان سنداً شكلياً فهو الجدل إذن لذات الجدل وهو المراء الذي لايسير على منهج، وهو الغرض إذن والهوى، ومن كان

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٧٢.

هـذا حـاله فهو غير جدير بالثقة فيما يقول بل غير جدير بالاستماع أصلاً لما يقول، حتى إذا انتهى السـيـاق مـن إسـقاط قيمة جدلهم من أساسه عاد يقرر الحقيقة التي يعلمها الله، فهو سبحانه الذي يعلم حقيقة هذا التاريخ البعيد وهو الذي يعلم كذلك حقيقة الدين الذي نزله على عبده ورسوله إبراهيم وقوله الفصل الذي لا يبقى معه لقائل قول إلا أن يجادل ويماري بلا سلطان ولا دليل (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كـان حـنـيـفـاً مـسـلماً وما كان من المشركين) فيؤكد ما قرره من قبل ضمناً من أن إبـراهيم عـلـيـه الـسـلام ما كان يهودياً ولا نصرانياً وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بـعده، و يقرر أنه كان مائلاً عن كل ملة إلا الإسلام فقد كان مسلماً بالمعنى الشامل للإسلام (ومَا كَانَ مِنَ المشْركِيْنَ)، وهذه الحقيقة واضحة في قوله قبلها (ولكن كان حـنـيفاً مسلماً) وإبرازها هنا يشير إلى عدة من لطائف الإشارة والتعبير؛ يشير أولاً إلى أن اليهـود والـنـصارى الذين انتهى أمرهم إلى تلك المعتقدات المنحرفة مشركون.. ومن ثم لا يمكن أن يكون إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن حنيفاً مسلماً.

و يشير إلى أن الإسلام شيء والشرك شيء آخر فلا يلتقيان، الإسلام هو التوحيد المطـلـق بـكـل خـصـائصة وكل مقتضياته، ومن ثم لا يلتقي مع لون من ألوان الشرك أصلاً.

و يـشير أيضاً إلى إبطال دعوى المشركين من قريش كذلك أنهم على دين إبراهيم وسدنة بيته في مكة فهو حنيف مسلم وهم مشركون (ومَا كَانَ مِنَ المشْرِكِيْنَ).

وعـلـى هـذا فليس لأحد من اليهود أو النصارى أو المشركين أن يدعي وراثته ولا الولاية على دينه وهم بعيدون عن عقيدته (إنّ أوْلَى النّاس بإبراهيم لَلِذّينَ اتّبعوُهُ وهذا النبيُّ والذينَ آمنوُا والله وليّ المؤمنينَ).

فـالـذيـن اتـبـعـوا إبـراهيم فـي حـيـاتـه وساروا على منهجه واحتكوا إلى سنته هم أولـيـاؤه، ثم هـذا النبي الذي يلتقي معه في الإسلام بشهادة الله أصدق الشاهدين، ثم

الذين آمنوا بهذا النبي صلى الله عليه وسلم فالتقوا مع إبراهيم عليه السلام في المنهج والطريق[1] (والله ولي المؤمنين).

هذه لمحة موجزة عن مجادلة اليهود والنصارى في إبراهيم عليه السلام ولهم مواقف متعددة في الجدال في إبراهيم وغيره مما سبقت الإشارة إلى بعضه في الفصول السابقة.

جدال خولة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في زوجها أوس :

قال الله تعالى: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) إلى قوله: (عَذَابٌ أَلِيمٌ)[2] .

كانت خولة بنت ثعلبة الخزرجية قد تزوجت بأوس بن الصامت وهي في ريعان شبابها وعاشا معاً عمراً طويلاً ثم تقدمت بهما السنون، وفي يوم من الأيام دخل عليها فداعبها في خفة وطيش فنفرت منه فاستحوذت عليه الدهشة وتملكه الغضب وثارت ثائرته وحرمها على نفسه كما حرمت عليه أمه فقال لها: «أنت علي كظهر أمي» وكان الظهار من أشد طلاق الجاهلية حيث كان يوجب الفرقة المؤبدة.

فذهبت خولة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تستفتيه في الأمر هذا وتطلب منه أن يجعل لها مخرجاً من هذا المأزق الذي وقعت فيه هي وزوجها وأخذت تبث رسول الله صلى الله عليه وسلم شكواها وتفضي إليه بما اختلج في نفسها من مأساة قائلة له «إن أوسا قد تزوجني وأنا شابة مرغوب فيّ فبعد أن كبرت سني وكثر أولادي جعلني كأمه وإن لي منه صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إليّ جاعوا».

وما كان للنبي صلى الله عليه وسلم أن يقضي بأمره أو ينطق عن الهوى فهو

---

(١) في ظلال القرآن للسيد قطب ج ٣ ص ١٩٦ ــ ١٩٧ بتصرف .
(٢) سورة المجادلة : الآيات من ١ ــ ٤.

رسول الله موئله الوحي ومرجعه السماء وهو لم يتلق في الأمر وحياً ولم يعرف لهذا السؤل جواباً سوى استصحاب الأصل الذي كان متعارفاً عليه من أن الظهار يوجب الفرقة المؤبدة فكان يقول لها (ما أعلمك إلا قد حرمت عليه) فازدادت حسرتها واشتد حزنها وكانت تقول: يارسول الله ما ذكر طلاقاً وإنما هو أبو ولدي وأحب الناس إلي، ترجو بذلك أن تلين قناته لتضرعاتها وتأخذه الرحمة بأولادها.

ولكن ما زال الأمر على ما هو عليه كان يقول لها رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم (ما عندي في أمرك شيء) و(ما أعلمك إلا قد حرمت عليه)، فالتجأت إلى من وسعت رحمته كل شيء واتجهت نحو مرسل الوحي ومبدع السماء والأرض ترجوه أن يزيل غمها ويفرح كربها وقالت: «أشكو إلى الله فاقتي ووجدي» وطال بها الوقوف وأكثرت من التضرع وهتفت شاكية إلى الله حالها ففتحت لدعائها أبواب السماء وسمع الله شكاتها.

فبينما هي في حيرتها واضطرابها ترفع وجهها إلى السماء مرة وتخفض طرفها نحو الرسول صلىٰ الله عليه وسلم أخرى غشي الرسول صلىٰ الله عليه وسلم ما كان يغشاه حين نزول الوحي ثم نطق لسانه بالذكر الحكيم.

وهناك أخبرها بأن الله قد سمع محاورتها واستجاب لدعائها وأنه ليس على المظاهر بعد الآن إذا أراد التحلة من أيمانه إلا أن يعتق رقبة فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً.

عند ذلك قرت عينها وانفرجت أسارير وجهها فقد حقق الله رجاءها واستجاب لدعائها فرجعت إلى زوجها واتصلت سعادتها وعادت سيرتها الأولى»[1] .

ومجادلة خولة هذه فيها معنى المراجعة والمحاورة والشكوى والضراعة إلى الله أن يخفف عنها وطأة ما وقعت فيه هي وزوجها بحكم لا ضرر فيه عليها.

وهي في جدالها قد ساقت منزعاً عقلياً إلى ما في عملية الظهار من قسوة وضرر

---

(١) انظر قصص القرآن ص ٤٢٠ ـ ٤٢١.

وعدم السعة في الأمر فإن شريعة الإسلام مبدأ اليسر ورفع الحرج، وقد حدث الظهار منها نتيجة الغضب مرة واحدة ولم يتكرر منها هذا العمل حتى يكون ذلك تلاعباً بالأحكام الشرعية، والعلاقات الزوجية، فهي تنشد مخرجاً مما وقعت فيه هي وزوجها لأول مرة ولهذا استمسكت بمراجعتها ومجادلتها، وأن لها صبية صغاراً إن ضمتهم إليه ضاعوا وإن ضمتهم إليها جاعوا، فهي تريد من الله تعالى وتسترحمه أن يحل مشكلتها بإنزال حكم شرعي يحل محل الظهار الذي كان من وضع الجاهلية.

وقد سمع الله شكواها واستجاب لدعائها من فوق سبع سموات. قالت عائشة رضي الله عنها (تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفَى علي بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تقول يا رسول الله أكل مالي وأفنى شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني اللهم إني أشكو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية: (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها)[1] .

(٨) جدال المنافقين للمؤمنين :

ونذكر من ذلك مشهدين :

المشهد الأول :

قال الله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)[2] .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣١٨.

(٢) سورة البقرة : آية ١١ ــ ١٤

موضوع الدعوى في الآية الأولى: «أن المنافقين مفسدون في الأرض» وقد منع المنافقون هذه الدعوى فقالوا: (إنما نحن مصلحون) وهذه دعوى أخرى من قبلهم: ومعناه لا نسلم أنا مفسدون لأن الإصلاح ضد الإفساد فإذا ادعوا الإصلاح فقد أنكروا الإفساد، ولكن منعهم القرآن دعوى الإصلاح بقوله: (ألا إنهم هم المفسدون) والله تبارك وتعالى أعلم بأعمالهم ودفين نفوسهم من الكفر والفساد، إذ يدعون في السر إلى تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم وإلقاء الشبه بين المسلمين.

وإذا فسرنا فساد المنافقين بما كان يجري بينهم وبين الكفار من المشركين وأهل الكتاب من الاتصالات والتآمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم بغية القضاء على الرسول ورسالته، إذا فسرنا فسادهم بهذا فإنهم يدعون الإصلاح، و يقولون إن مداراتنا واتصالاتنا بهؤلاء إنما نسعى في الإصلاح بين المسلمين والكفار وتقريب وجهات النظر، ولهذا حكى الله تعالى عمن ذهب منهم ليتحاكموا إلى الطاغوت أنهم يدعون هذا فقال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ) إلى قوله: (فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا)[1] .

دعوى المنافقين :

وفي الآية الثانية وهي قوله تعالى: (وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء .. الآية)، إنَّ الإيمان والاستسلام من صفات الفقراء والضعفاء وسفهاء الناس ورعاعهم، ولسنا من هؤلاء بل نحن من سادة القوم ووجهاء الناس، فلا حاجة لنا في إيمان نشترك فيه مع هؤلاء الفقراء والسفهاء.

ولكن الله تعالى قلب عليهم الدعوى بهذا اللقب ــ وقوله الحق ــ فقال تعالى (ألاَ إنّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ ولَكِنْ لا يَعْلَمُونَ).

والذي دل على اتصافهم بالسفه أمور ثلاثة :

---

(١) سورة النساء : آية ٦٠ ــ ٦١.

(١) أن من أعرض عن الدليل ثم نسب المتمسك به إلى السفاهة فهو السفيه.

(٢) أن من باع آخرته بدنياه فهو السفيه.

(٣) أن من عادى محمداً صلىٰ الله عليه وسلم مع قيام البراهين القاطعة على صدقه فقد عادى الله وذلك هو السفيه.

(ولكنهم لا يعلمون) ومتى علم السفيه أنه سفيه؟ ومتى استشعر المنحرف أنه بعيد عن المسلك القويم؟

والآية الثالثة، وهي قوله تعالى: (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون) تبين لنا مدى ارتباط المنافقين في المدينة المنورة باليهود الحاقدين على الإسلام وعلى نبي الإسلام صلىٰ الله عليه وسلم، إنهم لا يقفون عند حد الكذب والخداع والسفه والادعاء الباطل، وإنما يضيفون إليها الضعف واللؤم والتآمر في الظلام.

وبعض الناس يحسب اللؤم قوة والمكر السيء براعة وهو في الحقيقة ضعف وخسة، فالقوي ليس لئيماً ولاخبيثاً ولا خادعاً ولا غمازاً في الخفاء، وهؤلاء المنافقون الذين كانوا يجبنون عن المواجهة و يتظاهرون بالإيمان عند لقاء المؤمنين ليتقوا الأذى، وليتخذوا هذا الستار وسيلة للأذى، هؤلاء كانوا إذا خلوا إلى شياطينهم وهم غالباً اليهود الذين كانوا يجدون في هؤلاء المنافقين أداة لتمزيق الصف الإسلامي وتفتيته كما قالوا لهم : نحن في الواقع معكم وإنما اتصالنا بمحمد وأصحابه مجرد هزء وسخرية.

وما يكاد القرآن يحكي فعلتهم هذه وقولتهم حتى يصب عليهم من التهديد ما يهد الرواسي (الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون).

ما أيأس من يستهزىء به جبار السموات والأرض وما أشقاه! إنه مشهد مفزع رهيب ومصير تقشعر من هوله القلوب اقرأ قوله تعالى: (الله يستهزيء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون).

إنه يدعهم يتخبطون على غير هدى في طريق لا يعرفون غايته واليد الجبارة تتلقفهم في النهاية كالفئران الهزيلة تتواثب في الفخ غافلة عن المقبض المكين وهذا هو الاستهزاء الحقيقي لا كاستهزائهم الهزيل الصغير.

المشهد الثاني :

قال الله تعالى : (ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ)[(١)] .

ثم قال الله تعالى : (وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)[(٢)] .

الآيات السابقة موضوعها واحد وهي تتحدث عما جرى في معركة أُحد من أعمال المنافقين وشبهاتهم ودعاواهم الباطلة التي نلخصها فيما يلي :

قول المنافقين فيما حكاه الله تعالى عنهم (لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعناكُمْ) ومعنى هذا أن الفريقين لا يقدمان على القتال البتة. وما دام ليس هناك قتال فلا داعي للخروج أو البقاء معكم خارج المدينة، وهذا قول عبد الله ابن أبي بن سلول رئيس المنافقين هو وأصحابه عندما رجع بهم من أحد وكانوا ثلاثمائة، وإنما أراد خذلان رسول الله

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٥٤.

(٢) سورة آل عمران : آية ١٦٦ ــ ١٦٨.

صلى الله عليه وسلم وأصحابه في المعركة ولأنه كان يرى أن لا يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلا أنه أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم مجموعة من الصحابة بالخروج لقتال المشركين وصدهم عن المدينة لأنه «ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا» ومعظم هؤلاء ممن لم يشهد بدراً فكانوا متحمسين للقتال في سبيل الله فلما استجاب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك رأي عبد الله بن أُبي سخط عليه وأثار الشكوك والشبه بين الناس وطفحت نفسه بالنفاق.

شبهات المنافقين والرد عليها :

١ ــ (هَلْ لَنَا مِنَ الأمرِ مِنْ شَيْءٍ).

٢ ــ (لَوْ كَانَ لَنَاَ مِنْ الأمرِ شَيْء ما قُتِلْنَا هاَ هُنَا).

٣ ــ (الّذِين قَالوُا لإخْوانِهِمْ وقَعَدُوا لو أطَاعُونا ما قُتِلُوا).

أما دعواهم بأنهم لو يعلمون بأنه سيحصل قتال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين وبين المشركين لخرجوا معهم، فهي دعوى تزحف على بطنها حبواً ولماذا جاءت قريش إذن؟ ألم تأت قريش بعددها وعددها تطلب الثأر تتلهب سيوفها لتنال من الأجساد الطاهرة المؤمنة؟

إن معركة بدر ليست ببعيدة وقد قتل صناديد قريش وقادتها فما المانع من القتال ما وجدت إلى ذلك سبيلاً، فدعوى المنافقين أن المسلمين في حالة سلام دعوى باطلة، وقد يكمن فيها الاستهزاء والسخرية بالرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته وبهذا نعلم بطلان هذه الدعوى وأنهم إنما أرادوا التخلص من المسلمين والفرار من القتال وإنهم يظاهرون بعملهم هذا الكفار.

وقد بيّن الله تعالى هذه الحقيقة بقوله (هُمْ لِلْكُفْرِ يومَئذٍ أقربُ مِنْهُمْ للإيمَان).

وكأن الآية تصور حالة المنافقين بأنهم مذبذبون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ولكنهم في تلك الحالة يميلون إلى الكفار بالموافقة في الكفر أو بالنصرة والمساعدة إن

استطاعوا، ولو بتثبيط عزائم المسلمين وبث الرعب في صفوفهم عن طريق إلقاء الشبه وتعظيم الكفار في أنظارهم، أما الشبه التي أثاروها فالرد عليها كما يلي:

الشبه الأولى : (هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ).

هذا القول إما من عبد الله بن أُبَيّ، لما قيل له قتل بنو الخزرج فقال هل لنا من الأمر من شيء؟ يعني أن محمداً لم يقبل قولي ويجلس في المدينة والمعنى هل لنا من أمر يطاع وهو استفهام إنكاري.

وقيل المعنى : هل لنا من الذي كان يعدنا به محمد وهو النصرة والقوة شيء.

وكان غرضهم من الاستدلال بذلك أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان كاذباً في ادعاء النصرة والعصمة لأمته.

وقد رد الله تعالى على هذه الشبهة بقوله تعالى: (قُلْ إنّ الأَمْرَ كُلَّهُ لله) والمعنى أن الله هو الذي بيده تصريف الأمور من تقدير الأقدار وتحديد الآجال وتحقيق الهزيمة والنصر فلا اعتراض لكم على ما قضاه الله وقدره.

الشبهة الثانية : (لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأمْرِ شَيْءٍ مَا قُتِلْنَا هَا هُنَا). وقد أجاب الله عن هذه الشبهة من ثلاثة أوجه :

١ ــ قوله تعالى: (قُلْ لَوْ كُنْتُمْ في بُيوتكم لَبَرَزَ الذِيْنَ كتب عَلَيهِمُ الْقَتْلُ إلَى مَضَاجِعِهِمْ) والمعنى: أن الحذر لا يدفع القدر، والتدبير لا يقاوم التقدير، والذين قدر الله عليهم القتل لابد أن يقتلوا على جميع التقديرات.

٢ ــ قوله تعالى: (وليبتلي الله مافي صدوركم) وذلك أن القوم زعموا أن الخروج إلى تلك المقاتلة كان مفسدة ولو كان الأمر إليهم لما خرجوا إليها فقال تعالى ما معناه بل هذه المقاتلة تشتمل على مصالح ومنها يتميز الموافق من المنافق[١] .

---

(١) انظر تفسير الفخر الرازي ج ٩ ص ٤٧ ــ ٤٩ و ص ٨٧.

٣ ــ قوله تعالى: (وليمحص مافي قلوبكم) من الوساوس والشبهات.

الشبهة الثالثة : قولهم (لو أطاعونا ما قتلوا) والمعنى : لو قعدوا كما قعدنا وفعلوا كما فعلنا لسلموا ولم يقتلوا.

وقد رد الله على هذه الشبهة بقوله تعالى: (قل فادرؤا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) ومعنى هذا : أن الله قدر الأقدار وحدد الآجال ولن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فكل من الموت بالقتل والموت بغيره بقضاء الله وقدره فهل تستطيعون رد الموت عن أنفسكم إذا انتهى الأجل بأي سبب من الأسباب غير القتل؟ والواقع أنهم لا يستطيعون ذلك فكذلك من خرج للقتال وانتهى أجله قتل ومن بقي له فسحة في الأجل لم يمت حتى ينتهي ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[1].

---

(١) سورة النحل : آية ٦١.

الباب الخامس

خصائص الجدل القرآني وتأثيراته



اختص القرآن الكريم بمنهجه العام المتكامل لنظام الحياة الإنسانية المتكاملة تربية للفرد وبناء للمجتمع ونظاماً للحكم، وقد استخدم الجدل وسيلة من وسائل الإقناع بالحجة والبرهان في تقرير الحق ودفع الباطل.

والقرآن الكريم وهو كتاب الله المبين لا يستخدم من الجدل إلا أحسنه ومن التعبير البياني إلا أعذبه وأوضحه، ويمكن أن نجمع في هذا الباب بعض المعالم البارزة في خصائص الجدل القرآني ومنها ما يلي :

(١) أن الجدل القرآني يستهدف الحقائق في ذاتها ويقيم عليها البراهين والحجج الدالة على الأمور المعينة مثل الأمور الغيبية كقصة نوح وخطابه لقومه وأحواله المعينة، وإبراهيم مع قومه وأحواله المعينة، ومثل موسى وعيسى وأحوالهما المعينة.

وليس شيء من ذلك يمكن أن يعرف بالقياس لا البرهاني ولا غيره، فإن أقيسة المناطقة لا تفيد إلا أموراً كلية، وهذه أمور خاصة، وكذلك أخبر رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم عن كثير مما كان وما سيكون بعده من الحوادث المعينة حتى أخبر صلىٰ الله عليه وسلم عن الترَ بما ثبت في الصحيحين من غير وجه أنه قال (لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك، صغار الأعين، ذلف الأنوف، حمر الخدود، ينتعلون الشعر، كأن وجوههم المجان المطرقة) فهل يتصور أن قياس المناطقة وبراهينهم تدل على آدمي أو أمة معينة فضلاً عن أن يوصف بهذه الصفات قبل ظهورهم بنحو ستمائة سنة.

ومما يدل على أن هناك طرقاً لليقين غير القياس البرهاني، أن القياس لا يدل إلا على علم كلي والمناطقة معترفون بذلك، لأنه لابد فيه من مقدمة كلية إيجابية، والكلي لا يدل على القدر المشترك وهو الكلي، أما الجزئيات وجميع الحقائق المعينة فلا يدل عليها القياس بأعيانها وإنما يعلم به ــ إنْ عُلم ــ صفة مشتركة بينها وبين غيرها فلا يعلم به شيء من خواص الربوبية، ولا شيء من خواص الملائكة، ولا نبي من الأنبياء، ولا ولي من الأولياء.

ودليل وجود الباري تعالى الذي يذكره المتكلمون لا يدل إلا على وجود مطلق لا ينفي تصوره وقوع الشركة فيه كقولهم الله موجود لأن العالم حادث موجود وكل موجود لابد له من موجد وهو الله تعالى، فهذا القول لا يكفي دليلاً على الواحدانية في الذات والأسماء والصفات وسائر خصائص الألوهية التي لا ينبغي أن تصرف إلا لله تعالى وحده.

(٢) أن القرآن الكريم يسلك في مجادلاته سياسة جدلية بيانية يعالج بها أوضاع الخصوم، ويناقشهم بما يتناسب مع أحوالهم في مقام المجادلة، فهو يحكي لنا قصة إبراهيم عليه السلام عندما أراد مناظرة قومه، وإبطال ما هم عليه من عبادة الكواكب، فقد رأى قومه على حالة من العناد والتعصب لمعبوداتهم لا يجدي معهم أي نقاش فكري حول إبطال عبادة هذه الأصنام مهما أقام البراهين والأدلة لأنهم غير قابلين منه صرفاً ولا عدلاً مما له مساس بمعبوداتهم، ولهذا لجأ إلى استخدام سياسة جدلية تلين عريكتهم وتستجذبهم إلى سماع الحق منه والتأمل والتفكر فيما يدعو إليه من توحيد خالص لله تعالى.

فقد استقرى مع قومه أفراد الكواكب وبيّن لهم ما فيها من التغير والحدوث الذي يستلزم بطلان عبادتها، ساق الأدلة في البداية مساق الموافق في النحلة لكي يستميلهم إلى سماع الحق وقبوله وإلزامهم الحجة بعد سماعها.

وإنما قصد إبراهيم بهذا إلزامهم وإبطال ما هم عليه وسوق الدليل على جهة الإلزام غير سوقه على جهة الالتزام، وقد تقدم هذا في قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه.

(٣) أن القرآن الكريم لم يسلك في جداله طرق المنطق اليوناني المعقدة في ترتيب المقدمات والنتائج بأشكال منطقية مطولة وهذا لا يمنع ورود الاستدلال القرآني بالكلي على الجزئي في قياس الشمول أو الاستدلال بأحد الجزأين على الآخر في قياس التمثيل أو الاستدلال بالجزئي على الكلي في قياس الاستقراء ولكن القرآن الكريم جاء بلسان عربي مبين بعيداً عن التعقيدات المنطقية الاصطلاحية.

جاء على ما هو مألوف من أساليب اللغة العربية الفصحى التي تجمع بين عمق المعنى ودقة التصوير ووضوح التعبير وسلامة التركيب دون إخلال بالصورة البيانية التي تثير الضمير وتوقظ المدارك النفسية. وتدفع بالعقول إلى النظر دون ارتباط بالاصطلاحات المنطقية الفلسفية المعقدة.

فطريق القرآن الكريم في الاستدلال وتوجيه العقول والمدارك لفهم أعمق الحقائق أيسر وأشمل وأقوم، ونحن لا نقصد إلى شيء من الموازنة، فإن من البداهة بمكان أن لا محل للموازنة بين أسلوب القرآن الكريم وطرائقه وبين أي أسلوب آخر، ولكنا نقصد إلى توجيه الناظرين في القرآن الكريم والداعين إلى نشر قضاياه ومبادئه إلى أن يعملوا على إشاعة الأسلوب القرآني وتقريبه بما يرفع الحجب الاصطلاحية عن وجهه الجميل حتى لا تغرق معانيه في خضم الاصطلاحات الموضوعة في عصور تاريخية كانت لها بها ألف مأنوس وكانت لها دواعيها الخاصة في العصور التي بين جنباتها».

«وللقرآن الكريم طريقة في أسلوبه تعتمد على تلوين الخطاب وتلوين الحوادث وتنويع الأخبار والشخوص والمعالم لتتلقاه العقول السليمة اليقظة متدبرة وتتلقاه القلوب وجلة راجية».

«فتراه يردف الترهيب بالترغيب والوعد بالوعيد تسكيناً لنفوس المؤمنين ليطمئنوا إلى رضاء الله ورحمته، وإزعاجاً للملاحدة المعاندين ليثوبوا إلى عقولهم فيطرقوا أبواب النظر إتقاء عذاب الله وسخطه»[١] .

وقد تحدثنا عن أسباب انفراد القرآن بمناهجه في الجدل عن مناهج اليونان في الباب الثالث[٢] .

(٤) أن القرآن الكريم يطالب كل مجادل أن يكون جداله عن علم كما أن

---

(١) القرآن العظيم : لمحمد صادق عرجون ص ٢٨٣، ٢٨٩ بتصرف.
(٢) انظر ص ١٠٨ من هذه الرسالة.

الدعوة للحق يجب أن تكون بعلم، وقد ذم الله تعالى من يجادل بغير علم فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾(١) .

وقال تعالى في شأن جدال أهل الكتاب في إبراهيم عليه السلام: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٢) .

والقرآن الكريم لا يأمر المؤمنين أن يجادلوا بمقدمة يسلمها الخصم إن لم تكن علماً، فلو قدر أن الخصم قال باطلاً فإن القرآن لا يأمر أن تحتج عليه بالباطل، لكن هذا قد يفعل لبيان تناقض الخصم لا لبيان الدعوة إلى الحق، والمقصود من جدال القرآن الكريم بيان الحق ودعوة العباد إليه.

(٥) أن الجدل القرآني يجمع بين الإنصاف في الدعوى والإلزام في النتيجة، انظر إلى قوله ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾(٣) .

(٦) أن الأصل في الجدل القرآني أن يكون بالتي هي أحسن، والقرآن الكريم يستخدم الجدل كوسيلة من وسائل الإقناع بالحجة والبرهان في إثبات الحق وإزهاق الباطل.

وإذا استخدم القرآن في جداله القسوة وتأنيب الخصم فهذا لا يرجع إلى أسلوب

---

(١) سورة الحج : آية ٣.

(٢) سورة آل عمران : آية ٦٥ ـ ٦٦.

(٣) سورة القصص : آية ٤٧ ـ ٤٩.

الدعوة والطريقة العامة التي يسلكها القرآن في جداله ولكنه يرجع إلى أمور ذاتية تتعلق بالخصم المجادل لأنه لم يصغ للحق ولم يستخدم عقله فيما يلقى إليه من بيان معزز بالبراهين والحج ولعل ذلك يفهم من الاستثناء في قوله جل شأنه: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ ﴾[1] فإن ظاهر الآية يقتضي مغالبة الظالمين المعتدين من أهل الكتاب بأية وسيلة حتى يذعنوا للحق و يظهر أمر الله.

(٧) أن المظهر العام للجدل القرآني هو معاملة الخصوم بما يتناسب مع أحوالهم العلمية والاعتقادية فكثيراً ما يكون جدل القرآن مع المشركين جدل هداية ودلالة وقد يشتمل على تخطئة بعض مزاعمهم بينما يكون جدل القرآن مع أهل الكتاب جدل تخطئه وإلزام لأنهم على علم.

أما جدل القرآن مع المنافقين فتبدو عليه سمات الشدة والقسوة مصحوباً بالتهديد والوعيد، وسأورد النماذج التالية زيادة في الإيضاح:

١ ــ وجه القرآن الكريم أنظار المشركين إلى التأمل والنظر في الأمور عن تدبر وروية وإلى الاتعاظ بمصارع الطغاة المكذبين لرسلهم من الأمم الماضية، فقال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٩ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ ﴾[2] .

وناقشهم في عبادتهم للأصنام مناقشة هادئة رغم اشتمال هذه المناقشة على التحدي والافحام والتخطئة فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝١٩٤ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾[3] .

---

(١) سورة العنكبوت : آية ٤٦.

(٢) سورة الروم : آية ٩.

(٣) سورة الأعراف : آية ١٩٤ ــ ١٩٥.

وأمام دعاويهم بأن محمداً صلى الله عليه وسلم مجنون وجه القرآن أنظارهم إلى نوع من التبصر في الأمور والتجرد من العصبية والنظر إلى الحقائق بمنظار العدل والإنصاف، فقال تعالى: (قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)[1] .

٢ ــ ناقش القرآن أهل الكتاب في بعض القضايا التي زعموها وبين خطأهم وتناقضهم فيما يدعون، فقال تعالى: (كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)[2] .

وناقضهم القرآن في دعواهم أن إبراهيم عليه السلام كان يهودياً أو نصرانياً فقال تعالى: (يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) إلى قوله (مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ)[3] .

٣ ــ أما جدال المنافقين فقد اشتمل أول سورة البقرة على أبرز ما في الجدل معهم من التهديد والوعيد الشديد، قال تعالى: (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ) إلى قوله: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ)[4] .

---

(١) سورة سبأ : آية ٤٦ .

(٢) سورة آل عمران : آية ٩٣.

(٣) سورة آل عمران : آية ٦٥ ــ ٦٧.

(٤) سورة البقرة : آية ٨ ــ ١٦.

(٨) أن الجدل القرآني يمكن أن يقنع الناس جميعاً إذا هم احتكموا إليه على اختلاف أصنافهم وتباين أفهامهم، وتفاوت مداركهم، فالمتدبر لآيات القرآن والمتفكر في مناهجه يجد فيها ما يعلم الجاهل وينبه الغافل ويشبع نهمة العالم، إقرأ قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)[1] ، تجد أن القارىء للقرآن من دهماء الناس يرى فيه علماً بما لم يكن يعلم قد أدركه بأسهل بيان وأبلغه، ويرى فيها العالم الفيلسوف الباحث في نشأة الكون دقة العلم وإحكامه وموافقة ما وصل إليه العقل البشري لما جاء بذلك النص الكريم مع سمو البيان وعلو الدليل فتبارك الذي نزل القرآن، واقرأ قوله تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٤ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ)[2] .

ثم تدبر هذه الآيات البينات تجد أن الأمي يستفيد منها علماً غزيراً كما يعرف منها أن الله سبحانه وتعالى سيبعث الناس يوم القيامة فيزداد إيماناً كما علم ما لم يكن يعلم، ويقرؤها العالم بدقائق تكوين الإنسان والدارس للحيوان جرثومة فجنينا فحيوانا على ظهر الأرض حياً فيرى فيها دقة العلم والتكوين وصدق الحكاية حتى لقد قرأها بعض كبار الأطباء في أوربا فاعتقد أن محمداً صلى الله عليه وسلم أعظم طبيب رأته الأجيال السابقة فلما علم أنه كان أمياً لايقرأ ولا يكتب آمن بأن هذا من علم الله تعالى بارىء النسم»[3] .

(٩) إثارة العقل والوجدان في الجدل القرآني :

والقرآن الكريم في جداله يخاطب العقل والوجدان إذ يأتي بالفائدة العقلية والمتعة

---

(١) سورة الأنبياء : آية ٣٠.

(٢) سورة المؤمنون : آية ١٢ ــ ١٦.

(٣) المعجزة الكبرى «القرآن» : لمحمد أبو زهرة ص ٣٩٥ (بتصرف).

الوجدانية معاً وهذا ما لا يتوفر في أي أسلوب غير أسلوب القرآن فقد عرف كلام العلماء والحكماء وعرف كلام الأدباء والشعراء فلا تجد إلا غلواً في جانب وقصوراً في جانب، فالحكماء مثلاً يقدمون لك ثمار عقولهم وعصارة أفكارهم غذاء لعقلك ولا تتوجه نفوسهم إلى استهواء نفسك واختلاب عاطفتك.

والشعراء يقصدون إلى استثارة وجدانك وتهييج عاطفتك ولا يبالون بما صوروه لك أن يكون غياً أو رشداً أو أن يكون حقيقة أو تخيلاً وتراهم جادين وهم هازلون يستبكون وإن كانوا لا يبكون ويُطربون وإن كانوا لا يطربون وصدق الله العظيم إذ يقول: (وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ)[١] .

والحقيقة أنه لايوجد أحد تتكافأ فيه قوة التفكير وقوة الوجدان على السواء وعلى فرض وجود شيء من التعادل عند قليل من الناس فإنها لا تعمل في النفس دفعة واحدة بل تتناوب هذه القوى، فإن الذي ينهمك في التفكير تتناقص قوة وجدانه، والذي يقع تحت تأثير لذة أو ألم يضعف تفكيره.

أما القرآن الكريم فإنه كلام يأتي من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يرضي حتى أولئك الفلاسفة المتعمقين ومن المتعة الوجدانية الطيبة بما يرضي حتى هؤلاء الشعراء المرحين والله قادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً وأن يمزج الحق والجمال معاً، وهذا ما تجده في كتاب الله حيثما توجهت، إنه لا ينسى حق العقل من حكمة وعبرة وإنه في معمعة براهينه وأحكامه لا ينسى حظ القلب من تشويق وترقيق وتحذير وتنفير وتهويل وتعجب يبث ذلك في مطالع آياته ومقاطعها[٢] (ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ)[٣] .

---

(١) سورة الشعراء : آية ٢٢٤ ــ ٢٢٧.

(٢) النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٠٩. بتصرف.

(٣) سورة الزمر : آية ٢٣.

تأثير الجدل القرآني في نفوس المخالفين له والمؤمنين به :

مما تشهد به الحقائق التاريخية والآثار الصحيحة أنه كان يتأثر بالقرآن كل من سمعه وأصغى إليه من المشركين والمؤمنين، وقد أثر القرآن في نفوس المشركين تأثيراً كبيراً بروعة بيانه ودهشة نظمه وأسلوبه، وهذا هو الذي أنطق الوليد بن المغيرة بكلمته العالية فيه لأبي جهل التي اعترف فيها بأنه الحق الذي يعلو ولا يعلى عليه والذي يحطم ما تحته، وكانت كلمة فائضة من نور عقله وصميم وجدانه وما استطاع أن يقول كلمة أخرى في الصد عنه بعد إلحاح أبي جهل عليه باقتراحها إلا بتكليف لمكابرة عقله ووجدانه، وبعد أن فكر وقدر ونظر وعبس و يسر ثم أدبر واستكبر فقال (إن هذا إلا سحر يؤثر)[١] وقد أورد ابن كثير في كتاب السيرة عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال : ياعم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً، قال: لم؟ قال: ليعطوك فإنك أتيت محمداً لتعرض ما قبله.

قال : قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني ولا اعلم برجزه ولا بقصيده مني ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته.. قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: قف عني حتى أفكر فيه، فلما فكر قال: إن هذا إلا سحر يؤثر يأثره عن غيره فنزلت (ذرني ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالاً ممدوداً وبنين شهوداً)[٢] .

واجتمعت قريش يوماً فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلمه، ولينظر ماذا يرد عليه. فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة فقالوا: أنت يا أبا الوليد.

---

(١) انظر سورة المدثر : من آية ١١ ــ ٢٤.

(٢) انظر سورة المدثر : آية ١١ ــ ١٣.

وقد أتاه عتبه وذكر كلاماً كثيراً يعترض به على رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فلما فرغ من كلامه قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم (بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون) إلى أن بلغ (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) عندئذ أمسك عتبة على فيه وناشده الرحم أن يكف عنه ولم يخرج إلى أهله واحتبس عنهم.

فقال أبو جهل : والله ياعتبة ما جئنا إلا لأنك صبوت إلى محمد وأعجبك أمره، فإن كان بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد. فغضب وأقسم بالله لا يكلم محمداً أبداً وقال: لقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً ولكني أتيته وقص عليهم القصة، فأجابني بشيء والله ما هو بسحر ولا بشعر ولا كهانة قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم) حتى بلغ (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف. وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل عليكم العذاب[١] .

وهذا التأثير هو الذي كان يجذب رؤوس أولئك الجاحدين المعاندين ليلاً لاستماع تلاوة رسول الله صلىٰ عليه وسلم في بيته على ما كان من نهيهم عنه ونأيهم عنه وتواصيهم وتقاسمهم أن لا يسمعوا له، ثم كانوا يتسللون فرادى مستخفين و يتلاقون في الطريق متلاومين، كما ذكره البيهقي في دلائل النبوة[٢] .

وقد تقدم خبر جبير بن مطعم لما سمع النبي صلىٰ الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية: (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون) قال جبير: كاد قلبي يطير.

وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من طرق عن الزهري. وجبير بن مطعم كان

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٥٠٢ ـ ٥٠٣.

(٢) انظر الوحي المحمدي للسيد رشيد رضا : ص ١٥٧.

قد قدم على النبي صلىٰ الله عليه وسلم بعد وقعة بدر في فداء الأساري وكان إذ ذاك مشركا فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام بعد ذلك[١] .

أما تأثير القرآن في المؤمنين الأولين فقد استولى على مشاعرهم وغير ما بأنفسهم من مفاسد الجاهلية فذكّى أنفسهم وسما بأفكارهم وقد عكفوا عليه يرتلونه و يتفهمونه و يتعرفون أحكامه ومراميه.

ومما ورد في صفة الصحابة رضي الله عنهم أن الذي كان يمر ببيوتهم ليلاً يسمع منها مثل دوي النحل من تلاوة القرآن، وقد غلا بعضهم فكان يقوم الليل كله حتى شكا نساؤهم فنهاهم النبي صلىٰ الله عليه وسلم عن ذلك.

وكان رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يتأثر بسماع القرآن ويحب أن يسمعه من غيره، قال البخاري: حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة عن عبد الله ابن مسعود قال لي رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم اقرأ علي فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال : إني أُحب أن أسمعه من غيري، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية (فكيف إذا جئنا من كل أمه بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) فقال: حسبك الآن، فإذا عيناه تذرفان[٢] .

وهكذا كان تأثير القرآن الكريم في نفوس المؤمنين به والمخالفين له، وإن تقليب القلوب والأفكار لأعسر من فلق الصخور وتحويل الجبال وقد ضرب الله لها المثل بقوله (لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)[٣] .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٤٤.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٩٨

(٣) سورة الحشر : آية ٢١.

أثر الجدل القرآني في السنة النبوية :

نزل القرآن الكريم على رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم هداية للناس وتبياناً لكل شيء، وكان رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يواجه المشكلات التي يثيرها خصومه من المشركين وأهل الكتاب وكلما أثاروا شبهة أو راموا جدالاً نزل القرآن الكريم بالقول الفصل والحق الواضح الذي لا لبس فيه.

وقد رأينا فيما تقدم من بحوث الرسالة ذلكم المعترك الفكري بين القرآن وخصومه وكيف تصدى القرآن لشبهات المخالفين فأبطلها بالجدل المحكم والاستدلال الملزم حتى ظهر أمر الله وهم كارهون، وكل معترك فكري تحدث عنه القرآن فقد جاءنا عن طريق رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، وقد وَعَى رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أبعاد ذلك المعترك وما اشتمل عليه من تقرير الحجج الصحيحة وإبطال الشبه الفاسدة وذكر النقض والفرق والمعارضة والمنع، ورسول الله محمد صلىٰ الله عليه وسلم سيد البشر وخاتم النبيين وقد نزل عليه القرآن فهو حري بأن يتخلق بأخلاقه و يسير على منواله، وقد كان صلىٰ الله عليه وسلم كذلك فقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فقالت: (كان خلقه القرآن)[1] .

وقد شهد الله تعالى له بهذا الخلق الكريم فقال تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ)[2] .

كما أوتي صلىٰ الله عليه وسلم جوامع الكلم ما فهمه من كتاب الله المنزل عليه، كل هذه العوامل تجعل من الحق قوة برهانية متماسكة تقف أمام الباطل، سواء أكانت هذه القوة في القرآن الكريم أو في السنة النبوية المطهرة فإن الجانب الذي صدرت عنه هذه القوة واحد، وبهذا نقول إن بين الجدل القرآني و بين الجدل الذي ورد في السنة النبوية علاقة قوية بل هي وحدة متماسكة لا انفصام لها، فإن

---

(١) رواه مسلم في صحيحه.

(٢) سورة القلم : ٤.

الرسول صلىٰ الله عليه وسلم لا يخالف المنهج الذي سلكه القرآن في الجدال والمحاجة، وإن آثار الجدل القرآني قد ظهرت واضحة جلية في التوجيه والجدال الذي كان يقوم به رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم في تبليغ رسالة عندما تدعو الحاجة إلى استخدام ذلك النوع من الجدل المحكم لأن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم هو المفسر والمبين لأبعاد الوحي المنزل من السماء سواء منه المتلو أو غير المتلو.

وقد بيّن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم العلل الشرعية والمآخذ والفروق والأوصاف المعتبرة والأوصاف الملغاة، وبين الدور والتسلسل وقطعها، وكل هذا مما آتاه الله من الوحي وفهمه من منهج القرآن المنزل عليه، وبهذا كانت العلاقة واضحة في تأثير الجدل القرآني في السنة المطهرة.

وسنورد فيما يلي نماذج من الجدل الذي ورد في السنة وكيف أوضح رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فيه الحق بأوجز عبارة وأخصر طريق ومن ذلك ما يلي :

١) قصة ابن اللتبية : حيث قال صلىٰ الله عليه وسلم فيه: (أفلا جلس في بيت أبيه وأمه وقال هذا أهدى لي)[١] ، والمتأمل لهذا يجد تحت هذه الكلمة الشريفة أن الدوران يفيد العليّة، والأصولي ربما كد خاطره حتى قرر ذلك بعد الجهد فدلت هذه الكلمة النبوية على أن الهدية لما دارت مع العمل وجوداً وعدماً كان العمل سببها وعلتها، لأنه لو جلس في بيت أبيه وأمه لانتفت الهدية وإنما وجدت بالعمل فهو علتها.

٢) قوله صلىٰ الله عليه وسلم في اللقطة، وقد سئل عن لقطة الغنم فقال: (إنما هي لك أو لأخيك أو للذئب)[٢] ، فلما سئل عن لقطة الإبل غضب وقال: (ما لك ولها معها حذاؤها ترد الماء وترعى الشجر)، ففرق بين الحكمين باستغناء الإبل واستقلالها بنفسها دون أن يخاف عليها الهلكة في البرية واحتياج الغنم إلى راع

---

(١) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٦٣ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

(٢) رواه ابن ماجة في سننه ج ٢ ص ٨٣٧.

وحافظ، وأنه إن غاب عنها فهي عرضة للسباع بخلاف الإبل، فهكذا تكون الفروق المؤثرة في الأحكام.

٣) قوله صلىٰ الله عليه وسلم في اللحم الذي تصدق به على بريرة: (هو عليها صدقة وهو منها لنا هدية)[١] ، ففرق في الذات الواحدة، وجعل لها حكمين مختلفين باختلاف الجهتين، إذ جهة الصدقة عليها غير جهة الهدية منها.

٤) وكذلك الرجلان اللذان عطسا عند النبي صلىٰ الله عليه وسلم فشمت أحدهما ولم يشمت الآخر، فلما سئل عن الفرق أجاب بأن: (هذا حمد الله والآخر لم يحمد الله)[٢] ، فدل على أن تفريقه في الأحكام لافتراقها في العلل المؤثرة فيها.

٥) وتأمل قوله صلىٰ الله عليه وسلم في الميتة: (إنما حرم منها أكلها[٣]) كيف تضمن التفرقة بين أكل اللحم واستعمال الجلد وبين أن النص إنما تناول تحريم الأكل وهذا تحته قاعدتان عظيمتان إحداهما: بيان أن التحليل والتحريم المضافين إلى الأعيان غير مجمل وأنه غير مراد به من كل عين ماهي مهيأة له وفي ذلك الرد على من زعم أن ذلك يتضمن لمضمر عام على من زعم أنه مجمل.

والثانية : قطع الحاق استعمال الجلد بأكل اللحم، وأنه لا يصح قياسه عليه فلو أن قائلاً قال وإن دلت على تحريم الأكل وحده فتحريم ملابسة الجلد قياساً عليه كان قياسه باطلاً بالنص إذ لا يلزم من تحريم الملابسة الباطنية بالتعدي تحريم ملابسة الجلد ظاهراً بعد الدباغ، ففي هذا الحديث بيان المراد من الآية وبيان فساد إلحاق الجلد باللحم.

٦) وقوله صلىٰ الله عليه وسلم لأبي النعمان بن بشير وقد خص ابنه بالنحل (أتحب أن يكونوا في البر سواء)[٤] ، كيف تجده متضمناً لبيان الوصف الداعي إلى

---

(١) رواه مسلم ج ٢ ص ١١٤٥.

(٢) رواه ابن ماجه في سننه ج ٢ ص ١٢٢٣.

(٣) رواه مسلم ج ١ ص ٢٧٧.

(٤) انظر سنن ابن ماجة ج ٢ ص ٧٩٥.

شرع التسوية بين الأولاد وهو العدل الذي قامت به السموات والأرض، كما أنك تحب أن يستووا في برك وأن لاينفرد أحدهم ببرك وتحرمه من الآخر فيكف ينبغي أن تفرد أحدهما بالعطية وتحرمها الآخر.

٧) قوله صلىٰ الله عليه وسلم لعمر وقد استأذنه في قتل حاطب فقال: (وما يدريك أن الله أطَّلَعَ على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم)[١] ، كيف تجده متضمناً لحكم القاعدة التي اختلف فيها أرباب الجدل والأصوليون وهي أن التعليل بالمانع هل يفتقر إلى قيام المقتضى، فعلل النبي صلىٰ الله عليه وسلم عصمة دمه شهوده بدراً دون الإسلام العام، فدل على أن مقتضى قتله كان قد وجد وعارض سبب العصمة وهو التجسس على رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ولكن عارض هذا المقتضى مانع منع من تأثيره وهو شهوده بدراً، وقد سبق من الله مغفرته لمن شهدها، وعلى هذا فالحديث حجة لمن رأى قتل الجاسوس لأنه ليس ممن شهد بدراً وإنما امتنع عن قتل حاطب لشهوده بدراً.

٨) قوله صلىٰ الله عليه وسلم لعمر وقد سأله عن القبلة للصائم: (فقال أرأيت لو تمضمضت ... الحديث)، فتحت هذا إلغاء الأوصاف التي لا تأثير لها في الأحكام وتحته تشبيه الشيء بنظيره و بإلحاقه به، وكما أن الممنوع منه الصائم إنما هو الشرب لا مقدمته وهو وضع الماء في الفم فكذلك الذي منع إنما هو الجماع لا مقدمته وهي القبلة، فتضمن الحديث قاعدتين عظيمتين كما ترى.

٩) قوله صلىٰ الله عليه وسلم وقد سئل عن الحج عن الميت فقال للسائل: (أرأيت لو كان عليه دين أكنت قاضيه قال نعم قال فدين الله أحق بالقضاء).

فتضمن هذا الحديث بيان قياس الأولى وأن دين المخلوق إذا كان يقبل البقاء مع شحه وضيقه فدين الواسع الكريم تعالى أحق بأن يقبل الوفاء ففي هذا أن الحكم إذا ثبت في محل الأمر وثم محل آخر أولى بذلك الحكم فهو أولى بثبوته فيه، ومقصود

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير باب الجاموس، وقول الله تعالى (لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء).

الشارع في ذلك التنبيه على المعاني والأوصاف المقتضية لشرع الحكم والعلل المؤثرة، وإلا فما الفائدة في ذكر ذلك، والحكم ثابت بمجرد قوله.

١٠) أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم ألحق الولد في قصة وليدة زمعة بعبد بن زمعة عملاً بالفراش القائم وأمر سودة أن تحتجب منه عملاً بالشبه المعارض له فرتب على الوصفين حكميها وجعله أخاً من وجه دون وجه، وهذا من ألطف مسالك الفقه ولا يهتدي إليه إلا خواص أهل العلم والفهم عن الله ورسوله صلىٰ الله عليه وسلم.

١١) قوله صلىٰ الله عليه وسلم وقد علمهم أن يقولوا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، ثم قال: (فإذا قلتم ذلك أصاب كل عبد صالح لله في السماء والأرض)، كيف قرر بهذا عموم اسم الجمع المضاف وأغنانا عن طريق الأصوليين وتعسفهم.

١٢) قوله صلىٰ الله عليه وسلم وقد سئل عن زكاة الحمر فقال : لم ينزل عليّ فيها إلا هذه الآية الجامعة (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) فسمى الآية جامعة أي شاملة باعتبار اسم الشرط فدل على أن أدوات الشرط للعموم، ومثل هذا في مخاطبته صلىٰ الله عليه وسلم ومحاورته أكثر من أن يذكر وإنما يجهله من لم يحط به علماً.

١٣) قوله صلىٰ الله عليه وسلم للرجل الذي استفتاه عن امرأته وقد ولدت غلاما أسود فأنكر ذلك فقال له النبي صلىٰ الله عليه وسلم (أَلَكَ إبل؟ قال: نعم قال فما لونها قال سود قال هل فيها من أورق قال نعم، قال فأنَّى له ذلك قال عسى أن يكون نزعه عرقه قال وهذا عسى أن يكون نزعه عرقه)، كيف تضمن إلغاء هذا الوصف الذي لا تأثير له في الحكم وهو مجرد اللون ومخالفة الولد للأبوين فيه وأن مثل هذا لا يوجب ريبة وأن نظيره في المخلوقات مشاهد بالحس والله خالق الإبل وخالق بني آدم وهو الخلاق العليم، فكما أن الجمل الأورق قد يتولد من أبوين أسودين فكذلك الولد الأسود قد يتولد من أبوين أبيضين وأن ما جوز من سبب ذلك في الإبل هو بعينه قائم في بني آدم.

فهذه من أصح المناظرات والإرشاد إلى اعتبار ما يجب اعتباره من الأوصاف

وإلغاء ما يجب إلغاؤه فيها وأن حكم الشيء حكم نظيره وأن العلل والمعاني حق شرعاً وقدراً[1] .

الآداب القرآنية في الجدل والمجادل :

تحدث العلماء عن أدب البحث والمناظرة وجعلوا للجدل آداباً ينبغي لكل مجادل أن يتقيد بها، وقد لمسنا في جدل القرآن الكريم الأدب الرفيع والأسلوب الذي يعلو على أساليب البشر. ولو تأملناه جيداً لوجدنا فيه الأسس القويمة لآداب الجدال بالحق التي تصونه عن أن يتحول إلى مماراة بعيدة عن نشدان الحقيقة أو إلى مشاحنات أنانية ومشاغبات ومغالطات ونحو ذلك مما يفسد القلوب ويهيج النفوس و يورث التعصب ولا يوصل إلى حق.

والأصل في الجدال المثالي الذي يلتزم فيه جانب الحق والأدب أن يتفهم كل طرف من الفريقين المتجادلين وجهة نظر الطرف الآخر و يعرض فيه كل طرف أدلته التي رجحت لديه استمساكه بوجهة نظره، ثم يأخذ في تبيين الحقيقة من خلال الانتقادات التي يوجهها الطرف الآخر على أدلته، أو من خلال الأدلة التي تنير له بها بعض الجوانب المعتمة.

ومن آداب الجدل أن يتعاون الفريقان المتناظران على معرفة الحقيقة بتبصير كل منهما صاحبه بالأماكن المظلمة عليه والتي خفيت عنه؛ حينما أخذ يناظر باحثاً عن الحقيقة، وذلك حينما لا يكون أحدهما واقفاً على الحقيقة وقوفاً قطعياً غير قابل للنقض، والجدال النزيه الذي هدفه الوقوف على الحقيقة يكون بتبصير الواقف عليها أخاه المناظر له وأخذه بيده فى طرق الاستدلال الصحيح لابلاغه وجهة الحق المشرق وكأنه جاهل له خالي الذهن عنه، ويمكن أن تتلخص أهم القواعد والأسس لآداب الجدال فيما يلي :

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم ج ٤ ص ١٢٧ ــ ١٣٠ بتصرف.

القاعدة الأولى :

تخلي كل الفريقين اللذين تصديا للمحاورة الجدلية حول موضوع معين عن التعصب لوجهة نظره السابقة وإعلانها الاستعداد التام للبحث عن الحقيقة والأخذ بها عند ظهورها سواء كانت هي وجهة نظره السابقة أو وجهة نظر من يحاوره أو وجهة نظر أخرى.

وقد أرشدنا القرآن الكريم في «سورة سبأ» إلى الأخذ بهذه القاعدة اذ علم الرسول صلوات الله عليه أن يقول للمشركين في مجادلته لهم: ﴿ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾(١) . وفي هذا غاية التخلي عن التعصب لامر سابق، وكمال الرغبة بنشدان الحقيقة أنّى كانت.

ولما كان موضوع المجادلة الذي وردت هذه الآية في صدده توحيد الخالق أو الإشراك به وهما أمران على طرفي نقيض لإلقاء بينهما بحال من الأحوال وهما يدوران حول أصل عظيم من أصول العقيدة البديهية أن الهداية في أحدهما إذ هو الحق، وأن الضلال المبين في الآخر إذ هو الباطل، ومن أجل ذلك كانت عبارة إعلان التخلي عن التعصب لأمر سابق تتضمن الاعتراف بهذه الحقيقة.

القاعدة الثانية : تقيد كل من الفريقين المتحاورين بالقول المهذب البعيد عن كل طعن أو تجريح أو هزء أو سخرية أو احتقار لوجهة النظر التي يدعيها أو يدافع عنها من يحاوره، وقد أرشدنا الإسلام إلى التقيد بهذه القاعدة في نصوص كثيرة منها:

١ ــ قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم في سورة النحل: « وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ »(٢) .

٢ ــ قوله تعالى للمؤمنين في سورة العنكبوت: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾(٣) .

---

(١) سورة سبأ : آية ٢٤.
(٢) سورة النحل : آية ١٢٥.
(٣) سورة العنكبوت : آية ٤٦.

أي فإن سلك مجادلكم مسالك غير مهذبة القول فتقيدوا أنتم بكل قول مهذب واسلكوا كل طريقة هي أحسن وأفضل، وعبارة (بالتي هي أحسن) تشمل بعمومها الأساليب الفكرية والقولية، وبهذا يتبين لنا أن المطلوب من المسلم أن يكون في مجادلته على حالة أرقى وأحسن من الحالة التي يكون عليها من يجادله أدباً وتهذباً.

٣ ــ قوله في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[١].

٤ ــ وفي الحديث الشريف: (ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء).

٥ ــ وقد حكم الله بالويل «وهو العذاب الشديد» على الهمازين اللمازين فقال تعالى في سورة الهمزة ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[٢].

القاعدة الثالثة: التزام الطرق الإقناعية الصحيحة لدى المجادلة، ومن التزام هذه الطرق الصحيحة ما يلي:

(١) تقديم الأدلة المثبتة أو المرجحة للأمور المدعاة.

(٢) إثبات صحة النقل للأمور المنقولة المروية.

وهذان الأمران المقصودان بالقاعدة المعروفة عند علماء أدب البحث والمناظرة إذ يقولون: «إن كنت ناقلاً فالصحة أو مدعياً فالدليل».

وقد أرشدنا القرآن الكريم إلى مضمون هذه القاعدة في نصوص كثيرة منها النصوص التالية:

(١) قوله تعالى في سورة النمل: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٣].

---

(١) سورة الأنعام: آية ١٠٨.

(٢) سورة الهمزة: آية ١.

(٣) سورة النمل: آية ٦٤.

(٢) قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[1] .

ففي هذين النصين يأمر الله رسوله محمداً صلىٰ الله عليه وسلم بأن يطالب المشركين بتقديم برهانهم على ما يدعون، ويشمل البرهان في مثل هذا الادعاء البرهان العقلي والبرهان النقلي الصادق عن رسول من رسل الله، وآية الأنبياء تشير إلى مطالبتهم بالبرهان النقلي، أما آية النمل فتطالبهم بتقديم البرهان بشكل عام عقلياً كان أم نقلياً.

(٣) قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[2] .

وفي هذه الآية يأمر الله رسوله صلىٰ الله عليه وسلم بأن يطالب الذين ادعوا أنه لن يدخل الجنة إلا من كان من اليهود أو من النصارى بتقديم برهانهم على ما يدعون.

(٤) قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[3]، وذلك أن اليهود اعترضوا على رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم في أكله لحوم الإبل وشربه ألبانها مع إعلانه أنه على دين إبراهيم عليه السلام مدعين بأنها كانت محرمة في ملة إبراهيم فقال لهم الرسول صلىٰ الله عليه وسلم كان ذلك حلالاً لإبراهيم فنحن نحله، فقال اليهود: إنها لم تزل محرمة في ملة إبراهيم ونوح عليهما السلام فنزل قول الله تعالى يأمر رسوله بأن يطالبهم بتقديم الدليل على ما يدعون من نقل صحيح وذلك في قوله تعالى: (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين)، كما سبق بيانه بتفصيل في الباب الرابع.

---

(١) سورة الأنبياء : آية ٢٤.

(٢) سورة البقرة : آية ١١١.

(٣) سورة آل عمران : آية ٩٣.

القاعدة الرابعة : ألا يكون المجادل ملتزماً في أمر من أموره بضد الدعوى التي يحاول أن يثبتها، فإذا كان ملتزماً بشيء من ذلك كان حاكماً على نفسه بأن دعواه مرفوضة من وجهة نظره.

ومن الأمثلة على سقوط دعوى المجادل بسبب التزامه بنقيض دعواه وقبوله له : استدلال بعض من أنكر رسالة محمد صلىٰ الله عليه وسلم بأنه بشر، وزعم هؤلاء أن الاصطفاء بالرسالة لا يكون للبشر وإنما يكون للملائكة أو مشروطاً بأن يكون مع الرسول من البشر ملك يرى، وفي اعتراضهم على بشريته قالوا: ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ ﴾(١) ، مع أنهم يعتقدون برسالة كثير من الرسل السابقين كإبراهيم وموسى وعيسى، وهؤلاء في نظرهم بشر وليسوا بملائكة. ولذلك أسقط الله دعواهم بقوله في سورة الفرقان: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ ﴾(٢) .

القاعدة الخامسة : ألا يكون في الدعوى أو في الدليل الذي يقدمه المناظر تعارض أي لايكون بعض كلامه ينقض بعضه الآخر فإذا كان كذلك كان كلامه ساقطاً بداهة.

ومن أمثلة ذلك قول الكافرين حينما كانوا يرون الآيات الباهرات تنزل على رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم (سحر مستمر) قال تعالى في سورة القمر: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾(٣) .

ففي قولهم هذا تعارض وتهافت ظاهر لايستحق رداً وذلك لأن من شأن السحر كما يعلمون أن لا يكون مستمراً، ومن شأن الأمور المستمرة ألا يكون سحراً، أما أن يكون الشيء الواحد سحراً ومستمراً معاً فذلك جمع عجيب بين أمرين متضادين لا يجتمعان.

---

(١) سورة الفرقان : آية ٧.

(٢) سورة الفرقان : آية ٢٠.

(٣) سورة القمر آية ٢.

ونظير ذلك قول فرعون عن موسى عليه السلام إذ جاءه بسلطان مبين من الحجج الدامغة والآيات الباهرة .. (ساحر أو مجنون) قال تعالى في سورة الذاريات: (وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)(١) .

وهذان أمران متضادان ومن غير المقبول منطقياً أن يكون الشخص الواحد ذو الصفات الواحدة متردداً بين كونه ساحراً وكونه مجنوناً وذلك لأن من شأن الساحر أن يكون كثير الذكاء والدهاء وهذا أمر يتنافى مع الجنون تنافياً كلياً، فكيف صح في فكر فرعون هذا الترديد، إن في كلامه هذا لتهافتاً ظاهراً يسقطه من الاعتبار لدى المجادلة فهو لايستحق عليه جواباً.

القاعدة السادسة : ألا يكون الدليل الذي يقدمه المجادل ترديداً لأصل الدعوى فإذا كان كذلك لم يكن دليلاً وإنما هو إعادة للدعوى بصفة ثانية.

القاعدة السابعة : عدم الطعن في أدلة المجادل إلا ضمن الأمور المبنية على المنطق السليم والقواعد المسلم بها لدى الفريقين المتجادلين.

القاعدة الثامنة : إعلان التسليم بالقضايا والأمور التي هي من المسلمات الأولى أو من الأمور المتفق بين الفريقين المتناظرين على التسليم بها، أما الإصرار على إنكار المسلمات فهو مماراة والمماراة مرفوضة في أصول المحاورات الجدلية السليمة، وليست من شأن طالبي الحق.

القاعدة التاسعة : قبول النتائج التي توصل إليها الأدلة القاطعة أو الأدلة المرجحة إذا كان الموضوع فيه الدليل المرجح وإلا كانت المجادلة من العبث الذي لا يليق بالعقلاء أن يمارسوه(٢) .

هذه القواعد التسع هي أهم الأسس التي تبنى عليها آداب الجدل والمجادل. وقد

---

(١) سورة الذاريات : آية ٣٨ ــ ٣٩.

(٢) أسس الحضارة الاسلامية ووسائلها ص ٣٦١ ــ ٣٦٨ (بتصرف).

ذكر الإمام الغزالي في كتابه الإحياء أن من أدب المجادل الذي يقصد بجداله وجه الله وإحقاق الحق أن يكون جداله مع خصمه في خلوته لا في حفل جامع فإن الخلوة أجمع للفهم وأحرى بصفاء الذهن ودرك الحق وفي حضور الجمع الكثير ما يحرك دواعي الرياء ويوجب الحرص على نصرة كل واحد نفسه محقاً كان أم مبطلاً فحرصهم إذاً على المحافل والمجامع ليس لله ولا لوجه الحق، فقد يخلو الواحد منهم بصاحبه مدة طويلة فلا يكلمه وربما اقترح عليه صاحبه بعض الأمور فلا يجيب فإذا انتظم مجمع أو تكامل عقد محفل لم يغادر قوي الاحتيال منزعاً حتى يكون هو المختص بالكلام وفارس الميدان. ومن أدب المجادل أيضاً أن يكون في طلب الحق كناشد الضالة سواء لديه أن تظهر الضالة على يديه أو على يد من يعاونه، فيرى رفيقه معيناً لا خصماً ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له طريق الحجة، وهكذا كانت مشاورات الصحابة رضي الله تعالى عنهم حتى أن امرأة ردت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ونبهته على الحق وهو في خطبته على ملأ من الناس، فقال: «أصابت أمرأة وأخطأ رجل»، وسأل رجل علياً رضي الله عنه فأجابه فقال: «ليس كذلك يا أمير المؤمنين ولكن كذا وكذا فقال: أصبت وأخطأت وفوق كل ذي علم عليم»، واستدرك ابن مسعود على أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما فقال أبو موسى: لا تسألوني عن شيء وهذا الحبر بين أظهركم وذلك لما سئل أبو موسى عن رجل قاتل في سبيل الله فقتل، فقال: هو في الجنة وكان أمير الكوفة، فقام ابن مسعود فقال: «أعده على الأمير فلعله لم يفهم؟ فأعادوا عليه فأعاد الجواب فقال: ابن مسعود، وأنا أقول إن قتل فأصاب الحق فهو في الجنة، فقال: أبو موسى: الحق ما قال»[1] .

ومن آداب المجادل أن لا يجادل ويبحث في الأوقات التي يتغير فيها مزاجه ويخرج عن حد الاعتدال لأن المزاج إذا زاد على حد الاعتدال في الحرارة كان معه العجلة وقلة التوقف وعدم الصبر وسرعة الضجر، وإذا زاد في البرودة على حد الاعتدال أورث السهو والبلادة وقلة الفطنة وإبطاء الفهم.

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي ج ١ ص ٤٤.

ومن آداب المجادل أن لايجاري خصمه في الشغب إن شاغبه ولايرد عليه إن أربى في كلامه، بل يستعمل الهدوء والوقار ويقصد مع ذلك وضع الحجة في موضعها فإن ذلك أغلظ على خصمه من السب.

ومنها أن لا يستصغر خصمه ولا يتهاون به وإن كان صغير المحل في الجدل فقد يجوز أن يقع لمن لا يؤبه له الخاطر الذي لا يقع لمن فوقه في الصناعة، وقد أوصى القدماء بالاحتراس من العدو وألا يستصغر صغيراً منه، والخصم عدو لأنه يجاهدك بلسانه وهو أقطع سيفيه كما قال اردشير(١) ، وقال حسان بن ثابت :

لساني وسيفي صارمان كلاهما ويبلغ ما لا يبلغ السيف مذودي

وقد لخص الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد مجموعة من هذه الآداب في رسالة الآداب في علم أدب البحث والمناظرة فقال تحت عنوان آداب المتناظرين :

وينبغي للمتناظرين أن يلتزما الآداب الآتية :

(١) أن يتحرزا من إطالة الكلام ومن اختصاره.

(٢) أن يتجنبا غرابة الألفاظ وإجمالها.

(٣) أن يكون كلامهما ملائماً للموضوع.

(٤) ألا يسخر أحدهما من صاحبه.

(٥) أن يقصد كل منهما ظهور الصواب ولو على يد صاحبه.

(٦) ألا يتعرض أحدهما لكلام صاحبه قبل أن يفهم غرضه منه.

---

(١) انظر نقد النثر الفرج قدامة بن جعفر البغدادي ص١١٤.

(٧) أن ينتظر كل منهما صاحبه حتى يفرغ من كلامه[١] .

هذه مجموعة من آداب الجدل والجادل جمعتها في هذا المبحث ليكون المجادل على بصيرة عندما يدخل غمار المعترك الجدلي، فيبقى ثابت الجأش، واضح المنهاج في طلب الحق وتقريره وقمع الباطل وإزهاقه.



---

(١) رسالة الآدب : ص١٧٦ ــ ١٧٧.



فهرس المراجع والمصادر



أولاً : القرآن الكريم وعلومه :

رقم.م	اسم الكتاب	اسم المؤلف	مكان وتاريخ الطبعة
١	أحكام القرآن	ابن العربي	عيسى البابي الحلبي بالقاهرة
٢	أساليب الاستفهام في القرآن	عبد العليم السيد فوده	ط مؤسسة دار الشعب بمصر
٣	أسباب النزول	أبي الحسن الواحدي النيسابوري	مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة
٤	استخراج الجدال من القرآن الكريم	ابن الحنبلي المتوفي عام ٦٣٤هـ	مخطوط برواق الأتراك بالأزهر رقم/٣٤٠/ تصوير ميكروفيلم بدار الكتب الوطنية المصرية رقم /٦٦٩.
٥	الإسرائيليات في القرآن	رمزي نعناعة	ط. دار المعارف للطباعة بدمشق
٦	اصلاح الوجوه والنظائر في القرآن	الحسين بن محمد الدامغاني	ط. دار العلم للملايين بيروت. عام ١٩٧٠ م.
٧	أضواء البيان	محمد الأمين الشنقيطي	مطبعة المدني بالقاهرة.
٨	إعجاز القرآن والبلاغة النبوية	مصطفى صادق الرافعي	ط. الاستقامة بالقاهرة.
٩	إعراب القرآن	العكبري	ط. مصطفى البابي الحلبي.
١٠	بديع القرآن	ابن أبي الأصبع المصري	ط. الرسالة ١٩٥٧ بالقاهرة.
١١	البرهان في علوم القرآن	محمد بن عبد الله الزركشي	ط. عيسى البابي الحلبي بالقاهرة
١٢	بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز	الفيروز ابادي	مطابع الاعلانات الشرقية بالقاهرة
١٣	بلاغة القرآن	محمد الخضر حسين	المطبعة التعاونية بدمشق
١٤	بنو إسرائيل في القرآن		محمد سيد طنطاوي

رقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	مكان وتاريخ الطبعة.
١٥	تاريخ القرآن	محمد طاهر الخطاط	مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة
١٦	تاريخ القرآن	عبد الصبور شاهين	ط. دار الكتاب العربي بالقاهو
١٧	التبيان في علوم القرآن	محمد علي الصابوني	دار الارشاد ـــ بيروت
١٨	التبيان في مباحث من علوم القرآن	عبد الوهاب غزلان	ط. دار التأليف ٣٨٤ هـ ١٩٦٥ م بالقاهرة
١٩	تحصيل نظائر القرآن	الترمذي الحكيم	ط. مطبعة الاستقامة ١٣٩٠هـ ١٩٧٠ م بالقاهرة.
٢٠	ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان	الصنعاني	ط. المهاه ـــ بالقاهرة.
٢١	التصوير الفني في القرآن	سيد قطب	ط. ١٣٨٦ ٥.
٢٢	التفسير الحديث	محمد عزت دروزه	عيسى البابي الحلبي بالقاهرة
٢٣	تفسير روائع البيان	محمد علي الصابوني	دار القلم ـــ بيروت
٢٤	التفسير والمفسرون	محمد حسين الذهبي	ط.توفيق عفيفي بالقاهرة
٢٥	تفسير القرآن العظيم	ابن كثير	ط. المكتبة التجارية الكبرى بالقاهـــرة.
٢٦	تفسير المنار	محمد رشيد رضا	ط. حجازي بالقاهرة.
٢٧	تفسير النسفي	النسفي	ط. المطبعة الأميرية بالقاهرة.
٢٨	الاتقان في علوم القرآن	السيـــــوطي	ط. المشهد الحسيني بالقاهرة.
٢٩	تنزيه القرآن عن المطعن	القاضي عبد الجبار	ط. دار النهضة الحديثة بيروت .
٣٠	تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان	عبد الرحمن بن ناصر السعـــــدي.	ط. السلفيـــــة.
٣١	جامع البيان في تفسير القرآن	محمد بن جرير الطبري	ط. دار المعارف بالقاهرة.
٣٢	الجامع لأحكام القرآن	القرطبي	ط. دار الكتب الوطنية بالقاهرة
٣٣	الدر المنثور في التفسير بالمأثور	السيـــــوطي	ط. طهران ١٣٧٧ هـ
٣٤	دراسات موضوعية في القرآن	عبد الغني الراجحي	ط. المعرفة.

رقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	مكان وتاريخ الطبعة.
٣٥	دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب	محمد الأمين الشنقيطي	ط. الرياض ١٣٧٥هـ.
٣٦	روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني	الألوسي	ط. المنيرية بالقاهرة.
٣٧	طبقات المفسرين	الـــــداودي	ط. الاستقلال الكبرى بالقاهرة.
٣٨	الظاهرة القرآنية	مالك بن نـــبي	دار الكتب الحديثة.
٣٩	العقيدة في القرآن	محمد المبارك	دار الفكر للطباعة والنشر.بيروت
٤٠	على هامش التفسير	عبد القادر المغربي	ط.النموذجية بالقاهرة.
٤١	العلوم الطبيعية في القرآن	يوسف مروة	ط. الوفاء ــ بيروت.
٤٢	غريب القرآن	السجستاني	ط. محمد علي صبيح بالقاهرة.
٤٣	فتح القدير الجامع بين فني الدراية والتفسير	الشوكاني	ط. مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة.
٤٤	الفتوحات الالهية	سليمان الجمل	ط.عيسى البابي الحلبي بالقاهرة
٤٥	في ظلال القرآن	سيد قطب	دار العربي ــ بيروت.
٤٦	الفلسفة القرآنية	عباس محمود العقاد	دار الهلال بالقاهرة.
٤٧	القرآن والفلسفة	محمد يوسف موسى	دار المعارف بمصر ١٩٦٦م
٤٨	القرآن العظيم : هدايته وإعجازه	محمد الصادق عرجون	دار الاتحاد العربي للطباعة ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م.
٤٩	القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة	محمد أحمد خلف الله	مكتبة الانجلو بالقاهرة.
٥٠	قصص القرآن	جاد المولى محمد أبو الفضل إبراهيم	مطبعة الاستقامة بالقاهرة
٥١	الكشـــــاف	الــزمخشري	ط.مصطفى البابي الحلبي. القاهرة.
٥٢	كما تحدث القرآن	خالد محمد خالد	مطابع البلاغ بالقاهرة.
٥٣	لفتات علمية من القرآن	يعقوب يوسف	الدار السعودية للنشر بجدة.
٥٤	مباحث في علوم القرآن	مناع القطان	منشورات دار العصر الحديث.
٥٥	مدخل إلى القرآن الكريم	محمد عبد الله دراز	دار القلم ــ بيروت.

رقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	مكان وتاريخ الطبعة
٥٦	مسائل الرازي وأجوبتها	الـــازي	ط.مصطفى البابي الحلبي القاهرة.
٥٧	المصطلحات الأربعة في القـــرآن	أبو الأعلى المودودي	ط.الدار الكويتية للطباعة. والنشر.
٥٨	معجم ألفاظ القرآن	حامد عبد القادر	ط.الأميرية بالقاهرة ١٩٥٣م.
٥٩	المعجزة الكبرى : القرآن	محمد أبو زهرة	ط.دار الفكر العربي بالقاهرة
٦٠	مفاتي الغيب	فخر الدين الرازي	ط. البهية المصرية بالقاهرة
٦١	المفردات في غيب القرآن	الراغب الأصفهاني	ط.مصطفى البابي الحلبي القاهرة.
٦٢	مقال في الإنسان دراسة قرآنية	بنت الشاطىء (عائشة عبد الرحمن)	ط. دار المعارف بالقاهرة.
٦٣	مقدمتان في علوم القرآن	الصـــــاوي	ط. دار الصاوي بالقاهرة.
٦٤	من روح القرآن	سعيد البوطي	ط. مكتبة الفارابي ــ دمشق
٦٥	مناظرات القرآن ومحاوراته	منير القاضي	مجلة المجمع العربي العراقي. عام ١٣٨٠ه ــ المجلد الثاني.
٦٦	مناهل العرفان في علوم القرآن	عبد العظيم الزرقاني	ط. عيسى البابي الحلبي بالقاهرة
٦٧	منهج الزمخشري فى تفسير القرآن	مصطفى الصاوي	دار المعارف ــ القاهرة.
٦٨	منهج الفرقان في علوم	محمد علي سلامة	ط.شبرا ــ ١٩٣٧م بالقاهرة.
٦٩	النبأ العظيم ج ا	محمد عبد الله دراز	ط.السعادة بالقاهرة عام١٣٨٩هـ
٧٠	النبوة والأنبياء في ضوء القرآن	أبو الحسن الندوي	ط. الاستقلال الكبرى بمصر.
٧١	النسخ في القرآن	مصطفى زيد	ط. المدني بالقاهرة.
٧٢	نيل المرام في تفسير آيات الأحكام	صديق حسن خان القنوجي بالبخارى	ط. المدني بالقاهرة.

رقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	مكان وتاريخ الطبعة
٧٣	الوحدة الموضوعية في القرآن	محمد محمود حجازي	ط. المدني بالقاهرة.
٧٤	اليهود في القرآن	عفيف عبد الفتاح طبارة	ط. دار الكتب ــ بيروت

ثانياً : كتب الحديث ورجاله :

رقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	مكان وتاريخ الطبعة
٧٥	تهذيب التهذيب	الحافظ ابن حجر العقلاني	طبعة مصورة عن دائرة المعارف النظامية في الهندسة ١٣٢٦هـ
٧٦	سنن ابن ماجة	الحافظ ابن ماجه	ط. عيسى البابي الحلبي بالقاهرة (١٣٧٢ ه ــ١٩٥٢م).
٧٧	سنن الترمذي	الحافظ أبو عيسى الترمذي	مطبعة الفجالة الجديدة بالقاهرة.
٧٨	سنن النسائي	الحافظ أبو عبد الرحمن النسائي	ط. مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة ١٣٨٣هـ ــ ١٩٦٤م
٧٩	صحيح البخاري	محمد بن اسماعيل البخاري	مكتب الجمهورية العربية القاهرة.
٨٠	صحيح مسلم	أبو الحسين مسلم ابن الحجاج النيسابوري	ط. محمد علي صبيح وأولاده بالقاهرة
٨١	فتح الباري شرح صحيح البخري	الحافظ ابن حجر العسقلاني	ط. المكتبة السلفية بالقاهرة ١٣٨٠هـ.
٨٢	فيض القدير شرح الجامع الصغير	محمد عبد الرؤف المناوي	ط. مصطفى محمد بالقاهرة ١٣٥٦ هـ ــ ١٩٣٨ م.
٨٣	كشف الخفاء ومزيل الالتباس فيما يدورمن الأحاديث على ألسنة الناس	العجلوني	ط. الفنون بحلب
٨٤	مختصر سنن أبي داود ومعه معالم السنن وتهذيبها	المختصر للحافظ المنذري والمعالم للخطابي والتهذيب لابن قيم الجوزيــة	ط. مطبعة أنصار السنة المحمدية بالقاهرة سنة ١٩٤٧م.

رقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	مكان وتاريخ الطبعة
٨٥	مسند أحمد بن حنبل	أحمد بن حنبل الشيباني	طبعة مصورة في المكتب الإسلامي ــ بيروت.
٨٦	النهاية في غريب الحديث والأثر.	ابن الأثير	ط. عيسى البابي الحلبي.
٨٧	هداية الباري في ترتيب أحاديث البخاري	الطهطاوي	الطبعة الثانية في بيروت.

ثالثاً : العقيدة والفلسفة والمنطق :

رقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	مكان وتاريخ الطبعة
٨٨	ابن رشد آخر فلاسفة العرب	سميح الزين	مؤسسة قليقة للطباعة
٨٩	إسرائيل في التوراة والانجيل	مراد كامل	دار المعرفة بالقاهرة
٩٠	الإسلام والعقل	د. عبد الحليم محمود	مطبعة مخيمر بالقاهرة
٩١	الأصنام	ابن الكـلبي	دار الكتب الوطنية بالقاهرة سنة ١٩١٤ م.
٩٢	الاعتصام	الشاطبي	مطبعة شبرا بالقاهرة سنة ١٩٣٧م.
٩٣	اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم	شيخ الإسلام ابن تيمية	مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠ م
٩٤	تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم	محمد عزت دروزة	المكتبة العصرية بيروت
٩٥	تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين	الراغب الأصفهاني	القاهرة ١٩٦١م ،ضمن سلسلة الثقافة الإسلامية التي كان يصدرها محمد عبد الله السمان.
٩٦	التفكير فريضة اسلامية	عباس محمود العقاد	طبع دار الهلال بالقاهرة
٩٧	التفكير الفلسفي في الإسلام	د. عبد الحليم محمود	دار النصر للطباعة بالقاهرة
٩٨	تهافت التهافت	ابن رشـــد	دار المعارف بالقاهرة
٩٩	تهاف الفلاسفة	الإمام الغزالي	دار المعارف بالقاهرة

رقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	مكان وتاريخ الطبعة
١٠٠	درء تعارض العقل والنقل	شيخ الإسلام ابن تيمية	ط. دار الكتب الوطنية بالقاهرة ١٩٧١م .
١٠١	الرد على الجهمية والزنادقة	الإمام أحمد بن حنبل	مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٦م ضمن رسائل بعنوان : شذرات البلاتين بالقاهرة
١٠٢	الرد على الدهريين	جمال الدين الافغاني	مطبعة محمد مطر بمصر
١٠٣	الرد على المنطقيين	شيخ الإسلام ابن تيمية	المطبعة القيمة ١٣٦٨هـ ١٩٤٩ م بمباي بالهند
١٠٤	روح الدين الإلامي	عفيف عبد الفتاح طباره	ببيروت
١٠٥	شرح العقيدة الطحاوية	علي بن علي أبي العز الحنفي	منشورات المكتب الاسلامي بدمشق
١٠٦	الشفاء (كتاب الجدل)	الرئيس ابن سينا	المطابع الاميرية ١٣٨٥هـ القاهرة.
١٠٧	صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام	السيوطي	مطبعة السعادة بالقاهرة
١٠٨	الفصل في الملل والأهواء والنحل	أبو محمد، ابن حزم	مطبعة المثنى ـ بغداد
١٠٩	قصة الإيمان	نديم الجسر	مطابع المكتب الإسلامي ـ بيروت.
١١٠	لمعة الإعتقاد	ابن قدامة الحنبلي	ط. المنيرية بالقاهرة
١١١	محاضرات في مقارنة الأديان	محمد أبو زهرة	مطبة يوسف
١١٢	محمد رسول الله هكذا بشرت به الأناجيل	بشرى زخاري ميخائيل	ط. مخيمر بالقاهرة
١١٣	المعجزات المحمدية	وليد الأعظمي	مطابع دار القلم ـ بيروت
١١٤	المغني في أبواب التوحيد والعدل	القاضي عبد الجبار	ط. مخيمر بالقاهرة
١١٥	الملل والنحل	الشهرستاني	ط.مصطفى البابي الحلبي القاهرة.

رقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	مكان وتاريخ الطبعة
١١٦	مناهج البحث عند مفكري الإسلام	علي سامي النشار	دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٦٧م.
١١٧	منهاج السنة النبوية	شيخ الإسلام ابن تيمية	مكتبة الرياض الحديثة
١١٨	المنطق الحديث ومناهج البحث	محمود قاسم	دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٧٠م.
١١٩	المنقذ من الضلال	الإمام الغزالي/تحقيق د. عبد الحليم محمود	دار النصر للطباعة بالقاهرة
١٢٠	موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول	شيخ الإسلام ابن تيمية	ط. السنة المحمدية بالقاهرة سنة ١٣٧٠هـ.
١٢١	النبوة والانبياء	محمد علي الصابوني	ط. دار الارشاد ـــ بيروت
١٢٢	النزعة العقلية في فلسفة ابن رشـــد	محمد عاطف العراقي	دار المعارف بالقاهرة

رابعاً : الفقه الإسلامي وأصولة :

رقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	مكان وتاريخ الطبعة
١٢٣	الأحكام في أصول الأحكام	الآمـــــدي	مطبعة مؤسسة النور بالقاهرة
١٢٤	إرشاد الفحول	الشوكـــــاني	ط.مصطفى البابي الحلبي القاهرة.
١٢٥	إعلام الموقعين عن رب العالمين	ابن قيم الجوزية	مكتبة الكليات الازهرية القاهرة.
١٢٦	الفقيه والمتفقه	الخطيب البغدادي	مطابع القصيم بالرياض سنة ١٣٧٩هـ.
١٢٧	الرسالة	الإمام الشافعي	مصطفى البابي الحلبي ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م بالقاهرة
١٢٨	رفع الملام عن الأئمة الأعلام	شيخ الإسلام ابن تيمية	المكتبة العلمية بالمدينة المنورة

رقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	مكان وتاريخ الطبعة
١٢٩	مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية	شيخ الإسلام ابن تيمية	ط. الرياض سنة ١٣٨١هـ.
١٣٠	المستصفى	الإمام الغزالي	ط. المطبعة الاميرية بالقاهرة
١٣١	الموافقات	الإمام الشاطبي	

خامساً : في الجدل وتاريخه وآدابه :

رقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	مكان وتاريخ الطبعة
١٣٢	تاريخ الجدل	محمد أبو زهرة	مطبعة العلوم بالقاهرة
١٣٣	تاريخ الجدل والمناظرة	أحمد زكي صفوت	مطبعة العلوم بالقاهرة ١٣٥٢هـ.
١٣٤	جامع بيان العلم وفضله	الحافظ ابن عبد البر	مطبعة العاصمة بالقاهرة
١٣٥	رسالة الآداب في البحث والمناظرة	محمد محيي الدين عبد الحميد	ط.السعادة ١٣٧٨هـ ١٩٥٨م بالقاهرة
١٣٦	كتاب الجدل على طريقة الفقهاء	أبي الوفاء بن عقيل الحنبلي	ط. المعهد العربي الفرنسي بدمشق

سادساً : في اللغة والنحو والأدب :

رقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	مكان وتاريخ الطبعة
١٣٧	أساس البلاغة	الزمخشري	دار الشعب بالقاهرة ١٩٦٠م.
١٣٨	الإمتاع والمؤانسة	أبو حيان التوحيدي	مكتبة الحياة ــ بيروت
١٣٩	تاج العروس	الزبيدي	ط. الخيرية بالقاهرة ١٣٠٦هـ
١٤٠	التعريفات	الجرجاني	مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة
١٤١	ديوان ابن المعتز	عبد الله بن المعتز العباسي	بيروت ١٩٦٩م
١٤٢	ديوان الشافعي	جمع عبد العزيز سيد الأهل	مطابع شركة الاعلانات الشرقية بالقاهرة
١٤٣	ديوان صفي الدين الحلي	صفي الدين الحلي	المطبعة العلمية بالنجف ١٩٥٦م
١٤٤	الحيوان	الجاحظ	ط.التقدم بالقاهرة ١٣٢٤هـ ١٩٠٦م.

رقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	مكان وتاريخ الطبعة
١٤٥	شرح ديوان زهير بن أبي سلمى	الامام ثعلب	الدار القومية بالقاهرة ١٣٨٤هـ ١٩٦٤ م.
١٤٦	شرح المعلقات العشر	الشنقيطي	دار الاندلس ــ بيروت
١٤٧	الشوقيات	أحمد شوقي	مطبعة الاستقامة بالقاهرة
١٤٨	الفروق اللغوية	أبي هلال العسكري	ط. القدس بالقاهرة
١٤٩	الكليات	أبو البقاء العكبري	ط. بولاق بالقاهرة ١٢٨١هـ.
١٥٠	لسان العرب	ابن منظور	مصورة عن طبعة بولاق بالقاهرة
١٥١	محيط المحيط	بطرس البستاني	مكتبة البيان بيروت
١٥٢	المصباح المير	الفيومي	ط.الاميرية بالقاهرة ١٩٢٦م
١٥٣	معجم مقياس اللغة	ابن فارس	ط. عيسى البابي الحلبي القاهرة.
١٥٤	مغنى اللبيب	ابن هشام الانصارى	مطبعة المدني بالقاهرة
١٥٥	نقد النثر	قدامة بن جعفر	ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٣٨م

سابعاً : في السيرة والعلوم الإسلامية الأخرى :

رقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	مكان وتاريخ الطبعة
١٥٦	الإسلام وحاجة الناس إليه	محمد يوسف موسى	دار الكتاب العربي بالقاهرة
١٥٧	أقسام اللذات	فخر الدين الرازي	المكتب الإسلامي ــ بيروت
١٥٨	سيرة ابن هشام	ابن هشام	مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة سنة ١٣٧٥هـ.
١٥٩	السيرة النبوية	ابن كثير	عيسى البابي الحلبي بالقاهرة سنة ١٣٨٤هـ.
١٦٠	الفوائد	ابن قيم الجوزية	
١٦١	مختصر سيرة الرسول	محمد بن عبد الوهاب	المطبعة السلفية بالقاهرة١٣٧٩هـ

فهرس الاعلام



حرف الألف

حرف الباء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

المؤلف في سطور

- ولد سنة ١٣٥٤هـ في منطقة رجال ألمع من المملكة العربية السعودية.
- التحق بالخدمة العسكرية بمنطقة جيزان عام ١٣٧١هـ.
- كان يواصل دراسته عند بعض المشايخ بجيزان في اوقات فراغه من عمله ثم استقال من الجندية عام ١٣٧٦هـ.
- التحق بمعهد شقراء العلمي عام ١٣٧٧هـ حتى تخرج ثم التحق بكلية العلوم الشرعية بالرياض.
- انتدب للتدريس بمعهد أبها العلمي قبل تخرجه من الكلية وذلك في عام ١٣٨٣هـ.
- تولى إدارة معهد نجران العلمي من عام ١٣٨٥هـ حتى ١٣٩١هـ.
- حصل على الشهادة الجامعية(الليسانس) من كلية الشريعة بالرياض عام ١٣٨٦هـ.
- انتسب للدراسات العليا بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر وحصل على الماجستير في التفسير وعلوم القرآن عام ١٣٨٩هـ.
- انتقل إلى كلية الشريعة مدرساً عام ١٣٩١هـ ـــ ١٣٩٢هـ.
- حصل على شهادة الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن من جامعة الأزهر وموضوع رسالته (مناهج الجدل في القرآن الكريم).
- عمل عميداً لشئون المكتبات بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

* صدرت له المؤلفات التالية :

١ ــ الالمعيات «ديوان شعر».
٢ ــ مع المفسرين والمستشرقين في زواج النبي صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش.
٣ ــ تحقيق(استخراج الجدال من القرآن الكريم).
لعبد الرحمن بن نجم المعروف بابن الحنبلي
٤ ــ مناهج الجدل في القرآن الكريم.
٥ ــ على درب الجهاد.
٦ ــ رحلة الثلاثين عاماً.
٧ ــ من نفحات الصبا ديوان شعر.

* من مؤلفاته التي لم تطبع بعد :

١ ــ مدخل الأصول الفقهية.
٢ ــ أصحاب الاخدود.
٣ ــ مدارس التفسير في عهد الصحابة والتابعين.

* له اهتمامات بالدراسات الإسلامية والأدبية.
* ساهم في كثير من المؤتمرات داخل المملكة وخارجها.
* ألقي عدداً من المحاضرات والأمسيات الشعرية، ومنها أمسيات الاسبوع الثقافي السعودي في المغرب عام ١٣٩٧هـ.

فهـرس المواضيـع